Seddik Hadj Ahmed

الصدّيق حاج أحمد

كاماراد

رفيق الحيف والضياع

رواية



كامارادْ

رفيق الحيف والضياع

رقم الإيداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2015/12 /5825

813.9
الزيواني، الصديق حاج أحمد
كاماراد – رفيق الحيف والضياع – الصديق حاج احمد الزيواني - عمان: دار فضاءات، 2015
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-802-5



الطبعة الأولى: 2016

كاماراد – الصديق حاج احمد الزيواني – الجزائر
دار فضاءات للنشر والتوزيع - المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaat.com

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

الصدّيق حاج أحمد

كامارادْ

رفيق الحيف والضياع

رواية



المستقبـــلْ مســـدودْ..

مــــا أبْقى فــالدُّوقْ حتّى بَنَّة..

الحـوتْ ولاّ الـدودْ..!!

نتفة أخيرة من أغنية الحَرَّاGــة

لمغني الرّاي الشهير الشاب خالد

رسالة مهاجر إفريقي غريق
تناقلتها وسائط التواصل الاجتماعي..

"أنا مترحٌ جدّا يا أمي؛ لأن القارب غرق بنا عرض البحر.. من يدري؟ ربما أكون اللّحظة في جوف الحوت!! لم أوفّق لبئْسَ بَختي.. فيما منّيت النّفس به، حيث الجنّة هنالك على ضفّة الألدورادو.. أعرف أني تركتُ خلف ظهري، ترسانة ثقيلة من الدّيون على كاهل الأسرة.. تقوّيتُ بعكازها على ابتزاز سماسرة تهريب البشر في برّ المَوْماة المُخيف وبحر المتوسّط المُريع.. رَجاء إرسال هذه الأخيرة، بعد غنيمتي بالفردوس المبين.

استرحمكِ يا أمي لا تجزعي.. إن لم يصل رفاتي وأُلحد جنب طَمر أبي وجدّي بمقبرة القرية مع أختي الكبرى، التي ماتت بوباء الكوليرا وأخي الأوسط الذي هلكَ مؤخرا بالإيبولا!!

أنا متحسّر جدّا يا أمي؛ لأن العَيْلَة والحروب الأهلية والأوبئة.. دبّروا أمرهم بليل.. شكّلوا حلفا عليّ!! حرّضوني والله.. ألمْ تعترفي لي ليلة الوداع الأخير معكِ، أنّهم جعلوكِ تقتنعينَ أخيرا؟ هذا قَدرنا.. كان لا بدّ عليّ أن أُقامر كغيري من الرفاق الأفارقة، اِستجداء جنّة الخُلد.. تحت شعار يافطة كبيرة، كُتب عليها (من أجل حياة أفضل..)!!

أحلامي- كما تعلمينَ- كانت بسيطة.. لا تعدو أن تكون؛ سَداد الدّيون أولا، بناء بيت متواضع.. مُسقّف بالزنك بدل أعواد شجر العِضاه (الطَّلح والأكاسيا)، شراء درّاجة نارية (YAMAHA) أجد في ركوبها، وصولا سريعا للمدينة المجاورة، اِبتِغاء فتح بوتيكة صغيرة بسوقها الشعبي.

اعتذرُ لكَ أخي الصغير؛ لأني منّيتكَ بشراء كرة جلدية وقميص رياضي أزرق لفريق (Chelsea) الإنجليزي، يحمل رقم (11) لـ(اللاّعب الإيـVـــــواري (ديدييه دْروGـــــبا).

أرجوكِ يا أختي الصغيرة أن تسامحيني أيضا؛ لأني لم أتمكّن من الوفاء بوعدي لكِ في شراء دمية وأخذكِ للتفرّج على عرائس (الـGـــراGIـــــوز) بحديقة التسلية في المدينة.

عفوا يا وطن!! كلانا ميّت.. فقط الأسباب متعددة.. أنا غريق وأنتَ مَنْحور بمُدْيَة حكّامكَ العَسكر.. الذين تشيّخوا في إخراج أفلام الانقلاب!!

شكرا بحر الرّوم (المتوسّط) على حسن الضيافة.. زعم الدّجالون أنكَ أبيضُ.. توهّم الأفّاكون أن صنويكَ الأسود والأحمر مُقامهما بالشّرق هنالك!! لعمري إنكَ قَمينٌ بهذين الوصفين الأخيرين صراحة..

أخيرا..

حللتَ أهلا يا غرق..

نزلتِ سهلا يا بَقْبَقَة..

بَقْ.. بَقْ.. بَقْ....

وداعا أيها الجنوب البائس.."

مصدرية المعلومة:

عُثر على هذه الرّسالة في قارورة مشمّعة بسدّاد فليني قُبالة شواطئ جزيرة (لامبيدوزا) الإيطالية، كان الغريق قد حَبّرها وشمّعها سلفا. فإن نجا.. ذاك المَرجو.. وإنْ حرن البحر وجاش الموج.. كما المتوقّع.. طبعَ عليها قُبلة الوداع وألقى بها مع آخر لحظة وعي بالحياة.. بعد نفاد الجهد واستفراغ الطاقة من النّجاة..

Gــيثار الصّدفة..

(1)

في ذلك الزوال اللاّزوردي، من الأيام الأولى للدورة الخامسة والستين لمهرجان (كانْ) السينمائي- وقع ذلك تحديدا في (18/ 05/ 2012)- بعروس الضّفة الشمالية للمتوسّط.. حينما توقّفت سيّارة طويلة بيضاء كقطار (الماGـــــليــV).. معتّمة الزجاج، نوع (Limousine)، أمام البساط الأحمر لشارع (لاكروازيتْ)[1] الشهير.. هُرِعَ خلق غفير من الصحفيين وأصحاب الكاميرات نحو السيّارة الفارهة.. الجميع كان في انتظار المُخرج السينمائي الفرنسي (جاكْ بلوزْ)[2] المثير للجدل في الوسط السينمائي، بسبب تمرّده على طقوس النجوم في ألبستهم الكلاسيكية السوداء والبيضاء وكذا ربطات عنقهم المفرّشة خلال المهرجانات.. فضلا عن تصريحاته المشاكسة، التي تجد فيها الصحافة الصفراء مادة دسمة دائما.. حتى وصفه أحد صحافييها، أنه يشبه في حالاته الانفعالية، مدرب فريق (أتلتيكو مدريد) الأرجنتيني (ديْـGـــــو سيميوني)!!

بعد لحظات مدروسة سلفا.. فُتح الباب الخلفي للسيّارة بوقار، ازداد تزاحم الفضوليين وأصحاب العدسات.. نزل من صالة السيّارة، رجل ستيني، (عبدُ الله ضيوفْ) القامة، أشقر مُشرب بحُمرة كتلك الحُمرة التي تطفح وجوه أَغلب السلالة الكارولنجية[3] الباريسية، شواربه طويلة ومبرومة، حتى عادت كقرني ثور.. رسم دخّان الغليون عليها اصفرارا

1-La Croisette

2- يعتبر المخرج الفرنسي (Jack Blouz)، امتدادا لما عُرف في فرنسا بحركة الموجة الجديدة (La Nouvelle Vague).

3- يرجع نسبهم إلى كارل مارتل وشارلمان مؤسس إمبراطورية الفرنجة.

خفيفا عند جعبتي الأنف، يضع على عينيه في زهو، نظّارات شمسية ماركة أصيلة (Ray Ban)، يلبس جاكيتا جلديا إيطاليا أسود خفيفا، مع كشكول كتّاني به ألوان حالمة، تليق بذوق فنان.. سروال جينز، حذاء إيطالي بُني رفيع، تعتمر رأسه قبعة خفيفة، تظهر تحتها ضفائر شعره على كتفه، يوصف عند أغلب من حاوروه، إنه شخص هادئ إلا حين الغضب وتلك هي المشكلة..!!

ألقى مَدعوّ (كانْ) نظرة فاحصة على صوَر النجوم السينمائيين، بملصقات هذه الدورة، أمام القاعة الكبرى للمهرجان بذلك الشارع الشهير.. التي تتقدّمها صورة أسطورة السينما الأمريكية النجمة المنتحرة (مارْلينْ مونْرو)، حيث كرّمتها اللّجنة المنظّمة لهذه السنة، بوضع صورتها على الملصقة الإشهارية للمهرجان. بدا للصحفيين الفضوليين- لعلّهم كانوا ينتظرون ذلك بشراهة- ما حزّ في خاطره، من تجاهل اللّجنة المنظّمة لشخصه الكريم.. في عدم إدراج صورته بين تلك الثلّة المصطفاة من أرباب التمثيل وأساطين الإخراج..

صحفي مشهور بإخراج لقطات السخرية!! في ركن (كواليس النجوم) بالمجلّة الفرنسية المتخصصة (Cahiers du Cinéma)[4] حضر المشهد المذكور.. وصف حالة وجه المَدموغ في عددها الخاص بالمهرجان (أنه أصبح لحظتها أحمر كطماطم الكرنفالات الإسبانية!!) كان ظاهرا للجميع تبرّمه من هذا التعامي المقصود، لحسن حظّه أنقذته نظاراته الشمسية من إحراجات كثيرة؛ لكنّه رغم هذا، لم يسلم من الارتباك العام، الذي ظلّ عنوانا عريضا على هيئته في هذا الزوال المنحوس..

في مغبّة هذه اللّقطة المُحرِجة في إخراجها حقا!! سرَقَ المَسعور نفسه بلباقة.. نحو بوّابة فندق (ماجيستيكْ باريزْ)، اختزلَ إجراءات الاستقبال

4- دفاتر السينما.

والصعود في السلّم الكهربائي بسرعة جنونية.. دخل غرفته بالطّابَق الخامس المُطل على الشارع المذكور.. فتح حقيبته بزماع شديد، أخرج علبة الدّواء، تقدّم نحو الثلاّجة، أخذ كأس ماء، شرب معه قرص مسكّن من العقار الذي وصفه له طبيبه الخاص (إدْمونْدْ) لمثل هذه الحالات. نزع جاكيته، رمى بنفسه على السرير.. كانطلاقة خلفية لغطّاس ماهر في رياضة السباحة على الظّهر.

شعر المَمسوس بالدُّوار وهو ينظر في السقف المزركش للغرفة.. ظهر له أن أحلامه قد تبخّرت أو كادت.. كان رهانه كبيرا على فيلمه الأخير (مغارة الصّابوق)[5]، الذي يشارك به في هذه الدورة للمهرجان، لم يكن مخطئا في الحقيقة، عندما منّى نفسه بالسعفة الذهبية لهذه الطبعة.. معظم النقّاد السينمائيين أشادوا بعجائبية فيلمه الأسطوري.. كما لقيَ استحسانا لا بأس به من طرف الجمهور الباريسي وما أدراك.. ما جعله يطمح؛ لأن يفتك جائزة من استحقاقات المهرجان في هذه السنة.

توهّم المَخبول أشياء كثيرة.. زاد من متاهته فيها، صداقته الحميمية مع إبليس!! فقد رجعتْ به الذاكرة لسنة **2001**، عندما فاز المُخرج الإيطالي البديع (ناني موريتي) بالسعفة الذهبية للمهرجان عن طريق فيلمه (غرفة الابن)، حينها أطلق لسانه في هذا الأخير بمنكر كبير عبر الصحافة الصفراء.. في لحظات الغضب التي كانت تعتوره، ندم كثيرا- كما في كلّ المرّات – عن حيفه في حقّ صاحب السعفة الذهبية للسنة المذكورة.

لقطرانَ حظّ المُخرج الأهْوَج.. هذا الشّخص – ناني موريتي – اليوم هو رئيس لجنة تحكيم الأفلام الطويلة لهذه النسخة مع عضوية خصمه اللّدود مصمّم الأزياء الشهير، مواطنه الفرنسي (جانْ بولْ **G**ـــــوتييه)، هذا الأخير

5- قصّة أسطورية للكاتب الجزائري عبد الله كروم، تدور أحداث الفيلم حول شخصية أسطورية تُسمّى (الصّابوق) بأحد قصور (تَواتْ) بالصحراء الجزائرية.

لم يسلم من لسانه السليط كذلك.. لأجل ذلك- هكذا خطر بباله- كان يرى حظوظه ضئيلة للظفر بالسعفة الذهبية خلال هذه المرّة وإن كانت في الحقيقة؛ هي أوهام تلبّسته وتغامزتْ مع الشيطان عليه.. جراء عدم وجود صورته على تلك اللاّفتة.. التي كانت أول ما صعقه وأحدث خبالا في عقله!!

مرّت الأيام التسعة المتبقية من المهرجان على الأهْبَل رتيبة، كمشية الإبل خلال صعودها عروق الرّمل.. حتى جاء اليوم الأخير، مع نهايته أعلن رئيس لجنة التحكيم المذكور.. فوز المُخرج النّمساوي (ميشائيل هانيكه) عن طريق فيلمه (حُب) بالسعفة الذّهبية لهذا العام، ابتدع بعدها السينمائي الخائب، ذريعة مضحكة في ذلك.. مفادها أن الهيئة العامة للمهرجان، كان عليها أن تراعي استحداث بندٍ جديدٍ، بمنح الجائزة للمُكرَّم، مرّة واحدة مدى الحياة؛ كون النّمساوي المذكور، قد افتكّها بجدارة- كما في هذه الدورة- سنة **2009**.

بيد أن هذا الزعم قد تلاشى عند صاحبنا.. عندما اتّفقت كلمة أغلب الحضور.. على أحقّية المُخرج الفائز ونزاهة المُخرج الرئيس.. وإن كان من بين الأصوات التي باركت هذه الشهادة، ذهب إلى القول، من إن فيلمه (مغارة الصّابوق) يستحقّ التقدير على أيّة حال.. وقد أبدع فيه عن طريق التجريب، الذي اكتسبه من خلفيته الإبستمولوجية لحركة (الموجة الجديدة) باعتراف رئيس لجنة التحكيم والفائز بالسعفة.. في حوار علنيّ لهما بأشهر القنوات الفرنسية والأمريكية المختصّة، أثناء حديثهما عن الأفلام التي ترشّحت لهذه الدورة عموما.

أمام هذه الخيبة غير المتوقّعة.. قرّر (جاكْ) الثّأر لنفسه، بفيلم خلاّق يشارك به في الدورات القادمة للمهرجان، عساه بذلك ينسى هذه الانكسارات المُنكرة.. أول ما فكّر فيه المُخرج المُقصى (ثيمة فيلمه..) كان أمام خيارات عدّة، تستأثر اهتمامه كمُخرج سينمائي محترف، يضع نقطة بداية فيلمه الجديد، عند نقطة النهاية من فيلمه الأخير؛ غير أن موضوع الهجرة

السرية للأفارقة وما شاهده من تراجيديا إنسانية لهؤلاء البسطاء.. عبر الأفلام الوثائقية، التي تابعها بالقنوات الفرنسية (TV5) و(TF1) و(ARTE)، كانت تغازله دائما.. لإخراج فيلم سينمائي، يحاكي فيه هذه المأساة الكونية..

بيد أن مشاهدته لتلك الأشرطة التسجيلية وما أطّلع عليه في الصحف المهتمة بقضية الهجرة غير الشرعية؛ لا يعدو أن يكون تقارير صحفية، تختلف عن نظرته كسينمائي، له رؤيته الفلسفية لموضوع هجرة الحَرّاGــة[6].. (ما يجعل ذهابه هناك أمرا لائقا..) هكذا حدّث نفسه، سيمنحه ذلك، أخذ فكرة عامة عن خلفية الأسباب، التي تركت هؤلاء الشباب، يقامرون بحياتهم في الصحراء المُرعبة ويغامرون بأرواحهم في البحار المُرعدة!!

كان الراعي الصّحيّ لـ(بلوزْ)، قد رتّب له مواعيد علاجية مسبقة قبل المهرجان، جراء مرضه الأخير.. وبحسب ما ذكر له مداويه، إن التحاليل أظهرت وجوب إجراء عملية جراحية، ما تركه يؤجل حلمه في ترتيبات فيلمه الجديد، حتى بعد إجراء العملية.

خلال فترة العلاج، التي دامت ستّة أشهر كاملة، اغتنم المُداوى الفرصة.. بحث بوسائط (ميديا) المعرفة عن أفقر دولة إفريقية، تصلح لأن تكون أرضية لبطله. حفر كثيرا.. في كلّ مرّة كانت سعادة دولة النيجر هي المرشّحة بامتياز.. لربما كانت دهشته أكبر مما توقّع.. عندما وجد هذه الأخيرة، لا تُصنّف كأفقر دولة على مستوى إفريقيا فحسب.. إنما على مستوى العالم!!!! سُرّ كثيرا لهذا الصيد.. ما جعله يستعجل حصص الشّفاء من مُطَبّبه.

مع نهاية فترة العلاج بتاريخ 30/ 11/ 2012، كان مرافقه الصّحيّ.. قد نصحه كذلك، بإضافة فترة نقاهة لمدّة شهر كامل، لا سيما عندما أبلغه نيّة

6- مصطلح جزائري، يطلق على المهاجرين غير الشرعيين.

سفره البعيد للنيجر.. أكمل فترة المأذونية خلال شهر ديسمبر ومع نهايته وختام أعياد الميلاد.. حجز (جاكْ بلوزْ) تذكرة سفره لـ(نيامي) عاصمة النيجر، بواسطة شركة الطيران (AIR FRANCE) بتاريخ 02/ 01/ 2013.

في ذلك الصباح الباريسي الماطر البارد.. كان السينمائي الفرنسي (جاكْ) بمطار (شارلْ ديــGــــولْ) الدولي بـ (باريس)، يلبس جاكيتا جلديا إيطاليا أسود، هذه المرّة شتائي.. الأمر ينسحب على الكشكول والقبعة بطبيعة الحال.. لحظتها كان يدخّن غليونه، الذي يحلو له دائما أن يضعه على الطرف الشِّمال لفمه، مائلا قليلا نحو الأسفل.. عندما أعلنت مذيعة الاستعلامات بالمطار، ضرورة تقدّم الركاب المتّجهين لمدينة (نيامي)، نحو صالة الركوب رقم (45)، نظر لساعته السويسرية النفيسة، كانت تشير إلى السابعة والنصف صباحا.

تكتّف هذا الأخير الحزام الجلدي الأسود لكميراه (صنف NikonD810) على كتفه الأيمن، امْتَسَحَ المقبض الفضي من غمد حقيبته الصغيرة الحمراء، أحدث ذلك النتَش صوتا رقيقا.. قبضه بيده الشِّمال، جرّ حقيبته، فيها بعض الأغراض الخفيفة.. مفكّرة مجلّدة، كتاب سوسيوتاريخي عن إفريقيا، نظّارة طبية للقراءة، مناديل ورقية، مجلة سينمائية، جهاز تسجيل رقمي صغير يُسمى (ديكـتـافـونْ) ماركة (Sony)، كذلك الذي يستعمله الصحفيون أثناء الاستجوابات الصحفية، علّه بهذا الأخير، إن واتته الفرصة وألفى مهاجرا نيجيريا بـ نيامي، ممّن وصل عتبة الجنّة وأخفق.. أو من فاز بحور العين.. فيغري أحدهما.. مع رغبته الجامحة لملاقاة النوع الأول، لتوفر عنصري الإثارة (الاحتياج والخيبة)، فيسرد له قصة رحلته بكل تفاصيلها وبالتالي يوظّف ذلك الجهاز للتسجيل وكتابة ما يمكن تدوينه في مفكرته، عساه يقدّم تلك التسجيلات والتقييدات لـ(سيناريست) محترف، بغرض الاشتغال عليهما لفيلمه الاستشرافي.

(في كلّ الحالات، لن أخسر شيئا من سفريتي إلى هنالك.. بل بالعكس، سأنعم بالتوغّل في ذهنية المجتمع الإفريقي عموما والنيجيري خصوصاً.. مع محاكاة طقوس هذا الأخير عن قرب، وهو أمر غاية في الأهمية بالنسبة لمشروعي..) قال في نفسه.. أما متاعه الثقيل، فقد أودعه أثناء تأكيد الحجز، قبل نصف الساعة.

اتّجه المُغرم بالفقر بعد إجراءات التصديق على الجواز صوب الصالة (**45**)، كان هناك عدد لابأس به من المسافرين، منهم الفرنسيون والصينيون والأفارقة طبعا، جلس على كرسي أحد المقاهي الداخلية للصالة، طلب قهوة خفيفة.. قام بفرائض الغليون وسننه المؤكدة.. أشعله بولاّعة ذهبية. إبّان استراحته كان يفكّر في أمور كثيرة من أمور هذه الرحلة.. قطعها سماعه لنفس الصوت الأنثوي من موظفة الاستعلامات، يدعو الركاب المتّجهين نحو مدينة (نيامي)- الرحلة رقم (**AF547**)- أن يتقدّموا نحو باب الركوب رقم (**16**).

أطفأ غليونه في المنفضة الفضية، لفّه مع طقوسه في مغلفة منمّقة، بعد ربطها بسيرٍ خاص أُفرِد لذلك الغرض.. نادى على النادل في تعجّل ظاهر، أعطاه ثمن استراحته، تركَ له بقية الصرف الحديدي من الورقة النقدية، كتقليد مدروج عند النجوم.. يحبّ دائما ألاّ يفوته.

بنفس الحركات الأولى تكتّف وجرّ متاعه الخفيف، فقط هذه المرّة حوّل حزام الكاميرا، لكتفه الشِّمال ومقبض الحقيبة ناحية يمينه، اتّجه نحو الباب المُذاع.. اصطفّ في الطابور، وقف أمامه خلال هذا الأخير، شاب إفريقي ثلاثيني، يظهر من ملامحه ومحفظته، أنه طالب جامعي.. سار الركاب باتّجاه الرواق الطويل، المفضي للطائرة، ولجها، جلس في المقصورة الأولى، المخصّصة لأصحاب الامتياز.. كانت شبه خالية؛ إلاّ منه ورجل أعمال فرنسي ستيني، عرف هويته خلال مكالمة هذا الأخير، مع ممثل شركته بـ(نيامي) أثناء سيرهما البطيء في الطابور وبروفيسورة فرنسية كهلة، تضع

نظارات طبية على أرنبة أنفها، أخبرته أثناء وقوفهما لوضع حقائبهما الخفيفة في جحورها بالطائرة، إنها ذاهبة للنيجر، لأجل تقديم حصص دعم للأطباء هنالك.. في تخصصها الدقيق (جراحة الأعصاب).

بعد نصف الساعة من صعود الركاب، أُغلقت أبواب الطائرة، في حدود الساعة 09:40، أعلنت المضيفة بعدها، أن قائد الطائرة والطّاقم المرافق له، يرحّبون بالسّادة المسافرين على متنها، الذين اختاروا الخطوط الفرنسية وأنهم سيكونون بمطار (ديوري هـماني)[7] الدولي بـ(نيامي)، بعد ثلاث ساعات وعشرين دقيقة من الطيران، رددتْ صاحبة الصوت الطروب.. ذلك الزّبور الرّاتب بضرورة غلق الركاب لهواتفهم النقّالة، أنشأتْ بعدها تسرد إجراءات السلامة سماعيا.. مع تمثيل لتلك التعليمات بلغة الجسد، من طرف شاب أشقر ظريف، لم يمضِ على حلاقة ذقنه ساعة زمنية على أكثر تقدير.. هذا الأخير يصلح لعَرض الأزياء الرجالية بكلّ اقتدار.. بعد عشر دقائق من أزيز محركات الطائرة، أقلعت الطائرة من مطار "شارلْ ديـGـــولْ" الدولي بـ(باريس)، نحو جهتها المعلومة.

أدار السينمائيّ مقبض إمالة الكرسي للخلف قليلا، وضع نظّارة طبية على عينيه، أخرج كتاب (جوانب من الحضارة الإفريقية) للأديب الإفريقي (أمادو هـمباطي با)[8]. المُخرج كان مفتونا بحضارة الإنسان الإفريقي، بدليل أنه قضى مدّة الطيران كاملة في القراءة.. دون أن يشعر بها، عدا تلك الفترات، التي كانت المضيفة تأتي فيها بالأطعمة وتكسّر شغفه أو تلك النظرات الشاردة التي سرقها منه الضباب عبر النافذة المجاورة لمقعد هذا الأخير، أثناء اجتياز البحر الأبيض.

7- (ديوري هماني) أول رئيس للنيجر بعد استقلال 1960، أطاح به العسكري حسين كونتشي سنة 1974.

8- (أمادو همباطي با) روائي ودبلوماسي مالياني، عمل سفيرا لبلاده بـ (كوت ديـVــوار)، توفى بـ أبيدجان سنة 1991.

في حدود الساعة **01:20** زوالا، تكون مضيفة الطائرة، قد أعلنت للراكبين ثانية، إنهم على مقربة من مطار (ديوري هـماني) الدولي بـ(نيامي)، كما عليهم أن يربطوا أحزمتهم ويعدّلوا مقاعدهم.. التفتَ ثانية لمقبض إمالة الكرسي، ردّه إلى وضعه الطبيعي.. نزع نظّارته الطبية، أغلق الكتاب الذي يكون قد أتى على جزء كبير منه، اقترب قليلا من النافذة المحاذية (يبدو أن الطقس مشمس، يسمح برؤية ملامح مدينة "نيامي" والاستمتاع بمشاهدة "نهر النيجر") تحدّث في دخيلته.. هذا الأخير يظهر علامة فارقة تفصل ضفتي المدينة، البنايات متناثرة هنا وهناك، أخيرا بعد خضّة غير متعوّدٍ عليها.. حطّت الطائرة على مدرّج المطار.

نزل الضيف أرضية المطار على سلّم مجرور!! كان لا يراه إلا من خلال أفلام السبعينيات.. (مطار عاصمة دولة.. مساحته تكاد تكون ركنا صغيرا بمطارات الريف الفرنسي..) قال في نفسه. كان هذا الأخير، خاليا من الطائرات، الجوّ معتدل في عزّ الشتاء.. نزع الجاكيت، وضع على عينيه نظّارته الشمسية الرائعة، سار نحو الحافلة، التي كانت تنتظرهم، صعد برفقة الركاب، وصلوا أمام قاعة الدخول للمطار (صالة صغيرة أيضا بقدر زاوية من قاعات مطاراتنا..) تكلّم مع نفسه ثانية..

أنهى هذا الأخير إجراءات الدخول بشرطة المطار، انتظر قليلا وصول أمتعته الثقيلة.. قبل وصوله لباب الخروج، توقّف عند الصرّافة، بادَلَ مبلغ **(1000 euro)** بما يقابلها من عملة **(CFA)**[9] أي **(655000 فرنك سفا)** الوقت ساعتها الزوال، أخرج مفكّرته التي كتب بها بعض المعلومات من الشبكة العنكبوتية.. كأهم الفنادق بالمدينة مع قلّتها، التي حاول الحجز بها

9- (الفرنك غرب إفريقي)، عملة دول غرب إفريقيا، الأعضاء في اتحاد بنك غرب إفريقيا، وهي كالتالي:
النيجر - مالي- البينين - بوركينا فاسو - غينيا بيساو - (السنِGـال)- (كوت ديـVــوار) - الطوGـو.

عنكبوتيا؛ لكن للأسف لم تؤكد، ربما لضعف النّت عندهم.. هذا هو المحقق بلا استغراب!!

قرأ الزائر بالورقة الأولى من مفكّرته، فندق (Gـــوايْ) وجد بالخارج بعض سائقي سيّارات الأجرة يفترشون الأرض بمحاذاة مركباتهم المعدودة، جاءه أحدهم يجري، مصابيح أسنانه البيضاء تضيء عتمة وجهه.. تكلّم معه باللّسان الفرنسي، طلب منه أن يقلّه للفندق المذكور، وضع السائق نفسه تحت الخدمة بلا طلب.. ركن أمتعة الضيف في السيّارة، اندهش المُحتفى به لهذا التصرّف؛ لكنه فسّر ذلك بما قرأه وشاهده عن تجليات الفقر بهذا البلد الإفريقي، أخيرا عزا الأمر لطيبة إنسان الجنوب واستراح..

هرول السائق بعدها ليفتح له الباب الخلفي، ركب (رفيق الكاميرا).. سارت بهما مركبة الأجرة شبه القديمة نحو المدينة، كانت مناظر القمامة والأوساخ على الأرصفة من أبرز الأشياء التي تستقبل بها المولاة (نيامي) زائريها، عبر الراكبانِ طريق المطار مرورا بنفايات المنطقة الصناعية وحي السوق الجديدة، توغّلا اتّجاه وسط المدينة، الحياة بسيطة أكثر مما توقّع.. ربما هذه الأشياء بقدر ما أثارت غرابته، أعجبته صدقا!! كان مسرورا جدّا لرؤية هذه المناظر؛ لأنها تعطيه بعدا آخر لفيلمه المرجو.. الذي جاء من أجله.

أخيرا وصلا لأغلى فندق بالمدينة (هو الآخر لا يرقى حتى إلى الفنادق غير المصنّفة في الضواحي.. ناهيك عن باريسَ..) عاود في جَنانه.. توقّفت سيّارة التاكسي قليلا أمام البوابة الخارجية للفندق، ولجت حتى عند البساط الأحمر للمدخل الرئيس.. بنفس الطريقة أسرع السائق لفتح الباب، نزل السينمائي الفرنسي يحمل كاميراه فقط، أنزل السائق الحقائب من المركبة.. حملها هذا الأخير حتى قاعة الاستقبال، دون أن يسأله عن أجرته، أخرج الرجل الأشقر ورقة (5000 فرنك سفا)، أعطاها لصاحب التاكسي، همّ هذا الأخير بالبحث في سيارته لإرجاع الصرف الباقي للمُخرج.. أشار له بيده أنِ اترك ما بقيَ عندك!! أضاء وجهه الداجن بياض أسنانه ثانية.. رقص

سائق التاكسي رقصة خفيفة، عبّرت لغة جسده عن هزّة الفُرجة.. وهو يردد عبارة الفرح بلهجة قبائل (الهوسا)[10]:

(Gـــايْ شيكا.. Gـــايْ شيكا..).

ختم هذه الحفلة، بـ عبارة:

(Merci Mon Patron)[11]

ضحك (جاكْ) معلنا في سرّه، إعجابه بهذا السَّمْت الاحتفالي للرجل النيجيري.. كان هذا أول إغراء لم يتوقعه من غرائبية الإنسان الإفريقي الغامض!!

10- من أكبر المجموعات البشرية، التي تعيش في دول غرب إفريقيا، يمتد الموطن الأصلي لهم، من جبل الهواء في النيجر حتى جوس بلاتو بنيجيريا ومن بحيرة تشاد حتى مملكة سنغاي القديمة، على طول نهر النيجر.

11- (شكرا لك رئيسي).

(2)

تقدّم ضيف نيامي، نحو مكتب الاستقبال، كانت تجلس خلفه فتاة سمراء، شبع شعر رأسها دهونا وسيشوارا[12] حتى اشتكى.. بادرته بالتحية، ردّ عليها بلباقة، أدركت الفتاة المستقبِلة، أنه يريد حجزا لا محالة؛ لكن البروتوكولات الفندقية، تقتضي حتى يطلب الزبون.. سألها عن حجز إحدى الغرف، كانت ترفع فيه عينيها، أسقطتها بطريقة مهذّبة، على ورقة مسطّرة أمامها بها جداول فيها أرقام، عاودت رفع رأسها، قالت له في احتشام:

(للأسف سيّدي.. بقيَت لنا غرفة واحدة جهة النهر، أي ناحية حي "Gــــمْكَلي" الشعبي، المصنّف كأفقر حي بالعاصمة.. كلّ الغرف الشاغرة لهذا اليوم حُجزت لفرقة صينية عاملة بالعاصمة، جاءت من الصين عبر باريس للتو..).

سماعه كلمة "الشعبي" وملفوظات عبارة "أفقر حي بالعاصمة" حفّزه داخليا أكثر، لأن يسألها ثانية:

(يعني حي قصديري سيّدتي..!!).

هزّت رأسها مع ابتسامة مصطنعة، ظنا منها أن هذا الرجل الأوروبي الأشقر سيتذمّر.. حاولت أن تلطّف مما توقعته خاطئا:

(سيّدي.. هناك فندق قريب لتصنيف فندقنا، اسمه (تيرمنيسْ)، دعني أكلّمهم بالهاتف لأحجز لكَ، نحن نتعامل معهم في مثل هذه الحالات الحرِجة..).

12- مجفف الشعر.

تهلَّلتْ طلعته.. أبلغ المضيّفة رغبته الشديدة في تلك الغرفة المتبقية، المطلّة على حي الصفيح.. لم تستوعب موظفة الاستقبال خيار المُخرج الفرنسي!! عاودت لتؤكد له:

(سيّدي.. تلك الناحية مناظرها مقززة وتنبعث منها روائح نتنة، لا يُحبّذ الإقامة بها إلا بعض إخواننا الأفارقة لثمنها الزهيد..).

لّما وجدته مصرّا على التماسه، طلبت منه جواز سفره، أخرج جوازه الأحمر القاني، سلّمه لها، سجّلت المعلومات، أعادته له، منحته مفتاح الغرفة رقم (**310**)، زادت بهجته أكثر، عندما علم أن الغرفة بالطّابَق الثّالث، سيكون بذلك في موقع مشرف.. يسمح له برصد الحالة العامة للحي المذكور، بعدها طلبت الموظفة من أحد العمال، أن يأخذ الحقائب معه لغرفته، تقدّم العامل مثقلا بالحقائب المحمولة والمجرورة، سُمع صوت وقع عجلاتها الصغيرة بالأرض.. سار خلفه الضيف، المصعد الكهربائي معطّل!! ترجّلا السلّم، حتى بلغا باب الغرفة، فتح المُقيم الباب، أدخل العامل الرَّياش، حيّاه الأخير بحرارة مشعلا مصابيحه.. أغلب الظّن أنه كان ينتظر مودّة.. نشازٌ واحدٌ وقع له في حياته هذه المرّة.. ربما غفل المُخرج.. خرج العامل منكسر الخاطر.

قبل التفات جلالته.. للخدمات المتوفّرة بالغرفة، توجّه مباشرة نحو النافذة المطلّة على الحي الشعبي الشهير.. مكث مدّة يشاهد الحالة العامة للحي، بيوت طينية بائسة، مغطاة بأعواد الكرنك، الأوساخ والقمامة في كل مكان دون استثناء.. أطفال نصف عراة، نساء ضامرات، شيوخ خِماص، أشياء لا تخطر على البال!! أنسته هذه المشاهد، مع نظرة أخيرة للنهر موعد الغداء، هو لا يشعر بالجوع في الحقيقة، تناول قليلا، من الوجبة التي قُدّمت له بالطائرة، على الرغم من رقيّها؛ كونه من ركّاب درجة الأعمال.

فتح حقيبته الكبيرة، أخرج ملابسه الداخلية الجديدة، منشفتيه، صابونه الباريسي المعطّر.. الحمّام بالزاوية الغربية للغرفة، دخله، فتح حنفية الماء

الساخن، استحمّ، نشّف نفسه في تؤدة، لم يستعمل الأغراض التي وجدها بالحمّام.. لبس ملابسه الداخلية القطنية، خرج من الحمّام، ارتدى قميصه الأزرق السماويّ، سروال جينز، جواربه وحذاءه، الجوّ بالخارج معتدل رغم الفصل.. علّق جاكيته، ملابسه الصوفية، كشكوله الشتائي، قبعته الفصلية، وضع شالا خفيفا في رقبته، قبعة ربيعية على رأسه، دفعه الفضول بعد ذلك، لرؤية الثلاّجة، كانت باردة وفارغة.. فتح التلفاز، بحث في قنواته، وجد قناة فرنسية واحدة، هي (TF1)، قال في نفسه (واحدة لا تكفي؛ لكن أفضل من اللاّشيء!!) حمل غليونه صحبة الطقوس المرافقة له.. أغلق الغرفة دونه.

نزل المُقيم الدَرَج، الساعة كانت تشير إلى الثالثة مساء، الحمّام أعطاه قدرا لا بأس به من النشاط.. بلغ غرفة الاستقبال، مطعم الفندق لا زال مفتوحا، كان خاليا.. جلس في طاولة متطرّفة، مفروشة بفراش أحمر، عليه سجل مجلّد للوجبات، هو الآخر أحمر، أكواب شفافة من ذوات الرقبة.. فتح مجلّد الوجبات المُتاحة، تركه النادل حتى يختار، كان يرمقه من بعيد.. الأضواء خافتة في زوايا المطعم، لوحات تشكيلية معلّقة على الجدران، فيها ملامح فرنكوفونية فاضحة.. موسيقى غربية خافتة تنبعث من إحدى زوايا المكان، دنا منه النادل، الذي كان يتصنّع التحضّر في كلامه بشكل عجيب..

طلب مقبلات مع بطاطس محشو، شريحة لحم مشوي، عصير أناناس دوريجيني[13]، مشروب روحي أحمر، في اللّحظة التي ذهب فيها النادل بالطلبات، خَزَر بلحظ العين في أنحاء المطعم (طاولاته، كراسيه، أكوابه، موسيقاه، لوحاته، لا تدنو حتى إلى التصنيف الرابع من مطاعم شارع – "الشانزليزيه" الباريسي..) أَسَرّ في نفسه.

بعد مدّة عاد النادل، يحمل الأطباق، وضعها على الطاولة ثم عاد بقِنن المشروب، المائي، العصيري، الروحي.. تناول قدرا بسيطا، نقّب المقبلات،

13- كلمة أعجمية بمعنى أصيل، فُصّحت ووُظّفت.

قُل (تركها كما هي..) تناول قليلا من البطاطس المحشو. ثلث الشريحة المشوية، شرب نسبة لا بأس بها من العصير الأناناسي الطازج، مع كأسين من المشروب الروحي الأحمر خلال تناول الوجبة.

النادل يبصر الزبون من بعيد، لما رآه أنهى.. قدّم له مجلّدا أحمر آخر، أصغر نسبيا عن الأول، أخرج منه ورقة صغيرة، قرأها، قدّم له (**20000** فرنك سفا)، حيّاه النادل، خرج للمقهى المجاور، طلب قهوة سريعة مضغوطة، أشعل غليونه، المقهى كان مصبوغا بنفس الدهون البرتقالية الخفيفة للمطعم، أشخاص قلّة يشربون هناك، موسيقى إفريقية خافتة، فيها إيقاع الرقص..

همس الضيف في نفسه:

(الأفارقة يحبون الرقص.. حتى في مظاهراتهم يمارسونه، استدعت ذاكرته أيام التمييز العنصري ورقص شعب الزعيم "نيلسونْ مانديلا" خلال انتفاضته ضدّ نظام بريتوريا العنصري..).

الزائر يخاطب نفسه ثانية:

(ألا ترى اللاّعبين الأفارقة المحترفين عندنا في النوادي الأوروبية، عندما يسجّلون الأهداف، يهرولون نحو زوايا الملعب، فيعبّرون عن فرحتهم بلغة أجسادهم.. ما فعله سائق التاكسي في مشهد حي قبل ساعة، لا يبعد عن هذا، هو جزء من حياتهم ويومياتهم..).

ارتشف (جاكْ) قهوته، أعطى للنادل ثمن القهوة مع ترك فرنكات ضائعة بين الصرف دائما.. خرج لحديقة الفندق يطرد بعض الملل، وجد عاملا وديعا يسقي الشجيرات، دنا منه، سأله (هل يسكن هنا بنيامي؟) أجابه العامل بالتأكيد وأن مسكنه ليس بعيدا من هذا المَقَر، أشار له بيده للحي الذي يرقد خلف الفندق.. كان المُخرج الفرنسي، قد سمع اسم الحي من موظفة الاستقبال، قال له:

(أنتَ من حي "**G**ـــمْكَلي"؟).

(أجل مونْ باطرونْ..).
(أنا هنا بصدد مَهمة.. هل تعرف أحدا من شباب حيّكم أو من الأحياء الفقيرة الأخرى، هاجر لأوروبا أو اقترب من نعيمها؟).
اندهش العامل بلا وعي.. لعبثية الزمن ومفارقة الصدفة.. وهو يقول:
(بالأمس فقط، جاء جارنا الكامارادي "مامادو" ابن "بوريْما"، من الدار البيضاء بالمغرب، بعدما أخفق هذا الأخير في اجتياز السِّياج عند جيب مدينة "سَبْتة"، ردّوه بالطائرة إلى هنا، بعد رحلة دامت ستة أشهر، أقلّ ما توصف به، "إنها قاسية وشبه مميتة"، كما قال.. وتحدّث الرّواة عنه..).
سَرَتْ بهجة بمحيّاه – النزيل– زادت من احمراره المتورّد أصلا؛ لكنها لم تبلغ حُمرة الطماطم زوال غمّته.. قال له في تَوْق، كمن كان بسَبْسَب عطشان وعثر على رَشفة ماء:
(أين هو هذا الشاب الكامارادي؟).
(قلتُ لك هو حَرْف بيتي، أمضى اليوم كاملا وهو يحكي للناس قصّته..).
أخرج المَسحور ورقة (1000 فرنك سفا)، أعطاها للعامل الفندقي..
(هذه لي مون باطرونْ؟).
("Oui"[14] مونْ كامارادْ..).
رقص العامل رقصة مشابهة لرقصة سائق التاكسي، ردّد خلالها (أنا فرحان) بلهجة قبيلته (زَرْما)[15] وهو يقول أثناء حفلة الرقص:
(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

14- (نعم) بالفرنسية.

15- نسبة لقبيلة زرما، ويطلق عليها جرما، من القبائل النيجيرية، التي تستوطن نواحي دُوصو ونيامي.

لو كان وجه العامل أبيض، لتورّدت فيه تلك البهجة، أكثر من محيّا المُخرج السينمائي الفرنسي..

المُخرج في إغراء:

(أريدكَ أن تأتيني به، له مكافأة لا تقدّر بثمن.. وسأضيف لكَ "1000 فرنك سفا" أخرى، إن قمتَ بالمَهمة وأقنعته بالمجيء..).

رقص العامل رقصة ثانية، ردّد خلالها نفس الكلمات:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

ختمها بعرس بهيج للعبارة الفرنسية:

(Merci Mon Patron)

يضيف:

(اتفقنا سيكون عندكَ الرفيق "مامادو" غدا صباحا، لا تقلق.. ربما هذه المكافأة التي سوف تمنّيه بها، لم يكن يحلم بها حتى في الفردوس، كما تصطلحون عليه سيّدي..).

(إلى اللقاء "Mon Camarade"[16]).

(إلى اللقاء "Mon Patron").

عاد المَحظوظ لغرفته مسرورا، بهذا الصيد الثمين.. الذي عثر عليه في أول يوم من زيارته لـ(نيامي) المضيافة، أدرك بوعي.. عزف (Gـــيثار) الصدفة لسمفونية الزمن العابث.. خبر كهذا جعله ينسى خيبته الأخيرة في مهرجان (كانْ) وما سبقها من مرارات في ذلك الزوال.. مع الغروب أنهى عامل جُنينَة الفندق دوامه، طار نحو الحي.. كاد يسقط من الفرحة، السقوط يكون قد حصل بكلّ تأكيد عند منحدر الحي.. حتى بلغ بيت "بوريْما" وهو يلهث.. دقّ الباب الخشبي، خرجتْ (سَلاماتو) والدة (مامادو)، بقرطها المميّز، المغرز في أنفها، كانت مشيتها ترقص من الفرح برجوع ابنها

16- رفيقي.

[حيّا].. رغم عودته الخائبة.. قالت سَلاماتو في نفسها، خلال خروجها للزائر:

(جارتي العزيزة "خديْجاتو"، فاز ابنها الوحيد بالفردوس.. ولم يرجع.. أنا أفضل منها.. على الأقل رجع ابني [سالما] [حيّا].. هذا يكفيني!!).

شاع عن سَلاماتو في يوميات أخبار الرّواة بحي (Gـــمْكَلي)، إبان انستار ابنها مع رفاق هجرته.. أنها كانت تردّد دائما:

(سيرجع ابني مامادو [سالما].. لأن لي من اسمي "سَلاماتو" نصيباً!!).

حمّد العامل الفندقي لـ سَلاماتو [سلامة] ابنها ورجوعه [حيّا]، سُرّت كثيرا لسماع ذلك، كانت تحبّ في تباريك السلامة من الزائرين خلال هذه المناسبة، أن يُذكر في سلسلة المُبرِّك، عبارة (الحمد لله على رجوع مامادو [حيّا]..) الكلمة الأخيرة من العبارة، أشدّ وقعا عليها.. بعدها سألها عن ابنها مامادو، أخبرته بأنه خرج من العصر لمجلس (فَضَا)[17] عند رفيقيه (عُسْمانو) و(غاريْكو) ولم يرجع بعد.

هرول الرجل إلـى مجلس كوخ عُسْمانو، وجد القوم متحلّقين بالعائد، يشربون الشاي، رفقة مسجّلهم الأسود العتيق.. يسمعون موسيقى المغنية النيجيرية (فاطي ماريْكو) يحكي لهم الغائب.. غرائب رفيقهم القديم.. الماكر (سَاكو) بـ باريس ليكامارادْ (تَمَنْرَاسَتْ)، لحظتها كانت كلّ الإشارات اليدوية للحيّ السّالم.. تُمثّل بـ ملعقة صغيرة يحملها في يده.. قبل سلام الجار عليهم، قذف كلمته في مامادو، كقَفْقَفَة الرّعدة التي يأتي بعدها الغيث.. قال له في تندّر:

(تبحث عن أذنكَ الشّمال بيمينكَ يا ابن بوريْما وهي قريبة من يسراكَ..)

بعدها رقص العامل رقصة خفيفة، ردّد خلالها المعتاد:

17- (بتخفيف الضاد حتى تصير إلى مخرج الدال) مجلس نُصبت له أربعة أعواد على شكل مستطيل قبالة كل كوخ، رُمي عليها قش، أو متاع بالٍ.

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

القوم لم يفهموا شيئا مطلقا، سوى أن العبارة التي ردّدها العامل، توحي بأنه فرحان وفقط!!

يضيف العامل لمامادو:

(اسمع يا "دودو" الفرصة فرصتكَ.. فلا تضيّعها يا ابن بوريْما..).

إلى هنا لم يفهم حفيد غَنْدا شيئا، ربما خمّن خيرا.. أما عُسْمانو وغاريْكو، فقد استغلق عليهما الأمر فعلا..

يضيف المُبشِّر:

(لن أطيل عليكَ يا رفيق إدْريْسو في الحيف والضياع.. النبأ السعيد؛ هو وجود مُخرج سينمائي فرنسي، يقيم بالفندق الذي أعمل به، جاء ظهر اليوم لنيامي من باريس، أرى شمسكَ قد اشرقت يا ابن بوريْما.. كما لا أبعد يا حفيد غنْدا، أن قمركَ قد صار بدرا..

المفيد من القول بلا تمدّد.. إنه يرغب في ملاقاة كامارادي حرّاG، جرّب المسالك الوعرة للهجرة ووصل جنّة المَأوى.. أو أخفق.. هذا لا يهمه.. كلّ الذي يهمه حسب قوله "أن يكون الرفيق الكامارادي عرف دروب الهجرة وهوامشها.." أي:

دخلَ القبر وعاشَ البرزخ فيه..

جاءَه البعث..

شاهدَ النفخ في الصور..

حضرَ المحشر..

مرّ على الصراط..

زارَ مدن الأحلام..

خالطَ هامش مدن الضواحي كثيرا..

أخيرا حضرَ الرّجة الكبرى..

أراكَ يا "دودو" كما حدّثتنا صباحا، قد عشتَ هذه الأحداث السِجال.. الخبر المُفرح إنه وعدَ بمكافأة عظمى لكَ.. إنْ سردتَ له تفاصيل رحلتكَ..).

أعاد الأجير الفندقي الرقصة، بينما مامادو واقع تحت تأثير الغرابة!! التي بلغ نصفها عُسْمانو وغاريْكو! التفتوا إلى بعضهم أخيرا، وقفوا في وقت واحد.. دون أن يشعروا، وجدوا أنفسهم يرقصون على أنغام المغنية النيجيرية (فاطي ماريْكو)، رددوا جماعيا عبارة الفرحة:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

اتّفق الشَّغال الفندقي مع مامادو، أن يأتي هذا الأخير للفندق صباحا لمقابلة الضيف.. مرّ الليل رتيبا على الكامارادي الحرّاG.. دون أن يشعر أمه أو أخته زيْنابو بالنبأ..

صباح اليوم الموالي، كان مامادو عند بوابة الفندق في الساعة الثامنة صباحا، يمسك في يده اليمنى رفيقته الدائمة خلال الرحلة (ملعقة أكله الفضية!!)، العامل الفندقي دوامه مسائي، لا شك أنه قد أتى باكرا، لأجل أن يخبر (جاكْ) بالخبر السعيد.. لحظات وجاء الشّغال الفندقي يجري من داخل النزل، كانت مصابيح أسنانه مشتعلة.. نادى على مامادو، دخل معه مقهى الفندق، كان المُخرج ساعتها، يتناول فطور الصباح على الطاولة، عندما طلع عليه كامارادي نيجيري يحمل في يده اليمنى تذكارا.. وقف المُخرج الفرنسي، حيّاه بحرارة، قدّمهما العامل الوسيط:

(هذا "جاكْ بلوزْ" مُخرج سينمائي فرنسي مشهور..).

يلتفت لجاره وقد أربى من إنارة فانوس أسنانه الأمامية وهو يقول:

(هذا جارنا الكامارادي "مامادو"، ندلّعه – نحن الجيران – بـ"دودو"، له اسم آخر "دو" لا تدعوه به إلا أمه.. ورث مع أمه وأخته "زيْنابو" عن أبيه بقرة وحيدة تُسمّى (بَكْتو) له معها حكايا أخرى.. منها عبقريته في إقناع أمه ببيعها.. والتزوّد من ثمنها لقطع الصحراء مع سماسرة تهريب البشر..

كما انتحل هوية شخص مالياني مسيحي يُدعى "روبنْسون كوليبالي".. بجواز سفر مزوّر طيلة تواجده على أرض الجارة الجزائر.. له كذلك مصادفات غريبة مع يوم "الجمعة" إبان إسلامه وعجيبة مع يوم "الأحد" أثناء يسوعيته.. أما تميمته (Gـــونْكي) التي وصفتها له أمه من صيدلية تركة والده، كحصن وحل سحري لأزماته خلال رحلته.. فله معها مهرجان أساطير.. فضلا عن حيرته وقلقه الوجودى طيلة الرحلة وترديده الدائم لعبارة [[الرجوع ليس سهلا!! الوصول للفردوس ليس سهلا!! البقاء هنا ليس سهلا!!]] وأشياء أخرى قد لا تسنح على خاطر!!!!..).

(مغريات وصِفات تصلح دراما لبطل فيلمه المنشود..) قال المُخرج السينمائي في نفسه.

النّشوة دعته لأن يشعل غليونه، قال للكامارادي العائد.. وهو يمسك الغليون المائل لجهته المفضّلة كالعادة:

(لعلّ رفيقنا.. حكى لكَ قصدي ومطلبي..).

الكامارادي (مامادو) يهزّ رأسه، بياض عينيه مع أضواء فمه، تصنع حفلة مُونِقة بوجهه..

بعدها التفتَ (جاكْ) في حيرة ليُمنى مامادو وما تحمله!!

أدرك دودو ذُهول المُخرج السينمائي من تذكاره، قال له:

(قصّة هذه "الملعقة" حكاية أخرى.. ستعرفها لاحقا..).

ضيف نيامي:

(إنْ أنتَ حكيتَ لي التفاصيل الخاصة برحلتك نحو الجنّة الموعودة.. بمحطاتها وأهوال أحداثها السِجال.. فإني أعدكَ بمفاجأة لا تقدّر بثمن.... ها هي "5000 فرنك سفا" فوق الحساب..).

دودو في نشوة مسكرة.. Gـــوّال من أهل (Gـــمْكَلي).. علّق على موقف الحرّاG حينها، قال:

(كاد أن يعبث به رسول الرقص، خلال تلك المَسرّة..).

داخليا وقع الرقص بالقسم..
مامادو للمُخرج السينمائي:
(لا تقلق "مونْ باطرونْ".. سأسردها لك ليس بالتفاصيل كما طلبتَ فحسب، إنما بتفاصيل التفاصيل..).

تجلّت مظاهر الفرح وتضاريسه على محيّا المُخرج الفرنسي.. الرّواة من أهل الأخبار والنوادر بحي (Gـــمْكَلي)، لم يشبّهوا تلك الفُرجة التي أتقن إخراجها (مولى الحرفة) على وجهه.. إلا كبِشْر وجه سَلاماتو والدة "دو" غداة عودته [حيّا]، لا سيما في اليوم الأول منها، مع ما كان يطرب تلك المسكينة من كلمة [حيّا] بالرغم من كونه رجع [خائبا].. في قاموس سَلاماتو لفظ (خائب) لا معنى له.. إن قُرن بمبنى ثان كلفظي [حيّ] أو [سالم].. ترى حصول ذلك.. أقصى ما يتمنّاه المرء في الحياة حسب قولها.. على إيقاع هذه الحفلة وإخراجها، أعطى الجَذْلان الشّغيل الفندقي ما بشّره به.. أخرج مسجّله الصوتي الصغير (ديكتافون) ومفكّرته الفاخرة، وضعهما على الطاولة، استلّ قلما مذهّبا من جيب قميصه السماويّ وقال للكامارادِيّ الحرّاG:

(احكِ يا مامادو..).
فطَفِق مامادو يسرد حكايته:

في القبر..

(1)

أكادُ أجزمُ سعادة ضيف نيامي- مُخرج فيلم كامارادْ- أن منظر القمامة والهواء الملوّث، وحدهما القاسم المشترك بين فقراء عاصمتنا (نيامي) وأغنيائها. بيد أنّ هؤلاء الأثرياء- سامحهم الله- لو استطاعوا طمس الوصل بيننا وبينهم، لفعلوا.. أنا واثق من ذلك.. وقد ازددتُ يقينا، عندما اخترعوا لهم مؤخّرا أجهزة لطرد البَعوض وإبادته. حيث شفع لهم تذمّر القنصل الألماني من هذه الحشرة التي لا تتذكر مودّتها للإنسان، إلا ساعة خلوده للراحة والنوم ليلا. بهذا – للأسف الشديد – أقولها وبكل مرارة سقطت آخر القلاع بيننا وبينهم سيّدي المتشائل[18] بصورة القمامة.

لقد أجهدتُ نفسي كثيرا في البحث عما يكون قد تبقّى من هذا الفارق.. فلم أحظَ بغير ما ذُكر بادئا، هكذا تهيأ لي الأمر، لستُ أدري.. المهم ما يمكنني القول أخيرا، إن هذين المذكورين هما آخر اكتشافاتي وكفى. قد يُقال على سبيل الذكر لا الحصر؛ من توابع ذلك؛ الموت، لذّة النساء، الذهاب إلى المرحاض – أكرمكَ الله – وهَلُمَّ جَرّا.. أجل؛ لكننا حتما لن نخرج من هذه المعركة برأي فاصل، غير واحدة تسرط الأخرى.. لذا علينا أن نقتنع، بمشهد القمامة المتناسل واستشراء الهواء الملوّث وفي ذلك كفاية وبركة.

ليس غائبا عنّي بالمرّة.. أن أصحاب اليَسار من قاطني عاصمتنا، سينتظرون تبرّم قناصلة الغرب كذلك، من تكاثر القمامة وعفونة الجوّ، بشكل مقلق جدّا.. رجاء ابتكار أجهزة دقيقة، تُفَلْتِرُ لهم الأكسجين المستنشق، مع إمكانية إيجاد بديل صناعي للعين دون أن يُرى، يُتيح لهم قلب

18- نحت لكلمتي المتفائل بالقمامة لفيلمه والمتشائم لها لفرط تحضره في آن.

صورة القمامة المشينة، إلى صورة نابضة بالحياة. لقد بات تعيين سفراء الغرب والخليج العربي بنيامي، من نميمة زوجاتهم وجلسات عائلاتهم، حتى ساد الاعتقاد عندهن، أن ذلك من قبيل العقاب لأزواجهن.. يظهر لي أن هذا المحو المزعوم لن يتحققَ أو على الأقل لن يحدث في القريب العاجل وفي هذا وحده، مدعاة لفرحي ولو بعد حين..

في حيّنا القصديري (Gـــمْكَلي)، الواقع على الضفّة الشرقية الضّاجة من نهر النيجر، لا توجد لنا نوادٍ أو مقاهٍ شبابية نختلف إليها، لدغدغة أحلامنا وعدّ جغرافية بؤسنا، على خارطة هذه الحياة المليئة بالمفارقات؛ بل حتى مطاعمنا في هذه العاصمة العظيمة.. تجدها على قارعة الطرق وأرصفة المباني الحكومية والوزارات، تطبخ للجوعى بالحطب ويجلس زبائنها الكرام، على مجسّمات الأحجار المكعبة وجذوع الأشجار الأسطوانية، بدل الكراسي!!

النّادي الوحيد الذي كنا نختلف إليه ونلتقي فيه- نحن شباب الحي- خلال أوقات العشيّة لشرب الشاي، هو مجلس (فَضَا). هكذا كُتب لنا أن نعيش سيّدي.. هذا سعدنا.. المضحك فوق هذا، أن صُنّف بلدنا كأفقر دولة في العالم!! على أية حال.. ومهما يكن من أمر، نحن سعداء بهذا الترتيب، رغم وجود اليورانيوم بمدينة (أرْليتْ) شَمال البلاد.

في ذلك المساء من 2012، كانت السيّارات قد بدأت تستريح من حركتها الصاخبة بالعاصمة، كما أن جوقة أصوات الباعة والمتسوّلين هي الأخرى، غدتْ تتناقص نواحي (*Grand marché*)[19]، عدا تلك الحركة المتقطّعة، لأبواق سيارات الإسعاف بالمستشفى المركزي، المطل علينا أصلا.. والذي يقذف بنفاياته علينا من مؤخرته بلا حياء، إلى كَنَفه فندق (Gaweye)، المصنّف كأفخم فندق في العاصمة ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله..

19- السوق الكبيرة.

كالعادة في مثل هذا الوقت، يكون رفيقنا إدْرِيْسو.. عاد مبكّرا من عمله لدى أحد التجار، المتمثل في شواء لحم (المايْناما)[20] للسيّاح والميسورين. الرفيق المذكور عشريني، بشرته سوداء فاحمة، هو أطولنا قامة، أنفه أفطس، شعره قَطَطٌ، شواربه ممتلئة، بنيته قوية، عروق أوردة ذراعيه ترسم مشاهد متعرّجة.. ولا حاجة لي بمعاودة هذه السِّمات سيّدي المُخرج.. في وصف أحدنا – نحن الرفاق– مرّة ثانية كيفما كان الأمر..

هي صفات نكاد نشترك فيها جميعا نحن أفارقة جنوب الصحراء الكبرى، الذين تلتصق بنا صفة الرفيق (كامارادْ)، بمجرد دخولنا أول نقطة حدودية للجارة الشمالية.. نُنعتُ بها ونُسرُّ بلبسها والتطيّب بذكرها؛ بل ذهب البعض لأكثر من ذلك، فوجدوا لها تسويغا لفأْمِها رغم أعجميتها.. صاروا يطلقون على الرفاق منا صيغة (ليكامارادْ)، الغريب في الأمر، أن هذا الوصف، يبقى لصيقا بنا حتى في عبورنا لجارتها الغربية.. لستُ مخطئا، إذا قلتُ إنها تركب معنا القوارب ونعبر بها البحر ونتخطّى بها حواجز الأسلاك الحديدية الشاهقة بمدينتي (سَبْتة) و(مليلْية) ويتردد صداها مع من كُتبت له الجنّة منا بأحياء الضواحي الباريسية القريبة منكَ سيّدي..

إن كان من خلاف بيننا– نحن شعب الله المختار – فلا يعدو أن يكون في الطول، القصر، ملاحة الوجه مع قلّتها، استدارته من عدمها وأشياء أخرى تظهر في حينها، لن أغفل عنها.. بيد أن جوهر ما كان يميّز إدْرِيْسو عنا، هو شعره المفتول المُتَدَلّي كالسنابل، كان يقول لنا دائما:

(إنه مبهور بالمغني الجامايكي "بوبْ مارْلي"!!)

ثمّة أمر آخر يجعل الرفيق إدريسو بدعا عنا وإن كان هذا ينقص من قراريط شخصيتنا– نحن الرفاق – معه، هي الحقيقة بلا ادّعاء والله.. هو بالفعل خفيف الروح، فضلا عن معرفته باللّغة الإنجليزية، التي تعلّمها

20- بلهجة هوسا بلاد الساحل: مايْ: صاحب، ناما: اللحم.

بإحدى المدارس الخاصة، كما أن ضيق ذات يدنا وتفضّله علينا ببعض الأغراض وإغداقه بها علينا، تجعلنا نستعظمه ونستصغر أنفسنا كـ (النيغريلو)[21] أمامه، حتى وإن فاقه أحدنا في بعض المزايا وهذا حاصل بلا ريب..

فمثلا أنا كنتُ بارعاً عليه في فقه الأبقار ومِللها ونِحلها.. هل يعرف إدْريْسو أن في نواحي تشاد والسودان، يطلق على الذي يرعى الأبقار اسم (شوا)؟ وربِّ السماء والأرض لا يعرف هذا.. ثم هل يدرك أن قبيلة (سوري) الإثيوبية، تحرص على تطويل شفاه نسائها لتكثير أبقارها؟ حتى وإن عرفَ بعض الأشياء البسيطة عنها، كمدّة حملها مثلا، التي تكون عادة إما بين تسعة أشهر وخمسة أيام أو تسعة أشهر وعشرة أيام، فلن يفرّق بين العجل والعجلة وقت تكوّمهما على الأرض بعد قذفة الولادة واختلاطهما بالمخاط.. سوف لن أتكلّم عن التفريق بين عطش هذه الأخيرة وجوعها من خلال خوارها!

هو علم وازن اكتسبته مع طول عهدي ببقرة صاحبتها كثيرا عندنا؛ لكن هذه النَظَارة، كنتُ أقبرها في عميق ذاتي؛ بل أتظاهر أحيانا بالبلادة فيها مع هذا الأخير، عندما يشتدّ بنا الخلاف في أمور الأبقار الأهلية والوحشية. هو يدرك هذا في عميق قلبه- كما الرفاق- غير أن ما يجعلنا نسعد بهذا التنزيل الإرادي لأنفسنا في الدرجة معه، هو عدم استبداده بنا؛ لأجل ذلك تركنا الأمر لهذا الأخير واسعا.. فضلا عن معرفته بأحوال الناس وسفرياته نحو الجارة (بوركينا فاسو) التي عاد منها مؤخرا، بفتح مبين لقضيتنا!!

أرى الأخير قد أتمَّ رش الماء على أرضية المجلس.. وبالكاد يُنهي بسط الحصيرة السعفية على الأرض، وضعَ صينية الشاي النحاسية المستديرة وسط المَفروش، حيث صُفّت في تلك الأخيرة، فناجين الشاي الزجاجية الشفّافة

21- سلالة أقزام زنجية ذات أصول إفريقية.

المقلوبة، يرقد بينها كوب كبير، مقلوب هو الآخر مثلها، رُكن إلى جنبها إبريق حديدي أزرق صدئ لطبخ الشاي. أما السكَّر والشاي، فقد احتُفُظ بهما في تعليبهما الكارتوني والبلاستيكي، خارج الصينية جهة اليمين. ترقد بسيفها علبة الشاي المذَهّبة، تبدو أنها فُتحت قبل هذا.. كُتب عليها شاي (AAA) عبدي، مع نجمات ذهبية متراصة، فاتني عدّها والله.. إلى جنبها كيس السكر الصغير المهرّب من الجارة الشمالية.. يحمل علامة تجارية بارزة لشركة (Cevital) الجزائرية.

الطقس الأخير من تقاليد رفيقنا.. بعد وضع كانون الفحم في إحدى الزوايا الخارجية للحصير، هو إخراج مسجّلهم الأسود التليد، ماركة (National Panasonic)، الذي أتى به والده المرحوم موطاري، من (واGـادُوGـو) عاصمة (بوركينا فاسو) خلال نهاية الثمانينيات، قصد تعطير مجلسنا، بسماع أشرطة قديمة الصنع، من ذوات الشريط البُني الذي يُلفّ على عجلتين صغيرتين من المركز، لأغاني مطربتنا الشعبية (فاطي مارِيْكو)، التي كنا نرقص على إيقاع نغماتها.. وتمدّنا بلحظات حالمة ننسى بها بؤسنا ونقبض فيها على الزمن الهارب، الذي يحلو لنا نَعته، في شريعة فقرنا وملّة بؤسنا بـ(اِبن الكلب..)!!

في الغالب- إلا ما ندر- أكون أنا (مامادو) أو كما ينطقه إخواننا العرب (مُحَمّدُ) ونحاول – نحن الأفارقة – أن نقرّبه بـ(ماحامادو)، فدعتنا أعجميتنا إلى حذف (الحاء الممدودة) من وسط الكلمة الأخيرة، ليصير كما اسمي.. قلتُ لكَ سيّدي.. أكون أول الحاضرين إلى المجلس، بحكم عملي المسائي الوحيد، الذي كلّفتني به أمي سَلاماتو، مُذْ توفّي والدي – رحمه الله- فنَهضتُ بهذه المَهمة، رغم المعاناة التي تلقيتها في سنتي الأولى من هذا التكليف، نظرا لقلّة خبرتي. حيث كان لزاما عليّ إعادة بقرتنا (بَكْتو) الحنّاوية ذات الغرّة البيضاء، كلّ مساء قُبيل العصر، من مرعى الضّفة المقابلة للنهر والمرور بها حتما على قنطرة النهر مع السيّارات وهو دوام يستغرق

ساعة زمنية في أسوأ الأحوال، حتى غاية عقلِها بمَشْكَلِها خلف كوخنا، جهة الشِّمال.

لحسن حظّي، غُدوّ بقرتنا (بَكْتو) للمرعى صباحا، كان يريحنا منه جارنا (يعْقوبا) مع أبقاره؛ هذا الأخير يتعجّل عودتها منتصف النهار وأمي تحب لـ(بَكْتو) أن تبقى بالعشب، حتى ينتفخ بطنها زمن العصر.. وهذه هي المشكلة، التي كانت تقنطني وتخرجني من جلدي سيّدي.. كم مرّة قلتُ لها في تهذّب:

(لماذا يا أمي لا ترجع بَكْتو مع أبقار جارنا ونرتاح من هذا الدوام المسائي الرتيب؟) فرفضتْ.. أما عملي الصباحي فسأحدّثكَ عنه لاحقا سيّدي المُخرج.. شريطة ألاّ تستعجل..

ليس لأمي خصيصة ظاهرة تميّزها عن نساء (Gــــمْكَلي)، سوى قرط حديدي دائري مغرز في فتحة منخر أنفها سيف اليمين، قالت لي عندما كنتُ صغيرا (إنها عادة من عوائد نساء قبيلتها "بورورو"، التي تقطن نواحي مدينة "كونّي" وإن معظم نساء هذه القبيلة في حيّنا تخلينَ عنه وبقيَت أنوفهن مثقوبة بشكل منفّر جدّا!! عدا جارتها "خديْجاتو" والدة رفيقي إدْريْسو، التي لم يُغرز في خيشومها أصلا، لذلك آثرتْ أمي أن تبقي هذا الأخير، بإلحاح شديد من والدي في حياته وتركته بعد وفاته.. بدل ذلك الشكل الدميم من وجوه بعض الجارات، بعد نزعه..).

أما أنا فقد ضحكتُ على نفسي كثيرا عندما رأيتُ وجهي في شظية مرآة صغيرة، وجدتها بدار جارنا موطاري والد رفيقي إدريْسو، قبل موته بسبع سنين، أتصوّر هذا المُحيّا كما لو أني أراه الآن أمامي، وجه شقي رُسمت عليه ثلاث وخزات أفقية على الوجنة اليمنى، ما يقابلها جهة الشِمال، بقدر بنان الإصبع، كنتُ قبل هذا، أتحسّسُ نعومتها واختلاف موقعها عن باقي ملمس وجهي.. الطريف أني كنتُ أبصرها على بعض وجوه أندادي من قبيلتنا؛ لكن لم يدعُني الأمر للضحك، إلا عندما رأيتها على هذا الوجه الموغل في

التطيّر، ثمّة أمر آخر كنتُ مبرّزا فيه عن رفاقي سيّدي.. هو هذه الثرثرة والفضول المتطلّع، لمعرفة أيّ شيء..

بعد عشرين دقيقة من مجيئي أو بعدها بقليل بحسب الظروف، يبدأ تقاطر الرفاق الثلاثة تباعا، الرفيق (عُسْمانو) يميل إلى الطول، مفلّج الأسنان، تخلّى عن الصيد مع أبيه منذ سنوات، يعمل دلاّلا بالسوق الكبيرة، أطرافه طويلة كأنها خُلقتْ لهذا الغرض!!

الرفيق (غاريْكو) ضعيف البنية، ورث التسوّل عن أبيه.. وجهه يثير الشفقة حقّا، للأمانة هو يتصنّع ذلك لزيادة مفعول الإنسانية وإيقاع العطب بمعطيه، لا سيما إذا كان من أهل رقائق القلوب..

الرفيق الأخير (ساكو) عريض الجبهة، مقاس مَهوى قُرطه شبر، رؤيته للحياة وألغازه، توقظ فيكَ الضحكة ولو كانت نائمة.. أُميّ؛ لكنه صاحب دهاء وبداهة.. يستحضر الشواهد المسموعة بشكل مدهش، متقشّف، غريب الأطوار، يكفي هذا النعت الأخير، أن تذهبَ به سيّدي.. أيّ مذهب بلا حرج!! تخصّص في جمع الأشياء المستعملة، بواسطة عربة مدفوعة تسمى (تَرْكو) هي على أية حال مربّعة، تركب عجلتي دراجة نارية، كان يحمِّل بها من منطقة (زَنْقو)، حيث ترقد مقبرة نفاية المُستعمل والمُستغنى عنه، لقنصليات إخواننا الخليجيين وسفاراتهم..

في الفترة ما بين مجيئي وقبل التحاق الرفاق، يكون الرفيق إدْريْسو، قد وضع ورق الشاي مع الماء في الإبريق وحَطّه على جمر الكانون، ليتولى أمر إعداده بكل احترافية رفيقنا غاريْكو، الأخير قطع عليّ حبل شرودي في عدّ أزرار تشغيل المسجّل المتراصة، لحظتها كنتُ تائها في حسابها؛ هذا لفتح الباب، هذا للتشغيل، هذا للتسجيل، هذا للرجوع، هذا للتقديم..

تزامن ذلك الوضع من سهوتي مع سماع تَغْتَغَة الإبريق وهو يفور فوق جمر الكانون، حيث اختلطت رائحة الشاي برائحة الشواء، المنبعثة من

الفحم المستعمل، الذي كان رفيقنا إدْريْسو يجلبه يوميا من خردة فحم المايْناما. أشار لي الدلاّل بيده نحو الكانون، فهمتُ من إيمائه، كأنه يقول:

(ناولني الإبريق يا "دودو").

بالمناسبة "دودو" هو اسم دَلاَل لي من الرفاق سيّدي المُخرج.. كما قدّمني لكَ صاحب البُشارة- عامل الفندق- إن كنتَ تذكر..

التفتُّ إلى جانبي، ثنيتُ قطعة ورق خَلِق، أمسكتُ بها مقبض الإبريق الساخن، من على الجمر، ناولته إياه. وضع الإبريق وسط الصينية. رفع غطاءَه، في غمرة تصاعد البخار، صبّ شلاّلا خفيا من ذلك السّكر الأبيض النّاعم، شكّل مشهد تلاقي شلاّل السّكر، مع البخار المنبعث من الإبريق المفتوح، منظرا مسليا والله!!

أعاد تغطية البرّاد بكل أناة، رفعه إزاء كتفه، أماله ميلا خفيفا، خرج الشاي مبروما من خرطومه، أقرب ما أُشبّه مشهد هذه اللّوحة البديعة، كخروج ماء المطر الغزير ونزوله من أعلى سطوح تلك البنايات الإسمنتية والعمارات، الذي شاهدناه بمعية بعض الرفاق ليكامارادْ، أثناء رحلتنا الحالمة للفردوس.. بمدن شَمال الغرب الجزائري والشَّمال الشرقي للمغرب، وصولاً بهذه الأخيرة حتى مدينة (الفنيدَق)، عند باب (سَبْتة) قدّسها الله..

قلتُ لكَ سيّدي.. إن ذلك الشاي المتدفّق المفتول، ليبلغ قاع الفنجان الكبير المُسمى الخلاّط، لتتشكّل منه رغوة لامعة، تعلو الثلث الأعلى منه، ليعيد القائم بطقوس الشاي صبّه في الإبريق ثانية، قبل إعادة حركة الشلاّل المفتول في الخلاّط، قال لنا رفيقنا الماكر ساكو:

(لكل حرفة ألغازها، التي لا يعلم طرائفها إلا أهلها..).

قبل إتمام استشهاده بالحديث (أهل مكة أدرى بشعابها)، قاطعه عُسْمانو.. قال له في تهكّم هازل:

(حتى مقابر النفايات، لها تاريخ يا مولانا!!).

تبسّم غاريْكو، استفاق لمعاودة الخلطة الثانية من الشاي، التي يكون قد نسيَها أو كاد.. أما إدْريْسو فلم يتمالك نفسه ضحكا، حتى شَرِق وغرق في الدموع..

تدخّلتُ لقطع تهكّم الجماعة، محاولا معرفة أسرار حرفة المُنبِّش في الزُّبالة.. عندها وجد ساكو، الجوّ مناسبا لسرد مفاكهته. بلا مقدمات قال لنا:

(إننا نحن دولة "تَرْكو" لكلّ واحد منا مكانه المعروف من مقبرة الخُردة.. ورثنا هذه الأماكن كما تورث التركة تماما، فبالنسبة لي مثلا، ورثنا أمتارنا فيها بالتعصيب من تركة عمّي "يُوسوفو" الهالك؛ كونه لم يخلف عقبا.. لا سطوَ لأحد منا على جاره، ابتدع لها الآباء، حدودا فاصلة، تراضوا على قسمتها وسجّلوها في رسم محفوظ، استَبْقوا منه نسخة عند كلّ واحد منهم، هذا نصه المقتضب ومعذرة إن أخطأتُ في حفظه؛ لأني أميّ:

"الحمد لله وحده..

نزل السيّد البَرَكة فلان بعشرين قامة طولا وتسع قامات عرضا..

شرقه علاّن، غربه "النهر"..

شَماله الزقاق، جنوبه جهة السوق"..).

في غمرة الضحك والتلذّذ بنكهة الشاي العبداوي، تاهت متاعبنا ولأوتنا..

تناولنا ما تبقّى من كؤوسنا، بطبيعة الحال فترة ما بين الكأسين، كانت لسماع أغاني (فاطي) والرقص على إيقاعها.. حمل إدْريْسو شريطا أبيض، طرقه طرقات خفيفة على مُشاشة ركبته، لإزالة ما يمكن أن يكون قد علق به من غبار، فتح باب المسجّل، أدخله فيه، أحدث هذا الأخير صوتا مميّزا عند غلقه. ضغط على زر التشغيل، انطلقت موسيقى (ماريْكو) الساحرة وعلى إيقاع أغنيتها الإنسانية (**Bébé**)، رقصنا حتى اغتسلنا من هامشنا المليء بالوجع!!

(2)

نظر إدْريْسو إلى ساعة نقّاله (NOKIA) دكّة قديمة، استأذننا للانصراف نحو كوخ الأنترنت؛ لأجل موعد مهم، كان قد ذكر لنا موضوعه سلفا؛ لكنه لم يخبرنا عن الموعد على وجه التحديد.. نعم لا أستطيع قول مقهى الإنترنت!! لستُ ساهيا، أبدا.. بالله عليكَ سيّدي المُخرج.. كيف يطلق على هذا المكان، اسم "Cyber Café"؟ مساحته لا تتعدى تسعة أمتار مربعة، أُلقيت في جوفه بشكل غير متناسق، أجهزة كمبيوترية مستعملة قليلة، تكاد حروف وأرقام لوحها تُمحى.. مع شاشاتها الباهتة، اشتراها صاحبه من مزايدة علنية، لسفارة دولة خليجية، قيل لي اسمها وقت المزايدة؛ لكني نسيتها.. المهم لا تخرج عن دولة نفطية، من أصدقائنا أهل الخليج زادهم الله، ما حسدناهم ومن أعطاهم يعطينا.

ما فهمته بالتخمين وشرحته للرفاق، أنَّ رفيقنا ابن موطاري ذهب لفتح حسابه الفيسبوكي، عساه يجد رسالة حمراء معلّقة في العالم الأزرق كما كان يدعوه، من طرف رفيقه السنِGـــالي (إبْراهيما)، الموجود حاليا بمدينة (تَمَنْراسَتْ) أو كما يحلو للرفاق اختصارها بـ(طاما). تعرّف رفيقنا على هذا الأخير قبل شهرين بمدينة (واGــادُوGـــو) عاصمة بوركينافاسو، عندما ذهب هناك لقبض معاش أمه الزهيد من بنك (BIB)[22].

قلتُ لرفاق المجلس.. بعد تقديم القرائن وربط ذلك بموضوع هجرتنا.. الذي أخبرنا عنه وحمّسنا له خلال الأيام الماضية (إن الأمر لا يتعدّى، ما زرعه فينا الرفيق من تخدير الأحلام..)، هزّ القوم رؤوسهم، مسلّمين بما ذهبتُ إليه!!

22- اختصار: Banque Internationale du Burkina

دون أن نشعر - نحن الرفاق الأربعة- وجدنا أنفسنا نناقش سُبل الخلاص من واقعنا المسدود.. لقد أضحت أخبار الهجرة نحو الألدورادو[23].. هي أكبر شجننا، حتى انتابتنا حالة من الهوس الهستيري، بجمع الأخبار الإعلامية.. عن رحلة مسار صحراء التهريب، المليئة بأخبار الموت والتيه.. وحيَل اجتياز الحدود بلا جواز أو تأشيرة، فضلاً عن التاريخ العريق لسقوط الموتى والكَسْرى من أعلى السِّياج الشاهق، ناهيك عن الرقم الثقيل للغرقى في عرض البحر وسماع قعقعة خشب القوارب أثناء ذلك الغرق، لا أراكَ الله سيّدي المُخرج..

الحق يذكر، أن معرفتنا صارتْ كبيرة بما أخبرنا به رفيقنا إدْريْسو عن إبْراهيما، حول طرق الهجرة نحو دار المُقامة.. حتى صرنا شيوخا فيها والله.. نعطي الأوراد لمريديها، أحسبكَ حضرة المُخرج السينمائي الفرنسي واحداً منهم.. من ذلك على سبيل الذكر لا الحصر.. عرفنا أنَّ هناك خيارات صعبة لا محيص عنها:

الأول منها؛ المغامرة مع سماسرة تهريب البشر على الصراط.. لقطع الصحراء الكبرى وصولا للجارة الشمالية.. مع ما يتشرّط فيه هؤلاء، من أثمان باهظة بلا شفقة، على السلعة البشرية المهرّبة!!

ثانيها؛ قطع مساحة هذه الأخيرة طولا مع شقيقتها الغربية عرضا، بالحافلات والمشي على الأقدام، أثناء التسلّل بين حدودهما، بعيدا عن عيون حرّاس الحدود وهذا لا يخيفنا أو يعوقنا..

23- بالإسبانية (Eldorado)، تعني المُذهّب، أطلق في الأصل على كاهن مُغطى بغبار الذّهب، بمدينة أسطورية عامرة بالنفائس المعدنية، تُسمى (مانوا)، بأمريكيا اللاّتينية، حتى صار المصطلح، يُطلق في عمومه، على أماكن الغِنى والفردوس..

ثالثها؛ المجازفة مع (مافيا) قوارب الموت.. من جنوب ضفة المتوسط نحو إيطاليا، مالطا، إسبانيا أو غيرها من شواطئ القارة الشقراء وليست العجوز، كما يزعم من يطلقون عليهم بـ(طاما) أهل البَرَازيْطْ[24]..

رابعها؛ أخاله الأهونَ عندنا، المتمثل في تحيّن الفرصة المناسبة، كأعياد الميلاد مثلا.. التي يكون الحراس فيها ثملى.. وبالتالي اجتياز السِّياج الآخذ في العلو، بمدينتي سَبْتَة أو مليلْيَة، إن كان هذا الأخير، لن تسلم منه دون كسر، جرح عميق أو كدمات في أحسن الأحوال.. حتى وإن كان الموت فهو قليل.. لن يتركوكَ تصل إليه، إن تفطّنوا لكَ.. بل سيسعفونكَ بالدواء والغذاء والحصص النفسية لإزالة الصدمات.. المهم كنا نفضّله على الغرق في قاع البحر، بدل زيارة كهف القِرش!!

مذ بدأت ذبابة الهجرة تحدث طنينا في مخّي، كنتُ كثيرا ما أحدّثُ نفسي قبل النوم وأنا مستلقٍ على حصيري برحبة البيت في العتمة، أسلّيها بالقول:

(إن خيار وقوفكَ على جبل الأقْرَع المطل على مدينة سَبْتة أو جبل (GــــوروGــــو) المطل على مدينة مليلْية، مما تستطبُّ به عينكَ ويمنحنكَ رؤية الفردوس بلا واسطة يا مخلوق.. ألا تحبّ أن ترى حلمكَ ولو من البعيد القريب؟ ترى منازله الصفراء، الحمراء، البرتقالية، المتدرّجة على الجبل المقابل؟ وتبصر بأم عينيكَ أهله يتحرّكون، (وأيم الله) إنكَ بهذا قد حقّقتَ جزءا من حلمكَ يا متعوس.. لنفرض - لا قدّر الله- أخفقتَ في اجتياز أسلاك الحديد- هذا ليس مستبعدا والعبور ليس مضمونا- وردّوك منكسر الخاطر.. فإنكَ على الأقل ستجد ما تحكي للمتحلّقين بكَ بعد عودتكَ في مجالس "Gــــمْكَلي" وما أضناك أن تغرق في عرض البحر ويبلعكَ الحوت يا شقيّ!!).

24- كلمة شعبية، للدلالة على من أصابته دودة "القيل والقال..".

نعترف- نحن الأربعة- بكلّ رباطة جأش، أن رفيقنا إدْريْسو هو من أيقظ فينا فكرة دار الخُلد.. بحكم تنقله الأخير لعاصمة بوركينافاسو، إذْ كثيرا ما كان يتحدّث لنا عن أحلام رفيقه الكامارادي إبْراهيما، الذي التقى به في (واGـــا)، فدخل معه السيبر وفتح له حسابا فيسبوكيا، أثناء تواصل هذا الأخير مع مواطنه (السنِـGـــالي) بـ(طَامَا) الجزائرية، التي قال لي إن الإخوة الرفاق، يلقّبونها بـ(باريس ليكامارادْ) وما أكملاه من حديث بينهما خلال الرحلة الأخيرة قبل شهرين، بحافلة شركة (Sonef) النيجيرية، بين (واGـــا) ونيامي. حيث نقل لنا رفيقنا إدْريْسو، اندهاش إبراهيما، كون أهل النيجر، لا يفكّرون كثيرا في الهجرة البعيدة!!

خلال هذه الفترة، أغلب الظّن أنَّ إدْريْسو، يكون قد اقترب دوره في طابور طويل من المنتظرين أمام الأنترنت. أخيرا وصل دوره بعد لُغُوب.. أمره صاحب المقهى، أقول (المقهى) هنا من باب التفاؤل فقط، ليس إلاّ.. لعلّ الأمر قد اتّضح عندكَ سعادة المُخرج السّخي.. قلتُ طلب منه ربّ المقهى، أن يتّجه للمكان الشاغر، بحسب قول إدْريْسو طبعا، نحو الزاوية اليمنى. وضع هاتفه النقّال جنبا بعد جلوسه، كتب اسم المستخدم وكلمة السر.. انتابته حالة تشبه تلك التي تتلبّس المؤمن بالشعوذة من الساحر.. قبل انبلاج الصفحة، تسمّر مكانه كالحجر، ركّز بصره على أيقونات الجهة العلوية الشِّمالية، ازدادت حملقته على الوسطى المربعة.. لا تستعجبْ سيّدي.. إذا قلتُ لكَ يا إمام العدسة.. (إن عدّ الثواني خلال هذه اللّحظات من الانتظار كان معدوما، بل حتى الدقائق هي الأخرى كانت تُزدرد بشراهة، نظرا لبطء النّت ومشية السلحفاة فيه، كما يعلّق رفيقي ساكو بطرافته على ذلك..).

أخيرا الشاشة الزرقاء بعد شدّ ومدّ.. ترقص على إيقاع (بحيرة البجع) للموسيقار الرّوسي (تشايكوفسكي). يكون العَرق بدأ يعانق رفيقنا ويتشكّل على سحنته العريضة، كما أحسّ بقطرات باردة تنفلت من بين شعر

إبطه أيضا. بلع ريقه، أزال العرق عن جبهته بظاهر يده اليمنى. لحسن طالع أمه خديْجاتو، تبدّت له الأيقونة المربعة الوسطى حمراء!! كانت رؤيتها سهلة على ما يبدو.. لكون يمينها وشِمالها، كانتا غير مستعملتين.. (شيء طبيعي ألا يُعلّق فيهما إعجاب، تعليق أو طلب إضافة..) كما قال محدّثي؛ لكونه دخل عالم الافتراض، من أجل هذا الغرض حصرا.. بعد تمرينات له من إبْراهَيْما، بأحد مقاهي السيبر بـ(واGـــا). بالمناسبة سيّدي المُخرج.. مصطلح (السيبر) هنا جائز وليس عارضا.. أتصوّر المشهد والحال هكذا، أن تكون قد اشرقت على وجه رفيقنا بهجة عارمة.

قبل انبلاج الرّسالة وما أثقلها أثناء هذا التقطير العنكبوتي.. نكون لحظتها قد ارتشفنا كأسنا الثانية، بعد استراحة ثانية مع (ماريْكو) متبوعة برقصة خفيفة.. وأكملنا موضوع حلمنا وسُبل الوصول إليه، دون أن نقرّر أمرا في غياب الزعيم إدْريْسو.. الشمس هي الأخرى قاربت المغيب، بدأ قرصها الأصفر يتراخى.. غسلنا عدّة الشاي، وضعنا قليلا من بُلالَة التراب على الجمر، أعطينا المسجّل بلا واسطة لأمه خديْجاتو، التي كانت عائدة إلى البيت خلال هذه اللّحظة، الأخيرة تشبه أمي ونساء الحي، عدا ذلك القرط الحديدي، الذي لم يكن في أنفها أصلا أو قد ترك شِيَة فيه، كبعض الجارات كما قلتُ لكَ من ذي قبل.. مع ملاحة ظاهرة عليها لأثر قليل من النعمة، المهم افترقنا وكلّنا تطلّع لما سيفيض به سيّدنا الفيسبوك على رفيقنا.

مضى وقت قانط بطيء؛ كأنه ليل شتاء على رفيقنا وهو مسمّر أمام الشاشة، يقضم أظافره أحيانا أو يضع راحة يده اليمنى تحت ذقنه من ارتكاز المرفق على الطاولة، أخيرا وقع الإفراج عن مضمون الرّسالة، هذا نصّها، بحسب ما رواه لي إدْريْسو بلفظه وأوردُه هنا بتصرّف.. فمعذرة مُخرجي المبجّل، إن سقط في درج الكلام مبنى أو معنى سهوا:

[رفيقي الموطاري..

عساكَ بخير مع والدتكَ ورفاقكَ الأربعة الذين حدّثتني عنهم.. أنا بخير هنا بـ(طاما) لا تقلق.. وصلتُ منذ ستة أسابيع، قضينا خمسة عشر يوما في الرحلة بين نيامي وطاما، بعد عقد صفقة طال التفاوض حولها، بين أحد سماسرة تهريب البشر بمدينة (أGــــادَزْ) وممثلنا، تُهْنا في الصحراء حتى شارف الوقود على الانتهاء.. كدنا نموت والله.. بسبب الرياح التي طمست معالم طرق التهريب.. لا حاجة لأن أسرد لكَ كيف نجونا؛ لأنكَ لو جرّبتَ ستتأكد بنفسكَ عن الذي جرى ويجري للرفاق.

عبور تلك الطرق بالمغامرة لا محالة واقع.. روى لنا المهرّب الطارقي، إنه بالرغم من خبرته وطول عشرته بطرق التهريب من مدينة (أGــــادَزْ)، نحو الثالوث (تشاد، ليبيا، الجزائر). لم يحدث له أبدا كالذي حدث معنا؛ بل ذهب إلى القول، إن ذلك لم يقع له، حتى في بداية عهده بتلك المسالك.. ما جعله يطلق على أحد مرافقينا البنينيين، صفة النّحس في هذه الرحلة.. ودلّنا على عرقوبه الحاد كالسيف.

المهم لا أطيل عليكَ.. لعلّ هذا الكلام ليس أوانه الآن، المفيد والمختصر من القول:

إنْ كنتَ مقتنعا بفكرة الهجرة.. كما ذكرتَ لي، قبل وداعنا بنيامي قبل شهرين، فإني بـ "طاما" حاليا أو تجدني تقدّمتُ قليلا شَمالا، نحو مدينة "أدْرارْ" ببلاد "تَواتْ" من الصحراء الغربية للجزائر.. هذا رقم هاتفي بالجارة المضيافة.. مع شركة (**Mobilis**) (**0663**......)، يضمن لي التغطية من إقامتي هنا بطاما، حتى أبلغ مدينة (مَغْنيّة) الجزائرية عند الحدود مع المغرب، هو مسار طويل.. لن أقطعه إلاّ بعد ثلاثة أشهر على أقلّ تقدير، بعد استراحات لتدبّر المال لإكمال الرحلة، لكَ الوقت الكافي للحسم خلال هذه المدّة.. المهم أن نكونَ قبل أعياد الميلاد لهذه السنة، قُرب سيَاج سَبْتة بغابة قرية "بلْيونَشْ" نواحي مدينة "الفنيدَق" أو على جبل "GــــوروGــــو"

المطل على "مليلْية"، اللّذين أبنتُ لكَ موقعهما على الخارطة، إن كنتَ تذكر يا صاح.

إدْريْسو العزيز..

المقامرة نحو حلمكَ ومبتغاكَ يا رفيقي، تتطلب مغامرة قاتلة ومخاطرة مميتة، النتيجة غير مضمونة طبعا.. هذا ما يمكنني قوله لكَ، حتى لا تظن أن رفيقكَ "السنِـGــالي" قد غرّر بكَ، حقيقة مُرّة عليّ أن أقولها لكَ وبكل صدق.

باي رفيقي..

رفيقكَ المخلص إبْراهيما.

الساعة 19:37

18/ 07/ 2012

قرب جبال "الهُــGــار"

تمَنْراسَتْ].

حرّك إدْريْسو الفأرة صوب أيقونة تسجيل الخروج.. حمل هاتفه الذي كان جانبا، حتما سجّل فيه ذلك الرقم. اتّجه نحو مكتب صاحب العدّاد، نظر هذا الأخير على الشاشة الباهتة أمامه، يضيف محدثنا دائما، إن بها مربعات فيها أرقام، كلّ واحدة تحمل رقم الحاسوب، أعطاه كما طلب (2000 فرنك سفا)، مع علم الرفيق أن نصف هذا المبلغ، لم يُستغل كما يُفترض، بسبب بطء النّت، كأني بصاحب المحل، أحسّ عدم اقتناع رفيقنا بالمبلغ، قال له التاجر وهو يسوّي قبعته الخضراء المرقّشة:

(''الله غالب'' يا ابن ''Gـــمْكَلي''، الاتصالات ضعيفة..).

تفضّله بإجابة مجانية دون طلب، ما كان سوى تبرير لسرقة مهذّبة كما ذكر الرفيق دائما، رغم حرصه على الصلاة الجماعية وغلقه لحانوته وقت قيامها..

البـعث..

(1)

لم أشأ أن أفاتح أمي سَلاماتو بالمسألة هذه الليلة، كان صعبا جدّا عليّ، إبلاغها بقرار المجازفة وما سيترتب عليه ابتعادي عنها وعن أختي زيْنابو.. خيارات صعبة كنتُ أمامها، رغم مراعاتي لذلك؛ لكن كما قال صاحب خردة الإنترنت لرفيقنا إدْريْسو (الله غالب) مولى العدّاد وجدها تبريرا لغشّه وأنا سأجد بها تخلّصا من عقدة الشعور بالذنب.. وإن كنتُ ما أسعى إليه في الحقيقة بهذا الاقتراف الجنوني، إلاّ محاولة لتحسين حالي قدر الإمكان.. ولا أخال أمي وأختي، تشذّان عن اجتهادي في المنحى.

في كلّ مرّة خلال هذا الأسبوع، أحاول مكاشفة صاحبة القرط الحديدي بهذا الخَبَال، انطلتْ عليّ الحيلة صراحة!! أُصبتُ بالعي والله.. الضغط النفسي من جهة، المنطق العقلي من جهة ثانية، دون أن أنسى الوضع الاجتماعي، كوابيس ومسامير مسننة تكوّمت كقشّة، غصّتْ حلقي بقول الحقيقة لها.. فبقدر ما كان امتعاض رفيقي من غلاء النّت عند صاحبه، كان سروري بالغا بما استشهد به هذا الأخير له.. من خيار الخلاص (الله غالب)!!

رفيقنا عُسْمانو كان غير مُكترث بالقضية البتّة، أفضى لنا في مجلس الأمس وكرّرها اليوم عصرا، إنه رمى المنشفة.. بعد القسم المغلّظة لأمه (حليْماتو) وجهرها له بدعوة الشّر (أمارتها عندنا إخراج الأم ثديها لابنها).. إنْ هو كرّر تلك الأحلام ثانية في ظلّ خياله.. أما بخصوص الرفيق ساكو، فقد كنتُ مطمئنا من جدّيته للموضوع، همّه الوحيد بحسب ما صرّح لي به، ضياع ذلك الحيّز الجغرافي الذي ستفقده الأسرة بعد ذهابه، من مرقد نهاية الصلاحية والاستعمال وإن كان له أخ على أية حال؛ لكنه لا يقوى على كَرْكَرة العربة، بعد هدِّ ذلك الوباء له، الذي فتك بأختي (ميْناتو) في ذلك العام اللّعين..

الرفيق غاريْكو ونظرا لظروف استثنائية حرجة، طرأت عليه مؤخرا.. أعفيناه من القضية، رغم هوسه الشديد بهذا السحر.. هلك والده (صَمَادُو)، قبل شهر وعشرة أيام، أمه لا تزال في العِدّة، بقيَ لها- إن لم تخنّي الذاكرة - ثلاثة أشهر بالتمام، الجرح لا زال لم يندمل.. مات أبوه ميتة تراجيدية - أسمعكَ الله خبر الخير- جراء عمله في حفر بئر صرف صحي عميق، لأحد الأثرياء بحي (بْلاطو) الثري، بعد انفلات الفأس الحادّة من الحبل النازل وهو في قاع البئر.. هذه مضحكة أخرى، من طرائف عاصمتنا- قبّحها الله- ادّخرتها عمدا ولم أُكثر عليكَ بذكرها بادئ القول سيّدي المُخرِج.. أثناء طرف حديثي عن مطاعم الأرصفة بعاصمتنا المتحضّرة.. يجوز لي القسم، أنها لم تأتِ على ذوات صدركَ أو بنات عقلكَ، بلا حيضة رجال عليكَ.. أقول ملء شدقي من الافترار:

(عاصمتنا - عزاها الله- لا توجد بها قنوات الصّرف الصّحيّ، هل رأيتَ سيّدي.. عاصمة بلا صرف صحي؟ صدِّق أو لا تصدِّق، هذا لا يهمني؛ هي الحقيقة.. بلا مساحيق تجميلية أو عطور باريسية كما عندكم..).

قضيتُ ليلة- لا أراكَ الله - سَقَرية، بين سياط الأرَق ووخز البَعوض.. ذلك الفارق الذي اغتاله أولئك الأغنياء ببركة أسيادهم.. حتى إن نسيته، ستقولُ لا محالة إني كذّاب وأتّاء بهتان.. ألمْ أقل لكَ إنه آخر القلاع؟ لن أزيدكَ بما عطّر أنفي ورئتي من الهواء المعفّر.. بالله عليكَ، كيف يأتي النوم لإنسان وحيد، سيترك أمه المسكينة وأخته اليتيمة لمخالب الدهر؟ بعد هذه الأهوال المتسلّطة الخنّاسة، تكون قد أخذتني غفوة من النعاس، لم أقدر بعدها النهوض لحرفتي الصباحية المعتادة، كنتُ قد وعدتكَ بالحديث عنها.. والإخبار بها قريب جدّا.. إلحاح أمي المتكرّر لنهوضي بغية جلب القوت، قصَّ عليّ لذّة النوم الصباحي، التي تستلذّ به جنبات السهران من أرق السُّهاد.

بعد إقلاعي لأوتاد الكسل، نهضتُ متثاقلاً بمسٍ من الهجوع، صوب زاوية الرحبة، هناك ترقد قِلل الماء الطينية والقِربة المعلّقة في الوتد، ذات الشعر البُني، قطرات الماء تتساقط متراخية بشكل عجيب من هذه الأخيرة، مصدرة صوتا طريفا أثناء وصولها للحفرة الصغيرة، التي تجمّعت بها سابقاتها تحت القِربة. الشمس مشرقة، ظل الحائط المشرف يرسم نصف الرحبة أو أكثر من ثلثيها.. أمي تسبّح بحبّات مسبحتها، جالسة القرفصاء على حصيرها، صبّحتُ عليها، أختي تغسل الأواني بالتراب والماء، لا صابون لدينا ولا هم يحزنون!! استعماله القليل كان للملابس فقط، لم نعهده إلا خلال السنين الأخيرة، لا زلتُ أذكر عندما كنتُ صغيرا، حيث ذهبت مع والدي لجلب الطين الأبيض، الذي كنا نغسل به ملابسنا، من مغارة طينية خارج الحي جهة الغروب.

صبّحتْ عليّ أختي، كما تقتضي الأعراف (الزرماوية)، غسلتُ وجهي، لا أذكر أني توضأتُ وصليتُ الصبح هذا اليوم، هي عادتي في أوقات العجلة صراحة، مع أني وإلى حد ما ملتزم بها بشكل تقليدي وطوعي، مشكلتي أني كنتُ أتركها مؤجلة لوقت آتٍ.. المفيد من الحديث وحتى لا أطيل عليكَ.. شربتُ كوب شاي بارد حافٍ مع كرة معجونة جافة هي الأخرى من أكلة (هَتْشي) المصنوعة من الدّخن.

خرجتُ من الحي زمن ابن ذُكاء، فاتني اليوم إلقاء نظرة على النهر، هو هبة الله الوحيدة، التي أعطاها أهالي (Gـــمْكَلي) ونيامي سيّدي المُخرج.. هكذا أريد لنا، هذا حظّنا.. أشياؤنا الجميلة قليلة وحيواتنا المُنكرة كثيرة.. لا تضحكْ إن قلتُ لكَ.. أنا الآخر لي عربة (تَرْكو) مثل رفيقي – غير الدائم – ساكو!! الفرق بين (تَرْكو) دودو و(تَرْكو) ساكو، أن عربتي أقلّ حجما من عربته، فضلا عن حركتها، هو يدفعها إلى الأمام وأنا أجرّها من الخلف.

لم يكن الوقت كافيا كفجر كلّ صباح، حتى أقطّع أعواد شجرة (Gـــورو)[25]، التي يأتي بها جارنا العجوز (بَراكاتو) على حماره، كلّ مساء من الوديان المجاورة خارج نيامي، يبيعها لأمي ولشخص آخر لا أعرف اسمه، كل ما أعرفه عنه، أنه سبعيني، قصير القامة، أعرج، دميم الخلقة، كأن الله خلقه في الرابعة صباحا وقال للملائكة (اِزهدوا فيه..)، كان يأتي من حي الصفيح خلف الضّفة الأخرى للنهر، حيث كانت ترعى بقرتنا.. كان يحزنني كثيرا أن أجده محترفا (Gـــورو) عبر طرقات المدينة. ذات مرّة نبحتُ في وجهه كالكلب، عندما تسلّط على الأزقة والشوارع التي ورثتها عن أبي وجدي، منذ ذلك اليوم عرفَ قدره، والتزمَ حدوده.

ما أجمعه في كامل اليوم من هذه الحرفة، مبلغ زهيد من الفرنكات على كل حال، تقول أمي، ببلاغتها الفطرية (إنه لا يملأ حتى حفرة الضرس المسوّسة!!) كم مرّة عندما يكون المبلغ غاية في القِلّة، أن تقرّب وجهها مني وتحشوَ سبابتها اليمنى في فمها وتبين لي عن فمها الخرب، فتكشف لي حفرة ضرسها المسوّسة، هي تفعل هذا كناية عن الشّح؛ لكنها أقلعت أخيرا عن هذا السلوك المضحك، حتى بعد قلوص فضّة الفرنكات.. لا أدري لماذا كانت تفعل ذلك؟ ولِمَ أقلعت عنه فيما بعد؟ (لعلّ المسكينة كانت معذورة!!) هكذا كنتُ أبرّر الموقف وأعطّل العقل عن التعليل.

عيناها الشوّاظتان تعوّدتا تصوير الجيب الأيمن من سِروالي عند كلّ رجوع، بمرور الأيام مع أبي ومعي أيضا، صارت تقرّب عدد الفرنكات من حجم انبعاجها من واجهة بنْطلوني، الحساب كان يخيب لها أحيانا.. لا سيما عندما تقدّر عدّ انبعاجها بالفرنك وأكون قد صرّفتُ لأحد الباعة، قطعة خمسة فرنكات أو عشرة. كان يغيظها أن أُصرّف لهم الفرنكات، زجرتني كذا مرّة.. تحبّ في خاطرها أن أضعها في حجرها بأصواتها الرنّانة.. كانت

25- نبات له سيقان كالقصب، يمضغ، ويترك أثرا حلوا بالفم.

تتسلى بصليلها ساعة إلقائي لها، تتمنى لو تكون الفرنكات أكثر، ليزداد نشيد طربها بها.

حصاد طواف يومي بحسب الوضع والمآل.. في الغالب لا يتعدّى مائة فرنكٍ، قد يزيد عنها قليلا أو ينقص، تقسّمه أمي على قسمتين متساويتين، النصف لشراء أعواد (Gـــورو) من عند العجوز بَراكاتو، النصف الثاني، نشتري به كفّ تمر أحمر توّاتي يابس من السوق الكبيرة، مع قليل من الدُّخن أو الذُرَة، قطعة شحم مملّحة، إن رشحتْ فرنكات معدودات، تدّخرها أمي مع أخواتها الفائضات، لتشتري بها غرامات من الشاي والسكر.

من يمتهن حرفة تقطيع أعواد (Gـــورو) وبيعها عبر التجوال في الشوارع، نُطلق عليه في لهجتنا، مصطلح (رَكايْ) لذلك يجوز لكَ من الآن، أن تضيفَ لي لقبا جديدا هو (الرَّكاوي) مع مامادو طبعا ودودو المدلّل وواحد كانت تذكره لي أمي حصرا دون أحد من العالمين.. ولا أحسب جارنا العامل الفندقي، قد ذكر لكَ هذا الأخير في سلسلة ألقابي، عندما عرّف بي لحظة لقائنا الأول بمقهى الفندق سيّدي المُخرج.. المهم نابت عني أمي هذا الصباح، في تقطيع أعواد (Gـــورو)، بعدما يئستْ من إيقاظي فجرا. قطّعتْها وصففتْها لي في تَرْكو، مع سكينة حادة ومنديل كتاني أسود، أتظاهر النظافة به أحيانا، لكسب ثقة المشترين، عفوا المتعاطفين..

خلال صعودي المنحدر بجانب المستشفى في ذلك اليوم المتأخر، تذكّرتُ إدْريْسو، ما عساه مع رسالة (Facebook) من إبْراهيما، أتراه عثر عليها، أم تاهت بين أمواج التدفّق الواهن المتهدّل؟ فكّرتُ خلال هذه اللّحظة، أني سأنصحه عشيّة اليوم بالمجلس، أن يستعمل الرسائل القصيرة مستقبلا مع إبْراهيما، إن هو أراد الاتصال به لاحقا من هنا وبالتالي التخلّص من هذه الأعباء السمجة للنّت.. ما دام هاتفه العجوز بإمكانه تقديم خدمة (sms) بثمن زهيد. على أية حال لم نخسر شيئا من صاحب القبّعة المرقّشة.. أنا

شخصيا منحني المفتاح السحري للخلاص (الله غالب)، إدْرِيْسو لم يعد خائبا من عنده كما سيذكر لي لاحقا..

على كلّ سأمرّ على هذا الأخير في محطتي الأخيرة، قرب السوق الكبيرة، بعدما أكمل دوراتي عبر أزقتي وشوارعي المرسومة، التي كان والدي بوريْما يسلكها ويجتازها جدّي غَنْدا من قبله. إذ يحق لي أنا أيضا سيّدي المُخرج.. أن أخلق من هذا الطواف نكتة كما زعم ساكو.. أقول (إنها تركة تورث كذلك..). ألقيتُ بنفسي المثقلة وعربتي الصغيرة إلى الشارع العام، المارّ أمام البوابات الأمامية للمستشفى والفندق- لعنهما الله- واجهتي للأمام، يداي مثنيتان للخلف تجران العربة، جرّا خفيفا يصدر صوتا لطيفا.

العاصمة تشهد في مثل هذا الوقت من كلّ يوم، أقصى حالات استعراضها من السيارات المهترئة، الملفوظة من عندكم بأُوروبا لمقابرها هنا.. وكذا خَطْخَطَة الدرّاجات النارية الكثيرة، أسير على الرصيف، إن كان هناك شيء اسمه ممرّ المُشاة، الغبار يتسلّق للعربة بشكل جنوني.. الأكياس والعلب الفارغة بشتى الأشكال والأنواع، تزيد من محاولاتي وعثراتي. يا الله.. الجوّ لن أتحدّث عنه هههههه.. لسروري به طبعا؛ كونه يمنحنا مشاركة عميقة ومسلّية للعيش مع أصحاب الرفاه عزيزي المُخرج.. كما أنه يساعد في تضييق الهوّة بيننا وبينهم، فإن هم نجوا من القمامة وركبوا سيارتهم الفارهة هروبا من منظرها الوحش.. فإنهم لن يمنعوا صدورهم من بركات الهواء الملوّث.. لذلك لا أستطيع أن أذمّه، هو الآخر أتمنى أن يبارك لنا الله فيه ويزداد أكثر.. في مثل هذه الأجواء، أتسلّل عبر ممراتي بعربتي، أبيع أعواد الحلاوة لمدمنيها.

تقول الأسطورة التي روتها لي أمي عن أبي بوريْما:

(إنَّ جدّي غَنْدا، عندما هاجر من قرى مدينة (دُوصو) قبل سنين بعيدة وجاء إلى نيامي، بعد قحط هناك.. استقرّ مع غيره من المهاجرين على ضفّة النهر، حيث مارسوا الصيد في تلك الأيام الخوالي، حتى جاءهم عام كبيس،

كاد النهر يجفّ معه، ما أضعف الصيد به واشتكى الصيادون فيه لـ(دُوكو) فرعون النهر.. ولم يقضِ لهم شيئا أو رقصوا رقصة "فولوهوري" التي يرتفع الجذب فيها بإيقاع الطبل.. وهي من العادات الموجودة فيهم منذ القدم..).

جبرتُ عبارة "منذ القدم" من رواية والدتي سيّدي (الكاميرا مانْ).. أن أبدلتها بعبارة:

(قبل الإسلام..) وهذا اجتهاد مني..

تضيف أمي:

(ما كان من أمر جدّكَ المسكين، إلا أحد الخيارين، إما أن يتسوّل أو يحترف بيع أعواد "Gـــورو"، التي تمضغ فتعطي نكهة حلوة بالفم، ففضّل هذا الأخير، بيع تلك الأعواد بدل التشفّع، رغم ثمنها الزهيد جدّا..).

منها فهمتُ قول غاريْكو لي دائما:

(أنت محظوظ يا دودو، شفع فيكَ جدّك من التسوّل..).

لا أنكر أن التذمّر أصابني من هذه الحرفة مرارا؛ لكن قداسة ميراثها وتركتها، تجعلني أصرف الأمر من الاستهجان إلى الاستحسان، أحايين كثيرة.

ها قد وصلتُ سيّدي الكريم.. أزقة حي أهل (تَواتْ) بالجهة الشرقية للعاصمة، أطوف عتبات أبوابه، مقتفيا آثار أقدام جدّي، الذي مرّ من هنا.. أوقف العربة عند منتصف كلّ زقاق، أُقَنْقِنُ بالظهر السميك لـ(الموسى) على الحافة الحديدية اليمنى من جانب العربة، صوت ألفه سكان الحي.. موسيقاه قديمة التناغم، جدّي المرحوم، هو الذي اخترع هذه السمفونية، والدي بدوره أعجبته هذه التطريبة، ورّثني إياها، أعرف أني لو غيّرتُ منها شيئا.. سوف ينفرون مني، ربما هم يتعاطفون معنا في شراء هذه الأعواد ومضغها ومصّها؛ لأجل هذه التغريدة المتوارثة، أكاد أميل لهذا الاحتمال.

زاد أبي في حياته على ميراث أزقة جدّي، أن نسج علاقات أخرى، مع تجار (بني هوسا) بالحي الغربي من المدينة، الذين هاجروا إليها، من نواحي مدينة (مُورادي)، حتى غدا الطواف على شوارعهم، بمثابة الدورة المتممة للأزقة المذكورة. قانون الحرفة وطقوسها، يقتضي أن أسبق من تركة أزقة جدي ثم آتي على ميراث شوارع والدي، لم يحدث أبدا أن قدّمتُ ميراث أبي على تركة جدي؛ لأن أمي كانت تقول لي دائما، إن أنا فعلت (سوف يُطيّر البركة من معاش "Gـــورو"..) لذلك كنتُ متحفّظا جدّا، في عدم المساس بهذا الترتيب التسلسلي المقدّس!!

جمعتُ ما شاء الله لي من الفرنكات، بأزقة جدّي وشوارع أبي، أخرج بعدها من الشارع الصغير، المتفرّع من الشارع الخلفي الكبير لتجمع بني هوسا، أسير متمهلا، الحرفة تقتضي ذلك.. قد أتوقف ببعض الأماكن بعينها، أكون قد ابتدعتها أنا شخصيا وكنتُ عاقدا العزم قبل مجيء فكرة أحلام دار النعيم.. أن أورّثها لأبنائي مستقبلا إن تزوّجتُ، رغم ملاحظتي لبداية زهد المتعاملين. المهم أتممتُ دوراتي الملتوية عبر تلك الفضاءات، حتى بلغت الواجهة الشمالية للسوق الكبيرة.

(2)

الحركة والضجيج يبلغان ذروتهما اللاّمتناهية، خلال فترة منتصف نهار نيامي، لا سيما بهذا المكان من السوق الكبيرة، استقبلتني رائحة شواء (المايْناما) من بعيد، الدّخان يعلو المكان، بدا لي إدْريْسو واقفا على بعد أمتار، أمام المشواة التقليدية، لولا أني أعرف تفاصيل ملامحه، ما كنت اكتنهته، نظرا لشدّة الدّخان المتصاعد، قبل وصولي إليه بخمس خطوات، كان عند نهاية الخطوة الرابعة التي قبلها، قد رمقني خلال تقليبه لشرائح اللّحم، التقتْ أعيننا كأنهما اتفقتا على هذه اللّحظة، تبسّم ابتسامة خفيفة، قبض نفسه بعدها قبضا مبلّجا، الراجح أنه تذكّر تلك التوصية المحذّرة لنهاية رسالة إبْراهيْما وتنصيصها على خطورة المغامرة وعواقبها أو ربما قدّر في لبّه، وضعيتي الاجتماعية الحرِجة.. لست متيقنا، ما أقطع به أن ذلك الاحتقان وإجهاض الابتسامة المتفائلة، لا يخرج عن هذين الاحتمالين وهذا هو المقرّب عندي..

كان الرفيق إدْريْسو مشغولا جدّا بعمله في حضور الباطْرون[26]، هذا الأخير ستيني العمر، منتفخ كقِربة.. سمرته مفتوحة، يلبس عباءة بازان (Gـــانيليا)[27]، يكوّر عمامة كاكية[28] اللّون، حاولت عدم إحراج رفيقي إدْريْسو. كان الباطرونْ يزرع فيّ رهبته دائما، عندما يراني بقرب المشواة، يطردني بعينيه المتورمتين من الدّخان، يحسدني حتى على هذه الرائحة التي أشمّها، قلتُ له في نفسي ذات مرّة وكدتُ ألفظها له جهارا (إني أتنسّم فضلات لحمها رغما عنكَ بجمر شاي مجلس فَضَا أيها الحسود..) هذه

26- ربّ العمل.

27- قماش اللّباس الإفريقي الممتاز.

28- كلمة فارسية تعني اللّون الترابي.

الأخيرة، هي الرائحة الذّكية الوحيدة، التي أغدق الله بها علينا، بهذه المدينة العطرة سيّدي (مولى الكاميرا)..

انتبذتُ زاوية غير بعيدة عن إدْريْسو. حدسه أظهر له حيرتي من احتقانه، لم يجد حيلة ليطرد عنّي هذا الغشيان.. سوى أنه قبض أصابعه في كفه اليمنى وأطلق إبهامه على شكل هلال للدلالة على أمر فيه فُرجة.. كتلك الإشارة الزرقاء، التي أبانها له إبْراهيما بـ (واGـــا) - كما روى طبعا- بالزاوية السفلية لجهة الشِّمال، من نافذة الدردشة للفَسْبَكة، هي إشارة معلومة حتى في قرى النيجر النائية.. الإيماءة السيميائية كانت كافية بأن تخفّض نسبة الضغط الدموي في عروقي الخالية من الكوليسترول أصلا والحمد لله.. وتردّني إلى لحظة الابتسامة البريئة، قبل اغتصابها وذبحها.

حاولتُ استغلال تلك الفترة، التي كان فيها رفيقي منهمكا بعمله، نأيتُ بنفسي بعيدا، ليس هذا فحسب، تراني تهيّبتُ أن ترميني نظرات الباطرونْ بشهاب في أحد مقاتلي ثانية.. صرتُ معقّدا منه جدّا، مرّة من المرّات التقيتُ به عرضا في الساحة أمام المستشفى، غيّرتُ الطريق، حتى هو أصابه التشوّش من رؤيتي.. أصبحنا لا نتحامل والله.. لستُ أدري ما السبب الحقيقي، الذي أوصلنا إلى هذه الدرجة من العداء؟ ذات يوم فكّرت في أمر خبيث، أن أنتقم منه في أطفاله، حتى دلّني البعض عليهم بحي (شينْوازْ) الثّريّ، ثم عدلت عن الفكرة.. قمتُ بعدها بدورة مجرورة لعربتي، علّني أبيع ما تبقّى من (Gـــورو). أمي - سامحها الله في هذه الحالة فقط - لا يروق لها ما يتبقّى من أصابع (Gـــورو).

لم تقتنع والدتي بتغيّر الأشخاص والأزمنة.. لا زالت تحافظ على الكميّة نفسها، التي كان والدي يبيعها. ربما فاتها أن الناس تبدّلتْ ولم يعد لـ(Gـــورو) أي مستقبل، بسبب زهد الناس فيه، الآباء كانوا يمصّونه كفعل تراثي، ورثوه عن أجدادهم، كما ورثتُ هذه الحرفة عن أبي عن جدي، ليس إلاّ.. كما أن أبناءهم أصبحوا يتعلّلون بعدم تنظيف شفرتي وأني ألعبُ

بها أحيانا وأرسم بها خطوط التيه على الأرض، عندما أكون مع إبليس.. دون إعادة تنظيفها، كما شهّر بعض الناشئة منهم.. أن منديل الحرفة الأسود، التفتُ به أحيانا لأنفي.. لا سيما عندما يصيبني الزّكام، من تلك الروائح المُنكرة. نسوا – سامحهم الله– أن الجراثيم والأوساخ، آثرت عناقها لنا في كلّ شيء بهذه المدينة (هي ذريعة مفضوحة ابتدعوها فقط..) أعرف هذا سيّدي المُخرج..

بدأت السوق الكبيرة تتنفس من الازدحام، انعطفتُ إلى الشارع العام، قبل نهايته، التقيتُ صدفة مع غاريْكو، الذي يكون هو الآخر، قد أكمل طقوس تجواله.. أصابعه العشرة تحمل قلائد تقليدية من العقيق، وُهب براعة في ترتيبها بين أصابعه، كما وضع على أطرافه الطويلة ملابس مستعملة، كان يشتريها من عند أحد تجار الجملة بضواحي العاصمة، ذكر لي ذات مرّة في مجلس فَضَا، أن هذا الأخير (كان يستوردها في حاويات من ميناء "لومي" عاصمة "الطوGــــو").

استدعت ذاكرتي معلومة قديمة.. أذكر جيّدا، عندما قال لنا معلّم الجغرافيا الكهل (إن بلدنا مع جارتنا مالي، تعدان من البلدان الحبيسة، التي لا منفذ لها على البحر..) هو شقاء آخر لنا، يمكنكَ أن تضيفه مُخرجي المفضّل.. إلى قائمتنا المزركشة بالبلاء!! إذ إنَّ تكاليف شحن الحاويات من ميناء (لومي) والإتيان بها برًّا لـ(نيامي)، يرهقنا ويزيد من لهيب الأسعار بها، لا سيما بالنسبة لنا نحن الضعفاء.. وإن كنتُ أجد مسوّغا منطقيا لذلك؛ لكني لا أنفيه مطلقا.. عديد البلدان في العالم، التي لا منفذ لها على البحر مثل حالتنا، تنفق تكلفة شحن بضائعها عبر موانئ الدول المجاورة، من ميزانية خزينتها العامة، حتى لا تثقل كواهل رعاياها.. المفيد أبلغتُ غاريْكو تضجّري من باطرونْ المايْناما، صرف نظري عن العودة لإدْريْسو، بالقول (إن الوقت لم يعد كافيا وسنلتقي به بفَضَا عشيّة..) استحسنتُ فكرته ولعنتُ الباطرونْ في خاطري ثانية.

تخلّصنا من الشارع الشَّمالي، أعطيناه ظهرنا، لننفتح أمام الساحة الواسعة، التي تدور بها أغلب الوزارات والمطاعم الفاخرة!! قطعناها متعثرين بالمتسوّلين والقمامة، حتى بلغنا الباب العام للمشفى، تصادفنا مع ساكو يدفع عربته عائدا من منجمه.. كنا كلما التقينا بعربتينا، واحد يدفع وآخر يجر.. عند الدخول أو الخروج من الحي، نفسّر هذا الفعل، بالدنيا في إقبالها على الأغنياء وإدبارها عنا. المسافة بين المنحدر وأكواخنا، لا حديث لنا فيها سوى ذلك؛ الاستثناء وقع خلال هذه الأيام فقط، بسبب غزو موضوع الهَرْبَة على ألبابنا.. ولا أحسبكَ سيّدي المُخرج.. لا تشدّ على يدي في هذا الادّعاء.

وصلتُ البيت زوالا، أختي زيْنابو تكنس رحبة البيت، بمكنسة صُنعت من أوراق شجر "باأوْبابْ" الذي كان العجوز يأتي به ويهديه لنا بلا بيع.. كمكافأة، نظير شرائنا لأعواد (Gـــورو) عليه.. أشهد لأختي رغم صغر سنها، أنها كانت تدرك الأشياء بسجيتها، يبدو أنها لاحظت عليّ خلاف ما كانت تعهدني به سابقا وإن تظاهرتُ بطمر ذلك على أية حال.. رؤيتها لا تخيب، أصبحتْ نظراتها تتلقفني بريبة خلال تواجدي بالبيت، أمي هي الأخرى مدركة لهذا بكلّ تأكيد، تقاعسي في الاستيقاظ لولي نعمتنا (Gـــورو)، أضحى بلا حجاب، تراها متى نهضتْ فجرا قبل فلق الصبح لصلاتها، تجدني متقلّبا، هي لا تراني في العتمة؛ لكنها كانت تتصيّخ حركاتي؛ كوننا ننام بمكان واحد من رحبة البيت، إبان ليالي هذا الفصل.

أمي قرب أختي، أنا منزوٍ عنهما بركن الرحبة عند مدخل السقيفة، من الطبيعي أن تتفطن لتقلباتي وأَرَقي، تحجّجتُ بعضّ البَعوض، كنتُ أبلهَ والله.. تفطّنتا بسهولة لمخفيتي.. ردّهما كان مُفحِما، قالت لي أمي بوثوق غالب (متى غادرنا البَعوض؟ وليس بالوافد الجديد يا ولدي!!) خرستُ عن الكلام، ماذا أقول؟ ما أكاد أجزم به، أنهما أدركتا أمرا ما، يشغل بالي.. ثمّة أمر آخر أيقظ انتباههما، هو هذا التعجّل السّافر في خروجي من البيت

بعد العصر وإن كان هذا الأخير، كمنبّه للأول فقط، لو كان وحده ما كان حَدَثا بالنسبة لي أو لهما.

نادت أمي زيْنابو أن هاتِ الطعام، كانت الأخيرة خلال هذه اللّحظة، بمكان نستطيع القول إنه (مطبخ) إلا من باب معرفة الأشياء لأماكنها فقط، أما الحقيقة فهو أبعد ما يكون في خيال المتوقع.. أليس خبر مطاعم وسط المدينة بكافٍ؟ أن تسقطَ الحكم على باقي أنحائها مونْ باطرونْ (جاكْ).. وحيّنا أفقرها.. ماذا تنتظر بعد هذا؟ حتى إن قلتُ لكَ مقهى أو مطعم وأنا ساهٍ.. لن تصرفه بالمنطق إلا لمكان يشبه ذلك ويبعد عنه كثيرا.. لذلك عندما قلتُ لكَ سيّدي.. بعد استئذان إدْريْسو لنا في تلك العشيّة وذهابه لمقهى الأنترنت، الذي لا تتعدّى مساحته تسعة أمتار، فمن الطبيعي ودون ذكر لكَ، أنّ تتصوّرَ سقفه مغطى بالزنك وغير مبلّط وليس مدهونا كذلك..

كنا على الحصيرة السعفية جهة الظلّ.. حينما جاءت أختي، تحمل بيمينها صحنا حديديا، ظاهره يكاد يُطمس من الاصفرار، الذي يشبه اصفرار لبّ ثمر شجرة (المانْـGــــو) عندنا.. كما كانت تحمل بشِمالها قدحا طينيا رماديا، حينها زيْنابو واقفة وسط الحصير، قرب السلك المار بالرحبة، لم أتبيّن باطن القدح الحديدي ولا لونه؛ غير أني أدرك لمحدودية الأواني عندنا، أن يكون ذلك الذي اشتريناه بثمن زهيد من عند الرفيق ساكو.. وأن ما يحتويه من غداء، وجبة شعبية يُطلق عليها (هُرا).

نزلتْ أختي في تلك الوقفة، كما لو أصيبتْ بالدوخة وهي تحمل القدحين بانفراج بيّن بينهما، حتى ثنت ركبتيها قليلا، رسمتْ من تلك الوضعية، زاوية بـ(ثلاثين درجة) تقريبا، وضعتْ صحن هُرَا وقدح الماء الطيني برفق على الأرض، تناولنا وجبتنا الخشنة، ها أنا أقولها لكَ، سوف لن أعيد (هُرا؛ كسرة من مسحوق الذرة المخلَط مع حليب بقرتنا بَكْتو، لا غير..) اللّهم إلا الماء، فلكَ أن تعبّ منه ما تشاء؛ لأنه لا يباع ولا يشترى..

ازداد رمق أختي ورصد أمي لي أكثر، حتى بدأتُ ارتبك في بعض المواقف خلال الأكل، صار تفادي نظرات أعينهما جليا.. تظاهرتُ بالتعب، انزويت بالسقيفة المظلمة، التي أنام قربها برحبة البيت ليلا، تمددتُ على الحصير، هي سقيفة مستطيلة، صُبغت جدرانها بدخان حطب التدفئة والطهي شتاء وإن كان بردنا ليس كشتائكم.. سقف هذه الأخيرة مغطّى بأعواد شجر الكرنك، تتدلّى منه أطراف أسمال تِلاَد، نالت هي الأخرى حظّها من الغبار والدُّخان، حتى قَلُصتْ التي بها نسبة من خيوط النيْلون.

بينما كنتُ في ذلك المكان، سمعتُ أمي تقول لزيْنابو:

(لا بدّ أن "دو"- الوحيدة التي تطلق عليّ هذا الاسم - مشغول بأمر ما.. ألمْ تشاهدي - تقول لأختي- تكاسله في النهوض صباحا؟ وأشرتُ لكِ بسماعي لحركة رجليه طوال الليل، خلال هذين الأسبوعين الأخيرين..).

أهدتها زيْنابو ملاحظة ثانية في محلها:

(تثاقلي الفاضح من نهوض نوم القيلولة خلال هذه الفترة..)

طبعا.. الأمر لا يحتاج إلى كثير عناء لمعرفته، نظرا لصداقتي الجديدة مع الأرَق.. أخيرا داهمتني سنة من النوم فنمتُ يا عزيزي الباريسي.

صيحة أمي كانت كافية لأن توقظني من غفوتي الخفيفة، نهضتُ، عيونها ترميني بسهام الحيرة.. تعثّرت بالقدح الطيني، الذي كان أمامي حتى كدتُ أسقط والله.. أحسستُ كذلك بوخز السلك المار بالرحبة عند سحنتي.. لملمتُ نفسي، أخفيتُ ما يمكن إضماره من بَلْبَلَة.. الوقت ساعتها كان قبيل العصر، خرجتُ، عبرتُ النهر على القنطرة كالعادة، بلغتُ المرعى.. قفلتُ راجعا مع رفيقتي بَكْتو مع الطريق نفسه، حتى عقلتها بمربطها خلف الدار. تسلّلتُ خلف البيت حتى أنجو من قذائفهما البصرية.. أخيرا اتّجهتُ صوب مجلس الرفاق.

أما الرفاق الثلاثة، فقد اختلفوا في المجيء؛ لأن اليوم كان خميسا، وصلوا بعدي بقليل، ساكو أولا، تبعه غاريْكو بهنيهة، عُسْمانو أتى أخيرا. على إيقاع

الأجواء المعتادة، جلسنا متحلّقين حول صينية الشاي، الكلّ متلهّف لسماع مضمون البريد الفيسبوكي.. أما بالنسبة لي، فكانت علامة قبض اليد مع توتد إصبع الإبهام عند مشواة المايْناما بالسوق صباحا، كافية أن تجعلني مطمئنا إلى حد ما.. عُسْمانو لم يكن الأمر يعنيه أصلا لظروفه الصعبة كما قلتُ لكَ.. غاريْكو أمره كان واضحا، أنه باقٍ؛ لكنه متطلّع لسماع المحصّلة.. المهتم الوحيد إلى جانب إدْريْسو طبعا هو ساكو. بالرغم من أن عائلته، ستفقد تركة تضاريسها بالمزبلة؛ غير أنه آثر التضحية والفوز بجَنّات عَدْنٍ..

لم يكن إدْريْسو بحاجة لمن يستعجله حتى يفاتحنا في الأمر، ابتسم لنا، قبل حديثه، كنتُ أعرف أنه سينقبض بعدها ويغتال الفرجة في مهدها.. كرّر تماما ما قام به معي عند المشواة صباحا، لما رأيتُ الرفاق تاهوا في غمرة اللاّفهم!! حاولتُ إنقاذ الوضع وطرد اللّبس، أشرتُ للزعيم بعلامة قبض اليد مع توتّد الإبهام، كما علّمني.. أشار لي بسبابة إصبعه اليمنى، قابضا على الجميع خلاها، هزّها كمنْ يتوعد أحدا، فهمتُ وقَرُب فهم الرفاق، أن بي حصافة.. وهو ما سيتأكد للرفاق، بعد أن يفصح لنا الرفيق عن النبأ..

أعاد هذا الأخير الإفراج عن أصابعه من قبضتها، قال بعد ترنّح:

(الفردوس رهين المغامرة والموت يا رفاق.. صحيح أن الرفيق "السنِـG ـــالي".. لمّع لي الموضوع وزيّنته في قلوبكم ومرايا أنفسكم؛ لكنه في نهاية الرسالة، التي أرسلها لي بتاريخ الأمس، حذّرني كثيرا.. ولولا أنه شجّعني وقوّى همّتي أولا، لقلتُ "إنه يريد أن يصرفني عن الموضوع جملة وتفصيلا"..)

يستطرد الرفيق الموطاري:

(السفر الطويل نحو القارة العجوز- كما يحب أن يصفها- ليس سهلا، هناك الصحراء الكبرى، التي تفصلنا عن شَمال القارة السوداء أو السمراء عندما يريدون أن يلطفوا بنا.. طرقها مقطوعة، سنسلكها كسلعة مهرّبة من البشر، تماما كالسلاح والمخدرات وغيرهما من الأشياء الممنوعة.. هي

مسالك لا يسلكها إلا من وهب نفسه للموت.. جلّ وعزّ مهرّب، لا تجد السلاح تحت مقعده، النجاة من الأُوار وسلوك هذه المغاور بأمان، يكاد يكون من المستحيلات ولو بالعطب اليسير.. قد سمعتم في تلك الأخبار التي جمعناها، الأرقام المذهلة لأُوام العطشى ومن ضلّوا السبيل فانقطع عنهم الزاد وماتوا فردمتهم الرّمال..).

يُضيف أخيرا:

(أما أهوال التهريب في البحر أو تخطّي الأسلاك العالية، فلا يبعد كثيرا عن متاهات الصحراء، لا سيما رؤية الموت قبل الغرق في القارب..).

كان أثناء حديثه يركّز عليّ وعلى ساكو، رفيقيه في السفرة الباهظة.. ازداد عُسْمانو قناعة بخيار أمه، جراء سماعه لهذه الأهوال.. ساكو كان يضع هذه الأهوال في حسبانه من الأول، رغم ضياع أمتاره من القمامة كما قلتُ لكَ سيّدي.. إنه حلم الفردوس يسحر الإنسان، فيجعله يسترخص الحياة ويؤثر الموت، رجاء النجاة، فيفوز ولا يشقى..

(3)

التفتنا إلى كأسنا الأولى، التي يكون عُسْمانو قد أتمَّ طقوسها، رجع إدْريْسو قليلا للوراء في قعدته، مائلا نحو الأرض بمرفقه الشِمال، استطال ذراعه الأيمن، فتح باب المسجّل، أخذ شريطا بُنيا لـ(فاطي)، لم يضربه على عين ركبته هذه المرّة، إنما نفخ فيه بنَفَس من فمه، أدخله، أغلق الباب، أحدث زر التشغيل المربّع، الذي كُتب عليه (**Play**) صوتا خفيفا أثناء نزوله، بين تلك الأزرار المتراصة، كنتُ قد تهتُ سلفا في عدّها، خلال جلسة مماثلة من قعدة الشاي..

خلال جولة الكأس الثانية، تعرّضنا للطرائق والسّبل الممكنة، في كيفية تدبير المال اللاّزم لقطع الرحلة الطويلة.. مهما وفّرتَ أو احتطتَ من دراهم معكَ، فإنها ستنفد، نظرا للابتزاز المفرط لسماسرة التهريب ومزايدتهم في الثمن، كونهم يدركون وندرك أيضا- نحن سلعة البشر المهرّبة- أن هذه المسالك الوعرة، البعيدة عن عسّاس الحدود، لا يعلمها إلا هم، لم تكن لهم بَوصَلة لمعرفة الاتّجاهات، كتلك التي يستعملها الجنود عادة؛ بل يثقون في تجاربهم بالصحراء، حول قراءة الاهتداء بالنجوم ليلاً.

أما استصدار جوازات سفرنا، فهو سهل في بلدنا.. يكفي أن تدفع (5000 فرنك سفا) كرشوة، يستخرجونه لك في يومه، لذلك لم يكن استخراجه أمرا مقلقا بالنسبة لنا، نحن ندرك أننا سندخل الجزائر كسلعة مهرّبة، لافتقارنا للتأشيرة من سفارتها طبعا وأننا سوف لن نظهره طيلة تواجدنا بها؛ لكننا قد نحتاجه، لو واتتنا الفرصة وقفزنا من السِّياج بقدرة قادر ووطئتْ أقدامنا أرض الجنّة هنالك.. حتما حتى يمنحوكَ اللّجوء وتسوّي وضعيتكَ، سيطلبون منكَ بداية جواز سفركَ؛ لأجل هذا الغرض حملناه معنا وليس لأمر آخر..

لحسن حظي، كانت لي ثلاث صوَر شمسية، مُذ كنت طالبا في المدرسة، مكنتها لإدْريْسو حتى يستخرج لي بها جواز سفري، رفقة وثائق أخرى تكفّل المُرتشي الحصول عليها من أصدقائه بالبلدية، على أن أعطي لإدْريْسو ثمن رشوتها ودمغتها لاحقا، كلّ هذا رهين أن يهدي الله أمي وتوافق لي على الخِطّة!!

أما أنا فلم يكن لي من سبيل غير إقناع أمي ببيع بقرتنا الحلوب (بَكْتو)، مع يقيني، أن أمي بسببه، ستنعتني بالجنون أولا، سيدعوها هول الصدمة وعدم التصديق، في أخذي لإمام جامع الحي بلا نقاش.. وقراءة المعوذتين عليّ، سيطلب منها هذا الأخير ككلّ مرّة كانت تُهْرَعُ إليه في مثل هذه الملمّات كعام الطاعون.. أن تذبح ديكا أبيض على عتبة كوخنا.. المهم سوف لن أطيل كثيرا في التفاوض معها؛ لأن المعركة لن تنتهى حتما.. تماما كمعركة حصر المشترك بيننا وبين أولئك الأثرياء.

قلتُ في نفسي:

(سأحسم الموضوع معها، بـ جملة "الله غالب"، أجل لا خلاص لي إلا بها، تريحكَ وتربحكَ كثيرا من الوقت والعناء..).

(الله غالب) المباركة، يذوب الحديد أمامها سيّدي المُخرج السّاحر.. هي نهاية الكلام.. لا زلتُ أذكر جريمة أمي في حقي، عندما مات أبي وأنا ابن الخامسة عشرة، سألتها في أيام عدّتها الأولى:

(لماذا أقطع دراستي الثانوية الفرنكوعربية يا أمي؟)

سكتتْ دون أن تجيبني.. يومها كنتُ الأول في الدفعة دائما، حتى رفاقي يعترفون لي بذلك، لم ينفع تودّد أساتذتي لها بالرسائل المكتوبة ومجيء أستاذتي (فطيْماتو) حتى بيتنا وتوسّلها بجارتها خديْجاتو، رفضتْ هذه الرُّزم من التشفّعات ولما قلتُ لها ثانية في أيام عدّتها الوسطى:

(لِمَ قطعتِ حبل دراستي يا أمي؟)

أجابت هذه المرّة بعبارة الخلاص المشهورة:
(الله غالب..)!!
برّرتْ حكمها:
(أبوكَ تُوفِّي، أنت الذكر الوحيد وحامي الأسرة، لابدّ لنا أن نعيش..).
ماذا عساني - في نظركَ- أن أفعل؟ لو كنتَ في وضعيتي أيها المُخرج السينمائي لفعلتَ.. أيّ واحد في وضعيتي، سيختار أن يعيش كيفما كان الحال، بدل أن يدرس، المهم أن يبتعد عن الموت وسعار الجوع الشديد، أخيرا رضختُ لأمي.
قلتُ لإدْريْسو وساكو:
(هي قطعت لي بها دراستي ومستقبلي وأنا سأبيع بها البقرة، سوف تنهزم أخيرا، رغم المقاومة الصلبة؛ لأنها ستجد نفسها أمام الأمر الواقع، هههههه سأقولها لها وبكل راحة..
"الله غالب" ستُصعق عندما تسمعها أولا، تعلم أنها الخلاص الذي خلَّصها ومن الطبيعي ستقارن وتستسلم أخيرا..
المجد والجلال لـكِ يا عبارة "الله غالب" مفتاح سحري فتّان وفتّاك، أنقذ سمسار السيبر.. واغتالت بها أمي حرماني من الدراسة، رغم تفوّقي وتوسّل المتوسلين، ستخلصني من ورطتي وآخذ بَكْتو للسوق، أقبض ثمنها وأموّن به جزءا من رحلتي الميمونة..).
عليّ أن أبوح لكَ بأمر خفيّ سعادة نزيل نيامي- الحق يُعلو ولا يُعلى عليه- أنه رغم تحمّسي الشديد للفردوس.. كان يحزنني في عميق نفسي مفارقة بقرتنا، التي عاشت معنا، مُذ كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، تعاشرنا كثيرا، حتى صار كلّ منا يفهم الآخر بالإشارة.
أستطيع القول، بلا عقد نفسية بائخة، إن ساكو كانت وضعيته المالية أفضل مني قليلا، مشكلته الوحيدة، أنه أناني.. لقد أدرّت عليه الحرفة خلال الشهر الماضي مالاً، يمكن اعتباره بمقاس دخل الفرد عندنا بالفرنكات؛ أنه

مقبول، هذا الأمر لا يتكرّر كثيرا، قد يحدث مرّة أو مرّتين في السنة، المهم متى طاب للدبلوماسيين الخليجيين ولزوجاتهم وأطفالهم، الدعوة للإتيان بأغراض جديدة، ينسون بها ضريبة إرسالهم عندنا.. كانوا يفعلون ذلك بلا تردّد. كثير من الأواني صالحة، الأبواب، النوافذ، قواطع الدارات الكهربائية، الأقفال، محافظ الأطفال، لعبهم، النّعال وغيرها من الأشياء التي لا يمكن بيعها بالمزاد..

رفيقي الأخير إدْريْسو، يمكن اعتباره الأغنى في الحي بلا نظير أو على الأقل هكذا كان يظهر لنا، أمه لها تقاعد، ليس معهما أحد، حتى وإن هاجر للجنّة، سيكلّف أحد الأصدقاء بوكالة قانونية، لصرف معاش أمه وإرساله مع شركة (**sonef**) لنيامي من (وا**G**ـــا).

شربنا كأسنا الثانية، قبل غسل أواني الشاي كالعادة، تذكّرتُ أن ألفتَ نظر إدريسو، لاستعاضة التواصل مع إبْراهيما بالرسائل القصيرة الرخيصة، بدل غلاء النّت، وافقني إدْريْسو وقال لي:

(برا**V**ـــو دودو، فكرة جيّدة وإن كنا لا نحتاجها لقرب رحيلنا..).

بعدها وضعنا ترابا مبلّلا خفيفا على الجمر، لم نحسم وقتا محددا لمغادرتنا نحو حلمنا؛ لأن ذلك رهين إقناع أمي ببيع بَكْتو، يكاد يُجمع الرفاق، على أن الأمر شبه مستحيل.. نظرا لتعلّق أسرتي بها، هي مصدرنا الوحيد من الحليب؛ قُل هي ذمّتنا أو ما يجعل لنا قيمة معينة، بين هذا الخلق الغفير من فقراء نيامي، على أية حال.. أحسبها تجنّبنا الأماكن الأخيرة في قائمة البؤساء وإذا ما بيعتْ سنصلها حتما سيّدي (رفيق الكاميرا)..

قبل ذهابي إلى البيت، انعطفتُ نحو ضفّة النهر، لأدخّن نصف سيجارة، كنتُ أدّخرته من الأمس، الصيادون البسطاء، أراهم بعيدا على الضفّة الأخرى، التي كانت ترعى بها (بَكْتو)، يضعون الشباك في الزورق الرقيق والطويل، يا سبحان الله.. زوارقهم كانت غاية في الطول، ما زاد في طولها

نقص من عرضها، البعض ورثها عن أبيه، البعض عن جده، حتى ألوانها ورموزها، تعبّر عن إرث عائلي، هكذا يتداول الناس عندنا في أساطير الحي.

بعد الغروب اتّجهتُ مَيْمَنَة البيت، مذ عرفتُ سلاحي، زال الارتباك عنّي.. كان واضحا أني خلاف أيامي الأخيرة، لا سيما اليومين الأخرين وبالأمس أكثر، أمي في مكانها من رحبة البيت، حصير زيْنابو مفروشا بجانبها، الأخيرة ساعتها كانت بالمَطْهى، الراجح أنها لم تكن تطبخ، هذا أكيد؛ لأن (هُرا) الغالي.. سوف لن يستغرق منها، سوى كسرة بالحليب. ما عنّ لي في خاطري.. أنها كانت تقضي بعض الأغراض، لست أدري تحديدا، سوى سماعي لقَنْقَنة الآنية القصديرية القليلة.

جلستُ نهاية حصير أمي عند رجليها تماما، الظلام دامس، لولا معرفتي الدقيقة لتضاريس رحبتنا، ما فارقتُ الأشياء من أمكنتها، شهب الضوء الخافت من فتلة القنديل الوحيد كان باهتا جدّا، أختي في ذلك المكان الذي اتفقتُ معكَ على أنه مطبخ.. يصلني شعاعه الخافت فقط، الكهرباء بنيامي لا ينعم بها إلا أبناء الأحياء البرجوازية، مثل حي (كْواراكانو) حي (بْلاَطو) حي (فرانكْفوني) حي (شينوازْ) وبعض البيوتات النادرة بحيّنا، كبيت موطاري.. كانت مستلقية، شهب الضوء الخافت، يعكس مثلث ثني ساقيها على الحائط المقابل، أحسّتْ كأن شيئا ما، نهضتْ من استلقائها، ربما كانت تريد أن تستفهم مني؛ لكن تردّدتْ.

تريد الصراحة سيّدي.. ها هي بلا طلب.. بالرغم من ثقتي وذكائي وسحر خلاصي.. غير أن بداية المفاتحة مع أمي في هذا الأمر، كانت صعبة جدّا، بعد تردد محنّط، قلت لها في شجاعة أَسَدية:

بلا (تيكْ طاكْ) أو (بومْ باكْ)[29] يا أمي:

(قرّرت الهجرة لـ...).

29- كناية عن المقدمات الطويلة.

قبل إكمالي (بلاد البيض..) قذفت صرخة، لم أسمع منها مثلها قط، إلا مرّة واحدة في حياتي، كان ذلك تدقيقا، يوم بلغها نعي وفاة والدي، بمنحدر الحي.

قبل إفاقتها من جَلجَلتها، كنتُ قد قرّرتُ مغربا على ضفة النهر، أن أكاشفها بقرار بيع البقرة، عندها ستغرق في صُداحها، سيزداد إيقاعا، هذا ما جرى فعلاً.

(أمي سأبيع البقرة، تاهتْ وسافرت في سفينة بعيدة مملوؤة بالبهتة عرض البحر!!).

أما أختي فلم يصبها ما أصاب أمي، لكنني سمعتها تقول:

(يا ويْلي!!).

وقتها كانت زيْنابو تضع يدها على فمها بدهشة، كالشّاة التي دلهتْ عن القطيع وظلّت تمَعْمِعُ وحدها.

بيتنا في بداية هذه الليلة، كان مسرحًا لمباريات البكاء وبطولات الهَرْج، الجيران سمعوا ذلك.. فيهم من هُرِعَ وجاء حتى عند البيت يستفسر، خرجتْ لهم أختي، طمأنتهم على أن الأمر خلاف عائلي، لا تخلو أي عائلة منه.. أمي خلال سماعها لمجيء الجيران، كانت قد خفّضتْ قليلا من زهير نَشيجها وأبواق عَويلها، حاولتْ هذه الأخيرة، شدّه في حلقها، رغم ما كانت تجد فيه من راحة لتفريغ اِلتعاجها.

أضفتُ:

(نعم يا أمي.. سأهاجر.. وسأبيع البقرة؛ لكني سأقتسم ثمنها معكم، نصفها أتزوّد به لمنتصف الطريق والآخر أتركه لكما، تنفقون منه بحذر وتدّخرونه لنوائب الدهر..).

لم يقنع أمي هذا المقترح ولا تنازلي عن بيع (Gـــــورو) وتركهما بلا فرنكات، ناهيك عن المصيبة الكبرى في حرمانهما من حليب بَكْتو..

كنت ملزما بإطلاق خلاصي، كل إطالة ليست في مصلحتنا جميعا.. قذفتها مثلّثة، كالبرق الذي يسبق الرّعدة:

(الله غالب)

(الله غالب)

(الله غالب)

كان وقع (الله غالب) على هذه الأخيرة، يحيل أن هذه الكلمة تعرفها وتسمعها كثيرا.. فقد شاع في المخيال الشعبي عندنا بحي (G ـــمْكَلي)، كلما وقعت حادثة يصعب فكّها، كان اللّجوء دائما، إلى كلمة (الله غالب)، ليس مستبعدا، أن تكون قد تذكّرتها عندما هزمتني بها في عدَّتها، بعد وفاة والدي وقطعت سرّة دراستي ومستقبلي.. الأدهى والأمرّ عندي وهي لا تعلمه سيّدي المُخرج.. هو فراقي للروائح الناعمة لرفيقة دراستي (ماليْنا) المسيحية في الثانوية، كانت جميلة جدّا.. سمرتها كالقهوة بالحليب والله.. أبوها نيجيري، قالت لي (إنه يشغل منصب المدير العام للتلفزة الوطنية..) درس بفرنسا وتزوّج أمها الفرنسية (جاكْلين)، بعد قصّة عشق بينهما.

كانت زميلتي تحبني كثيرا.. أغلب الظن عندي لذكائي فقط.. ولا سيما بعد حصتي الجبر والهندسة، أعرف هذا.. لستُ مغرورا بشيء آخر.. أبداً.. حتى رفاقي بالثانوية، كانوا يغارون مني ويحسدونني على هذه النّعمة؛ لأني فقير وأسمالي بالية.. كم مرّة يستغلق عليها درس الرياضيات وتطلب مني الذهاب معها لفلتهم الباذخة بالحي الدبلوماسي وتغدق عليّ باللحم المشوي والموز والأناناس، كما أهدتني أمها جاكلينْ، بعضا من ملابس زوجها القديمة، ربما خمس مرّات، أكون قد زرتُ فيها هذه الفيلا، خلال عامي الدراسي الأخير بالثانوية، بيت فاره، به ما يمكن أن يُفترض بالمساكن الثرية؛ لكن ما شدّ انتباهي، هو تلك القبلة التي تطبعها جاكلين على شفتي زوجها، عندما يعود في المساء وبمشهد من ابنتهما الوحيدة ماليْنا، لم أرَ قط في حياتي، والدي يقبل أمي والله سيّدي المُخرج..

سألتني أمي بعد تدخينها لعقار (الله غالب) المدوّخ.. وعادت إلى عقلها قليلا وليس كاملا:

(ومع مَن ستسافر يا ولدي؟).

أخبرتها بلطافة، رضعتْ هَبْلتها:

(مع رفيقاي إدْريْسو وساكو يا أمي..).

رأيتها قد اطمأنت قليلا، لا سيما عندما ذكرتُ لها إدْريْسو، هو وحيد أمه (إن كان لأمه معاش تتسلّى به؛ لكن هذا سوف لن يعوّض ابنها الوحيد.. تركها لوحدها..) هكذا قالت في نفسها، رأتْ في وجود زيْنابو معها، قيمة معنوية لا مادية تضاهي معاش خديْجاتو.. كما أن وضعية ساكو وتركه لأمه مع أخيه الضرير وإخوانه الصغار، هي الأخرى زادتها جَلدا.

أخيرا انهزمتْ واقتنعت ببيعها، وصولي للاتفاق مع أمي حول بيعها، كان بمثابة التأشيرة أو كأن القمر انشقّ لي مُخرجنا الفنان جاكْ بلوزْ والله..

تناولنا عشاءنا وحبيبنا الدائم هُرَا، لم أتوجّه لفراشي كالعادة، خرجتُ مسرورا بانتصاري.. قِبلة بيت إدْريْسو، الذي لا يبعد كثيرا عنّا، كان الباب الخشبي لبيتهم وقتها، لا يزال مفتوحا، على كلّ حال، هو الباب الوحيد بالحي، المصنوع في ورشة النجارة بالمدينة، طرقتُ الباب طرقا خفيفا بمعقوفة أصابعي، بان لي في انعكاس ضوء المصباح الكهربائي، أنه يضيء مكانا مقبولا من رحبتهم، كان قد أنهى عشاءه للتو، ما إن انصرم رأسه من فتحة الرحبة المتصلة بالباب، حتى رمزتُ له بتلك الإشارة، التي ألغزَ لي بها عند السوق وكرّرها في المجلس.. كان شهب الضوء كافيا، أن يبرز قبضة يدي، مع ذلك الانفراج الواضح لإبهامها، قبل تبشيره بالنتيجة، أخاله قدّرها في عقله، من تلك العلامة، قُل لي سيّدي.. وكيف لا يقدّرها وهو من ابتدعها لنا؟ حككتُ راحة يديّ مع بعضهما، كمن يشعر بالبرد القارس، حتى أحدثا صوتا معروفا، للدلالة على الطرب، قلتها لك يا إدْريْسو:

(بركة "الله غالب" هي الخلاص..).

نصحني بعدها، أن آخذ معي عمي (بامْبا) لسوق بيع المواشي، هذا الأخير ليس بعيدا، يسكن معنا بالحي، لقد اكتسبَ خبرة واسعة في بيع المواشي وشرائها والمبادلة فيها ومن الصدف العجيبة أن سوق الجمعة للمواشي غدا وإلا كنا سننتظر أسبوعا كاملا؛ لأنه لا يُجرى إلا مرّة واحدة في الأسبوع.

مررتُ على عمي بامْبا، باب بيته مغلق، الضوء يكاد يكون منعدما بالرحبة، التي يتصل بها من الخارج حائط طيني قصير نوعا ما، خَبَطتُ على بابه التقليدي، المصنوع من أعواد شجر (المانْـG)، بعد مدّة ليست بالطويلة، فتح الباب، سلّمت عليه، هو شخص خمسيني، فارع الطول هذا ما بدا لي ليلاً، تعرّفتُ صباحا أنه يلبس عباءة زرقاء من البازان الرخيص، يلفّ على رأسه شاشا أسود، عيناه تسكنان مغارة، قلت له:

(أهلا.. كيف حالك عمي بامْبا؟).

نطلق لفظ عمي، في حيّنا سيّدي المُخرج.. على كلّ من يكبرنا، المهم أبلغته القرار والتمستُ منه أن يذهب معي غدا للسوق، قَبلَ؛ لكنه اشترط قبل ذهابنا للسوق صباحا، أن يمرّ على أمي ويتحقّق في الأمر معها، وافقته وأعطيته الحق في ذلك، توادعنا.

رجعتُ للبيت، الرحبة المظلمة لا زالت تعيش الحركة، لا يمكن لأمي وأختي أن يناما، دون أن يتسليا بأخبار البقرة وآخر ليلة معها.. أختي لم يكفِها هذا، بل ذرفت الدموع، عندما رأتني أفكّها من مربطها صباحا، متجها بها للسوق مع عمي بامْبا، عندما جاء ليتأكد من موافقة أمي.

حديث بَكْتو وليلتها الأخيرة، أكل حيزا كبيرا من هذه الليلة، تأخّرنا كثيرا هذه الليلة، قالت لي أمي مازحة:

(كنتَ خلال الليالي الماضية، ساهرا وحدك وأنا مع أختك غارقتان في نومنا؛ لكن يبدو أن الأمر سينقلب في هذه الليلة، أما أنا فلن أنام، حتى وإن روّضته فلا أعتقد أنه سيعانقني ويُقبّلني، أختكَ زيْنابو قد تشاركني قليلا من أرقي أول الليل ووسطه وستترك لي الأخير وحدي..).

اضطجعتُ على حصيري، في مكاني المعتاد من تلك الزاوية، كان واضحا تقلّب أمي وأرقها..

عانيتُ قليلا من البَعوض، بعدها سافرتُ في باخرة الأحلام ونمتُ.. إذا بي مع رفيقي إدْريْسو في مدينة (دَكار) عاصمة (السنِـGـــال)، نتجوّل في شوارعها، التي حكى له إبْراهيما عنها كثيرا بـ(واGـــا)، التقيناه ورحّب بنا، عندها قلتُ لإدْريْسو:

(الآن فهمتُ لماذا كانت هذه المدينة الرائعة، مرغوبة للضباط الكونياليين الفرنسيين، مع "أبيدْجان الإيــVـــوارية" وأن المعاقبين منهم، كانوا يقذفون بهم إلى البلدان الحبيسة، كبلدنا وجارتنا مالي..).

قلتُ لإبْراهيما:

(نعترف نحن النيجيريين، أنكم - السنِـGـــاليين- ألطف منّا وأكثر تحضّرا، أجل أُقرُّ هذا بلا عقدة..).

إدْريْسو يخاطبني:

(أليستْ أحسن الأكلات بمطاعم مدينتنا.. هي من طهي "السنِـGـــاليين"؟ وباعتراف الجميع، هناك مطعم قرب السوق الكبيرة، تراه مزدحما دائما بالزبائن، لجودة ولذّة اليد "السنِـGـــالية"، لا سيما أكلة الأرز المسقي بالملوخية مع اللحم المطبوخ، التي حدّثتكَ عنها، عندما تناولتها بذلك المطعم شتاء هذا العام..).

طاف بنا إبْراهيما معظم شوارع العاصمة دَكار، أخذنا في زيارة استكشافية لجزيرة (Gـــوريه) التي قال عنها (إنها كانت حَضْن من قلاع تجارة العبيد نحو أمريكا، خلال القرن السادس عشر الميلادي..) دعانا أخيرا لزيارة متحف العبودية بدَكار والنصب التذكاري للنهضة الإفريقية.. أحسستُ بطَبْطَبات يد أمي على أصابع رجلي اليمنى، صبّحتُ عليها بالخير، أختي كالعادة صبّحتْ عليّ.

النفخ في الصور..

(1)

كانت الشمس لا زالت لم ترسم أشعتها على شجرة (المانْـG) وسط الرحبة المجاورة لنا، الأكيد أني أدّيتُ صلاتي بلا تذكير أمي أحايين التقصير، دعوتُ الله سرا وجهرا في هذا اليوم المبارك من الجمعة، أن تلقى بَكْتو القبولَ في السوق وتأتي لنا بمبلغ نرضى عنه ويرضي نصفه أهل التهريب، سامحهم الله..

حتى لا أبالغ سيّدي المُخرج.. لم تكن بقرة مِبْدانة، بتلك السِمنة المظهرة للشحم؛ لكن لم تكن من ذوات الهزال المُمَجّ في الأنعام، تستطيع القول (هي وسط بين ذلك..) قوامها كان ممشوقا، ارتسمت غرّة بيضاء على مقدّمة رأسها، كانت تلك الغرّة هي سحرها!! كلما ابتعد البياض عن مركز طلعتها، تناقص بشكل تدرّجي باتّجاه اللّون الحنّاوي الأصلي، كان منظرا بديعا حقا، يغري التجار ويطمس في عيونهم، ما ينقصها من اكتنازها، حتى عيناها كانتا جميلتين والله.. فضلا أنها لا تزال حلوبا.

ارتشفتُ كأسي من الشاي ساخنا، مع جرعات من شراب (دَغْنو) الخاثر، هو شراب نصنعه من الذرّة والحليب، مع (الكَليلة) التي تخمّر وتجمّد من اللّبن. عمي بَامْبا احتسى هو الآخر كأسه من الشاي وارتوى من دَغْنو. زيْنابو تبدو لا زالت لم تستفق من أثر الصدمة، آثرت الجلوس بعيدا عنا.

مسحتْ أمي على رأس بَكْتو، داعية الله لها بالقبول الحسن، خرجتُ مع عمي بامْبا، كلّي أمل أن نبيعها بثمن لا أقول (يكفي)، إنما على الأقل يوفّر لي الوصول لصحراء الجزائر، مع ما أبقيه لأمي وأختي وهو الأكثر.

هؤلاء السماسرة الملثّمون من ساكنة شَمال البلاد، يريدون الانتقام منا- نحن البامبارة[30]- نعترف أن حثالة ما تعطيه لنا فرنسا من يورانيوم مدينة (أرْليتْ) لا يكفي لاقتصاد بلادنا، لكننا نقرّ في الوقت ذاته، لا سيما بعدما سوف نرى لاحقا.. بأم أعيننا بـ مدن (أGـــادَزْ) وأرْليتْ وصحراء (سَمَقّة)، أن هناك إهمالا سافرا للشَّمال مقارنة بالجنوب، حيث العاصمة نيامي؛ لكن ما ذنبنا نحن الضعفاء؟ (يعملها ظالم ويسدّد فاتورتها مظلوم..) تلك مسألة بينهم وبين العسكر الانقلابيين.. إذا ما كانت هناك من شكوى، فسوف نشكو حقّنا معهم سيّدي المُخرج والله..

بينما نحن في طريقنا إلى السوق مع عمي بامْبا، بَكْتو تتقدمنا، تهشّ زيلها كما كانت تفعل وقت الرواح من المرعى؛ قدّرتُ هذه المرّة أنها تودّعني وتلوّح لي بهذا السلوك.. بعد قطعنا مسافة:

(والله يا دودو، لا يبيع بقرة البيت فينا - نحن بني زَرْما- إلا مفلسا في عاداتنا..) قال لي عمي بامْبا.

عدلتُ عن بسط حججي له، التي سوف لن تقنعه كما أمي في الأول؛ لكني استحضرت سلاح خلاصي، هي كلمة يتوقف عندها كلّ شيء، قذفتها له بلا تردّد كالقنبلة:

(الله غالب)

بدوره قذف قهقهة مدوية، تنبّه لها رجل مسنّ، كان يمرّ بجانبنا في الطريق، حتى دعا الأمر هذا الأخير للتوقف والالتفات.

أخيرا وجد الموبّخ نفسه تحت تخدير السحر كذلك.. هكذا تهيأ لي الأمر، العبارة الفتّاكة سَحرتْ أمي وما أدراك.. رغم خوفها على سمعة البيت وخشيتها على أعراف قبيلتنا زرْما، غير أني أخيرا قهرتها، فكيف لا يُغلب هذا الأخير بها كذلك؟

30- الزنوج.

كأن المُجاب سلّم للأمر أخيرا.. غاب في دهشة عفوية، بعد تفكير كثير وابتسامة حقيرة لعن فيها نفسه:

(الله غالب) ههههه (الله غالب) قال لي.

قلتُ في خاطري (لعلّ المخلوق هو الآخر ابتُلي بخطبها ومن يدريك..).

أسهب بعدها المَقهور في سرد نكتة طريفة، وقعت له ذات مرّة في شراء عنزة، زعم بائعها أنها حلوبٌ.. وانطلتْ عليه الحيلة، رغم فراسته، ذكر لي الضحية قبل وصولنا للسوق (إنَّ صاحبها احتقن حليبها في ضرعها مدّة يومين، حتى تدلّى وصار يُغري بسيل اللّعاب.. حيلة منه لبيع سلعته على أنها حلوب، فلما ذهبت بها للبيت، وجدتُ حليبها أقلّ بكثير مما توقّعتُ؛ لكنني أخيرا برّدتُ جمرة خيبتي، بعبارة "الله غالب" لذلك عذرتكَ يا ولدي..).

كانت السوق عندما وصلناها ضاجة بأصوات الحيوانات، رغاء الإبل المختلط بنغيق النوق الرخيم بولدها وحنينها، خوار العجول هو الآخر، مختلطا مع ثغاء الماعز ومأمأة الشيّاه، إيقاع تلك الأصوات مع نهقة شاردة لحمار حمّال رُبط غير بعيد، شكّلت معزوفات رائعة بأجواء السوق، يزيد إيقاعها بتدرّج تعالي المساومات المختلطة بمطارحات التفاوض في تنزيل سقف السعر، بين البائعين والمشترين.

الوقت ساعتها كان الضحى المتوسّط، جغرافيا السوق تتوزع بين فضاءات متباعدة، لكلّ صنف جهته، الشياه لجهة الشرق، الإبل لجهة اليمين، الماعز لجهة الشِّمال، البقر للجهة المقابلة للشِّياه، اتجهنا لجهة الغروب.. مجموعة البقر تشكّل لوحة فنية، باختلاف ألوانه وأنواعه، مع حدّة سيوف ظهوره وقرونه.. ألقى عمي بامْبا بـ(بَكْتو) وسط جنسها. لست مُنْخنا سيّدي.. لم تكن يتيمة بينهم.. هناك ما هو أكبر منها، هذا صحيح بلا بهتان، بالمقابل هناك ما هو أهزل منها، يكاد يكون الغالب.

ما إن دخلت بَكْتو بين عشيرتها وبنات عمّها، حتى خلبتْ الغرّة جل النّاظرين، تشكّلت حولها دائرة جذبتْ أغلب الذين شاهدوها، كنتُ أعرف

أن غرّتها من مفاتنها، مع ذلك اللّون الحنّاوي الحالم للونها. عمي بامْبا تعمّد الابتعاد، تركني معها بالحلقة، الكلّ يسألني عن سعرها، أجبتهم أن كافلها سوف يأتي، لَهَّى نفسه بالتطواف بين حلقات الإبل والماعز هناك، عاد وجد الناس ينتظرونه.

تقدّم عمي بامْبا نحو المتحلّقين، الباعة والسماسرة يعرفون بعضهم في سوق المواشي، ناداه أحدهم باسمه بامْبا.. بامْبا:

(كم سعر البقرة؟)

دَعَك شعر رأسه، حفر ببصمة إصبعه اليمنى القرن الأيمن من شعر رأسه، كما يفعل الرفاق ليكامارادْ، طرق يقول:

(أقلّ منها لحما، شحما، ضرعا، أكبر منها سنا، أقبح منها منظرا، بيع الجمعة الماضية بـ"190000" فرنك سفا..).

كان واضحا من تلميح عمي بامْبا، أن سعرها يفوق الذي ذكر، حتى الرجل فهم هذا ووعاه الذين كانوا متحلّقين بهم. ظهر للمخلوق أن المبلغ مشتطّ فيه نوعا ما؛ لكن عمي بامْبا مسح على ظهرها، حتى يبرز له حنيّتها، خاتما مسحته المباركة على غرّتها. لم يهز الرجل رأسه خلال تلك المسحة؛ لكن مسحة الغرّة هزّ عندها رأسه.. أصابه شيء من سحرها، هكذا خيّل لي، حتى القوم تبعوه في حركته.. حاول الرجل مفاوضة عمي بامْبا في السعر؛ لكنه عجز، لم يكن عنده المبلغ كاملا كما فهمتُ من إشارة عمي بامْبا.

وكيلي بالغ كثيرا في السعر، أدرك هذا؛ لكني أعرف لو طلب هذا الأخير أقل مما أومأ، لكان ذلك ليس من فائدتي ولا في صالح ما سأبقيه لأمي وأختي، ناهيك عن أجرته، حتى إن كانت قليلة، فما نقص لو زاد في سعرها سينفع يا فنّاني الفرنسي القدير.

انسلّ من بين القوم شخص آخر، يبدو من هيئته، أنه من الذين فتح الله عليهم ولم يبخلوا على أنفسهم وأهليهم.. لا أعتقد أنه من المترددين على السوق، لعلّه جاء هذه المرّة فقط، عساه يجد بقرة حلوبا، بشرته القمحية تشبه

بشرة باطرونْ المايْناما القبيح.. يلبس بازان (Gـــانيليا) آخر طراز، لم يفاوض عمي بامْبا كثيرا، قال له في استعلاء محشو بوقار:

(أعطيك "170000 فرنك سفا" والصلاة على النبي..).

لو دخلتَ قلب عمي بامْبا، لوجدته يطير فرحا، تظاهر هذا الأخير، أن السعر مقبول؛ لكنه يستحق إضافة قليلة، الناطق باسمي في السوق، يدرك أمر هؤلاء الأثرياء.. فهم الرجل مقصود عمي بامْبا بلا تكلّف، قال له في كلام قاطع لا ردّة بعده وهو يبسط يد المصافحة لـعقدة البيعة مع عمي بامْبا:

("175000 فرنك سفا" وبالنبي صلينا..).

كانت يد عمي بامْبا قد خرجت من إبطه سريعا، صافحه بحرارة.. طلب منا المُشتري، أن نسوقها حتى عند سيارته تويوتا (ستَيْشَنْ) النفعية، رباعية الدفع، ذات اللّون الأصفر الداكن، لم تكن بعيدة، هي لا تخشَى الرمال والحفر؛ بل تتباهى بمشيتها عليها!! سرنا حتى بلغناها، فتح بابها الخلفي، ترجينا جماعة كانت منزوية بقربنا، الرجل المالك يتفرّج علينا لم يستحِ.. بعد كثير من عناء التطحّر والتأوه.. أخيرا بَكْتو في سطح مقطورة ستَيْشَنْ، رأسها للأمام قرب الزجاج الخلفي للمقصورة، مؤخرتها وذيلها للخلف، نهايتها مع ذيلها الخارج من السطح قليلا، أجبره على ترك الباب الخلفي مفتوحا، أعطى الرجل لـعمي بامْبا حبلا أخضرَ حشيشياً، ثنى رجليها، ربطها عند ركبتيها.

بعدها صعد الرجل للمقصورة، فتح الصندوق الأيسر من صالة المركبة، أخرج رزما ورقية، باب السيارة لجهة السائق مفتوح، الأخير جالس على كرسي القيّادة، عمي بامْبا واقف قبالته، عدّ الراكب النقود بسرعة جد مذهلة، لا يقوى على عدّها بهذا الشكل الحَثيث، إلا أعوان شبابيك التخليص بالبنوك وقباضات البريد، طلب العادّ من عمي بامْبا أن يعيد حسابها للتأكد، لست مبالغا ولا أزكّي على الله أحدا، إن الوقت الذي قضاه عمي بامْبا في العدّ، يفوق زمن إحصاء الرجل أضعاف المرات، تصافحا

ثانية، ذهبتُ لمقدّمة سطح عربة المركبة، ألقيتُ نظرة وداع على بَكْتو، الدموع ترغرغت في مقلتي (حتى الحيوانات عند فراقها بالموت أو البيع تحزننا) قلتُ في نفسي!!

قبضنا المبلغ تاما، رقصتُ رقصة فرحي المعتادة، مرددا بلهجتي الزرماوية معنى (أنا فرحان):

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

لا تستعجب سيّدي.. إذا قلتُ لك (هي المرّة الأولى، التي أرى فيها هذا المبلغ، عفوا أملك هذا المبلغ.. صحيح أني رأيت كثيرا منها بالسوق الكبيرة، يعدّونها لبعضهم؛ لكنني لم أكن أملكها، فما حاجتي برؤيتها..) رجعنا من السوق مسرعين، الوقت حينها منتصف النهار، طلبتُ من عمي بامْبا أن نمرّ على الجزار جهة السوق الكبيرة، لنشتري لحما قبل غلقه، التجار يتعجّلون غلق محلاتهم، لأجل صلاة الجمعة، (ستتغذى معنا اليوم يا عمي بامْبا..) قلتُ له.

انعطفنا حِيال البوّابة الخلفية للسوق، حيث القصّابة، اشتريتُ كيلوغراما واحدا من لحم الإبل؛ كونه رخيصا، كان هذا اجتهادا مني، دون توصية من أمي، لم أطلب شيئا من أمانة أمي عند عمي بامبا.. فرضا لو طلبتُ سوف لن يعطيني.. إلا بحضور أمي أو بإمرتها، كان خَفيرا، رغم تحايله في البيع والشراء؛ لكن في أداء الأمانات كان معروفا، مبلغ بيع عربة (Gـــورو)، الذي بعته لرفيقي غاريْكو مع موسها ومنديلها، دون علم أمي، كان كافيا وزيادة لشراء اللحم، بقيَ منه قليلا.

(2)

أُبْنا للبيت، ما أستطيع قوله، إننا عشنا فرحا مسكونا بكابوس بَكْتو، أكاد أشبّهه بابتسامة إدْريْسو لي وانقباضه بعدها.. هذه هي الحقيقة بلا زيغ سيّدي المُخرج.. تحطّمنا كلّنا والله.. حتى أختي لما سلّمتها اللّحم ورغم قرمها الشديد له، ظلّت واقفة به بين كفيها مدّة.. حتى أبلغتها أنه ليس من دراهم بَكْتو، إنما من بيع تَرْكو، ربما تضاعف ذُهولها لهذا الخبر الأخير، أمي تسمع بقربنا، لم تعتبر الأمر جريمة أو على الأقل، لم تظهر ذلك في حضور عمّي بامْبا، بحكم أن العربة ميراث عائليّ.. لطّف سكوت أمي من حيرة أختي، انسلّت هذه الأخيرة نحو مطبخها.

فرّشت أمي الحصير لعمي بامْبا، جلسنا، تحاكينا، قال عمي بامْبا لأمي مازحا:

(والله يا سَلامَاتُو، لولا أن ابنكِ أفحمني بمغنطيس ''الله غالب'' واعترافي بانهزامها مع عنزتي، ما كنتُ وافقت بالذهاب معه أصلاً، رغم موافقتكِ..).

تبسّمت أمي تبسم المقهور.. الذي يظهر تسامحا نفسيا مع ضميره، ربما وجدتْ في ذلك تسلية، قالت له هي الأخرى:

(حتى أنا يا بامْبا، لولا أني دَحَرته بها - الله غالب- يوم مات والده وسجنته عن دراسته، رغم توسّل أساتذته بالرسائل وانتدابهم لزميلتهم التي جاءتني وتشفّعت برفيقتي خديْجاتو، كلّ هذا لم يقنعني؛ لكني استسلمتُ أخيرا، عندما أشهر فيّ ''دو'' رشّاش خلاصه ''الله غالب''!!).

ثم طرقت بعد ذلك:

(بالله عليكَ يا بامْبا، كيف تَغلب بأمر ولا ترضى الغلَب به؟).

هزّ بامْبا رأسه مرّتين، للدلالة على منطقها..

الوسائد الورقية لثمن بَكْتو، ملفوفة في خرقة كتانة بيضاء، مطوية هي الأخرى في ورق كيس إسمنتي، أمي تلقي عليها بين الحين والآخر رؤية، كنظرتها للفرنكات وهي منبعجة في جيبي ساعة رجوعي من رحلة (Gـــورو).. الحق يذكر أنها عمّرت عينيها منها كثيرا، حتى خلتها متخومة بالرّوية.

عمي بامْبا لأمي وهو يدفع لها الأمانة:

(ها هي بَكْتو!!).

لولا أننا كنا جميعا شاهدين على بيعها وكان معنا آخر من جيراننا يعرف بَكْتو حيوانا يدبّ على رجليه، لا يُعطى ملفوفا في خرقة كتّان، لفغر فاه وبهت.. دون أن تسأله عن قيمتها وآخر التفاوض. أشارت له بأن يعطيها لي، حتى تثبت له ثقتها بي، شعرتُ بنوع من الراحة النفسية تغمرني لهذه الثقة، كنت قلقا لما قال لها (ها هي الأمانة!!) وأنا بقربه فيتجاوزني لأمي؛ هكذا حال الودائع.. في الحقيقة حتى إن تجاوزني لأمي، ما كنتُ ألومه على ذلك.

وضعتُها بكل رضى وقناعة مصطنعة في حجري، طويتُ عليها طرف مقدّمة عباءتي البُنية من البازان الرخيص، في هذه اللّحظة بدأت تنبعث من ناحية زيْنابو، رائحة اللحم؛ لكنه ليس كرائحة المايْناما أو بقاياها على الجمر بفَضَا. المهم تناولنا غداءنا ومنحنا هُرَا، عطلة قصيرة المدى في هذا اليوم، خلال الفترة القصيرة بين نهاية الغداء وبداية شرب الكأس الأولى من الشاي، أعدتُ طرف عباءتي كما الأول، أخرجتُ الملفوفَ.. كان نزع الورق الإسمنتي يحدث حَفْحَفة صوتية وقد أبان أكثر عن حفيفه، عندما تمزّق هذا الأخير في وسطه، ليحدث خطا مائلا نوعا ما، أكملت نزعه بالتمزيق المتعمّد.

إبّان هذه اللّحظة وقبل نزع اللّفافة الكتّانية، بدأت تظهر تضاريس وسائد أوراق (السفا)، نزعتُ الكتّانة البيضاء، ظهرت البطائن الورقية، كانت مرصوفة بإحكام، أوراق صنف (**1000** فرنك سفا) محزّمة لوحدها،

ورق صنف (**5000** فرنك سفا) مربوطة بمفردها، صنف (**10000** فرنك سفا) مستقلة أيضا.. فيها الجديد الذي لم يمضِ وقتٌ كبيرٌ على خروجه من بنك غرب إفريقيا، منها ما هو باهت بفعل العدِّ وتناول القابضين والمسلِّمين عليه.

رائحة الشاي بدأت هي الأخرى، تدغدغ أنوفنا رغم انشغالنا بذمّة المسكينة!! ناولتنا زيْنابو كؤوسنا، هذه الأخيرة تنظر بحذر شديد لتلك الوسائد، لا أدري شيئا عن نظرتها تلك.. غير أني ربما تفهّمت جرحها وعدم اندماله، هي الوحيدة التي لم تهزم بالخلاص السحري (الله غالب)، لذلك أقلتها والتمستُ لها ألف عذر.

تناولنا كأسنا الثانية، الوقت شارف وقت صلاة الجمعة، قبل خروج عمي بامْبا ووداعنا، نزعتُ ورقتين من ربطة أوراق صنف (**1000** فرنك سيفا) أعطيته إياها.. أعرف أنه مبلغ متواضع، مقارنة بما طارح وفاوض فيه؛ بل أنا متأكد لو ذهبتُ وحدي، ما حصلتُ على الذي حصده.. هي النفس ورغائبها، كنتُ حكيتُ له خلال ذهابنا ورجوعنا من السوق، جشع سماسرة التهريب وطول بقائي أو ربما موتي وعدم رجوعي، لذلك قدّرتُ أنه تفهّم الوضع.. انتظرتُ حتى خرج عمي بامْبا بعد وداع ثقيل بالشكر مني ومن أمي طبعا، بعدها ذهبتُ لصلاة الجمعة متعجّلا، تركتُ الأمانة عندها، لما رجعت رددتها لي، ألقيتُ بذمة بَكْتو في حجر أمي ثانية:

(هاكِ الأمانة وسنتفاهم حولها ليلا..) قلتُ لها.

ليس لي دوام على القنطرة اليوم ولا بعده.. سأخرج الآن، تداركتني أمي أن الموعد الذي كنتُ آتي فيه من الضفّة الأخرى للنهر وأذهب بعده لفَضَا، لم يحن بعد!! على أكثر تقدير يكون قد بقي له ساعة ونصف الساعة:

- (أجل أدرك هذا يا أمي؛ لكني..).
- (أين تريد الذهاب يا "دو"؟).
- (ذاهب عند عُسْمَانُو، قُرب قارب والده بحافة النهر..).

خرجتُ قاصدا الضفّة، شمس ما بعد الظهر وما قبل العصر، لا زالت ساخنة نوعا ما.. وصلتُ متعثرا بالقمامة حتى عند سيف النهر، من البعيد اخضراره يتناقص، الرفيق عُسْمانو بالكاد أكمل ترقيع خروم شبكة الصيد، تحضيرا لرحلة أبيه القادمة، قاربهم طويل؛ بل ممتد في الطول.. عرضه ضيّق جدّا، أراه يتراقص على ضفة النهر، مشدودا بحبل في وتد، مسمّر على حافة النهر، مصبوغ بالأخضر المرقّش بالأحمر والأسود، قال لي إن جدّته لأمه أخبرته (إن ذلك للحفظ من العين وتحصين القارب..) كنتُ دائما أحبُ أن أسأل عُسْمانو، لماذا آثر حرفة الدلاّل، على مهنة أبيه؟ قلتُ في نفسي (لعلّها ربما فرصتي اليوم، لأن أسأله عن هذا التناقض السافر..) جلسنا على حافة النهر، يمسك عودا ويخطط به على حافة النهر المبلّلة برجّات الماء، كنتُ بقربه، في فضول:

(لماذا فضّلت الطواف على الصيد، أليس الصياد بأفضل من الدلاّل؟) قُلتُ له.

كان ظاهرا عليه، كأني تدخّلتُ في أمر شخصي يخصّه، رفع فيّ رأسه وهو يلعب بالعود بين أصابعه، بحركة لا إرادية كسر هذا الأخير.. أحدث ذلك الرّض بالعود صوتا رقيقا.. بعدها قال لي في خبث وبداهة:

(شيّعت جنازتك؟).

ههههه يقصد بيع البقرة بَكْتو!!

في قرير نفسي (كنتُ أسمع بصعقة الكهرباء، كأنها تشبه الذي يحدث لي الآن!!) ندمتُ ولعنتُ نفسي، تمنيتُ لو أن (دُوكو) فرعون النهر، بلعني في هذه اللّحظة واسترحتُ والله..

الحق أقول ولا شيء غير الحقيقة تُنجي:

(ارتبكتُ، التفتُّ مسرعا بيدي اليسرى بلا وعي إلى أذني اليسرى، برّدتُ ندامتي بترطيب شحمتها..).

هزّتني كلمة تشييع الجنازة، كلمة كبيرة فعلاً أعترف بهذا؛ لكن (الله غالب) هكذا بَدَر مني هذا الاستدراك، قلتُ هذه الأخيرة بلا شعور.. هي المرّة الوحيدة في حياتي سيّدي المُخرج.. التي أقولها بلا قصد.

أحسّ فاحمي زلزلتي.. تدارك الموقف.. حاول تلطيف الجوّ، قال لي في تبسّم متصنّع:

(تعرف يا دودو، لو أني مع أبي، سوف أكون دائما تحت رحمة "أعطِني".. مع أن الصيد لم يعد وفيرا كما كان، كلّ سنة يتناقص عدد الصيادين، نظرا لشحّ الصيد، ألم تحدّثني أن جدّكَ غَنْدا عندما جاء من "دوصو" احترف الصيد ولما ضنّ عليه النهر، التمس حرفة أخرى؟).

ربتُّ على كتفه الأيسر:

(حقا.. كلامك صحيح..) قلتُ له مؤيدا.

كان الوقت ساعتها بعد العصر تماما، مشينا لمجلسنا، الذي يقع غير بعيد، إدْرِيْسو لم يذهب لعمله، لقد أخبر ربّ عمله المَلعون.. أنه سوف لن يأتي، غارِيْكو باقٍ، سيبقى ويتخلّى عن التسوّل، ليقوم بحرفة أبيه، صاروا معروفين بالحفر، عُسْمانو سيظل يطوف.. ساكو هو الآخر لم يذهب للعمل اليوم، طلّق تَرْكو طلاقا بائنا بينونة كبرى وقد أهدى عربته لغارِيْكو كتعاطف ومواساة.. بدوره هذا الأخير باعها لعُسْمانو بثمن زهيد، هي المرّة الأولى في حياتي سيّدي.. التي أرى فيها ساكو يتصدّق!! لا زلتُ لم أصدق، رغم قسم غارِيْكو لي بذلك.

كالعادة وعلى طقوس الشاي نفسها وأغاني (**Mariko**) والرقص على إيقاعها، خلا زيادة شريط جديد لـ"بُوبْ مَارْلي" أعطاه لرفيقنا إدْرِيْسو أحد أصدقائه، الذين كان يعمل معهم في المايْناما كتذكار.. ليكون له زادا مسليا عبر الطريق المليء بالحيف والضياع.

قلتُ لكَ سيّدي.. على تلك الطقوس، تناقشنا ترتيبات رحلة مساء الغد، كلّف إدْريْسو ساكو، أن يقوم لنا- نحن الثلاثة- بعملية الحجز مع شركة (Sonef) صباحا.

افترقنا على أمل الاحتفاء الأخير بمجلس فَضَا غدا زمن الضحى مع توصية عُسْمانو وغاريْكو المتخلفيْن بإقامة جلسة المجلس المذكور كلّ مساء كما العادة.

ترتيب أمور الرحلة أخّرنا اليوم حتى ما بعد المغرب، المهم خرجنا، قصد كلّ منا كوخه، خَشْخَشة أكياس القمامة، تعزف مع رجلي موسيقاها الأخيرة.. اللّعنة عليك أيتها الرجيمة.. كنتُ أحبّ الليل كثيرا؛ لأنه يريحني من رؤية منظر القمامة، بالرغم ما أُبلى فيه من قرص البَعوض- قبّحه الله- دلفتُ إلى بيتنا مسرعا في هذا التعثر البغيض.

وجدتُ أمي جالسة مسمّرة وسط الرحبة، تعقد بتشابك أصابع يدها على ساقيها، أختي بقربها مرتفقة يدها على وسادة رثّة من عهد جدي غَنْدا، سلّمتُ عليهما جلستُ يمنة أمي، الضوء خافت هناك عند مدخل طهي الرفيقة (هُرَا)، إلا أنَّ عيني الجالسة كانتا تلمعان في ذلك الغور من حفرتيهما، قالت لي هذه الأخيرة دون تمكّث:

(كيف ستقسّم التركة يا ابن بوريْما؟).

قطعتْ عطسة زينابو العفوية، مع تشميتة أمي القصدية، ردي على هذه الأخيرة، بعدها قلتُ لها في حَنْحَنة خفيفة تسكن مغارة:

(سأترك لكما - أمي وأختي- الثلثين، سأتزوّد بالثلث، أعرف أنه قليل بالنسبة لرحلة كبيرة وشاقة، يشرب فيها السماسرة حتى دمكَ؛ أنا كما قلتِ في عدّتكِ الوسطى (حامي البيت).. سأعمل خلال مسار الطريق، الرحلة مراحل.. في كلّ محطّة، تتناقص المَؤونة، الأعمال الشاقة في ورشات البناء، لا

يقوى عليها الجزائريون والمغاربة، هناك محطّة في مدينة تَمَنْراسَتْ (باريْسْ ليكامارادْ) بعدها في مدينة أدْرارْ (روما ليكامارادْ) وفي مدينة مَغْنيّة (مالطا ليكامارادْ) بمحافظة (تلمْسان) الجزائرية ومدينة وَجْدَة المغربية (قبرص ليكامارادْ)، وصولا حتى (جزيرة لامبيدوزا ليكامارادْ) بمدينة (الفنيدَق) قُبالة سَبْتة الإسبانية، حيث الصّاخة الكبرى.. والفردوس الذي يحلم به ابنكِ..).

(آه.. آه!! يا كبدي.. إنها رحلة طويلة تؤدي إلى الضياع يا ولدي..) قالت أمي، أضافتْ بعد زيارة رغرغة خفيفة لفضاء عينيها (خذ هذا المبلغ "30000 فرنك سفا"، حتى تُكمل النّصف يا "دو".. النّصف الآخر من وسائد "بَكْتو" نقتصد فيه مع أختكَ وقد وعدتني رفيقتي خديْجاتو، أنها ستدبّر لشقيقتكَ عملا كخادمة عند إحدى العائلات الميسورة..).

أجبتها بثقة الرجال:

(لا.. لا.. يا أمي، مهما يكن من أمر سأتصرّف، يكفيني ما يوصلني لطاما بعد ابتزاز أهل اللّثام، فالعمل موجود كما قلتُ لكِ، محطة توصلني لمحطة، حتى أبلغ مُناي ويسكن ابنكِ البيت المَعمور..).

لما وجدتْ إصراري حجرا، قبلتْ بـ "10000 فرنك سفا" على مضض، سامح الله لنا حق الأمهات.. احتفظتُ بـ "73000 فرنك سفا"، ما تبقّى من القيمة الإجمالية للمَبيعة أعطيته لعمي بامْبا، أضفتُ إلى سهمي، ما مقداره "360 فرنك سفا" كان قد بقيَ لي من ثمن بيع عربة تَرْكو، بعد شراء اللحم لضيافة عمي بامْبا.

لملمتْ أمي الوسائد في خرقتها بعد ضياع ورقها الإسمنتي الخارجي، أمرت أختي أن تضعها في كوّة السقيفة، حتى تتناول عشاءها، بعدها ستقفل عليها في تابوتها الخشبي مع أغراضها الأخرى، هذه الأخيرة، تغلقها بقفل

تقليدي، صنعه لها أحد الحدّادين المعروفين بـ(لْمَعَلْمينْ) جانب السوق الكبيرة.

تناقص ضوء الفتلة حتى غاب بالرحبة، كانت أختي وقتها بالمطبخ، سمعنا قَنْقَنة الملعقة الخلاّطة التي اشتريناها قبل عام من سلعة رفيقي ساكو، أخال هذه الأخيرة، تخلط الحليب مع هُرا في الصحن مع نتفة لحم، كانت والدتي قد تركتْ من قطعة الأخير نتفتين، شرّحتهما ووضعتهما على الحبل الرفيع، الذي يقطع وسط الرحبة. قديدة غداء الوداع من الغد، لا زالت باقية على الحبل، يظهر الضوء الخافت، ظلَّها مع الحبل على الأرض. تناولنا عشاءنا الذي زاره الدسم هذه الليلة، (عليّ أن أنام باكرا، لأذهب غدا للسوق الكبيرة، لأبتضع أغراض السفر التي كنا اتفقنا- نحن الرفاق الثلاثة- عليها عشيّة اليوم) حدّثتُ ذاتي.

زحفتُ بوضعي الذي كنتُ على هيئته، يداي على الأرض، دافعا ساقيَّ للأمام بمراحل، كوضع إحدى لقطات لعبة الجمباز.. حتى بلغتُ حصيرتي الحرشاء، تمدّدتُ على ظهري ناظرا للسماء، الظلام يعم السماء، النجوم متناثرة في السماء.. ثنيتُ رجليَّ ثنيا خفيفا في تلك الوضعية، وضعت ساقي اليمنى على عين ركبتي الشِّمال. بعدها نهضتْ أمي، ربما لتضع ثلثي الفقيدة.. في التابوت وتغلق عليها.

زنْزَنَة البَعوض تعزف لي أغنية الوداع في أذني، شعرت بوكلة عضّة على ظاهر قدمي الشِّمال الواطئة على الأرض، التفتُ إليها حاكا إياها بباطن نهاية عقب اليمنى.. كان رسول النوم أقوى من صوت هذا الأخير وعضّه، غبتُ في رقدة عميقة.

بنفس الحركة التي أيقظتني بها أمي بالأمس، استيقظت مفزوعا.. دعكتُ عينيَّ بمعقوفة سبابتي، صبّحتُ عليها، صبَّحتْ عليَّ أختي كما

العوائد، توجهتُ نحو مكان قلّة الطين خلف الباب من الداخل، شعرتْ مقدّمة رِجلي ببرودة التراب النَديّ المحيط بها، توضأتُ، صليتُ.

كسّرت تخليطة الشاي وهي تخرج مفتولة من خرطوم البرّاد، وحشة صباح السبت الأخير بـ(G ـــمْكَلي)، شربتُ كأسي ساخنة هذه المرّة، خرجتُ مسرعا نحو السوق عبر خرائط القمامة التي كنت أصبّح عليها في كلّ مكان، (سترتاح عيناي من تقززها ورجلاي من تعثرها..) هكذا أومأتُ لنفسي، الوقت نفسه الذي كنت أخرج فيه لصديقي العزيز (G ـــورو) رحمه الله.. وصلت السوق في لجّة تلك الحركة الصاخبة، التي تتعالى في كلّ صباحات العاصمة ولا يحلو لها أن تتناقص إلا عند العصر من كلّ يوم.

قصدتُ أولاً جهة بيع الملابس المستعملة المعروفة عندنا بـ(البَالَة)، اشتريتُ سروالين مستعملين من الجينز الأزرق البارد، كما قال لي إدْريْسُو ووجدته صحيحا (إنها تصبر على وسخ الطريق أثناء السفر وتستر الأوساخ ما استطاعت إلى ذلك سبيلا..).

اشتريتُ بعدها قميصين صيفيين مستعملين كذلك، أحدهما أسود، الآخر أخضر، معهما قميص رياضي مستعمل للنادي الملكي المدريدي الإسباني، كما يعشق رفيقي إدْريْسو أن يصفَه، لون هذا الأخير أبيض، كُتبت على واجهته علامة تجارية (bwin)، يحمل رقم (10)، نعلان خردوان أيضا، حقيبة ظهر قديمة كذلك، أخيرا اشتريتُ هاتفين نقّالين مستعملين أيضا من الماركة القديمة لشركة (Nokia)، الأول لونه أزرق سماوي بهتت زرقته وانطمست حروفه وأعداد رموزه، هو على أية حال، أفضل من صنوه الأشهب، الأخير سوف آخذه معي، كما تبضّعتُ جهازي شحن جديدين رخيصين من صنع تايواني.. الوصفة نفسها، يكون إدْريْسو وبعده سَاكو، قد اشترياها من قبل، بحكم ظروفهما المالية المتاحة أكثر مني وإن كان إدْريْسو

كما قال لي (سوف يشتري نقّالاً واحداً فقط متطوّرا من جيل " Samsung Galaxy" مما يتيح له سماع موسيقى مارِيْكو وبُوبْ، بسمّاعي الأذنين، على أن يعطي هاتفه القديم (Nokia) لأمه خديْجاتو).

قبل عودتي للرفاق، قصدتُ شركة (Orange) البرتقالية للاتصالات، اشتريت شريحة هاتف، طلبت من الموظّف أن يشغّلها لي بالهاتف السماويّ، فعل بكلّ سرور.. لما رأى أني لا أفقه تثبيت الشريحة، تصرّف هذا الأخير بذكاء، كتب لي رقمها، في ورقة مربّعة بيضاء صغيرة، أعطاني إياها، شكرته كثيرا، شيّعني بابتسامة مصطنعة، تعلّمها بدورات التدريب، التي كانت الشركة الفرنسية المذكورة تقوم بها لموظفيها.

(3)

كان الوقت ساعتها الضحى الأخير، حين شققتُ موجات الباعة والمتسوّلين، حتى بلغتُ مشارف حيّنا، عند قلعة المنحدر، ألقيت نظرة أخيرة على الحي وقامة المستشفى المستفرغة، استنشقت ما شاء الله لي أن استنشق، من روائح الصرف الصحي لأثرياء فندق (Gـــــوايْ).

نزلتُ المنحدر حذرا؛ لكن ليس بذلك التوقّي في الصعود والنزول بتَرْكو، من البعيد القريب بلغتْ خياشيمي رائحة الشاي، قهقهة عُسْمانو هي الأخرى تبلغ طبل أذني، كان الرفاق قد وصلوا قبلي، سلّمت عليهم، أحدث إدْريْسو حركة بتلاقي إبهام يده اليمنى ووسطاها، صدر عنهما صوت للدلالة على الانتباه (تْرَاكْ..).. الأخير يريد أن يعرف نوعية اختياري من القماش والألوان، أما تحديد المشتريات بعينها فقد اتفقنا عليها قَبْلا.

لحظتها كنتُ واقفا، بسطتُ ذراعيَّ قليلا للخلف، تلقائيا انسابت روابط الكتف للحقيبة منها، وضعت الأخيرة أرضا، كانت هذه المرّة الأولى التي أملك فيها حقيبة والله!! قبل فتحها، أعطيت إدْريْسو (5000 فرنك سفا) التي أقرضني إياها لاستخراج الجواز المستعجل.. مع ثمن الدّمغة. فتحت المغلاق الحديدي للحقيبة الظهرية، أحدث فتحها سماع خرخرة لطيفة (خَرْرْرْرْ..)، أخرجتُ مقتنياتي، كانت غير منتظمة، محشوة كما تحشو أمي سَلاماتو الثياب البالية في الوسائد، قلّبها الرفاق، رفيقي إدْريْسو وافقني على كلّ مشترياتي، عدا اختياري للون قميص النادي الملكي، الأخير كان معجبا باللاّعب البرشلوني الكاميروني (صموئيل إيْتُو)، إلى هنا الأمر عاديٌّ؛ لكنه دَحَرني في انتخاب لون من ألوان مقتنياتي، عندما قال لي:

(لماذا تشتري الأبيض يا دودو؟ كان بإمكانكَ أن تبقي على رغبة فريقكَ المفضّل وتختار لونا آخر للنادي، يتحمّل الغبار وأوساخ الطريق وقد رأيتُها عند بائع الخردة بالسوق..).

ارتبكتُ قليلا.. معترفا بسذاجتي في هذا الاصطفاء، صحيح خمّنت تقدير الأوساخ في القمصان والسراويل؛ لكني لم أنتبه لذلك في القميص الرياضي، صراحة اللّون الأبيض راقني.. ربما رأيت فيه لون الأمل.. هكذا برّرت خياري، لاحظت نوعاً من الانتشاء يصيب إدْريْسو، من كلمة (الأمل) التي برّرت بها مفاضلتي للقميص الأبيض.

قلت له:

(تعلّمنا منك يا ابن موطاري، أنَّ الحياة أذواق..).

قبل أن أزيد، لعلّه أدرك صحّة كلامي، قال لي وكأنه يريد محوَ حيضته:

(ومذاهب كذلك يا رفيقي..).

بعد رؤيته للهاتفين القديمين:

(لا أظنكَ يا دودو اشتريتَ هذين الهاتفين لنفسكَ؛ لأننا اتّفقنا على المُشترى، أظن واحدا لكَ، الآخر لأمكَ مع أختكَ، حتى يمكنكَ التواصل معهما في رحلة حلمكَ.. أعرف أنه سيشحن في بيتنا كذلك..) قال لي.

رسمتُ له بقبضة يدي، كما أشار لي بسبابته في مجلس فَضَا واتفقنا بعد ذلك على مدلولها، بعدها:

(والله يا خليفة موطاري، إن هذا الموبيل مطموس الأرقام والأعداد، لست أدري كيف ستفهم أمي وأختي أرقام رموزه؟) نطقتُ حيرتي له.

تبسم تبسّما خفيفا، قال لي في روح دعابة، ورثها من كرموزومات خديْجاتو:

(الأمر سهل، لا يحتاج إلى لوحة أو سبورة.. انظر، ها هي أيقونة واحدة فقط تستعملها، ألا ترى بقايا الأخضر هنا..).

قلت له:

(حقا..).

(هذه هي الحكمة كلّها.. هي لن تطلب أحدا في التواصل، وظيفتها أن تستقبل، وضّح لها هذه فقط، هو أمر سهل..) قال لي.

شكرتُ إدْريْسو كثيرا؛ لأني كنت تائها حقا بعد شرائها (كيف لـ سَلاماتو أن تفهم هذه الأمكنة على سطحه؟).

أعدتُ ملابسي لحقيبتي، شربنا كأسنا الأولى، بعدها سمعنا أغنية لماريْكو وأخرى لبُوبْ، الأخير استأنسناه كثيرا.. قلتُ لإدْريْسو وقد سمح لي مستواي الدراسي الثانوي بذلك:

(أصلنا الإثني.. يحاكي آهاتنا في كلّ مكان.. لا سيما في أمريكا الشمالية والكريبي واللاّتينية عموما..).

استدركني إدْريْسو:

(حقّا يا رفيقي.. القهر، الظلم، ظلا مرافقين للرجل الأسود عبر التاريخ، من مارتن لوثر كينغ جونيور، مرورا بـمالكومْ إكسْ، حتى پاتريسْ لومومْبا وغيرهم..).

كان الوجوم باديا على الرفيقين عُسْمانو وغَاريْكو، مقداره يتلبّسنا أيضا نحن الراحلين.. ليس من السهولة نسيان عِشرة سنوات، تقاسمنا فيها الفقر، الشقاء، المناظر العفنة، الهواء الملوّث، تقديد البَعوض لأجسامنا الممصوصة أصلا.

الرفيقان غاريْكو وعُسْمانو في خاطرهما، إبقاء المسجّل لهما من طرف إدْريْسو أو على الأقل بيعه لهما بثمن معقول.. ودفع ثمنه على أقساط لأمه خديْجاتو، ريثما يتيسر لهما الحال.. إدْريْسو بفطنته فكّر في هذا قبلهما.. هذا الأخير يعرف أن أغاني (Fati) صارت بالنسبة للرفيقين، بمثابة المنديل الذي يمتصّ بقع الدمار.. الذي يبدد يومياتنا نحن الفقراء.. إهداء إدْريْسو لهما بالمسجّل مع أشرطة (Mariko) وشريط (Bob) التي استنسخها جميعا في نقّاله، كان بمثابة تذكار لعِشرة دامت أكثر من عشرين سنة.. كما أنه كفيل أن

يُهدِّئ من روعهما ويجعلهما يتسليان بعد أُفولنا، نحن الرفاق الثلاثة الغياب. وقتها الساعة الثانية عشرة والنصف نهارا، حين انفضضنا من المجلس، اتفقنا على الملاقاة مع رفيقينا عصرا قبالة النهر في الساعة الرابعة مساء، لإلقاء نظرة الوداع على هذا الأخير ومرافقتنا حتى المحطّة، حيث نقيم هناك أنهار الدموع.

خَطا كلّ منا لكوخه. دخلت البيت متشجّعا للحظات الوداع الأخير مع أمي وأختي، تخفّفتُ من حقيبة ظهري بهزّ أكتافي وإرخاء سدل أطرافي، أمي ساعتها جالسة في سقيفة البيت، أختي بقربها.

عبرتُ الساحة مطأطئا رأسي عند الحبل المار بها، سلّمت عليهما، أمي متطلّعة:

(ما اشتريتَ يا "دو"؟).

بالصورة والرؤية، أخرجتُ لها أغراضي المستعملة، واحدا واحدا.. أضفتُ:

(كلّ هذه الأغراض اشتريتُها لي، إلا هذا الهاتف مع شاحنه يا أمي، سأتركه لكما، لأتصل بكما كلما سنحت لي الفرصة..).

أصدرت أمي هَأهَأة، أبانت فيها عن فمها الخرب، ابتلعتها بوضع يدها على ثغرها وقالت في دهشة:

(كيف لي أو لأختكَ أن نعرف استعماله؟).

قبل غرقها في ذهولها ومعها زيْنابو:

(الأمر لا يعدو أن تضغطي قليلا بإصبعكِ على هذا المكان.. احفظيه جيدا، ها هو.. الذي ترين فيه قليلا من بقايا الأخضر..) قلتُ لها مطمئنا.

هزّت رأسَها ولسانُها يعرب:

(أختكَ لا تقرأ؛ لكنها تستوعب أكثر مني، اشرح لها، على الأقل وُلدت في هذا الزمان، الذي تنتقل فيه الأخبار، من مكان بعيد إلى هنا بلا أسلاك!!).

اقتربت مني أختي قليلاً بفضول الأنثى، أوضحتُ لها ذلك.. سألتها للتأكيد، أكّدتْ.. لم أقتنع حتى أعطيتها إياه فمثّلت.. ضغطتْ ضغطا خفيفا- كما علّمتها- على ذلك الموضع الباهت الخضرة، أبلغتها كذلك بضرورة شحن النقّال عند خديْجاتو كلّ أسبوع، هو لا يستعمل إلا للاستقبال، ما يتقوّت به ليلة يكفيه أسبوعا. وحتى لا أثقل عليها، بعلامة تناقص البطارية، أبلغتها أن تعطيه لخديْجاتو، هذه الأخيرة تتصرّف وكفى.

بعدها قامت زيْنابو لتحضير وجبة هُرَا مع قديدة اللحم الأخيرة، تناولنا غداءنا، لحسنا أصابعنا كعادتنا، بعدها قامت أختي بطقوس الشاي، صبّر كلّ منا الآخر وأن كلّ شيء بالمكتوب.. كانت علامة الحرقة ولوعة الفراق، التي تسبق الوداع، بادية على أمي أكثر من أختي، إن اشتركتا في الحالة، التي تسبق رغرغة الدموع. المنظر حقا أحالني على الضياع سيّدي المُخرج والله..

مضى وقت كبير ونحن نتلاطف بالبكاء ونتسلّى بالدموع، لا أزعم أننا وحدنا - أسرة بوريْما- نعيش هذا الطقس الجنائزي!! إدْريْسو هو الآخر غارق مع خديْجاتو في بحر الانتحاب.. بل قُل أكثر منا أو ضعفنا.. سَاكو مهما يكن من أمر، يقوم هو الآخر بحفلة مراسيم البكاء مع أمه وإخوته بمن فيهم أخاه المعتوه.

خيّمتْ على الحي علامات الحزن في تلك العشيّة، زادته بؤسا على بؤسه، الجيران هم الآخرون زدناهم جرعة على تلك التي اعتادوها في يومياتهم النّكدة.. الوصف كان يغني عن الحال، غطاء رأس أمي الأحمر غرق في نهر الدموع، تبعتها أختي في واده.. أحسُّ بالدوخة، الرعشة تجتاحني، أخرج بنادق خلاصي (الله غالب)، لا تنفع هذه المرّة، كان الموقف صادما سيّدي..

(ليس سهلا.. أن تفارق من عشتَ معه حياتكَ، بتعاستها وأيام أفراحها القليلة، ستترك أمكَ وأختكَ وتقتلهما بالتذكّر والحنين.. ويضيّعانكَ بالتذكّر وتأنيب الضمير..) قلتُ في نفسي.

لا شيء يطفئ جمرة لوعة الفراق ونياط الوداع، إلا أمل اللّقاء.. خرجتُ من غيبوبتي، برّدتُ حرقة أمي:

(كما خُلق الفراق والوداع، جُعل إلى جنبهما الأمل واللّقاء..).

كأني بهذه المقاربة، طرقتُ رأس هاتين الأخيرتين وأفاقتا من نومة عميقة.

بعد إفاقة أمي من فاجعتها.. حرصتْ على تذكيري بوِرد أساسي لا أنساه.. يكون زادا لي في سفري ساعة النَيْطَل.. بتوصية شديدة من أمي:

(اسمع يا ولدي.. إن واجهتكَ ظروف صعبة، كانقطاع السّبل في الصحراء.. ولا مغيث إلا الله.. كأن ترى الموت مثلا.. أو ما يشبه هذه الظروف.. فقد تركَ والدكَ - رحمه الله- تميمة (Gـــونْكي) مصنوعة على شكل حجاب حديدي مربّع، صغير ورقيق، به خيط رفيع أصفر مفتول، لم أشأ أن أسأله كثيرا بما في داخلها؛ لأنه كان شديد التكتّم عليها في حياته.. قال لي ذات يوم بامتعاض شديد بعد طول فضول مني.. إن بها عقاقير مسحوقة، من رؤوس النسور، التماسيح، البوم وعقاقير أخرى.. كان قد اشترى ذلك الحصن خلال الستينيات، من رجل أتى بها من سوق الشعوذة المُسمى سوق "أكوداسيوّا" بـ "لومي" عاصمة "الطوGـــو"، كان لا يعلّقها في رقبته إلا أثناء سفره، يرجو بها الحفظ وتسهيل الأمور وأكّد لي ظهور نجاعتها في أكثر من موقف جَلَل.. خلال سفرياته القليلة. كما أبان لي ذات ليل في حديث الوسادة بلا طلب مني.. أن فاعلية التميمة، تكمن في الالتفات إليها وعضّها بأسنان الأنياب فقط، عندها تفرج الغمّة بشكل سحري!!).

سلّمتني أمي التميمة الحديدية، رددتها لها بأدب، طالبا منها التماس البركة بوضعها في رقبتي، فعلتْ المسكينة بكلّ سرور، مع تمتمات وتعويذات، سمعتها ولم أفهمها، سألتها:

(هل أتكتّم بها عن أعين الرفاق؟).

(تستّر والدكَ عن أمرها حتى عنّي.. خليق بكَ أن تغمدها عن بصرهم أيضا يا ولدي..).

بعد تعليقها للتميمة، زادت من تأكيدها، طمأنتها حتى استطاب خاطرها أو كاد.

قدّمتُ عناقي ووداعي لأختي عامدا، صحيح أننا بكينا وتألمنا كثيرا للفراق؛ لكن لوعة وداع أمي كانت أكبر، تعانقنا كثيرا.. حتى غاب رأسي بما يحمل، في رقبتها وصدرها، الحق يذكر، أفرغنا قِرب عبراتنا في تلك اللّحظة، تركتُ قدرا يسيرا من الأخيرة لوداع الرفاق بالمحطّة. ما لبثنا أن رفعنا رؤوسنا حتى عاودنا ثقل الحزن وبشكل أكثر.. لم تطق أمي أن تعاود تذكيرها بوصية التميمة في غمرة هذا الوضع.. سوى أن أشارت لي أخيرا، بأصابع يدها اليسرى نحو رقبتها، هززتُ لها رأسي لعجزي أنا الآخر عن الكلام.. تحت إيقاع بكاء الوداع ونغمة الكَمَان للفراق، طبعتُ قبلة الوداع أخيرا على جبهتها الكريمة.

أدخلتُ أطرافي في روابط الحقيبة من الخلف، حملتُ بيدي الشِمال جالون الماء سعة خمسة لترات، مغلّفاً بالحلفاء، كانت أمي حريصة على حمله كذلك.. بعدها رفعتُ راحة يدي اليمنى، بسطتها مرفوعة أمامي بسطا كاملا، كتلك العلامة التي كانت ترسمها أمي لراحة اليد، بطين النهر على باب كوخنا لجهة الخارج، تضع وسطها بيضة محدّجة مرقّشة بنقاط سود وحمر.. لما كبرت عرفتُ أنها تستعمل لتحصين البيت من العين.

تراجعت بخطوات للوراء وسط الرحبة، بالحركة نفسها انخفضت عند المرور بالحبل، لأتم إشارتي حتى عند الباب.. التقتْ أعيننا جميعا - نحن الثلاثة- تعانقنا من بعيد بالرؤية.. أفرغت نصف ما خبأته لدموع فراق الرفيقين بالمحطّة.. تبعتني شيخة أورادي برشّ قطرات من الماء بأطرافها على عتبة البيت، كعادة يفعلها أهل زرما والهوسا للغائب الذاهب، رجاء عودته

أو كتلك التي قام بها ابن موطاري لغرض آخر، قبل مجيئنا لمجلس فَضَا ذات عشيّة، إن كنتَ تذكر سيّدي..

وصل القوم كلّهم لضفّة النهر كما اتفقنا، إلا أنا ورفيقنا إدْرِيْسو، هذا الأخير جاء بعدي بخمس دقائق، أمر منطقي أن يحصل هذا التأخير منه، لهول ما يكون قد وقع بينه وبين خديْجاتو المسكينة.. كان الله في عونها وفي عون أمي وجميع الأمهات، اللائي تتقطّع نياط قلوبهن، عند جَوى الفراق مع أكبادهن، الأمر ليس سهلا، أكذّب كلّ من يفتري ويأتي بدجَلٍ أحمق غير هذا سيّدي المُخرج العبقري..

ألقينا – نحن الرفاق الثلاثة– على النهر رؤية الوداع الأخير.. توجهّنا نحو المحطّة بصحبة رفيقينا عُسْمانو وغاريْكو، صعدنا المنحدر بجانب المستشفى، استدرنا للوراء، تاهت نظرتنا في إلقاء السلام الأخير على (Gــــمْكَلي) ومن فيه، أمر واحد لا أنساه أبدا من هذا المشهد.. هو وداع الأخ الصغير لساكو.. وكذب هذا الأخير عليه، في أن يبني له قصرا في الجنّة عندما يكبر.

فترت الحركة قليلا بالمدينة، سلامنا ووداعنا كذلك، كان للقمامة المستشرية في كلّ مكان، للهواء النتن طبعا.. الذي يعكّر جوّ هذه المدينة، أما البَعوض فقد كلّفنا غاريْكو وعُسْمانو، أن يقوما بوداعه نيابة عنا ليلاً.

المحشر..

(1)

في مساء الحادي والعشرين من شهر جويلية، وصلنا محطّة المسافرين لشركة (Sonef) بنيامي، الجوّ بدأ يلطف قليلا مع العشيّة، الناس حلقات، يشغلون جغرافيا فضاء المحطّة، الأمتعة المربوطة متناثرة في كلّ مكان، شباب من ليكامارادْ الحالمين.. آخرون يبتغون الوصول لمدننا الشمالية كـ(دوصو)، (طاوة)، (أGـــادَزْ)، (أرْليتْ)، لا يبتغون غير هذا.. كهول، شيوخ، نساء مع صغارهن. الكلّ مهموم بشغله، انزوينا نحو بائع الشاي هناك، كان يفرش حصيرا سعفيا بالياً، جلسنا، شربنا شايا، دخّن رفيقي إدْريْسو سيجارة بالتناوب معي، كان يتكرّم عليّ دائما بها قبل عقبها.

بدأ الناس يحملون أمتعتهم مختلفة الأشكال، نحو الحافلة التي شغّل سائقها المحرك إيذانا بقرب الانطلاق، أعاد المفتاح، أوقف المحرك.. تعانقنا مع رفيقينا عُسْمانو وغاريْكو، لحظات وداع الرّفاق، هي الأخرى لها طعم المرارة سيّدي.. كنتُ قد استبقيتُ دمعات مختزنة من وداع أمي وأختي قصدا لهذه اللّحظة، أفرغت نصفها ساهيا في لحظة وداع الرؤية مع هاتين الأخيرتين.. علّني بذرف النصف المتبقّى أبرّد غُلّة فراق عُسْمانو وغاريْكو.. أوصيناهما على أهلنا خيرا في غيابنا.

تقدّمنا نحو الطابور المتجمع من الركاب مع رَياشهم.. فتح مرافق السائق، باب مخزن الأمتعة، أدخلها بمشقة نظرا لكثرتها، كنا متخففين والحمد لله.. ليس لنا سوى حقائب الظّهر، التي نلبسها ونحن نسير.. مع جالوناتنا المغلّفة للماء، كانت أمهاتنا اجتهدن في تغليفها وأخفينَ فيها دعوات صالحات.. الأولاد الصغار يصرخون، البعض منهم بالجوع وهذا مؤكد.. البعض منهم من بقايا بَعوض ليلة الأمس، الغالب فيهم مريض

مبتلى بالإسهال وبقية الأوبئة، التي تعتري الأطفال، لقلّة التغذية والرعاية الصحية عندنا!!

تدافع الناس كالموجة نحو باب الركوب، الراكب يقدّم التذكرة لمرافق السائق، يفحصها بعينيه، يشطب على رقمها في قائمة عنده بقلم أحمر، يأمرك بالصعود، اخترنا- نحن الثلاثة- مقاعدنا في نهاية الحافلة، الوقت يقترب من الغروب قليلا، أعاد السائق حركة المفتاح لتشغيل المحرك، أغلق الباب، جلس المرافق على الكرسي الأمامي يمين السائق، سادت وصلة صامتة، كسّرتها نَغْنَغَة طفل رضيع في مقدّمة الحافلة.

انطلقت بنا الحافلة شَمالا تتمايل، تراقصت معها سنابل شعر إدْريْسو، القينا نظرة السلام الأخير على نيامي.. بعد ابتعادنا من المحطّة حوالي خمس كيلومترات، توقّفنا عند نقطة المراقبة.. المكتوب بجانبها (**Route Nationale No/02**)[31] صعد الحافلة جندي يلبس بذلة عسكرية، يضع قبعة مائلة على رأسه، لم يهتم بالشيوخ، الأطفال، النساء، كان همّه واضحا، أن يتصيّد شابا كامارادیا بلا وثائق هوية أو جواز سفر بلا تأشيرة، ليتعشّى برشوته مع رفاقه.. تأكدتُ على مسار الطريق، أن الجنود عبر الطريق، يدعون الله سرا وجهرا، أن يجدوا من لا وثائق له من رفاقنا ليكامارادْ، لا سيما من (بوركينافاسو)، (السنِـGـــال)، (كوت ديVـــوار)، (سيراليون)، (ليبيريا)، (الكاميرون)، (الكونـGـــو) وغيرهم.

أخيرا وجدوا (كوت ديـVـــــواري) وبوركينابي، أنزلوهما نحو كوخ مبني بالحجارة، ساوموهما إما أن يدفعا.. أو يرجعا لبلديهما من هنا، المهم انتهت المفاوضة بحلبهما.. انتظرنا حتى قضوا وطرهم منهما.. بعدها صعد المسكينان يخفيان شكواهما لمولاهما، سمعنا (الكوت ديـVـــــواري) يقول بمسمع من الجنود:

31- الطريق الوطني رقم 02.

(حرام عليكم، أليستْ هناك اتفاقية بين دول غرب إفريقيا، تسمح لرعايا هذه البلدان بالتواجد على أراضي الاتحاد دون مشكل وبلا تأشيرة؟).

جلس هذا الأخير، في مكانه قانطا، انطلقت الحافلة، قال متذمّرا بصوت معلن:

(اللّعنة عليكم يا مصاصي الدماء..).

هجمت الحافلة على الطرق المعبّد المكسّر؛ بل هجم عليها هو بحفره، قضينا وقتا في ذلك الرّج، بعد ساعة ونصف الساعة، وصلنا مدينة دوصو، قلتُ للرفاق (قرى هذه الناحية هي مسقط رؤوس أجدادنا من قبيلة زرما). توقّفت الحافلة بمحطة (Sonef) بـهذه الأخيرة، أخلى سائقها للركاب برهة، لمن أراد أن يتعشّى في مطعم حاله أقلّ بكثير، من تلك المطاعم الرصيفية قُرب الوزارات.

لم نكن في حاجة لشراء الطعام، رفيقنا إدْريْسو تكلّف بجلب العشاء معه، هو كريم معنا.. حقيقة نقولها في الحضور والغياب، لو كان الرفيق إدْريْسُو من أولئك الشباب غير الطامحين، لرضى بمعاش أبيه رغم قلّته وبقيَ مع أمه.. شخصيا لو كنتُ في وضعيته لآثرتُ البقاء.. للأمانة حاله المادي أحسن بكثير من الرفيقين غاريْكو وعُسْمَانُو؛ لكنه كان جَموحا.. ذكيا مثلي أو قُل سيّدي المُخرج (أقلّ مني قليلا..) لم يحرز الباكالوريا؛ لكنه كان مثقفا موسوعيا، لذلك سلّمنا له ما سلف من أمرنا وما ينتظرنا في قادم أيامنا.

شغّل السائق المحرك، أحدث طَوْطَوة ببوق الحافلة، تسارع الركاب نحو الحافلة، اختلطت أصوات الركاب، بعويل الصغار، حين غادرنا مدينة دوصو، الليل حالك، مثلما وقع للمحلوبيْن، عند البوابة الشمالية لنقطة المراقبة لنيامي، سيقع لهما حتما كذلك هنا، كنا في نهاية الحافلة، لا نرى شيئا، غير أننا شعرنا بحُنُوّ التمهّل المفضي للوقوف، أخيرا توقّفت الحافلة.

صعد أحد الحراس، يحمل مصباحا تقليديا فضيا، شكله أسطواني، يسع جوفه بطاريتين أسطوانيتين كذلك، تتبعنا نحن الشباب، لا همّ له غير

ذلك.. عثر أيضا على الضحيتين المسلوختين!! أنزلهما، بعد شدّ ومدّ، أخلو سبيلهما بعد رشوتهم طبعا.. هي على أية حال أقلّ من سابقتها، حسب رواية البوركينابي، عاودت المركبة الطويلة الانطلاق، أخذ الأطفال ينامون وسط الظلام، بدأ الغطيط يحدث أصواتا غريبة في هذه الأخيرة، الروائح الكريهة هي الأخرى نلنا منها حظّنا وإن كنا في الحقيقة مشاركين فيها.

أخذتني سهوة من النوم، كانت إفاقتي بعدها متقطّعة، بعدها غفوتُ في نومة عميقة، رأسي مائلة قليلاً على كتف رفيقي إدْريْسو، لم أفق إلا وهذا الأخير يهزّني للنزول.

كان الوقت ضحًى، عندما نزلنا للاستراحة بمدينة (طاوة)، منطقة تجارية كبيرة، نكون قد قطعنا مسافة (600) كلم من نيامي، جاء أطفال للمحطّة، أسمالهم بالية، وجوههم شقيّة، يطوفون بحفنات من التمر التوّاتي الأحمر اليابس، اشترى كلّ واحد منا حفنة يد من تمر (تِلَّمْسو) الأحمر الغامق، هذا النوع سيّدي المُخرج.. هو تمر البؤساء في النيجر ومالي؛ كونه رخيصا.. مقارنة بأنواع التمور التوّاتية البيضاء، التي هي وقف على الأثرياء، مضغ كلّ منا حصّته بتلذّذ.. شربنا الماء من جالوناتنا المغلّفة، أشعل إدْريْسو سيجارته، ناولني سيجارة هذه المرّة، لم نكن مدمنين بشكل زائد؛ لكننا نشربها بين الحين والآخر، ساكو لم يكن مدخّنا على الإطلاق، ليس من باب أنها مضرّة بالرئة أو الصحة.. إنما كان يرى فيها مضيعة للمال، من هذا الباب فقط.. أنا متأكد لو أصبح ثريا، لدخّن (MARLBORO) و(DUNHILL) و(CRAVEN) وربما حتى (CUBAN CIGAR).

بعد نصف الساعة، أعاد السائق الحركة والأصوات نفسها.. التي تبيّن للركاب أن اصعدوا واركبوا، أخذنا مقاعدنا، مع دخولنا حرارة النهار، ازداد الصُّنان زكمة للأنوف، سرنا نهارا مليئا بالعثرات الطرقية، نظرا للطريق السيِّئ بين مدينتي طاوة و(أGـــادَزْ)، الأرض قاحلة معرّاة، إلا من

بعض الشجيرات الشوكية أو الكرنك، أصابنا لُغُوب مكلول، بكتْ من وطأته العجلات القديمة وشكتْ من خضّته الأمعاء الفارغة.

عليّ أن أكون منصفا هنا أكثر من اللّزوم سيّدي "الكاميرا مانْ".. بكلّ جرأة أقول (إن بني جلدتنا- حكام العسكر في الجنوب- لم يعطوا للشَّمال حقّه في التنمية، إذْ كلما ازددتَ إيغالا في الصعود نحو هذا الأخير، لاحظتَ إهمالاً ذريعاً في كلّ شيء.. ومهما تعاطفتَ مع بني سواد لونكَ بفعل حميّة العرق، ستجد نفسكَ أخيرا تلتمس الحقَّ لهؤلاء الطوارق المتنفضين بالشَّمال..) المهم صبرنا على هذه الحالة، ليس لنا من بدّ غيرها.. حتى بلغنا مدينة (أGـــادَزْ) فجرا، بعد قطعنا (600) كلم من مدينة طاوة وبحساب آخر (1200) كلم من نيامي، الأخير يهمنا سيّدي الفاضل.

بدتْ لنا مدينة (أGـــادَزْ) مع ضوء فجر ذلك الاثنين، كمدينة أشباح، القمامة والأوساخ، كأنهما ولدا وترعرعا هنا، يا سبحان الله.. البيوت طينية، أحياء القصدير معششة ومفرّخة.. توغلنا قليلا في المدينة مع زيادة ضوء الصباح، الملاحظة الأولى التي تخطر ببال الزائر، أن الطوارق يشكّلون فضلة كثافة.. سيارات الدفع الرباعي هي الأخرى ثجَّاجة.. منها الجديد، المستعمل، التِلاَد، المواشي تمثل الحالة العامة للشوارع، لا سيما الماعز.. منازل قليلة مما يظهر فيها أثر النعمة. هي موجودة على أية حال؛ لكنها قليلة.. إذا ما قورنت بهذا العدد المتورّم من أكواخ الصفيح.. الصومعة الطويلة للمسجد العتيق للإمام المغيلي[32]، تبسط سطوتها على الأفق العام للمدينة.

32- (محمد بن عبد الكريم)، عالم وفقيه تلمساني، كانت له أياد بيضاء، على نشر الثقافة العربية الإسلامية بممالك سنغاي والهوسا، له مؤلفات عديدة، له مساجلات مع قاضي تمنطيط الشيخ العصنوني، حول نازلة يهود توات، كما له مناظرة مع جلال الدين السيوطي حول علم المنطق، له زاوية مشهورة بصحراء توات، بها أحفاده، بمقاطعة زاوية كنتة، ولاية أدرار، الجزائر، توفى سنة 909هـ بقصر بوعلي، وضريحه معلوم بزاويته.

ثمّة أمر آخر استرعى انتباهنا في هذه المدينة الغريبة، هو هذا التواجد النوعي والمتنوع، للشباب الكامارادي، من مختلف الجنسيات الإفريقية المذكورة آنفا ومن جنسيات إفريقية أخرى.. لا أعرفها إلا على الخارطة ولا أعقل اسمها.. هنا أدركتُ ما كنا نسمع في تلك الأخبار، التي جمعناها بالحق والباطل، حول الهجرة وكواليسها وهامشها الخفي!!

دون أن نسأل إدْريْسو قال لنا:

(انظروا يا رفاق، هذا ما حدّثني عنه إبْراهيما بـ(واGـــا)، فعلا مدينة (أGـــادَزْ) ملتقى طرق الهجرة، من جهة الشرق، هناك طرق التهريب نحو تشاد، من الشَّمال الشرقي طرق التهريب نحو ليبيا، من الشَّمال رأسا طرق التهريب نحو الجارة المقصودة. منذ ثورة **17** فبراير **2011** ضد القذافي، قلّت هجرة الرفاق "ليكامارادْ" نحو ليبيا، إن كانت لا زالت نشطة بعض الشيء؛ لكن ليس كحالها سابقا، الجارة الشمالية مولاتنا الجزائر، هي قِبلتنا..).

كان التعب قد هدّنا وأحدث مُنكرا كبيرا فينا، لا سيما أنا وساكو، هي أول مرّة نسافر فيها خارج العاصمة، الرفيق ابن موطاري، كان متعوّدا على السفر بين نيامي و(واGـــا)، طلب لنا رفيقنا إدْريْسو شايا، علبة بسكويت، سلّمنا بها سلاما خفيفا على مصاريننا المتضوّعة، جموع الطوارق البيض أصحاب اللّثام كثيرة، مع نسائهم الحسناوات البيض أيضا، قلت لإدْريْسو في دهشة مطلية بدهن الغرابة:

(تراهم جنوبا عندنا بنيامي قلّة، ليس بهذه الكثافة!!).

أبان لي:

(حقا يا رفيقي، هذه منطقتهم، مثلهم مثل طوارق مالي، ما يعانونه هنا من إهمال الحكومة المركزية بالجنوب كما يقولون، يشكوه أمثالهم بكيْدالْ شمال مالي، مقارنة بـ(باماكو) جنوبا عندهم..).

ساكو يسترق السمع لحديثنا، رغم مستواه المتواضع بالنسبة لنا، قال:

(إذا كان الحق ما تقولون، فإن الإهمال واضح.. ألا ترى الطريق بين مدينتي طَاوة و(أGـــادَزْ) كيف حالتها؟ وما عاينيناه فيها وتلك حالة الأمور كلّها، كلّما اتجهنا شَمالاً..).

إدْريْسو بعد ذلك:

(الرفاق "ليكامارادْ" هنا كُثر، نحن نعرف مواطنينا، حالتهم بسيطة مثلنا.. تحضّرهم قليل.. انظر هناك إلى تلك المجموعة، ألا ترى بعضهم له سنابل مفتولة متدلية على رؤوسهم مثلي..).

هززت رأسي مع ساكو، في آن:

(حقا.. حقا..) قلنا.

أضفتُ له:

(أجل.. حضر بذهني مباشرة، صورة ذلك المغني على غلاف الشريط، الذي أتيتَ به في الأيام الأخيرة وسمعناه بمجلسنا وقلتَ لنا؛ إنه "بوبْ مارلي" الجامايكي..).

حتى ساكو تفطّن لأمرٍ آخر، عندما ذهب لقضاء الحاجة، مرّ قُرب مجموعة من الرّفاق يتحدّثون الإنجليزية، سرق منه إدْريْسو الكلمة، قال:

(هؤلاء قد يكونون من الكاميرون، ليبيريا، سيراليون أو غيرها من الدول التي كانت تحت طائلة الاستعمار البريطاني..).

أخرج إدْريْسو كنّاشا قديما نوعا ما، كان قد دوّن فيه بعض معلومات الرحلة ومحطّاتها عن طريق إبْراهيما من قبل.. شكل هذا الأخير مستطيل، أكثر ما أقدّر طوله خمسة عشر سنتيمترا، عرضه عشرة سنتيمترات، غلافه برتقالي، به مقبض حديدي ملفوف على طوله عند حافته اليمنى، يسمح بتقليب الأوراق، فتحه، أوراقه بيضاء مخططة تخطيطا مربّعا، أقلب الورقة الأولى، قلّب بعدها أوراقا، عثر على معلومة كان بصدد البحث عنها، وجّهنا:

(علينا أن نتّجه نحو ناحية المَخرج الشَّمالي للمدينة، ليس ببعيد من هنا..).

حملنا حقائبنا على ظهورنا، أمسكنا جالوناتنا بأيدينا، توجّهنا نحو تلك الناحية، سرنا ما يقارب الساعة، حتى بلغنا منطقة شبه خالية من أكواخ القارين، عند الناحية الشَمالية لـلطريق النافد لمدينة أرْليتْ، وجدنا هناك جموعاً من الشيوخ، النساء مع أطفالهن، كانوا قلّة مقارنة معنا نحن الشباب الحالم بجنّة الفردوس.. أما أولئك الغلبى، فقد عرفتُ فيما بعد، أنهم ينتمون لقبيلة (كانوريْ) الهوساوية، التي ندعوها نحن الزرما بـ(بيري بيري)، غاية حلم هؤلاء ينتهي عند (باريسْ ليكامارادْ) المسماة بطَامَا الجزائرية، حيث يختارون مكاناً ينصبون فيه أعواداً كقراهم نواحي (زَنْدَرْ) شرق بلادنا، حيث الفقر في تلك النواحي أو يكترون بيوتاً رخيصة، ينطلقون بعدها في الشوارع بطاسات صغيرة من معدن التوتيا، يتسوّلون، يترجّون المارّة في الأسواق والطرقات، ربما البعض منهم يتقدّم نحو وسط الجزائر أو شَمالها، ليقوموا بالعملية نفسها. هذا الصنف لا يعرف الهجرة هنالك.. ولا يحلم بها.. عينات استثنائية تحلم بالفردوس وتقامر بأطفالها، لكنها قليلة، إذ إنَّ الأمر شاق على الكبير، فما بالك بالطفل الصغير، رغم هذا يغامر البعض بأطفالهم وإنا لله وإنا إليه راجعون!!

الساحة شاغرة من السيارات والشاحنات المحمّلة بالأغنام والفحم نحو الجارة الكريمة.. قلتُ لكَ سيّدي.. إن هذه الشاحنات، بالإضافة إلى حمولتها الطبيعية، كان يتكدّس فوق سلعتها، خلق غفير من البشر مع أمتعتهم.

قضينا يومين في العراء نتصهّد نهارا ونُبلى ليلا.. ننتظر سيّارة أو شاحنة تقلنا لمدينة أرْليتْ وهناك لنا حكاية أخرى!! حتى جاء صباح اليوم الموالي، قَدِمتْ فيه شاحنة حمراء داكنة محمّلة بالأغنام، نوع (Man) الألمانية، تحمل ترقيما جزائريا، لم يبقَ في ذاكرتي، غير الرقم الأول منه، نظرا لسهولة حفظه،

هو رقم (01)، عرفتُ في قادم أسفاري... أنه ترقيم لمحافظة صحراوية تقع شَمال طاما، تُسمّى مدينة (أدْرارْ)، نطلق عليها في قاموسنا الكامارادي سيّدي الضيف اللّطيف.. اسم (روما ليكامارادْ).

صُفَّتْ فوق تلك المواشي، على حافتي سطح عربة هذه الأخيرة ألواح متلاصقة، كوّنت تلك الألواح سطحا آخر فوقها، سَبَتَتْ تلك الشاحنة في نومة عميقة مع سائقها ومرافقه نظرا للتعب وطول الطريق مع عدم تهيئتها.. عرفنا فيما بعد، أنها كانت قادمة من مدينة (مُرادي) الواقعة جهة (زَنْدَرْ).

مرّ اليوم الثالث، الشاحنة لم تقلع، فهمنا أن صاحبها يريد شحنة أخرى من البشر، تنضاف إلينا، تعدادنا يربو عن العشرة ولا يصل العشرين، كلّ هذا الخلق.. وأهلها يتوسّمون الزيادة!!

كنا ننام على أكل يسير ونقضي الليل مع مَعْمَعَة الأغنام وقرص البَعوض، الذي لا يزال يتعقّبنا حتى غاية هذا المكان.. أما القمامة والتلوّث، فهنا مهدهما ولن أزيد كلمة أخرى سيّدي المُخرج.. ذكرتُ لكَ ذلك من ذي قبل؛ لكني نسيتُ والله.. عذرا سيّدي كثير الرَّماد.. على هذه الهفوة، فسبحان الذي لا ينسى.

(2)

سهّل الله لنا في صبيحة الجمعة، أن قَدِمتْ قافلة أخرى، من الرفاق ليكامارادْ، النّاهضين للحياة، المقاومين لها رغم إملاقها.. كانوا في حدود العشرين، توسّلنا لصاحب الشاحنة، أن النصاب قد استوفى وزيادة.. (كان يطمع في الاستزادة؛ لكنه اسْتَحيا..) قلتُ في نفسي.

(رقصتُ رقصتي المعتادة..).

ردّدتُ خلال رقصتي، عبارتي المعتادة:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

[[يوم الجمعة بعثُ فيه البقرة، ها هو يأتي بالنصاب لإكمال الرحلة..]].

اتّفقنا مع صاحب الشاحنة بعد مفاوضة يسيرة على مبلغ (**5000** فرنك سفا) للراكب الواحد، بعدها تفاهمنا على أن ننطلق في رحلتنا نحو مدينة أرْليتْ مساء، قضينا النهار على خبز حاف، تمرات كنا قد نسيناها، في ثنايا حقائبنا، مع شربة ماء في تلك الهاجعة.. السراب البعيد في الخلاء، بدأ يتلاشى مع تدرّج قرص الشمس نحو جهة مرقدها.

أمرنا السائق، أن نبدأ بالنساء والشيوخ والأطفال أولا، حركة قاتلة من توجُّع الشيوخ، أنين النساء الخافت، صُداح الأطفال وهم يصعدون بمعاونة السائق، الشاحنة كانت عالية عليهم جدًا.. زاد من علوّها ذلك السطح الثاني المصنوع فوق الأغنام. بعدها كان دورنا - الرفاق- تسلّقنا الشاحنة بحركة خفيفة لا يقوى عليها إلا شباب ليكامارادْ حفظهم الله.. تقدّم المسنون والعجزة مع الأطفال نحو مقدّمة سطح الطابق الثاني من عربة الشاحنة، حيث المقابض هناك تسمح لهم بالشدّ. افترش كلّ واحد متاعه المبسوط، توسّد المحزوم، أكثر ما أقدّر عدد هؤلاء الغلاَبة، نحو الثلث مقارنة بنا أهل الفتوّة سيّدي السينائي.

رائحة الأغنام تتصاعد بشكل متقطّع وفظيع، عطّرت الهواء حولنا.. قد يحدث؛ هذا ما وقع فعلا في هذه اللّحظة بالذات، أن يتناغم استعبار طفل مع مأمأة خروف، ثغاء نعجة، رغاء كبش. أدار السائق المفتاح.. اهتزّت الشاحنة بمن فيها، هزا وضّاحا، صرتُ أعرف درجة التَلْتَلَة، برجْرَجة سنابل شعر رفيقي إدْريْسو!! مع غيره من الرفاق ليكامارادْ الآخرين، الذين تتدلى منهم هذه الجدائل الشعرية الغريبة.. أحيانا أبقى حائرا، في كيفية غسلها، لا سيما عندما تعجن كثيرا، بدسم الرأس والغبار.

صوت المحرك يزداد بدواسة الرجل اليمنى للسائق، كتلك التي كنتُ أرى خيّاط السوق الكبيرة، يحرّك رجله بها في قاعدة الماكنة. تصاعد دخان كثيف من مدخنتها، هذا الأخير يزداد مع ضغط دواسة السرعة نحو الأسفل، غابت رائحة الدّخان الملتاث في زَناخَة المازوت، اختلطتا أخيرا بذَفَر للأنعام.

كانت الساعة السادسة والنصف حين انطلقنا من مدينة (أGـــادَزْ) باتّجاه مدينة (أرْليتْ) وفي هذه الأخيرة كما سوف أذكر، قصة أخرى سيّدي المُخرج.. فلا تتسرّع.. أرجوكَ.. كنا نشكّل مجتمعين على سطح مقطورتها، مجتمع الثكلى، الهلكى، الغرقى، العطبى، من باب تسمية الغرقى، لمن سيغرق في عرض بحر المتوسط بالقوارب، قبل وصوله الجنّة.. أما العطبى، لمن سيسقط من أعلى سياج سَبْتة ومليلْية بأرض النّعمة، أما الثكلى والهلكى، فلا أحسبُ أنكَ لا تعرف أنهما للشيوخ والنساء سيّدي المُخرج.

سرنا الليل كاملا على تلك السلحفاة.. المسافة لم تكن طويلة، حتى تزدرد كل هذا الوقت.. طولها بالكامل (250) كلم، وعورة الطريق، فضلا عن ثقل الشاحنة بمن فيها من الأغنام والبشر، قلّل من سرعتها، المهم كان الليل مظلما، لم نرَ شيئا يذكر، إذا كان ولا بد من وصف حال، فهو لا يتعدّى ما سمعته آذاننا من البكاء والصراخ والتوجّع لأولئك المغلوبين، المرافقين لنا طوال هذه الرحلة.. مع عواء الذئاب البعيد أحيانا، أما رفاقي من ليكامارادْ،

فقد انزوى كلّ واحد مع رفيقه، حول وجْد الديّار.. حنين الأهل.. الأمر ذاته وقع لي مع رفيقيَّ إدْريْسو وساكو، اللذين كانا بجانبي، إدْريْسو جهة يميني، ساكو ناحية شِمالي.

معظم حديثنا كان حول أهلنا بـ(Gـــمْكَلي)، مجلس فَضَا، عُسْمانو، غاريْكو. خلوتُ بنفسي مرّات، تذكّرت خليلتي (بَكْتو) ما عساها أن تكون فاعلة عند ذلك الثّري صاحب سيّارة (سْتَيْشَنْ)، قدّرت في عقلي، أن حالها قد تحسّن، عما كانت عليه عندنا، هذا هو المُفترض.. ستجد عنده الشعير، الحشيش، من يتعهّد بغسلها مرّتين في الأسبوع، ربما سيأتيها البيطري مرّة في الشهر، أمر كهذا لا يأتيها حتى في الأحلام عندنا.. المفيد من القول سيّدي المُخرج.. وصلنا مدينة أرْليتْ مع بزوغ شمس السبت، وقت مناسب، يتيح لنا وصف المدينة بشكل جيّد، لا سيما أننا كنا راكبين بالسطح الثاني لعربة الشاحنة، موقع جميل لرصد المدينة.. مع وصولنا لـهذه المدينة المتعبة، ينتهي الخيط الأسود الشبيه بالطريق المعبّد.

عبرنا المدينة فوق عربة الشاحنة، ظهر لي، أن حالها لا يبعد كثيرا عن مدينة (أGـــادَزْ)، سواء بالنسبة لحضور الطوارق، البنايات الهشّة من الصفيح، القمامة والتلوّث، الماعز بطبيعة الحال، يمشي مع الناس في الطرقات الترابية، لا يرعب منهم ولا يلتفتون إليه.. ربما اللاّفت هنا، هو زيادة عدد سيارات الدفع الرباعي، مع ما قد تصادفه على جنبات الطريق، من محطّات الوقود المتنقلة!! تبيع البنزين والمازوت الجزائري المهرّب، في القارورات والجالونات، ثمّة أمر آخر بادٍ للعيان، هو هذا الترقيم الجزائري لعدد غَدِق من هذه السيّارات، أحسب بحدسي، لو أنّكَ دخلتَ أحد دكاكين هذه المدينة، ستجد لا محالة، معظم السلع هنا جزائرية، إن لم أقل كلها!! لا سيما السكر، الزيت، الدقيق، الأرز، العجائن، أواني التوتيا، مطارح الإسفنج وقس على ذلك.

نكون قد قطعنا (250) كلم من مدينة (أGـــادَزْ)، عندما أوصلنا صاحب الشاحنة حتى مَخرج مدينة أرْليتْ لجهة الشَّمال، هناك مكان معلوم لسماسرة التهريب.. ترقد فيه من بعيد براميل صدئة، منها ما هو واقف، منها ما هو ممدّد، لعقتْ الريح لونها وغطّت الرمال ما يمكن أن تضعه تحت سيف عرقها. جموع كثيرة من الرفاق ليكامارادْ وجدناهم منتشرين في حلقات بهذا الفضاء.. حيث نصبتْ كلّ مجموعة أربعة أعواد، غطّتها بكرتون مقوّى، حتى تستظلّ تحت هذا الاختراع، من حرّ شمس الصيف الحارقة، بدا لي، كأنهم منذ مدّة بهذا المكان.. فهمتُ فيما بعد، أن البعض نفد ماله، البعض الآخر لم يبلّغه ما في جيبه سقف التسعيرة الباهظة.. هناك طائفة أخرى ربما تصل المبلغ المطلوب؛ لكن لها رفقة حميمية مع هؤلاء الأُخر.. لم تقوَ الأولى على ترك الثانية ولا يوجد عندها ما فضُل لرفع الغُبن عنها.. فتعاطفت وآثرت البقاء معها، حتى يحدث الله فرجا ومَخرجا.

المكان موحش، يدعو للرهبة حقا!! عروق الرمل تحيط بالمَرْبَع، الحركة قليلة، من هذا المكان سيّدي المُخرج الغِطْريف.. تبدأ مسرحيتنا مع السماسرة والمهرّبين.. ترقد بناحية من المكان هناك، سيّارات الدفع الرباعي، نوع تويوتا أفْ جي 45 النفعية، التي ظهرت خلال الثمانينات، مع بنات عمّتها في العِرق الياباني، من الجيل الذي أتى بعدها المدعو (سْتيْشَنْ) أفْ جي، الملقّبة في معاجم المهرّبين بمصطلح (كارْبَرَتيرْ)، أحسبها كلّها بلا ترقيم.

يُطلق مصطلح (كارْبَرَتيرْ) في قاموس المهرّبين، رأسا على سيارات تويوتا سْتَيْشَنْ تحديدا، بعد قِدمها وخدمتها أيام ربيع عمرها في تهريب السلاح والمخدرات عبر الصحراء الكبرى الممتدة بين بداية الحزام الأخضر لدول ساحلنا وبلاد العرب شَمال القارة، ولمّا تقادم عهدها في هذه المهام الرهيبة، حيلتْ بعدها لنقل البشر، عبر طرق التهريب في مغاور الصحراء، هذا النوع شكّل الغالب من السيّارات، التي تفرّقت في تلك الناحية، وجدنا قربهما سيارة دفع رباعي أخرى، نوع (لانْدْرُVـــرْ) نفعية قديمة، من زمن

السبعينيات، لونها أزرق خفيف طمست الشمس وريح الحمادة[33] زرقتها، هي الأخرى مغفلة الترقيم.. بل فيها من كان يُطمس لونها عمدا، حتى يقترب لطبيعة تضاريس الصحراء الكبرى، فلا يُرى لعدسات التقريب، أثناء المطاردة مع حرّاس الحدود، لا قدّر الله.

أمّا الثلث ممن لا حولَ له ولا قوةَ.. فقد توجّهوا نحو (لانْدْرُVـــرْ) القديمة غير المصنّفة أصلا، بحكم رخصها وزهد سماسرتها، مقارنة مع أفْ جي **45** المصنّفة في معاجم المهربين بحمل نجمتين، أما أفْ جي سْتيْشَنْ، فصنفوها بحمل ثلاثة نجوم، يمكنك أن تعتبر ذلك، كتصنيف الفنادق تماما!!

كنا أحرى بتلك (لانْدْرُVـــرْ)، رغم أنها تقرّب الموت للمهرَّب بالصحراء، أكثر من الصنفين المذكورين، يعلم الله أننا لم نتركها لهم للرعب من عزرائيل.. إنما لقناعة سائقها بالثمن الرخيص مقارنة بالأخيرتين، لأجل هذا تركناها لأولئك العجزة لقلّة حيلتهم.. من الوفاء القول (أهل زَنْدَرْ أكثر بؤسا منا، صحيح أننا فقراء؛ لكن حالهم أغرب مما يوصف أو يخطر ببال أحد!!) أخيرا توصّل الكهل المنتدب عنهم.. مع صاحب (لانْدْرُVـــرْ) إلى التفاهم، أن يقلّهم نحو مدينة عينْ قَزّامْ بـ(**40000** فرنك سفا) للواحد، هو مبلغ باهظ جدّا في الحقيقة؛ لكنه أقل مما سيطلبه أصحاب الصنفين الآخرين.

حكتْ لي أمي سَلامَاتو، ذات مرّة، قبل وفاة أختي الكبرى ميْناتو (إنها عاشت الفقر وعشناه معها؛ لكن لم تعتقد ما كانت تسمعه من أخبار الفقر وأهواله عند أهل ناحية زَنْدَر!!) لا زلتُ أذكر جيّدا، ذلك المشهد الاستثنائي في فيلم الحرمان، الذي روته لي وأتمنى أن تتقن إخراجه بعدستكَ سيّدي المُخرج.. (أن فيهم من يتتبع غيران النمل!! يغوص فيها بعوده ينقّب عن

33- أرض قفار حمراء ورمادية، بها أحجار وحيف.

الحبوب.. التي يكون مجتمع النمل، قد ادّخرها لشتائه، صورة مدهشة حقا، لا أخالها تخطر على قلب بشر!!).

شكّل الرفاق ليكامارادْ في فضاء المكان زمرا، لكلّ دولة مجموعتها، تحلّقوا تحت تلك الأعواد المغطاة بالكرتون، هذا لفيف أهل النيجر، ذاك نفر أهل (الكوت ديــVــــوار)، هناك فصيل (السنِـGــال)، من تلك الناحية الشَّمالية رهط البينين، ليس ببعيد عنهم حزب أهل ليبيريا وسيراليون، من الناحية الجنوبية قرب البراميل الصدئة، معشر بوركينافاسو، خلفها حلقة أمّة الكاميرون.

سرنا نحو جمهرة شعب النيجر، كانوا كُثراً، فيهم أهل مدن (نيامي)، (ديْفا)، (طاوة)، (زَنْدَرْ)، (مُرادي)، (دوصو)، (تيلابيْري)، (أَرْليتْ)، (أGــــادَزْ) طبعا. ربما ما يميّز هذه المجموعة عن غيرها، وجود الشيوخ والنساء الضّامرات مع أطفالهن، غاية أحلامهم ومنتهى فردوسهم، أن يصلوا طاما وينزرعوا في شوارعها يتسوّلون، بطاسات التوتيا الصغيرة، كما ذكرتُ لكَ سابقا وأعدته هنا عمدا سيّدي المُخرج.. حتى تأخذ ذلك في حسبانكَ.

البعض من رفاق أهل النيجر، تختلف أحلامه عن أحلام ليكامارادْ من أهل الكاميرون و(كوت ديــVــــوار) وليبيريا والبنين وغيرها. غاية الحلم عند البعض من رفاق بلدنا، أن يصل للجارة الشمالية ويفترش حصيرا صغيرا، يبيع النظّارات الشمسية، بعض العطور والروائح الرخيصة، مع بعض الدهون والعقاقير المحلية، يعود بعدها لبلده.. أو يعمل في الأعمال الشّاقة بورشات البناء وحفر الخنادق هنالك، ليوفّر المال، ليرجع بعدها لناسه.. صحيح أن هناك طائفة منا - أهل النيجر- آثرت المغامرة مثلي أنا وإدْريْسو وساكو ورفاق آخرين قلّة؛ لكن ذلك ربما كان وقفا في الغالب، على أهل نيامي، فيما بدا لي.. والله أعلم.

الرفاق الذين انقطعت بهم السّبل، مع من تعاطف معهم، بقوا في مكانهم.. أما من له همّة ما يفاوض به السماسرة من أمثالنا، انتدبنا – نحن رعايا النيجر– رفيقنا الرائع إدْريْسو، بارك هذا التفويض ثلاثة من أهل طاوة، أما أهل مُرادي وأهل تيلابيْري وأهل زَنْدَرْ، الظاهر أنهم كانوا ينتظرون (لانْدرُVــــيرا) رخيصا.. قد يأتي ويقلّهم بسعر زهيد، مقارنة بالأسعار الخيالية للمراكب المصنّفة.. بقينا في أماكننا، تقدّم الرفيق إدْريْسو، نحو ممثلي المجموعات، تشاور المندوبون.. انتخبوا مفاوضا واحدا، يكون هذا الأخير هو الناطق الرّسمي العام باسم ليكامارادْ مع المهرّبين في تلك الرحلة.

عرفت فيما بعد من رفيقي إدْريْسو، أنه الكامارادي (الإيــVــــــواري) أليْكسْ، أجمع المندوبون على ترشيحه، لعدّة اعتبارات، أبرزها كونه جرّب هذا المسار سابقا.. فرجع خائبا دون أن يذوق الشّهد.. هو خبير بالمسالك ومقارعة السماسرة، هي المرّة الثانية التي يغامر فيها، قامر في الأولى، وصل المغرب، استنشق هواء مليلْية، وقف على جبل (GــــوروGــــو)؛ لكنه أخفق فردوه لبلده، لم ييأس هذا الأخير!! لا أظنه لا يفعل!! صارت الهجرة عنده هي الخلاص!! الغريب في الأمر، بحسب قول الرفيق إدريْسو (إنه لو لم يبتسم له الحظّ هذه المرّة، فسيعاود الكرّة ثالثة ورابعة..!!) وهذه هي المصيبة في الذهنية الكامارادية سيّدي المُخرج..

ستبدأ معركة حامية الوطيس بعد قليل.. بين مفاوضنا (أليْكسْ) وسماسرة التهريب من الطوارق. كنا متجمعين بعيدا عنهم، كان أولئك المهرّبون، وراء ظل سيّارة التصنيف العالي سْتَيْشَنْ، التي تتدلى منها في تلك الناحية قِربة ماء سوداء، يفترشون حصيرا، يشربون الشاي ويسمعون أغاني طارقية، من مسجّل السيّارة، التي فُتح باب المقصورة جهة جلوسهم لهذا الغرض تحديدا.. قيل لنا إن هذه الأغاني لفرقة (تيناريوينْ) والمغني (أبْريبونْ)، كانوا يضعون على النصف السفلي من وجوههم لثاما، حتى إذا

ما أرادوا أن يشربوا، يأكلوا، يرفعونه لأعلى، إزاء منتصف أرنبة أنفهم ثم يعيدونه بكل وقار.

كنا متحلّقين بعيدا عنهم، عندما أفاد إدْريْسو:

(تقول الأسطورة الطارقية، إن عادة اللّثام لوجه الرجال منهم.. ترجع لجدتهم "تينْهِنان"[34] حيث المرأة عندهم تسفر عن كامل وجهها، لجلالها وقدرها..).

زاد الرفيق نفسه معلومة أخرى، شهقنا بالضحك لها كلنا:

(إن المرأة عند الرجل الأزرق كما يطلق عليه في الكتابات الفرنكفونية، تبتهج وتقيم الأفراح عند سماعها نبأ طلاقها!!).

تقدّم (الإيــVـــواري) ألَيْكسْ بخطوات متأنية تدلّ على ثقة، نحو السماسرة الثلاثة المتحلّقين، كانت سنابل شعر رأسه المتدلي خلال ذلك السير، تهتزّ كأنها ثمار (المانْـG) المتدلية بشجرة رحبة جارنا، وكيلنا ثلاثيني، معتدل الطول، مستلّ الرقبة قليلا، يعلّق في رقبته صليبا.. رشيق مع ميل طفيف للعرض، أنفه واقف بشكل نسبي، يبعد قليلا عن أفْطَسَة الزنجي.. شفتاه ليست كالرجل الأبيض حقا؛ لكن ليس بذلك الانتفاخ القذر كحالنا.. كنت واثقا جدّا به في قرارة يقيني والله.. سيّدي المُخرج.. دون معرفة سابقة به؛ هكذا آمنت به، لست أدري كيف ذلك؟ ولماذا؟ بالمختصر كان متميّزا بيننا كلّنا معشر ليكامارادْ.. كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة، رغم أنه فرنكفوني مثلنا، ما سهّل له التواصل بيننا وبين رفاقنا من ليبيريا وسيراليون والكاميرون.

(مَنْ كان منا يجلب معه محفظة الحمّام، يضع فيها فرشاة ومعجون أسنان وقطعة الصابون؟؟ لا أحد إلا هو!!).

34- الملِكة والأم الروحية لطوارق الهقار بولاية تمنراست الجزائرية.

أوتيَ كاريزما عجيبة.. قيمة المبلغ المتفاوض بينه وبينهم، لم يكن بحاجة لمعرفتهم بالفرنسية أو معرفته للغتهم (التّماشَقتْ) يكفي رسمه على الرمل وتكملة ذلك بما يفقهونه من لغة المعاملة اليومية وبعض الإشارات اليدوية.

دام وقت طويل جدًا.. أكثر من انتظار إدْريْسو في طابور الأنترنت يومها!! كنا نرصد من بعيد، تلك المطارحات والتجاذبات، الوقوف حينا ثم معاودة الجلوس، الوقوف ثانية بعدها على الركبة، تطاير الغبار من حركة الأرجل عندما تخرج عن الحصير، كلّ الذي تناهى لأسماعنا، هو أصوات (عملة السفا) و(الدينار الجزائري)، دون أن نعلم شيئا آخر.. أخيرا بعد مرور خمس ساعات من المفاوضات الماراتونية سيّدي المُخرج.. حُسمت المعركة بين ممثلنا وبين أولئك المهربين الثلاثة.

عاد زعيمنا متثاقلا في خطاه أكثر مما كان عليه في ذهابه؛ لكنه ليس بذلك التثاقل الذي يدعو للهزيمة!! هكذا فهمتُ من مشيته.. أتيناه متسابقين.

الرّاسخون من أهل (Gـــمْكَلي) في ملّة القيل والقال.. أبدعوا في تشبيه تبارينا نحو هذا الأخير.. (كظمآن على شفير الموت بصحراء تَساليتْ الماليانية، ورأى بعدها بوادر النجاة..) المهم جعلناه وسطا، كان الإرهاق والعياء ظاهرا عليه، بعدها قال لنا أليْكسْ بصوت مبحوح:

(مفاوضة هؤلاء الأشخاص صعبة جدًا يا رفاق..).

أليْكسْ يضيف في بحّة أقل:

(كانوا ثلاثتهم يتراوحون عليّ.. قلت لهم "ليفاوضني واحد منكم" أبوا.. حتى صاحب "لاندْرُVـــرْ" - غفر الله له- تحالف معهم.. من الأول وكما اتفقنا يا رفاق.. اخترت صنف نجمتين أفْ جي 45، الصنف الثاني أفْ جي ستَيْشَنْ، كان غالِياً جدًا.. بعد كرّ وفرّ، توصلنا إلى حل وسط، مبلغ "76000 فرنك سفا" لنقلنا لمدينة "عينْ Gـــزّامْ" الجزائرية الملاصقة لحدود بلدنا..).

هذه المدينة الأخيرة، اخترع لها الرفاق، اسما طريفا يليق بها، كما أبنتُ لكَ.. سوف آتي على ذكر تفاصيل عنها.. عند إلقاء التحية عليها وقت دخولنا لها.

رفيقنا أليْكسْ كان خبيرا بسوق تهريب البشر وقاموس الهجرة غير الشرعية وكواليس عوالمها بالصحراء الكبرى وقوارب البحر، بسبب رحلته السابقة، التي عاد فيها خائبا كما قلنا، إن كنتَ تذكر سيّدي الجنتلمانْ هههه..

يضيف أليْكسْ:

(طرحوا عليّ خيار "طاما"، رفضتُ.. فبقدر ما تزداد المسافة يا رفاق، تزداد التسعيرة الباهظة.. دخولنا لمدينة "عينْ Gـــزّامْ"، هو دخولنا لطاما والجزائر.. نكون قد منعنا من قبضة حراس الحدود والمطالبة بالجواز والتأشيرة وتلك هي القيامة بالنسبة لنا سيّدي.. كما أن التنقّل من مدينة "عينْ Gـــزّامْ" نحو "باريسْ ليكامارادْ" ليس أمرا صعبا، لقد بات مألوفا مشاهدة ليكامارادْ بتلك النواحي الحدودية، قرأتُ في تدوينات بعض الرفاق على النّت، أن المقاولين بتلك النواحي يشغّلونهم في الأعمال الشّاقة بورشات البناء وعلى مرأى ومسمع من الشرطة والدرك والجيش الجزائري؛ بل ذهب أحدهم إلى القول في تدوينته العهدة على الراوي كما يُقال:

إنه اشتغل عند أحد المقاولين، في ترميم إحدى فيلات علية القوم من أهل الأمن هناك بطاما، الضابط يعلم ذلك.. لم يرفض أو يطالبه بوثائق.. ما استطاع هذا الأخير سرقته بالسماع بينه وبين المقاول، حذّره أن يكون يقظا في الأعمال الخطرة والمُدمية.. لأنه لو وقع مكروه- لا سامح الله- إنه سيقع تحت طائلة المساءلة القانونية، فليأخذ حذره..).

بعدها طلب منا أليْكسْ جوازاتنا؛ لأن المهربين يروق لهم دائما احتجازها.. سلّمناه إياها بلا تفهّم، لمعرفتنا القبلية من تلك الأخبار التي كنا نجمعها قبل سفرنا، أن السماسرة وأرباب التجمعات والمخيمات

الكامارادية، يحتجزونها عند القدوم ويطلقون سراحها عند نيّة المغادرة، هكذا تقتضي نواميس الهجرة والتهريب.. كما كان سائق (لانْدْرُVـــرْ)، قد اتفق مع شعبه المغلوب، أن يسافروا فجرا معنا وإن كنا سنتزامن في توقيت الخروج فقط.. ولا ندري ما سيقع مستقبلا على الصراط.. سيّدي المُخرج..

تدبّرنا عشاء مخشوشنا، نسينا الغداء في غوغاء ذلك التفاوض المكدود.. اختلى كلّ منا على الرمل وتوسّد حقيبته الظهرية، لست أدري كيف تذكّرت أمي وأختي هذه الليلة!! وما يكون من أمرهما في هذه اللّحظة.. أقرب الظّن أني لمستُ بحالة لا شعورية تميمة (Gـــونْكي)، كلما تحسّستها، أتذكر أمي ويجرني الأمر بداهة لأختي وتنتقل العدوى فيّ بجرثومة التذكّر وطرد النسيان.. إلى رفيقينا عُسْمانو وغاريْكو وأهل الحي جميعا، ربما عادت بي الذاكرة، إلى مسوّدة عشقي الكاذب والوحيد.. لـ(ماليْنا) وتمسيحة أمها (جاكلين)، بكف يدها الناعمة.. على شعر رأسي الخشن. أتصوّر المخلوقتين- أمي وأختي- مستلقيتين في الرحبة بمكانهما المعهود، تلقي كلّ منهما نظرة على مكاني لا سيما ليلا.. تهتُ في نومة بعد هذا التذكّر، لم أفق إلا فجراً على جلبة عجيج صاخب، لأصوات الأطفال يصرخون والعجزة يتأوهون.

على الصراط..

(1)

زَحَف سادتُنا المسنون والمستجدون، نحو سيّارة (لانْدْرُVـــرْ) يحملون متاعهم ويجرّون ما ثقل منه.. السائق قام بعمل إنساني جميل، ساعدهم في الصعود والله.. حتى في هذه المرة أحدثوا تشكّيا وتوجّعا؛ لكن لم يكن بذلك القدر خلال صعودهم أو قل إصعادهم- وهذا هو الصحيح- لتلك الشاحنة الشاهقة الحمراء.. التي ركبنا سطحها الثاني بمدينة (أGـــادَزْ) وأوصلتنا إلى هذه المدينة سيّدي المُخرج... كان أولئك الكَهادِلة أكثر متاعا منا، تكاد تكون أكواخهم وأوانيهم محزّمة معهم، تكدّسوا وشكّلوا معها هضبة فوق سطح تلك (لانْدْرُVـــرْ).

بعد انطلاق مركبة (لانْدْرُVـــرْ) بنصف الساعة، نادى علينا صاحب أفْ جي 45، هو رجل أبيض يضع لثاما على وجهه كما قلنا، أخاله أربعينيا، للأسف لم أتبيّن أرنبة أنفه وفمه بفعل اللّثام حتى أصفه.. هذا من نحس طالعكَ يا مُخرجنا.. عيناه لامعتان، تسكنان سِردابا عميقا، يلبس عباءة باردة الخضرة من نوع البازان الممتاز، المُسمّى في معاجم أهل إفريقيا بمصطلح (Gـــانيليا)، هذا الأخير دائم النظرة إلينا بالريبة، صعدنا، تكدّسنا فيها مع حقائبنا وجالوناتنا المائية، كنا في حدود العشرين، لم يتكلّم معنا!! كلامه كلّه بالإشارة، بعدها عدّل جالون الماء المربوط بجانب سطح عربة السيّارة، مع قِربتين إلى جانبها الآخر، رائحة المازوت هي الأخرى رافقتنا في هذه الرحلة الطريفة، بفعل البرميل المركون في الزاوية الشِّمال من ذوات الأربع ولسوء سَعدي سيّدي المُخرج واسع العطاء.. مكاني فوق هذا الأخير، وهذه هي البَلِيّة!!

حركة كبيرة تعمر سطح عربة المركبة، منا من كان يتحدث الفرنسية، البعض الإنجليزية، البعض الآخر اكتفى بلهجاتنا المحلية.. تشكيلة الفريق

الكامارادي الحالم.. أهل البلد طبعا، أنا وإدْريْسو وساكو، معنا ثلاثة رفاق، التقيناهم بمدينة أرْليتْ، تعرّفتُ بعد ذلك أنهم من نواحي طاوة، رفاق آخرون مع أليْكسْ من (كوت ديــVــــوار)، كانوا في حدود الثمانية دونه، رفيق من ليبيريا، آخر من سيراليون، واحد من البينين، اثنان من الكاميرون؛ واحد من هذين الأخيريْن، كان ظاهرا من حركاته المخنّثة الملساء.. أنه من المثليين بلا مريّة!!

أليْكسْ والكاميروني غير المثلي، ركبا مع السائق في المقصورة الأمامية، تكدّسنا نحن الثمانية عشر بسطح العربة، في الحقيقة السائق كان يطمع في الثلاثين.. لحسن الحظّ، الرفاقُ الآخرون كانوا معوزين ومقهورين، لذلك اقتنع المهرِّب بهذا العدد الهزيل.. حسب رواية أليْكسْ، سمعنا في أخبار الهجرة ومفارقاتها، أن العدد أحيانا يكون أكثر من الأربعين على سطح أفْ جي 45 أو ستَيْشَنْ!! قاعدة هؤلاء السماسرة، ألاّ مكان للفراغ.. نسيَ المُهرِّب، أن البرميل المركون في الزاوية، يعتمر حيزا لابأس به من سطح عربة الأخيرة.

تمنّيتُ ألا يركب إدْريْسو في المقصورة الأمامية مع أليْكسْ وأحرم معاشرته طوال الرحلة وبالتالي ضياع فرصة التعرّف على أحوال إخواننا ليكامارادْ الرفاق.. بحكم معرفته باللغة الإنجليزية أكثر مني.. يمكنكَ أن ترجمني بلقب آخر سيّدي المُخرج الكَوثَري.. لم يذكره لكَ ذلك الوسيط الفندقي أولا، كان بإمكاني الإفراج عنه ساعة ذكري لكَ (الرّكاوي)، تقصّدتُ تأخيره هنا، حتى لا أثقل عليكَ بألقابي الأثيثة؛ هو (الفضولي).. هذا جيّد، يضيف لقبا جديدا إلى سجلّي الحافل بالألقاب كما قد دوّنتَ.

وجوه الرفاق حائرة، تشي بعديد الاستفهامات المتعجّبة؟؟!! حول مغامرتنا المحفوفة بالمخاطر، بعد ربع الساعة من صعودنا على ظهر عربة المركبة، دار السائق على حمّالته.. تأكد مرّة أخرى من العجلات، ضغطها بيده، داسها برجله، فتح باب المقصورة، قبل دخوله، ألقى علينا نظرة

خاطفة، فيها الكثير من الشفقة هذه المرّة.. كنتُ قابعا متكوّرا في الزاوية اليسرى على البرميل، إدْريْسو عن يميني، جنبه سَاكو، وضعتُ تحت مقعدي حقيبتي الظهرية، تحتها بسطتُ قطعة كرتون فوق البرميل، حتى تمتصّ دسم المازوت.. جالوني علّقته على حافة السيّارة، كما فعل الرفاق، يدي اليسرى ممسكة بالسِّياج الحديدي للعربة، هذه المرّة الثانية التي أتذكّر فيها أمي وأختي، في لُجّة الانطلاق تهتُ وسافرتُ لـ(Gـــمْكَلي).. ما عساهما يفعلان؟ (هل باشرت أختي العمل كما تعهّدت والدة رفيقي إدْريْسو؟).

الوقت ساعتها السابعة صباحا حين انطلقت بنا المُغامِرة على الصراط.. اهتزازنا فوقها كمن يركب هودج بعير.. عاودتُ الالتفات لسنابل شعر إدْريْسو، أصبحتُ طروبا بتمايل هذه الأخيرة.. الغبار يشكّل مسارا طويلا متصاعدا خلفنا، طمس عنّا ما يمكن رؤيته من ملامح مدينة أرْليتْ وهي تبتعد عنا أو نبتعد عنها.. رصدنا لخروج مدينة (أGـــادَزْ) كان أجلى.. لعلو الشاحنة الحمراء.. كلّ الرفاق غارقون في متاهاتهم وعائلاتهم، ما سينتظرهم من مغامرتهم!! بالصدفة كان بقربنا ليبيري وسيراليوني، المسافة طويلة ومُقنطة (ماذا يكفيكَ من السكوت والانطواء يا مهبول؟) خاطبتُ نفسي.. رائحة المازوت تزداد مع تمايله ونَخْعه في البرميل، وضعتُ خرقة على شكل شاش على أنفي، هكذا فعل جلّ الرفاق.

إدْريْسو هو الآخر، كان متطلّعا قليلا، لمعرفة أحوال رفاقنا ليكامارادْ، قصصهم، حيواتهم، تاريخ بلدانهم، انهمكَ الزعيم في حديث طويل بالإنجليزية مع الليبيري أولا ثم السيراليوني ثانيا، شرح لي فيما بعد، مضمون أحدهما، أما أنا فقد انشغلت بالثرثرة.. مع (كوت ديــVـــــواري)، كان أمامي بجانب سيَاج سطح عربة المركبة.

بدأ إدْريْسو الحديث مع الليبيري بإنجليزية مفهومة، ترجمها لنا فيما بعد:

(أهلا رفيقي، ما اسمكَ؟).

(اسمي ''جورجْ'' من مدينة ''كالي'' على بعد (35) كيلومترا من ''مونروفيا'' عاصمة دولة ''ساحل الفلفل''، المعروفة على خارطة الجغرافيا بـ ''ليبيريا''..).

(آه!! من بلاد اللاّعب ''جورجْ ويّا''، هو لاعب مشهور، نفتخر به حتى في النيجر..).

(تماما يا رفيقي..).

يبادر جورجْ وأنتَ ما اسمكَ رفيقي؟:

(اسمي إدْريْسو من نيامي بالنيجر..).

حتى يكسب ثقته، راح إدْريْسو يحكي له عن كلّ شيء، عن نيامي، (Gـــمْكَلي)، يوميات الفقر، التلوّث بكل سلالاته، الأرضي، الجوي، النهري.. كيف جاءته فكرة الهجرة من صديق (سينِـGـــالي) يدعى إبْراهيما؟ التقى به في (واGـــا)، قبل شهرين، أخبره بمرافقيه، أشار إليّ وإلى ساكو.

سأله إدْريْسو:

(ما قصتكَ يا جورجْ؟).

تبسّم جورج تبسّما مكلولا، يخفي احتقانا.. بعدها أتى بموسيقى زافرة، أفرغ معها شحنة كبيرة من الحزن والماضي الأليم:

(أوووف... ذكّرتني يا إدْريْسو بماضٍ ما كنتُ أحبُّ أن تحرّكَ السكين في جرحه!!).

عاود تنهيدة أخرى أنشد خلالها إيقاعا أشدّ إيلاما، جعل إدْريْسو يلتفت ناحيتي ويوبّخ نفسه:

(ليتني لم أسأله!!).

وضع رأسه على مرفقه الأيمن، كان هذا الأخير، يشكّل مستوى أفقيا على ركبتيه، بقيَ برهة، المركبة في هذه الأثناء تهتزّ بنحو لافت.. تمايلت معها سنابل شعر إدْريْسو وغيره من ذوي الجداول المتدلية، العابِرة على الصراط..

تجتاز منطقة وعرة من أرض الحمادة، فيها حيف حادّ، بعدها رفع صاحب الساحل الفلفلي رأسه وطرق يسهب:

(عشنا حربين أهليتين!! أتتا على الأخضر واليابس، الأولى يا رفيقي انطلقت سنة 1989، استمرّت حتى 1996، راح ضحيتها زهاء "25000" شخص، شُرّد أكثر من "70000" شخص كذلك، هاجم فيها "تايْلورْ" على العاصمة مونروفيا وأطاح بنظام "صموئيل دو"، رقم ثقيل يا رفيقي.. ذاق الشعب الليبيري من هذه الحروب ويلات جمّة.. لا سيما التهجير القصري والنزوح، نحو دول الجوار، من كان يسكن بالجنوب، عبر نهر "كفالي" ليستقر بملاجئ "كوت ديـVـــوار" المحاذية للحدود، منهم من نزح نحو ملاجئ "بودومْبورام" بغينيا، لا سيما لمن كان يسكن شمالا؛ لكن الغالبية الساحقة، اتّجهت نحو ملاجئ سيراليون في الشَّمال الغربي..).

جورجْ يستريح قليلا، يتنهّد ثانية، يتابع حديثه حسب ترجمة إدْريْسو دائما، يقول:

(أما الحرب الأهلية الثانية يا رفيقي.. فقد بدأت بعد ثلاث سنوات من إعلان وقف إطلاق النار للأولى، أي سنة 1999، بعدما قامت مظاهرات ثائرة ضد نظام المركز، بمباركة من الجارة الشَّمالية غينيا، حيث استمرّت هذه الحرب الملعونة حتى سنة 2003، لتطيح أخيرا بنظام الدكتاتوري "تايْلور"، يفرّ بعدها هذا الأخير بلحمه مع ما خفّ وزنه وغلا ثمنه من الألماس والذّهب، ليستقرّ بجارتكم نيجيريا.. حيث راح ضحية هذه الحرب القذرة، أزيد من "400000" شخص وتشريد أكثر من "800000" شخص آخر..).

يضيف جورجْ بعد استراحة، قطعتها هزّة عنيفة للمُتصريطة وللسنابل الشعرية بطبيعة الحال.. عبر ارتطام عجلات تلك الأخيرة بحجر كبير، حاول السائق أن يتجنّبه، فوجد نفسه قد أدركه:

(عندما كان عمري ستّ سنوات، تحديديا في 1992، أي بعد قيام الحرب الأهلية الأولى بسنتين، قالت لي أمي "ميلْسيا" بعدما كبرتُ.. إن المنشقّين هاجموا مدينتنا "كالي" ومدناً أخرى كـ"توبهانبورغْ" و"بومي" و"كونْتي"، الأخيرة تبعد عن العاصمة بـ "60" كلم، مدينة "بونْغ ماينزْ" تبعد هي الأخرى عن العاصمة بـ "45" كلم، حيث قامت معارك طاحنة بجهتنا، سمعتُ دويها رغم صغر سني في تلك الفترة، نزحنا جميعا، بتنا على الطرقات، أبي "جونْ" كان جنديا في القوات الحكومية لـ"تايْلورْ" كحال معظم رجال مدننا، لذلك هاجمنا المنشقّون بكلّ ضراوة انتقامية!! ما تسبب في نزوح أكثر من "9000" شخص من ناحيتنا فقط..).

أتخيّل ذلك صغيرا وتسرده أمي يقول جورجْ دائما، حسب رواية محدّثي:

(عبرنا حدود سيراليون مشيا على الأقدام عبر نهر "مانو" الواقع على الحدود ومنه لمدينة "بوادو" السيراليونية، لم نأخذ معنا سوى بعض الأغراض الخفيفة، بعدها قادتنا مفوضية اللاّجئين، نحو ملاجئ "جيمْبي" حيث مكثنا فيها ما يقارب ثلاث سنوات، في السنة الأخيرة منها، بَلَغنا نعي وفاة أبي "جونْ" تقطّعت نياط قلوبنا أنا وأمي لهذا الخبر المُلِمّ.. بعدها انتقلنا لمخيم "بو" حيث بقينا فيه أربع سنوات أخريات، حتى سنة 2000، أي بعد نهاية الحرب بسنة..).

يضيف جورجْ:

(لما بلغتُ أحد عشر عاما، أتذكّر ذلك جيّدا هذه المرّة.. عندما جاءتنا امرأة شقراء، قيل لنا إنها مندوبة مفوضية اللاّجئين، معها رجلان، واحد أشقر مثلها، الآخر من بني جلدتنا، تحدّثوا إلينا أن الحرب قد وضعت أوزارها ببلدنا.. وأن المفوضية رتّبت عودتنا.. معظم اللاّجئين رفضوا العودة، بسبب ما يكون قد تبقّى من ترسّبات أعوام الحرب الأهلية، من ثأر واغتصاب عقار ومنازل هُدّمت عن آخرها؛ لكنهم أقنعونا أخيرا أن المفوضية اتّخذت كامل التدابير اللاّزمة لعودتنا، وقع انشقاق بين أهالي

المخيم.. البعض رفض الرجوع مطلقا، البعض تحرّك فيه حنين الدّيار!! فوافق على العودة.. خلال إقامتنا بمخيّم "جيمْبي" فتحوا لنا مدرسة للتعليم، درستُ فيها بصفة متقطّعة، السنة الأولى والثانية، لما انتقلنا لمخيم "بو" أكملتُ تعليمي حتى السنة الخامسة ابتدائي؛ دراستي كانت غير منتظمة؛ لكن أستطيع القول، إنها أخرجتني من الأميّة على كل حال.. فضلا عن الاحتكاك باللاّجئين..).

كان الوقت منتصف النهار إلى الزوال قليلا، نكون قد قطعنا مسافة معتبرة، حين سقطت الهارِبة في حفرة رملية، قطعتْ هذه الأخيرة حديث إدْريْسو مع جورجْ.

أوقف المُهرِّب محرّك رفيقته.. أمرنا بالوثوب من عربتها، فقفزنا كالقِردة منها والله سيّدي المُخرج.. أرجلنا تقبّضتْ، احتقن الدم فيها، مشيتُ خطوات بجانب مَركبنا، رجلاي لم تنطلقا.. حاولت إطلاق رجلي اليمنى أولا بانفراج ثني الركبة، بعدها فعلت مع اليسرى، أحسستُ بداية استعادة نشاطهما.. الخلاء في الأفق البعيد موحش جدّا!! السكون يعمر المكان.. لا أثر للحياة هنا.. غير حيف الحمادة الأحمر، ما لاحظته واعتبرته من أمارات شبه الحياة، آثار قليلة مطموسة لخطوط عجلات ملتوية لمُهرِّبة، تكون هذه الأخيرة، قد مرّت ذات يوم بهذا القفار الفَرَق.

(2)

تفرّقنا بعيدا عن عربة الصراط.. نفرغ قِرب مثاناتنا. حذّرنا صاحب هذه الأخيرة، من عدم استعمال الماء؛ لأننا في طريق مقطوع عن العالم، ما عندنا ندّخره لوقت الحاجة.. علينا أن نستبرئ بالتراب للبول وأن نستجمر بالحجر للراحة الكبرى.. ذلك ما فعلنا، ليس غريبا عنا هذا الأمر، حتى في ديَارنا سيّدي المُخرِج والله..

بعدها فتح الملثّم قفلا صغيرا أصفر لخزانة حديدية، كانت ملحومة لغرض خزن أواني الطبخ والشاي بالجهة اليمنى للحامِلة، قُرب خزان الوقود الاحتياطي، الذي عرفنا فيما بعد، أن المهرّبين يصنعونه خصيصا لهذه المسالك.. إضافة للبرميل الممتلئ، الذي كنتُ أقبع فوقه وزكمتني رائحته، كما قد رويتُ لكَ سيّدي..

أنزلَ من تلك الخزانة، قِدرا حديدية متوسطة فاحمة، معها ملعقة فضية قديمة، صحن حديدي، ذهبت صباغته البيضاء، بعدها أخرج من تلك الخزانة كيسا صغيرا من الدقيق وقارورة زيت بسعة اللّتر، قدّيدة لحم، صبّ الماء من الجالون الكبير في الإناء.

مشى قدر تسع خطوات، حتى بلغ مكانا به رمل قليل جدّا.. وضع الأغراض على الأرض، بعدها طلب من ألَيْكسْ، أن يناوله أعوادا من حطب الطلح، كانت مربوطة بحبل أخضر، بالباب الخلفي لسطح العربة، أزاح صاحب تسع خطوات، برجله اليمنى كميّة من الرمل بقدر حفرة صغيرة، سمّر فيها ثلاث حجرات متساوية القدّ على شكل مثلث أو قُل كثالثة الأثافي.. وضع الأعواد بينها متخالفة، بعدها ذهب لبرميل المازوت، الذي كنتُ أسكن فوقه!! فتحه، أنزل فيه قطعة كتان، شربتْ.. رفعها بلطف،

حركة تقاطر المازوت من هذه الأخيرة حاصل.. أعاد غلق البرميل بسرعة فائقة، مشى بها للحفرة، وضعها فوق تلك الأعواد، أشعل عود ثقاب فيها.

في الفترة التي كان يعتدل فيها اشتعال النار في الأعواد، أمال أَلْيكْسْ الدقيق نحو الصحن، شكّل خروج الدقيق منه شلاّلا، كشلاّل ذلك السكر.. لَتَّ هذا الأخير الدقيق، قال لأَلْيكْسْ وإدْرِيْسو اللّذين كانا يعاونانه، إنه سيصنع لنا كسرة (التَّاGــــلّة)[35] بعدها ترك الطارقي العجينة مكوّرة في الصحن.

طلب صاحب الناقِلة من الزعيم.. أن يناوله القِدر، لَقَطَها إياه، وضع فيها قليلا من الماء، خضّه خضّا خفيفا، أفرغه جهة يمينه، صبّ فيها قَدرا يسيرا من الماء ثانية، أكثر ما أقدّره نحو ربع القِدر، ألقى في جوفها، تلك القدّيدة مع قطعة شحم، أراق عليهما قليلا من الزيت، جَرَشَ عليهما بأصابعه شيئا من الملح، أعاد تغطية القِدر بحجر رِقاق حاد.

خلال هذه الفترة، يكون الجمر قد اكتمل اشتعاله أو كاد.. حمل الطارقي عودا، أزاح به الرّماد من بين الأحجار على الجهة الشِّمال للحفرة، وضع القِدر على ثالثة الأثافي، التفتَ للعجينة المكوّرة، التي تكون قد شاحت قليلا.. قطّر عليها قليلا من الماء من بين أصابعه، أعاد عجنها وتشكيلها من جديد، طَبْطَبها قليلا براحة يده اليمنى في قاع الصحن، حتى عادت كسرة عجين، حملها في تلك الوضعية بمهارة فائقة.. ألقاها وسط الرماد، أزاح عليها شيئا من الرّماد الساخن بذلك العود.

رائحة القِدر ذكّرتنا بالجوع، الحرّ هو الآخر كان شديدا في هذه الخلوات!! السائق خلال هذه الفترة، لجأ لمقعده، انتدب معه القائد العام

35- كسرة تقليدية، تصنع من معجون الدقيق، تصهر في الرماد، يستعملها أهل الصحاري، والطوارق الملثمون.

لفيلق ليكامارادْ، انطوى إدْريْسو مع جورجْ ليكملا حديثهما، الأخير يتابع حكايته:

(والدتي قرّرتْ العودة.. هجّرونا بسيارات تابعة للصليب الأحمر السيراليوني، كانت آثار الدمار، بالمدن التي مررنا بها، تثير فينا الشفقة، أخيرا وصلنا مدينتنا، إذا هي مدينة أشباح!! وصولنا مشارف حيّنا أيقظ فينا حرقة تذكّر والدي (جونْ)!! لا أخفي عنكَ أمرا رفيقي إدْريْسو.. أمي أجهشت بالبكاء والله.. أطلال حيّنا تظهر للرائي من بعيد.. أخبرنا ممثل الصليب الأحمر، إن المفوضية هيأتْ لنا خياما بأحد المعسكرات القريبة من مدينتنا "كالي".. الجنود المتمرّدون نهبوا كلّ ما تركناه خلفنا، الأهالي الموالون لحركة التمرّد، الذين بقوا، استولوا على العقار، طمسوا ملكية أصحابه، هذه هي الحروب ومآلاتها الفاجعة.. ماذا تريدني أن أقول لكَ بعد هذا يا رفيقي إدْريْسو؟ لو بقيتُ أسرد لك قصتي حتى وصولنا مشارف مدينة مارسيليا ليكامارادْ، لن تنتهي.. لعلّ الغداء قد طُهيَ أو قرُبَ..).

القوم أخذوا يقتربون من ظل السيّارة..

خلاصة القول يا رفيقي:

(إن الحرب الأهلية الثانية، لما قامت فقدتُ فيها والدتي أيضا!! بقيتُ وحيدا في هذا الوجود!! بلادنا غنية بالألماس؛ لكن تكالب العسكر، أورثنا أيتاما وثكالى ومشوّهين.. فضلا عن هروبي من وباء الإيبولا!! الذي انتشر بشكل مفزع ببلدنا والبلدان المجاورة كسيراليون وغينيا، ليس لديّ ما أخسره الآن!! الهَرْبَة هي الخلاص.. قرّرتُ الهجرة.. هذه هي حكايتي باختصار يا رفيقي..).

كان الرجل الأبيض قد وضع ورق الشاي مع الماء في إبريق أخضر قديم منزوع الغطاء، وضعه في حثالة رماد الجمر بين الأثافي. اقتربنا نحو الرفاق، جلسنا معهم في الظّل، الذي بدأ يتجمّع في الجهة المقابلة للغروب، أليْكسْ يقطّع مع المهرّب الكسرة إلى شظايا صغيرة في الصحن، أفرغ عليها مرق

القِدر، خلّطها بالملعقة الوحيدة حتى ارتوتْ، أحضر السمسار صحنا صغيرا، خصّ نفسه بنصيب من تلك الكسرة، مع نصف القدّيدة بالكامل.. ترك لنا نصفها، وقعتْ عليها حرب ضروس بيننا!! المهم تسابقتْ الأيادي للصحن، الويل لمن تعوّدتْ يده النزول للصحن بالتصوير البطيء كما تصطلحون في حرفتكم سيّدي.. ما هي إلا لحظات، حتى كان قاع الصحن أبيض ملحوسا (لا حاجة لصاحبنا إلى غسله..) قلتُ في نفسي. ألمْ يقل لنا إن الماء عزيز في هذا القِفار؟

أقام السمسار طقوس الشاي بنفسه، تهتُ في تذكّر جلسة الشاي المسائية بـ(Gـــمْكَلي)، جرّني ذلك حتما إلى ما تكون عليه المخلوقتان.. وحال صاحبينا وأشياء أخرى، لا يتسع المكان لذكرها سيّدي المُخرج.. بما فيها رفيقة حياتي البقرة (بَكْتو) والعشيقة الموهومة (ماليْنا).. لا أخال إدْريْسو وساكو، هما الآخران يغيبُ عنهما هذا التذكّر.. لأهليهما ومجلس فَضَا وأشياء تخصّهما.

الوقت ظهرا حين أتممنا شاينا، جمع الملثّم أوانيه بسرعة.. لا أظنها قد غُسلتْ.. أعادها لخزانتها، صعد بعدها لبرميل المازوت، أهْرَق منه في جالون حتى امتلأ، أعاد غلق البرميل، طلب من أحدنا حمله، أظنه ساكو.. فتح خزان الوقود الاحتياطي، الذي يكون قد غاضَتْ منه نسبة معينة، أفرغه فيه، ربط الجالون الفارغ فوق الخزان الأصلي، أعاد دورة تفقدية على العجلات، أخيرا ركب المقصورة، أدار المفتاح، قبل أخذنا لأماكننا المعتادة، ساعدنا السائق في خروج المركبة من حفرة الرمل، في الحقيقة قليلا من المعاونة يكفيه.. نظرا لدفعها الرباعي، لو كان وحده لأمكنه الخروج بالحيل!! نقّزنا لأماكننا، انطلقت بنا أفْ جي، مخلّفة وراءها غبارا أثيثا.

بعدها سأل إدْريْسو جورجْ:

(ما سبب كلّ هذه الحروب؟).

(الألماس.. هو السبب يا رفيقي، كما قلتُ لكَ..).

في الوقت الذي كان فيه إدْريْسو، قد بدأ حكاية أخرى مع باسيلْ السيراليوني، الذي فاتني أن أسأله عن أخباره؛ لكن لا أحسبها تبعد كثيرا عن حكاية جورج الليبيري، لكونهما يشتركان في مأساة الحروب الأهلية ومخلّفاتها الوقحة.. اندمجتُ أنا مع أحد (الإيـVـــواريين) كان بجانبي، طبعا هو يتحدّث الفرنسية ولا أجدُ مشكلة في التواصل معه، مثل جورجْ وباسيلْ.

هذا (الإيـVـــواري)، حكايته رواية أخرى!! سواد وجهه نائر، يتخفّى خلف غبار كثيف كحالنا جميعا، يظهر للنّاظر الحصيف، أنه عاش طفولة قاسية، نسيتُ حالي والله سيّدي المُخرج.. منظره مدعاة للرحمة، كثير التيه!! قليل الكلام، ربما هذه الأشياء رغّبتني أكثر في التقرّب منه بفعل فضولي اللاّمتناهي.. وإن كان هذا الأخير رغم انطوائه الشديد، له رغبة في ذلك.. طول الطريق يدعوه ويدعوكَ رغما عنك؛ لأن تكلّم الأخرس والحجر!!

قلت له في رقّة:

- (أراك صَلفا يا رفيقي..).

- (أنتَ (إيـVـــواري) أليس كذلك، رأيتكَ مع حلقة (الإيـVـــواريين) بمدينة أرْليتْ؟).

- (أجل من "كوت ديـVـــوار"..).

- (ما اسمكَ؟).

- (اسمي "إمانْوالْ").

- (كنتَ مع النيجيريين، صحيح..).

هزتُ رأسي شاقوليا..

بعدها أبان عن أسنانه البيضاء، طأطأ رأسه ثم رفعها، أحدث بعدها حركة اهتزازية بشفتيه، دلالة عن الشّجن!! قصتي حكاية أخرى!! تهون معها كلّ حكايا العالم وحيوات البشر يا رفيقي دودو..

قلت له مندهشا:

- (إلى هذه الدرجة يا إمانْوالْ!!).
- (أجل.. يا رفيقي النيجيري..).
إمانْوالْ يقول:

(قبل عامين، كنّا صباحا بمدرستنا الثانوية بمدينتنا "باسْ" عندما سمعنا دوي انفجارات قوية ومرعبة، دون أن نجمع أدواتنا أو يأمرنا الأستاذ بالخروج؛ حتى هو سبقنا بالهروب والله!! أصابني هلع شديد، فقدت رشدي بعدها، خرجنا مشتتين للشارع العام.. خوف شديد بين الأهالي، دويّ الانفجارات في كلّ مكان!! غاب عني طريق البيت، وجدتُ نفسي أجري وأجري.. لحاقا بمن كانوا يتسابقون أمامي.. كانت القنابل خلفنا تزداد قُربا!! قطعنا مسافة كبيرة دون أن نشعر بالعياء أو نحسّ بالجوع، مدّة يوم كامل ونحن نجري دون أن ننتبه!! أخيرا وجدنا أنفسنا عند الغروب، وسط غابة كثيفة من أشجار الموز والأناناس، أكلنا الموز، قشّرنا الأناناس وفلقناه على الحجر.. بتنا ليلتنا في الظلام والعراء، مع الفجر سلكنا طريقا متخفّيا، التقينا بالمئات ممن هُلِعوا، أطفال يصرخون، أمهات يحزمن متاعا خفيفا وبطانيات.

عبرنا الحدود مع ليبيريا، أخيرا وصلنا مخيم "كامْبلي" للاّجئين بمقاطعة "نيْمبا"، استقبلنا موظفو الصليب الأحمر الليبيري، قدّموا لنا الفحوصات الطبية والأدوية.. كما تعهدونا بمرافقين نفسانيين، لتخفيف الصدمة.

بقيتُ مدّة بالمخيم، لا أعلم عن أمي "Vـــوانْثيتا" شيئا، هي الأخرى لا تعلم عني خبرا.. قيّد موظفو الصليب ومفوضية اللاّجئين، أسماء الذين فقدوا أهاليهم.. راسلوا الصليب الأحمر "الإيـVـــواري"، رجاء مساعدتنا ربط تواصلنا بأهالينا. انتظرنا أكثر من سبعة أشهر!! لا جديد يلوح في الأفق.. عاودوا مراسلة ثانية، علّ أوضاع الحرب، قد أتلفت المراسلات.. أو حالت دون وصولها على الوجه الصحيح، دون جدوى مرّة

أخرى!! بعد مرور سبعة أشهر على انقطاع أخبار أمي، تسلّل اليأس إلى نفسي، أن تكون قد هلكت في الحرب!!).

يضيف إمانْوالُ:

(في العام الماضي، نادى عليّ المرافق النفسيّ للمخيم، ذهبت معه لمكتبه، أثناء الطريق انتابتني تساؤلات عن سبب مناداته لي وطلب مجيئي معه لمكتبه!! خمّنتُ فرضيات؛ لكني استبعدتُ خبر العثور على أمي حيّة، إذْ لو كان!! لبشّرني بالخبر من الأول.. جلس على كرسيه يحمل مسطرة صغيرة يُطَقْطِقُ بها على كفه.. أمرني بالجلوس، جلستُ، بقي مدّة وهو يداعب المسطرة.. كان يحاول سرقة نظرة خفيّة بين الحين والآخر، رجع بكرسيه ذي العجلات للخلف، قال:

(الحرب تبقي ولا تذر، آه عفوا!! لا تذر ولا تبقي..).

أحمرّ وجهه الأشقر، نظر في مسطرته، رفع رأسه، قطّب فيّ حاجبيه الكثيفين، خطفتُ منه الكلام دون شعور:

(أمي ماتتْ، أليس كذلك؟؟).

لم يهزّ رأسه عموديا للتعبير عن صحة قولي أو أفقيا لنفيه!! بل غاب في صمت عميق وهو منكّس الرأس، هي حالات يستعملها هؤلاء النفسانيون المشعوذون.. للتدرّج في تقبّل الحقيقة.. أدركتُ أن أمي تكون توفّيتْ!! دون أن ينبسَ لي هذا الأخير ببنت شفة؛ لكن لا أدري أماتتْ مقتولة بالرصاص؟ أم مذبوحة؟ أو عُثر عليها جثّة مدغدغة تحت الأنقاض؟؟).

يتابع إمانْوالْ حديثه لي ملخّصا هذه المرّة:

(لعنا الحرب في الكنائس، لعنها المسلمون من مواطنينا في المساجد.. تكالب "GـــباGـــبو" على السلطة وصراعه مع "الحسن وَطَرا" كلّفنا فاتورة غالية يا رفيقي، الآلاف من القتلى والمتشردين!! تراني واحدا ممن يدفعون ثمنها.. لم أجد أخيرا بدّا، بعد فقدي لأمي "Vـــوانْثيثا" في الحرب وقبلها أبي "جوزيفْ" بالمرض إبان مسوَّدة السلم الكاذبة.. لم يبقَ لي من

خلاص، بعد هذه الحرب الأهلية الآسِنة، سوى الهجرة.. لأجل ذلك أنا هنا معكَ على سطح هذه العربة، نقامر بحياتنا ونغامر بأرواحنا ونعزف أغنية الفردوس الجميل..).

الشمس تتعجّل هروبها لوكرها، نكون قد دخلنا مفازة أخرى، أحسسنا قَعْقَعَة عالية داخل المحرك، انخفضت سرعة السيّارة حتى توقّفت، سمعنا باب السائق يُفتح، نزل هذا الأخير، فتح الغطاء الأمامي للسيّارة، قال لنا في دوخة:

("سير التيمن"[36] انقطع!! اشتريته في مدينة أرْليتْ، إذا به انقطع، أبدا لم يقع لي هذا، غريب والله!!).

الملثّم يضيف:

(بحسب بداية ملامح عروق رمل ناحية "العَلْكة"، نكون قد قطعنا "220" كلم من مدينة "أرْليتْ"، بقيَ لنا حتى نصل مشارف مدينة "عينْ Gـــزّامْ" حوالي "90" كلم وهي مسافة مقطوعة عن العالم!!).

حدثَ هيجٌ كبير بين الرفاق ليكاماراد لسماع النبأ!! البعض منهم قال:

(إنها النهاية!!).

البعض الآخر قال:

(إنها القيامة!! وأن الموت سيدركنا هنا بلا عناية!!).

الكثير من الرفاق غرق في بحر من البكاء!! بعدها قال الملثّم لأليْكسْ في لهجة حادّة:

(أول إجراء احترازي نقوم به، أن تجمع جالونات الماء على رفاقكَ وتضمّها لقِربتي الماء مع جالون سعة عشرين لتر..).

يكون قد تبقّى في ذلك الجالون الكبير ثلثه، كان معلّقا في سياج سطح العربة، كاحتياط واستعمال للطبخ، أما جالوناتنا المغلّفة، فأغلبها عند

36- بالفرنسية: courroie de distribution، بالإنجليزية: Timing Belt

الثلث.. قِربتا الماء تكون الأولى منها في منتصفها والثانية في ثلثها. حذّره أخيرا، أن يمنع الرفاق من العبث بالماء أو الإسراف فيه ومن هذه اللّحظة فصاعدا لن يكون شرب الماء إلاّ لسدّ الرّمق وأن القرار يمسّ السائق نفسه دون استثناء، بحسب قوله، عسى هذا الإجراء ينجينا من الموت عطشا في هذه الهَوْماء.

رفيقنا للباطرونْ:

(Ok Mon Patron).

بعدها خطب فينا أَلْيكسْ بالفرنسية أولاً بلهجة وعيدية.. ثم ترجم للرفاق الأنجلوسكسونيين، حقا هذا الأخير أوتيَ كاريزما عجيبة في القيادة كما قلتُ.. أمرنا بالامتثال لنواهيه وإلاّ أدركنا الموت جميعا!!

دعونا الله أن ينقذنا من هذه الورطة.. إخواننا أهل عيسى، هم الآخرون صلّوا للرّب وقرَؤوا القدّاس.

الوقت حينها الغروب (لا بدّ من تحضير العشاء وبعدها لكلّ ضيق فرج..) هكذا قال لنا مهرِّبنا.

ذهب نحو الخزانة، أخرج الأواني، وضع الطلح بين الأحجار، صبّ عليه قليلا من المازوت، أشعله بالكيفية السابقة نفسها.. عجن الدقيق، وضعه في الرماد كالعادة.

التوتر هو السائد!! خلال فترة تحضير العشاء، فينا من كان حمّالاً للنوائب.. ومنا آخرون وجلون.. لا يقوون على تحمل صدمة انقطاع السّبل في الفَيْفاء!!

خلال فترة تحضير العشاء، صعد صاحب (أفْ جي) فوق مقصورتها، أخرج هاتفا نقّالا، قال لنا رفيقنا أَلْيكسْ، إنه من نوع (الثُّريا) تكلّم فيه بلغة (تَماشَقتْ) الخاصة بالطوارق، لا أحد منا فهم ما قاله لمحدّثه حتى أَلْيكسْ لم يفهم.. بعدها وثب وثبة مهذّبة على الأرض.

الباطرونْ:

(يصبحْ ويفتحْ..) قال لنا.

تناولنا عشاء كسرة (التّـGــلَّة) المسقية بالمرق بلا لذّة!! لحسنا الصحن مع أصابعنا، كنا نترصّد فراغ الباطرونْ من صحنه والظفر بشظية متخلّفة فيه.

اختلى كلّ واحد منا مع رفيقه، توسّدنا حقائبنا، بانتظار فجر جديد، يأتي لنا بانكشاف الأزَمَة.. ما شدّ انتباهي وباركه ساكو طبعا، هو ذلك الاختلاء الناطق بالحركة والريب!! للكميرونيينِ، كان ابتعادهما سافرا كما ذكرتُ.. كما أن الذي كان يركب معنا بسطح العربة، يظهر من حركاته المخنّثة ومشيته المؤنثة؛ أنه لوطي!! كنتُ متيقنا أنه مفعول ورفيقه هو الفاعل.. أما نحن الثلاثة- رفقاء (Gــمْكَلي) - فقد انفردنا على كَنَف من القوم، قال لنا إدْريْسو:

(لم يكذبْ عليّ إبْراهيما.. عندما قال لي ''إن طريق الفردوس محفوف بالمخاطر..'' تذكّرتُ حَليْماتو، أعطيتها كلّ الحق، في حجب ابنها عُسْمانو من السفر معنا!!).

في مثل هذه الظروف، لكَ أن تتصوّر الموت أمامكَ بلا مشقّة!! قلّبنا- نحن الثلاثة- الموقف من كلّ الوجوه، هكذا حال الرفاق بكل جزم.. في كلّ وجه يكون الموت عطشا محتملا جدّاً!! أخيرا لما أعيتنا الحيلة فشلنا في كثرة التفسير والتدوير. فوّضنا أمرنا لله ونمنا.

في صباح اليوم الموالي، نهضنا على هَمْهَمة الرفاق، الشمس لا زالت تنشر أشعتها في الأفق البعيد، عروق الرمل تشكّل التضاريس المكانية، مَن كان ساهياً وتذكّر الصلاة من أمّتنا، تيمّم وصلى.. إخواننا أهل الصليب، هم الآخرون صلّوا للرّب كذلك.. قرأوا شيئا من إنجيلهم.. عسى الله يفرّج غمّتنا.

شربنا الشاي ولا نعرف كيف شربناه، بعدها قال لنا الباطرونْ:

(يبدو أننا غير محظوظين، صديقي ''بَتَّالْ'' الذي كنتُ أراهن عليه في مثل هذه الحالات ويعوّل عليّ أنا كذلك في مثل هذه الهازوعات، عندما يصيبه ما أصابني.. سيّارته معطّلة، هي عند الميكانيكي في حي ''موفْلونْ'' بطاما، لن تخرج مركبته، بحسب ما قال له الميكانيكي، إلا بعد عشرين يوما، لكون قطعة الغيار، التي تحتاجها سيارته ''ستَيْشَنْ'' أفْ جي، غير موجودة بطاما، أوصى معارفه بمحافظة ''غرداية'' ولم يجدوها.. أبلغهم بائع قطع الغيار هنالك، أنها لا توجد إلا بمكان يدعى ''شْطايْبو'' بمدينة ''وَهْران'' نواحي ساحل الغرب الجزائري..).

ألْيكسْ يستدرك:

(هذه الأخيرة - وَهْران- تبعد عن محافظة ''تِلمْسان'' الحدودية بحوالي ''80'' كلم، هي مسافة يستحيل وصول قطعة الغيار منها لطاما وبعدها يتمّ إصلاح السيارة ووصوله إلينا ونحن أحياء.. لذلك كان ميؤوسا من ''بَتّالْ'' نجدتنا..).

قضينا يومين، نقتصد في الماء ونتقشّف في الزّاد القليل، أصبحنا على شفير الموت!! في مثل هذه الحالات.. كلما مرّت الساعة يزداد معها القلق ورهاب الموت!! الماء بدأ ينقص رغم اخشيشاننا فيه، لم يبقَ منه سوى ما يكمل لنا اليوم الثالث.. المؤونة هي الأخرى، أخذت في النفاد، بشكل ظاهر ومقلق.. رغم سياسة التقشّف، التي سلكناها فيها ولعلّها ستنفد قبل الماء وهذا أمر لا جدال فيه سيّدي المُخرج..

في اليوم الثالث من محنتنا، نفدت المؤونة ونفد معها الماء.. أصبحنا على حافة الموت حقا!! بدأ البعض منا يتضوّر من الجوع والبعض يئن من العطش.. أمرنا بعدها السائق بشرب بولنا!! فعل البعض ذلك؛ لكن لم يقتدروا على ملوحته ومرارته أولا.. أقصى ما قاموا به أنهم بلّلوا حلقهم به، منهم من جعلته الحاجة يتعوّد عليه، هو الآخر شحّ في قِرب مثاناتنا، نظرا لقلّة الشرب.

(3)

في صباح اليوم الرابع، تذّكّرت وصية أمي لي بحكاية تميمة (Gـــونْكي)!! عندما يدلهمّ عليّ الأمر، الحق أقول، إني لم أتذكّر أمر هذه الأخيرة حتى صباح هذا اليوم.. أحيانا هول الفواجع، ينسيكَ حتى أذنكَ، أين تكون؟ لستُ أدري كيف نسيتُ ولا كيف تذكّرتُ؟ المهم تظاهرتُ بقضاء حاجة الإنسان، ذهبتُ بعيدا عن القوم، أعطيتهم ظهري، جذبتُ الخيط الأصفر المفتول برفق، قرّبته من فمي، ضغطتُ على محمولته قليلا بأنيابي وبنفس الوصفة التي أوصتْ لي بها أمي.. أعدتها إلى جوف صدري.

رجعتُ للقوم مظهرا لاختلاف أصابعي، كإبانة عن الاستبراء بالتراب.. بعد لحظات معدودات، قام الملثّم من فراشه كمن وجد كنزا!! قال لنا إنه تذكّر مرويتين، كان أحد رفاقه في التَّهريب، قبل أربع سنوات، قد رواهما له وحالة هذا الأخير تماثل الذي حصل لنا، ازددتُ قناعة في نفسي، من مدى نجاعة مستحضرات صيدلية والدي بوريْما والله سيّدي المُخرج..

استبشر القوم، أحسّوا أن الموت قد ابتعد عنهم خطوات.. ابتدأ المُهرّب بمروية الماء أولا، فتح مبرّد السيارة، وضع فيه أنبوبا صغيرا، طوله متر ونصف المتر، موصول بجالون صغير على الأرض، جذب أنفاسا قوية، نزل معها الماء في الجالون حتى ربعه، أمرنا بعدها ألاّ نلقي ببولنا على الأرض!! لنعوّض نسبة الماء في مبرّد السيّارة.. أخذَ جرعة ماء واحدة، أعطى الجالون لألَيْكسْ، أمره الباطرونْ، أن يبلّل لنا حلقنا ولا يزيد.

شرع الرجل الأزرق بعدها في المروية الثانية.. حيث قام نحو الحبل الذي يربط حطب الطلح، بالباب الخلفي للعربة، فتحه، ثناه على مرتين، قاسه على (سير التيمن) طلب من أقوانا عضلة ربط هذا الأخير بعقدة صغيرة، فعل كما أُمِرَ؛ أوصاه أن يصنع واحدة ثانية كاحتياط.. مما تبقّى من الحبل.. فتح

الغطاء الأمامي للمركبة، وتّده بعموده الحديدي، أدخل الحبل بطريقة دورانية مكان (سير التيمن)، أخيرا استوى مكانه مشدودا.. تبسّم الرجل، ظهرت عليه علامة البهجة، جرّنا بصفة لا شعورية لإرهاصات حفلة الرقص.. أدار المفتاح تحرّك المحرّك نصف دورة ثم سكتَ، أحسسنا أن الموت الذي ابتعد عنا خطوات، عاود التقدّم ثانية.. أعاد تدوير المفتاح، تحرّكَ المحرك، انبعث من السيّارة دخانٌ خفيفٌ، أحدثنا جميعا جلبة من الفرح.

المسلم منا:

(الحمد لله..).

اليسوعي منا:

(شكرا للرّب..).

أما أنا فتحدّثتُ في سري:

[[يوم الجمعة، هو يوم السّعد عندي.. فيه سهّل الله لي بيع بقرتنا "بَكْتو" وفيه اكتمل نصاب الشاحنة التي أقلعت بنا من مدينة "أGــــادَزْ" وها هو ينقذنا من الموت!!]].

(رقصتُ رقصتي المعتادة..).

ردّدنا خلالها:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

الثلاثة من أهل طاوة، ردّدوا بلهجتهم الهوساوية:

(Gــــايْ شيكا.. Gــــايْ شيكا..).

بمجرد إصلاح العطب، أمرنا السائق أن نثب لأماكننا بالسطح؛ لأن الماء نفد وليس من مصلحتنا التأخر.. انطلقنا زوالا من منطقة (ولاغينْ) بحسب ما ذكر السائق لأليْكسْ ورواه لإدْريْسو. الحرّ يلفح الوجوه المتعبة، بسُعار الجوع وغليل العطش.. سرنا عبر تلك الفيافي، حتى سمعنا صوتا مُقَضْقضا بالمحرّك مرّة أخرى. توقّفت المَعطوبة!! ازدادت دقّات قلوبنا.. قبل فتح غطائِها الأمامي، قال لنا إنه حبل (سير التيمن) تَكَشّط ثانية.. كان الوقت

ساعتها قبل الغروب، بسرعة فائقة ثبّت الحبل الاحتياطي الآخر مكانه، قال لنا إذا لم يصبنا عطب آخر، سنصل مشارف مدينة "عينْ Gـــزّامْ" مع العِشاء أو بعدها.. قبل انطلاقه، شرب جرعة ماء، أمر قائدنا أن يعاود لنا الجرعة ثانية، فعل أليْكسْ، بلّلنا أحلاقنا. لقد ابتعدنا كثيرا ونجونا عن عيون الحراس، الذين عادة ما يتواجدون بـ(عينْ أزاوة) ومركز (تيْريرينْ).

ما زلنا نسير والجوع يعضّنا والعطش يقرصنا، حتى بدأنا نرى شعاع الضوء، يلوح في الأفق المظلم البعيد.. بعدها توقّف السائق عند جبال (تيمْغاسْ نيْدي) المؤدية لـ(جنانْ أمباركْ) و(جنانْ بويا) نزل السائق، أعطى لأليْكسْ جوازاتنا محزومة، التي كان قد احتجزها طيلة الرحلة، أبلغه أن يفهمنا، أن الرحلة قد انتهتْ وما تبقّى علينا قطعه راجلين، نصحنا أن ننعطف ناحية الشِّمال، تجنباً لعِساس الحدود، الذين يرابطون جهة اليمين.

الظلام والسكون يخيّمان على المكان، عواء الذئاب سمعناه بعيدا.. أضواء المدينة الصغيرة متناثرة، البعض منا أصبح غير قادر على المشي، أليْكسْ يشجعنا.. أنفق ما تبقّى من ماء قليل على من كان يشكو العطش الشديد، كنا نسير متعثرين بالحجارة أحيانا، غائصين في الرمل أحيانا أخرى، أخيرا بلغنا بيتا طينيا متطرّفا، تقدّم أليْكسْ لصاحب البيت، طرق الباب الخشبي طرقا خفيفا، خرج صاحب البيت، المصباح الكهربائي كان يضيء قبالة الباب جهة الخارج، أظهر لنا ذلك الضوء، أن الرجل شيخ أبيض، له لحية كثّة بيضاء غير منتظمة، في رقبته حجاب جلدي أحمر.

حيّاه أليْكسْ بلكنة إفريقية.

ردّ الشيخ التحية بلكنة طارقية وسأله:

(أنت كامارادْ والذين معك ليكامارادْ؟).

أليْكسْ بلهجة عربية معطّبة بلكنة إفريقية:

(حقا.. حقا.. نحن الأفارقة الذين تطلقون علينا ليكامارادْ للجمع وكامارادْ للمفرد، وصلنا للتو من خلاء مدينة أرْليتْ، مع أحد المهرّبين،

أفرغنا قرب المدينة ولاذ بالفرار عن عيون خَفَر الحدود، الجوع والعطش يكاد يقتلنا..).

(انقذنا!! انقذنا!!).

(النجدة!! النجدة!!).

دخل الشيخ لبيته مسرعا، بعد لحظات، أخرج لنا ماءً ليس باردا في إناء، معه قِربة ماء بارد، طبقا من التمر اليابس، لونه أصفر فاتح، علبة حليب غبرة جزائرية مكتوب عليها حليب (Lahda)، كنّا نرى هذه العلامة التجارية في السوق الكبيرة بنيامي.. أول ما قام به رفيقنا أليْكسْ، أن سقانا الماء الساخن عمدا بقدر قليل كما أوصاه الشيخ.. تركنا مستلقين على الأرض، البعض أراد ماء القِربة البارد فمنعه، بعد مدّة ربع الساعة أو يزيد عنها قليلا، وزّع علينا أليكس التمر اليابس، عشر تمرات يابسات للواحد، قال لنا ساكو سيّدي المُخرج.. (إنه تمر توّاتي يسمى تِنّاصَرْ..).

فتح أليْكسْ علبة الحليب، أمالها قليلا في إناء حديدي فضي، مُطَبْطِبا على مقدمتها بسبابته اليمنى ووسطاها، كما كان يميل الرفيق غاريْكو - ذكره الله بالخير- كيس السّكر بمجلسنا الموقّر وما فعله مهرّبنا الملثّم بالدقيق أيضا، بعدها فتح رفيقنا خرطوم القِربة السوداء، الذي كان مربوطا بخيط مفتول يميل للاحمرار، صبّ الماء على غبرة الحليب في الإناء، حتى لم يبقَ لبلوغ حافته سوى مقدار بنان الإصبع، التفتَ إلى جنبه الأيمن، ثم الشِّمال، عثر على عود، أخلط به تلك الغبرة مع الماء، هذه الأخيرة كانت تتجمع في حبّات متفاوتة الحجم تعلو الإناء، وسط ماء تغيّر لونه نحو الأبيض قليلا، خلال فترة تخليطه لخلطة الحليب، كان تكسير تمر (تِناصَرْ) بين رحى أضراس الرفاق الجوعى، يحدث حركة عجيبة والله!!

ناولنا أليْكسْ الحليب، شربنا في المرّة الأولى، بقدر معلوم حسب توجيهاته، بعدها أطلق لنا العنان للشرب؛ لأن معداتنا ومصاريننا ساعتها

تعوّدت وابتلّت بعد العطش، ذكر لنا بعد ذلك، أن عديد العطشى، من وجدوا الماء وسقطوا فيه شربا، ماتوا..

قلتُ لإدْريْسو:

(لم نخطئ عندما قَبِلنا ألَيْكسْ رئيسا ومفاوضا..).

أجابني إدْريْسو:

(حقا.. هذا رجل من أهل السماء..).

تبعه ساكو:

(لولاه لمصّ دمنا السماسرة..).

في خاطري:

(لا همّ لكَ يا ساكو، إلا الفرنك..).

شكرنا الشيخ، ملأ لنا جالونا من الماء، سعة خمسة لترات من تلك القِربة، ابتعدنا قليلا عن بيته، أكملنا ليلتنا عند المَدخل الجنوبي لمدينة (مارسيليا ليكامارادْ) بمكان مرمّل، حيث صرنا في مأمن، من نُطّار الحدود، انفرد ألَيْكسْ غير بعيد عنا، سمعنا خَرْخَرَة مغلاق حقيبته يفتح، أخرج من حقيبته شيئاً به صوت الكرتون، بعدها سمعنا خَشْخَشَة بأسنانه، عرفنا بعدها، أنه ينظّف أسنانه قبل النوم بالمعجون والفرشاة!! هو الوحيد منا، الذي كان له هذا الطقس، فعله مرّة واحدة بـ مدينة أرْليتْ؛ تخلّى عنه لشحّ الماء خلال رحلة الموت في الصحراء.. غاب بنا رسول النوم ولا نعرف كيف ذلك والله سيّدي المُخرج..

عينْ قَزّامْ

(مرسيليا ليكامارادْ)

(1)

مع صباح يوم السبت نهضنا من نومنا، دخلنا مدينة (عينْ G ـــــزّامْ)، أو كما يحلو للبعض منا تسميتها (مارسيليا ليكامارادْ)، الطقس معتدل، تسلّلنا عبر الشارع الوحيد للمدينة، البيوت أكثرها طينية، قليلها إسمنتية، الطريق شبه معبّد، وجوه من الطوارق باللّثام، يرتدون بازانات زرقاء، صفراء، خضراء، نساء بيضاوات جميلات، يلتحفن قناع (تَسَغْنَسْ)[37]. رفاقنا الأفارقة أو قُل عنهم (ليكامارادْ) وهو الاسم الشائع لنا ابتداء من هذا المُقام، هم الآخرون يتجوّلون في المدينة بكلّ طلاقة وحرية.. البعض منهم وجدناهم يحفرون خنادق مياه الصرف الصّحي لدى أحد المقاولين، البعض الآخر رأيناهم يشتغلون في ورشات البناء، المهم لا خشية علينا في هذا المُستقر.

سرنا جميعنا حتى زلفنا المقهى الوحيد بالمدينة، مقهى بسيط؛ لكنه وبكلّ إنصاف أحسن من مقاهي عاصمتنا ومطاعمها.. نادله أبيض أشقر، عيناه زرقاوان قليلا، قال لنا رفيقنا أليْكسْ بعدما قرأ يافطة معلّقة على مَدخله، إنه قد يكون أمازيغيا، كانت مكتوبة بثلاث لغات، بشكل تسلسلي تنازلي، الأولى عربية (مقهى) قلتها له، الثانية فرنسية (CAFE) عرفناها جميعا، الثالثة رموز لم نفهمها (ثاغيلوسْثْ)؛ لكنه على أية حال، قرّبها إلى لغة (تَماشَقتْ) عند الطوارق، بعد تحقّقه للكنة النادل مع الزبائن، قال لنا في وثوق هذه المرّة (إنه من بلاد القبائل شَمال الجزائر).

37- قناع مزركش، تلتحفه نساء الطوارق ومن جاورهم من قبائل الصحراء الكبرى، كـ(البرابيش)، (كُنتة)، (بني ملوك وحسّان بشنقيط).

نظرنا إلى بعضنا في دهشة، في صمتنا:

(في كلّ مرّة أليْكسْ يدهشنا بموسوعيته لله درّه..) قلنا.

رَبَضنا بطاولة حديدية مركونة في زاوية من المقهى، كان هناك كاماراديون آخرون في المقهى، لعلّهم جاؤُوا قبلنا، الظاهر كذلك.. الغبار يلبس رؤوسهم ووجوههم، يتأبطون حقائبهم ومتاعهم الخفيف. كانوا ينظرون إلينا بشفقة العِرق وكنا ننظر إليهم بريبة الوافد.. تقدّم إلينا النادل، تكلّم معنا بفرنسية باريسية مشوبة بلكنة؛ لكنها مُبينة:

(Qu'est- ce que vous buvez?)[38]

أجابه أليْكسْ بلا تردد:

(Café au lait pour chacun de nous,)[39]

(un morceau de pain avec de la confiture)[40]

غمز ساكو إدْريْسو، تبعه نيجيري آخر من ثلاثة أهل طاوة، أنهما يشربان الشاي بدل القهوة، حوّل الطلب لأليْكسْ، بدوره نادى على النادل.

في الوقت الذي استدار فيه النادل ليعطينا ظهره، ليستدركه أليْكسْ بالقول، أعاد النادل نصف الدورة كأنه جندي، قال له أليْكسْ:

(Deux tasses de thé au lieu du café pour nous deux S.V.P)[41]

حرّك النادل رأسه، قبل ذهابه، استدركه إدْريْسو بالقول ثانية:

(Mais nous avons aucun dinar algérien[42])

النادل بوثوق:

(Je sais que n'êtes pas le premier. Pas de problème[43])

38- ماذا تشربون؟

39- قهوة بالحليب لكل واحد منا.

40- قطعة خبز مع معجون المربى.

41- من فضلك، كوبان من الشاي، بدل القهوة لرفيقينا.

42- لكن لا يوجد عندنا الدينار الجزائري.

لحظات وأتانا النادل بالقهوة، الخبز المحشو بالمربى، التهمناه..

كانت هناك، لوحة معلّقة بجدار المقهى لرجل أبيض يحمل (G ــيثارا)، كُتب تحت تلك اللّوحة حروف ورموز، مثلها كاللغة الثالثة من يافطة المقهى، سأل أليْكسْ النادل عن الصورة.

(إنها للمغني القبائلي الشعبي الشهير ''مَعْطوبْ لوَنّاسْ'' وإن هذه الحروف تسمى ''التِّفِناغْ'' الأمازيغية..) هكذا أعرب النادل.

أليْكسْ:

(رأيتها في يافطة المقهى، خمّنتُ أنها قريبة لحروف ''تَماشَقْتْ'' الطارقية..).

النادل يجيبه بحرارة:

(بالضبط، إنهم – الطوارق– منا ونحن منهم، كلّنا أمازيغ..).

التفتَ أليْكسْ إلى قرن رأسه الأيمن المغبر، حفر فيه ببنان سبابته اليمنى المعقوفة، كما نفعل جميعا وقت الحيرة:

(حقا ما تقول.. اطّلعت في تاريخ شمال إفريقيا، إن الأمازيغ هم السكان الأوائل وإن فيهم البتر والبرانس، البعض يسمّيهم البربر..).

تبسّم النادل وهو يحمل الصينية التي بها كؤوس القهوة، فوق كفه الشِّمال ومنديلا بيمينه، قال بفرنسية باريسية ملكونة:

(بيانْسيغْ مونْ كامَغادْ)[44].

بعدما التفتُ بيدي اليمنى لذقني، الذي لم يحلق منذ شهرين:

(إنهم ينطقون الرّاء غاءً كأهل باريس ونحن ننطقها راءً كأهل مدريد..).

سَمعنا أليْكسْ الذي كان بقربنا، تلقّف الكلمة من إدْريْسو:

43- أعرف ذلك، لستم الوحيدين، لا مشكل.

44- بالفرنسية تكتب: bien sur mon camarade، وبالعربية معناها: (بطبيعة الحال يا رفيقي).

(حقا.. نحن "ليكامارادْ" ننطق الرّاء إسبانية، البعض من أهل شَمال إفريقيا ينطقونها باريسية، لا سيما عند النّخب المثقفة من الفرنكفونيين بالجزائر، ألا تعلم أن الاستيطان الفرنسي جثم عندهم قرناً وربعَ القرن، الكثير منهم ينطقها إسبانية مثلنا؟).

بعدما رأى أليْكسْ تجاوبا فرنكفونيا كبيرا معنا من طرف نادل المقهى، طلب منه أن يصرّف لنا مبلغا من عملة (السفا)، يسمح لنا بتسديد القهوة لكلّ منا مع قيمة تذكرة السفر إلى طاما، هزّ رأسه ثانية ألاّ مشكل.. أتممنا قهوتنا، صرّف لكلّ واحد منا (**1000** فرنك سفا)، بما يقابل (**1600** دج)، سدّدنا له مستحقاته، قبل وداعه، سأله أليْكسْ عن مكان نقل المسافرين لطاما وهل هناك مشكل في تنقّل ليكامارادْ أو ملاحقتهم من طرف الأمن الجزائري؟

النادل الأمازيغي وهو يظهر تعاطفا غير خفيّ معنا يتحدّث:

(الكلّ يعلم بتواجد ليكامارادْ بمارسيليا وباريس.. لكونهم متواجدين ومختلطين معنا من مدّة طويلة، حتى قبل هذه المشكلة، التي ظهرت في السنوات الأخيرة.. التي يطلقون عليها الهجرة غير الشرعية للوافدين من الجنوب، لذلك فالدرك والجيش والشرطة ومن كثرة رؤيتهم وتعوّدهم عليهم، صاروا لا يعبؤون بهم؛ لكن الحذر مطلوب.. بين الحين والآخر، تكون هناك حملات لترحيلهم.. ثمّة أمر آخر، عليكم أن تلتفتوا إليه، هو تفرّقكم في ثلاث مجموعات أو أربع لدخول طاما، حتى لا تثيروا الانتباه!! كونوا مُظهرين لحالكم إن سألكم أحد، أنكم كنتم بباريس وذهبتم لمارسيليا مع مقاول لأجل العمل.. المشكلة بالنسبة لكم تبقى فيما بعد باريس، إن أردتم النزوح شَمالا.. عندها عليكم بأخذ احتياطاتكم، ستكون المساءلة والنزول من الحافلة والتفتيش في كلّ النقاط التي تأتيكم..).

أليْكسْ يتبسّم في وجه الأمازيغي:

(لنا في طاما تفكير وتدبير آخر يا رفيقي..).

استدار رفيقنا نحونا، أشار إلينا بإشارة قبض اليد، كما كان يفعل إدْريْسو، بعدها غمرنا ارتياح عميق، فاض على وجوهنا المتجشّمة.
ساكو:
(انتهى عصر السماسرة والابتزاز، يمكن لجيوبنا المثقوبة أن تستريح..).
بعدها طلبنا من المُتعاطف أن يملأ لنا جالونا من الماء، فعل بكلّ سرور..
قبل وداعنا له، لَمَزتُ إدْريْسو بإشارة يدي على أذني.. سأله عن مكان بيع شرائح الهاتف النقّال، حتى يمكنه الاتصال بإبْراهيما، أجابه النادل، أن مكان بيعها غير موجودٍ هنا، عليه أن يسأل عنها في طاما، ودّعناه بشيء من الوّد، ابتعدنا عنه قليلا، لوّحنا له بأيدينا، هو الآخر فعل بكلّ حرارة والله سيّدي المُخرج..
ألْيكسْ يتقدّم فيلق المجموعة، كنا نمرّ عبر الشارع العام، نرى وفودا كثيرة من إخواننا ليكاماراڈْ، في عميقي:
(أنتم من السابقين ونحن من الخالفين..) قُلتُ.
رجال بيض ملثّمون يتحلّقون في جلسات هناك، يلعبون على الأرض لعبة التّخْطية بالأحجار والأعواد، في مربعات مرسومة على الأرض. أطفال منهم يلبسون عباءات فضفاضة، أغلبها بيضاء مُغْبَرّة، رُسمتْ عليها خرائط من وضر الدسم، على رؤوسهم أعراف شعر، كعرف الديك!! يلعبون أمام بيوتهم الطينية البسيطة، المفتوحة على الطريق، في رقابهم تمائم جلدية حمراء، مربوطة بخيط مفتول، رُصّ إلى جانبها في ذلك التنظيم، مسمار حديدي وصرّة قماش مشدودة فيها شيء ما.. قال لنا ساكو دون سؤال منا (إنها طقوس الطوارق، يستعملونها لأبنائهم بغية صرف عين الحسود..) زاد على كلامه ألْيكسْ لما فهمه، بأن في (كوت ديــVــــوار) كذلك، هناك اعتقاد شائع بهذا الطقس، لا سيما في القرى النائية (يؤمنون بأسْطَرَة الحديد وطرده للأرواح الشريرة!!).

نساء طارقيات بيضاوات، طويلات، سمينات، يلتحفن إزارات وملحفات مزركشة، كتلك التي ذكرتها لكَ قَبْلا سيّدي.. واصطلحتُ لكَ عليها (تَسَغْنَسْ)، الجميلات كن يمشين في الطريق بكلّ أناة، مع حركة ظاهرة لأطرافهن، نصف رؤوسهن معرّاة، شعرهن أسود ناعم، عيونهن كـ(المها)!! سيقانهن عامرات.. كانت إحداهن تسير أمامنا على بعد خطوات، مؤخرتها بارزة كهضبة!! هذه الأخيرة تتراقص كأنها شحم الزوائد.. القامة هي الأخرى موجودة، كأنها لا تحبّ أن تفارقنا، المهم أنها أقلّ بكثير مما عندنا.. أنا متأكد بأننا نحن القدوة فيها ولا أحد يبارينا فيها سيّدي المُخرج والله..

(2)

وصلنا ساحة صغيرة، خالية من ظلّ ظليل.. لعلّها التي أرشدنا إليها حبيبنا النادل الأمازيغي، الجوّ ساخن قليلا، السيّارات نادرة، بَلَغنا في أطرافها ثغاء الماعز، الرّمال تفرش المكان، آثار الأقدام الحافية والنّعال، مع حوافر الماشية وأظلافها، مضافا إليها آثار عجلات السيّارات والشاحنات، ترسم منمنمات لوحة فنية ماتعة على الأرض. الأخيرة يعلوها بكاء الأطفال وأصواتهم كذلك، أنين الثكالى زائد هو الآخر وإن كان خافتا هذه المرّة.. تأوّه الشيوخ يكاد يكون نفسه؛ لكن بتوجّع أكثر أيضا.. كانوا يشكّلون مع أمتعتهم وبيوتهم المتنقّلة جبلاً من المتاع هناك.

بعد اقترابنا من هؤلاء المذكورين، تيقّنا أنهم هم الذين سافروا معنا، من مدينة (أGـــادَزْ) حتى مدينة أرْليتْ، حيث اختاروا سيارة (لاندْرُVــــرْ) لرخصها كما قلنا؛ لكن ما لفتَ انتباه ساكو وفاتني ذلك والله سيّدي.. رغم هذا الفضول الذي أزعمه.. على أية حال نحسب هذه اللّفتة لهذا الأخير، مع قلّة حسناته وكثرة خطاياه وسآتي على ذكرها لكَ سيّدي.. واحدة تلو الأخرى.

المهم ألاّ تَقْلَق.. فقد رُويَ عن هذا الأخير - قدّس الله سرّه - من استشهاد الفقهاء (من استعجل الشيء قبل أوانه، عُوقِب بحرمانه..)، أولئك العجزة عددهم قلّ بشكل نسبي، عما ألفناه عليهم سابقا، نظرتُ إلى إدْريْسو في حيرة بلعتُ معها شيئا من مخاطي، بُهِتَ هو الآخر لملاحظة ساكو المجنون.. بعد رجوعه خطوة للوراء:

(فعلاً ما يقول ساكو، تاالله.. إنه لداهية حقا وصدقا..) قال لي.

غاب ساكو في قهقهة مُبتهشة لصيده، إدْريْسو في تعجّب:

(حقا!! عددهم متناقص عمّا ترسّب في أذهاننا في نظرة العدّ الإجمالية للحشد الغفير منهم..).

ثار فضول القوم جميعا لما نبّهنا إليه ساكو.. ما دعا أليْكسْ، لأن يستفسر الأمر من مظنّته.. كانوا بعيدين عنا نوعا ما، لستُ ضابطا بالقطع؛ لكني أقدّر ذلك، نحو أربعين خطوة أو أكثر بقليل.. تقدّم أليْكسْ نحوهم بخطوات منكسرة، تختلف عن تلك التي خطاها لما انتدبناه مفاوضا بمدينة أرْليتْ مع السماسرة!! مشى حتى بلغهم، ألقى السلام بيده، قبل وصوله بخطوتين أو ثلاث، تقدّم إليه ذلك الكهل المفاوض، تحدّث معه قليلا، كنا نرى التفاتة الكهل بطرف عمامته لعينيه ومسحه للدموع أثناء الحديث مع أليْكسْ!!

أليْكسْ خطواته أكثر انكسارا من ذهابه.. عرفنا أنهم كما خمّن ساكو.. ربما قد فقدوا البعض منهم في رحلة الصحراء، ترجّح لدينا هذا الاعتقاد، تجمّعنا حوله، كلنا تدخّل وتطفّل.. بعدها أطلق صفيرا خافتا من بين شفتيه وأسنانه، يشرح في شجن دامع:

(لقد تعطّلت بهم "لانْدْرُVـــرْ" في طريق مقطوع عن العالم لمدّة ثلاثة أيام، نفد الماء.. لم يتفطّن السائق لماء مبرّد السيّارة، إلا بعد هلاك ثلاثة أطفال منهم مع امرأة مسنّة وشيخ هرم!!).

لم يتمالك إدْريْسو كتم وصية إبْراهيما له ذات عشيّة على الخاص في الفيسبوك: (تذكّرتُ تقريع إبْراهيما وتهويله في وصف متاهات الصحراء الموحشة..).

نِسوة تلك المجموعة، كن ضامرات من الأصل، ازددن هلاكا فوق الضياع!! لا المُرضعة وجدت ما تأكل ولا ثديها تجمّع فيه ما يُرضع!! إن وُجد فيه نزر قليل، فسيزيدها مصّه دمارا فوق المَنون. هاجت زوبعة رملية في أجواء المكان، طمست قليلا من آثار الأقدام والأظلاف، حتى غدتْ كما لو أن أياما قد مرّت عليها، زاد معها صراخ الأطفال وقَنْقَنة طاسات التسوّل

المصنوعة من معدن التوتيا، إثر تدحرج البعض منها على الأرض بفعل خفّتها.

مضى من الوقت أكثر من الساعتين ونحن مسمّرين في المكان، ننتظر مركبة تقلنا من مارسيليتنا إلـى باريسنا.. أخيرا هلّت علينا سيّارة نفعية، نوع (مازْدا) يابانية، تحمل ترقيما يبدأ بالرقم (**11**)، بعده ترقيما آخر لعلّه (**82**) وترقيم ثالث رأيته ولم أستحضره.. عرفنا فيما بعد بطاما، أن الترقيم الأول، هو الترقيم القُطري لمحافظة تَمَنْراسَتْ، الثاني سنة أول استعمال المركبة. توقّفت هذه الأخيرة غير بعيد عنا، يقودها رجل أبيض، ملثّم هو الآخر، حالتها متوسطة، فضية اللّون، مثخنة بكدمات الارتطام، وقفنا في أماكننا، ظلّ الرجل قابعا في مقصورتها، تقدّم إليه أَلَيْكسْ، جاء بعده ذلك الكهل يهرول.. لم تكن المطارحة صعبة وطويلة، الطريق معبّد ومزفّت، الأمر ليس معدودا البتّة في قاموس طرق التهريب.

بعد خمس دقائق من حوارهما مع السائق، اهرَمَّعَ الكهل في السير نحو رعيته، رأيناه من بعيد يشير إليهم بيده (أن قِفوا.. هلمّوا..) رجع أَلَيْكسْ، خاطبنا بلغة إنسانية، أن صاحب المازْدا، أبلغه أن سيارته لا تطيق حملنا جميعا مع العجزة، لكون عجلاتها قديمة ومتاعهم كثير.. لذلك ترك هذا الأخير، الخيار بيني وبين الكهل، فتنازلتُ إنسانيا لهم.. لم يعترض أحد منا على خياره ولن يستطيع سيّدي..

فتح لهم صاحب المازْدا، الباب الخلفي للعربة بعد مشقة من الخَضْخَضَة وقَرْقَرْة صوت احتكاك حديد الباب.. عاود الضجيج معزوفته المعتادة في صعودهم.. خلال حشرهم وتكدّسهم مع أمتعتهم الكثيرة على سطح عربتها غير المفروش، ركب مع السائق إلى الأمام، رجل مسن وامرأة عقور، كان وقوفهما ووصولهما للمقصورة بالمساعدة.. أحدث غلق باب السائق صوتا قويا أكثر من الباب الذي عن يمينه، لحظات رجعت السيّارة للخلف

بمقدار المترين، انطلقت تنفث خلفها دخَانا كثيفا وغبارا أقلّ سماجة من الأخير، غابت في متاهات سراب الطريق الشَّمالي للمدينة.

الساعة تقترب من منتصف النهار بالساحة، بدأت الحركة تقلّ نسبيا في أطرافها، الجوّ وإن كان لا زال لافحا بعض الشيء؛ لكنه بدا أرحم من صحاري الموت.. غاب ثغاء الماعز كذلك في الأطراف البعيدة، النساء الجميلات، اختفين هن الأخريات، أصوات الأطفال تناقصت في الجهة الجنوبية للمدينة الصغيرة.

أشار علينا المفوّض العام لأمّة ليْكامارادْ، أن نرجع لمقهى الأمازيغي الذي استعطفنا صباحا، (فيه رواق نستظل تحته، نأكل شيئا مما يبيعه في مقهاه..) قال رائدنا.

استحسنا الفكرة طبعا، عدنا أدراجنا من حيث أتينا في الأول؛ لكن هذه المرّة من الرصيف الآخر، الطريق شبه خالية، خلا تقاطعنا برجل خمسيني ملثّم يلبس عباءة بيضاء، بدا مسرعا في مشيته مع ثلاثة أطفال يجرّون تيسا من قرنيه، هذان الأخيران يشبهان شواربكَ سيّدي.. والله هههه..

بدا المقهى شبه خالٍ؛ لكنه مفتوح على أية حال، ذاك هو المهمّ، يتكوّر في زاوية رواقه الغربي، أربعة رفاق من ليْكامارادْ، يفترشون كرتونا، يتوسّدون حقائبهم الظهرية، لم نتركهم خلفنا صباحا.. وعثاء السفر، ينطق عن حالهم بلا دليل، ذلك أنهم دخلوا بالكاد من صحاري الطْرابانْدو[45]. استلقى كبيرهم كرفاقه، فتَمَرْفقَ في ذهول بيّن، بادلنا بتحية رمزية غامضة من خلال ملامح وجهه، اثنان منهم كانا نائمين، الآخر كان يقظا؛ لكنه يبدو خجولا، تصرّف بغباء فاضح، تناعس.. رغم رؤيتنا لحركته بادئا!!

رمقنا النادل الأمازيغي من نافذة المقهى، نادى بصوت عالٍ، تعطّره لكنة دائما:

45- التهريب.

(ألَيْكسْ.. ألَيْكسْ..).

صوته لا يخطئ، التفتنا إليه من شبّاك النافذة بحركة لا إرادية، لوّح بيده لألَيْكسْ، تبسّم هذا الأخير. صوت المسجّل بالمقهى يصدح بموسيقى رنّانة، كلمات المغني الذكوري، لا هي فرنسية خالصة ولا عربية صافية.

دخلنا المقهى، النادل مع رفيقه، أغلب الظن أنه شريكه، لو لم يكن، ما تصرّف معنا صباحا في صرف العملة وتحويلها للدينار دون استشارته.. المكان شاغر، انثنينا إلى طاولات في الزاوية الشرقية منه، تقدّم ألَيْكسْ نحو صاحبي المحل، سلّم عليهما بحرارة، خفّض النادل صوت المسجّل قليلا، تحدّث معه، لا كلام بينهما سوى عدم ذهابنا وتنازلنا للهالكين، جزمنا ذلك بسماع كلمة (مازْدا).

بعدها غرق النادل مع ألَيْكسْ في حديث ثانٍ، استغلق علينا مضمونه، ما شاهدناه أن رفيقنا كان مبتهجا جدّا بالحديث، لا شيء أكثر من هذا.. طلب منه نصف خبزة، بيضتين مسلوقتين، لكلّ واحد منا، مع ثلاث قنانٍ من الياغورتْ الخاثر. خلال تحضير النادل لوجبتنا الباردة، عاد رفيقنا، أشار بتلك الإشارة المقبوضة لليد مع انفراج إبهامها، التي صارت دليلاً عن كشف الغمّة.. سرّ الرفاق قبل نطقه:

(أتدرون يا رفاق بمَ أخبرني به النادل؟).

تعمّد هذا الأخير السكوت قليلاً قبل الإفصاح.. ذهب كلّ منا مذهب عقله. أنا شخصيا، حاولتُ صراحة فعجزتُ والله سيّدي المُخرج.. غاية ما صرفت نظري إليه، أنه خير وانتهى.. ولا أحسب الرفاق قد وصلوا دون هذا الاجتهاد.

بانت أسنان مُبشِّرنا البيضاء:

(إن صاحبنا الأمازيغي، أخبره بأن مقاولا من مقاولي هذه المدينة، هاتَفَه قبل ربع الساعة من رجوعنا ثانية للمقهى، هذا الأخير يبحث عن عمّال، لاستكمال بعض الأشغال المستعجلة، لحدوث طارئ، يجبره على الإنهاء قبل

الأوان.. وإن هذا الأخير بحسب مُحدّثي، قد يكفينا عناء البحث عن سيّارة تقلّنا لطاما، له تويوتا جديدة، نوع (هِليكَسْ)، فكّر النادل أولا في أمر هؤلاء ليْكامارادْ المستلقين على الكرتون في الرواق؛ لكن ضميره أنّبه.. بحكم دخولهم في الحال من سفر طويل ومتعب، مع علمه أنه لو أخبرهم بالنبأ.. لقاموا وسرّوا؛ لكنه لم يرتضِ لهم الشقاء مع العذاب!!).

نطق ساكو بمثل شعبي مشهور عند أهل مارسيليتنا:

(كلّ تأخيرة فيها خيرة..).

جاءنا النادل مثقل الذراعين، وزّع نصف خبزة للواحد، بيضتين مسلوقتين، كوبا بلاستيكيا آنيا للواحد.. مع حفنة من الملح المسحوق المخلوط بالفلفل الأسود، أمر أليْكسْ إدْريْسو، أن يقسّم الياغورتْ على الأكواب بالتّساوي.. التهمنا غداءنا بسرعة الجوع وخفّة العطش للدينار.

خلال فترة تناولنا، هاتف الأمازيغي الظريف صديقه المقاول، عرفنا ذلك بأمرين، الأول أننا سمعنا كلمة ليْكامارادْ تتردد كثيرا في حديثهما، الثاني نظرته إلينا وإشارته اللاّواعية نحونا خلال الحديث.

(3)

كنا داخل المقهى، عندما سمعنا صوت بوق السيّارة بالخارج، بلغنا صوت ينبعث منها (إيْديرْ.. إيْديرْ..) النادل الأمازيغي، كان منشغلاً مع آلة ضغط القهوة السريعة، سمعناه يقول، رداً على من ناداه وهو يقبض على مرفق الماكنة نحو الأسفل:

(أَزّولْ[46] أG أمَسْتانْ)[47].

بعدها صفّق إيدير بيديه تصفيقتين، أشار أن المقاول ينتظرنا بالخارج، خرجنا مهرولين بعد تسديدنا ثمن الغداء، إذا بنا أمام تويوتا (هيليكَسْ) نفعية جديدة، رباعية الدفع، بيضاء اللّون، يركب فيها شاب أربعيني، ملثّم بشاش أبيض ناصع، يلبس عباءة بازانْ (Gـــانيليا) بنفسجي، كذلك الذي يلبسه النبلاء وفقط عندنا بنيامي.. آثار النعمة بادية على محيّاه، أشار أن نصعد سطح العربة، لم ينتدب أحدا منا بالركوب معه في المقصورة!!

رفيقنا ألِيْكسْ وإن كان الأمر غير مقصود من المقاول.. رأيناه مرتبكا عند صعوده معنا لسطح عربة المركبة.. لعلّه ربما أحسّ بفقد الترقية الملازمة.. لكنه على كلّ حال، قبِل بالأمر منطقيا، حتى نحن تظاهرنا بعدم شعورنا بالحطّ من درجته.

انطلقت العروس البيضاء بشكل جنوني.. غير عابئة بالحفر والأحجار في الطريق غير المعبّد، حتى وصلنا ورشة للبناء في أطراف المدينة الشَّمالية، توقّفت هذه الأخيرة عند مدخل سيَاج الورشة، نُصبت أمامه لوحة بيضاء،

46- لفظ التحية في لهجة قبائل الأمازيغ بالجزائر.

47- اسم زعيم الطوارق، بمنطقة الهقار(تمنراست) بالجزائر، بقي رئيسا لقبيلة كل أهقار من 1905م إلى 1920م.

مكتوب عليها دلالات بالفرنسية مطموسة، لم أتبيّنها جيّدا بفعل الشمس الحارقة والأمطار.. لكن لا أبعد أن تكون؛ مشروع بناء مدرسة، اسم المقاولة، تاريخ بداية المشروع ونهايته، الهيئة المراقبة للأشغال، نبح كلب خلف بعض الألواح هناك.. نهره المقاول بكلمة معتادة، توارى الكلب بعدها عن الأسماع.

نزل المقاول أولا، رجل فارع الطول، عريض المنكبين، أخرج علبة سجائر (مالبورو) حمراء، استلّ منها سيجارة، أشعلها بولاّعة حمراء أيضا، أخذ نَفَسين متتابعين، أشار بنزول الكباش.. فعلنا بكلّ خضوع والله..

بعدها تقدّم قليلا نحو بيت حارس الورشة، بيت مؤقت، بُنِيَ بالطوب الإسمنتي مع الطين الأحمر، مغطّى بالزنك، نادى على من كان بداخله وهو يضع يده اليسرى على منتصف حزامه، كان لحظتها يمسك بين إصبعي السبابة والوسطى من يده اليمنى السيجارة، قال بمأمورية:

(كامارادْ..).

(كامارادْ..).

أقلّ من الدقيقة.. خرج شاب كامارادي من بني جلدتنا، ثلاثيني، قصير، قريب إلى الرّقة، تعرف مدى إذعانه، من أول نظرة.. كان لحظتها ينفض أصابعه من الماء ويمسحها بسرواله الأسود خلف فخذيه، قال بخنوع جمّ في الكلام والهيئة:

(مونْ باطرونْ..).

تكلّم معه كلام السيّد مع عبده.. كنا نسمع بعضا من كلامهما، كان كلاما خليطا، بعضه باللّهجة الإفريقية (الهَوْسا)، بعضه محشو بالطارقية، نثرت فيه بهارات من الفرنسية السوقية وتوابل من العربية الدارجة، أخيرا أظهر الحارس الكامارادي انحناء مع التبسّم، رجع للخلف بخطوة أمام باطرونه.

تقدّم نحونا الرفيق الكامارادي، سلّم علينا سلام الأفارقة الغرباء:

(مونْ باطرونْ.. عنده أشغال مستعجلة بالورشة، لهدم خرسانة داخلية من الإسمنت المسلّح، كانت لجنة المراقبة التقنية للبناء بمحافظة طاما، سجّلت عليها تحفّظات بالأمس، لكون الورشة مدرسة ابتدائية ورغم نفوذه وتوسطه بأحد النوّاب في البرلمان من أعيان طوارق "الأهـَـGــار"؛ لكن يبدو أن مهندس البناء، بحسب ما قال لي "إنه شاوي[48] مُفرعن!! توعّد ولي نعمتي، الانتقام منه بتحويله لمحافظة أخرى.."). يضيف المَأمور:

(المهم أنَّ الجرافة لا تستطيع الدخول لوجود الحيطان، كما أن المفتّت القَضْقاض، تعطّل هذا الصباح والمسافة بين هذا المكان وطاما، (400) كلم ذهابا ومثلها رجوعا، الوقت ليس في صالحه؛ لأنه يريد تفتيت الخرسانة بسرعة فائقة ومذهلة.. رجاء إعادة صبّها قبل يومين، كوننا على بعد أربعة أسابيع فقط من الدخول المدرسي ولا زالت الصباغة تنتظرنا.. ناهيك عن التهيئة العامة للساحة..).

سكت قليلا، نطق ثانية:

(مونْ باطرونْ وعد إن أنتم كشفتم عنه هذه الغُصّة، خلال هذه العشيّة مع ليلها، سينقلكم معه لطاما مجانا.. لن تخشوا نقاط المراقبة في الطريق، كلّ جنود نقاط التفتيش يعرفونه، لا يسألونه من معه كيفما كان.. أنا شخصيا، عشرات المرّات ذهبتُ معه لطاما ورجعنا لبعض الأغراض، في كثير من الأحيان، كان معنا جمع من العمال ليكامارادْ، لم يسأله أحد عن لوننا ولا جنسيتنا، لذلك هذه فرصتكم..).

أشار أليْكسْ، بوضع باطن أصابعه الأربعة المبسوطة ليده اليمنى على فمه.. كعلامة لعدم السؤال عن سعر العَرق، تبسّمنا وهززنا رؤوسنا بالرّضى.

48- نسبة لقبائل الشاوية بالأوراس في الجزائر.

ناولنا الحارس الكامارادي، أدوات التفتيت، مطارق من كلّ الأحجام والأثقال، فؤوس، مثاقب حديدية غليظة، هجمنا على الخرسانة نهرّسها بمطارقنا ونستعرض عليها عضلاتنا بفؤوسنا، طول هذه المذكورة فيما قدّرتُ لها، أكثر بقليل من عشرين مترا طولا، ارتفاعها ذراع، هو أمر ليس سهلا ولا هيّنا أبدا؛ لكننا نحن ليكامارادْ، هكذا خلقنا الله للأعمال الشاقة سيّدي المُخرج.. فقوّى بنيتنا وعرّق أوردة دمنا.

كان الوقت ساعة بداية تهشيمنا للخَرَسانة، بعيد الزوال قليلا، انطلقت حركة عارمة في أرجاء الصالة الواسعة، رجع الصدى لأصوات الحديد مع الخَرَسانة، هو صاحب السلطان، رائحة شرارة الحديد تعمر المكان، دَنْدَنة.. قَنْقَنة.. عرق متصبب.. رائحة الإبط مع الجسد.. الجميع يعمل ومنهمك. الكاميروني المثلي كان بجانبي لجهة اليمين، ضرباته مَلْطاء أيضا.. لو حاسبناه على جهده.. لكان له نصف الأجرة، ناجيتُ نفسي بما يعلّق ساكو دائما:

(الحاسد للنار..).

مرّت ساعتان ونحن على هذا الحال.. نكون قد أتينا على سدسها. لحظات ودخل علينا الصاغِر، يحمل في ذراعه الأيمن حزمة من الخبز الباريسي ويمسك بيده الشِّمال كيسا بلاستيكيا شفافا، فيه ثلاث علب دائرية من جبن (**La vache qui rit**)[49] وأربع علب مصبّرة من السردين، لم انتبه لعلامتها التجارية وثلاث قارورات سعة (2) لتر، عليها شريط أحمر بارز، يحمل علامة تجارية لشركة كوكاكولا.

دون أن يطلب منا هذا الأخير التوقّف، رمينا فؤوسنا ومطارقنا جنبا، هجومنا على الأكل، كان أشرس من هجومنا على الخَرَسانة.. هذه هي الصراحة سيّدي المُخرج.. حتى أيدينا لم نجد الوقت لغسلها- أستغفر الله- الزعيم الأكبر، الوحيد الذي شَطَفها.. وزّع علينا هذا الأخير أسهم قرون

49- البقرة الضحوك.

الخبر، إدْريْسو تكفّل بفتح علب السردين، إمانْوالْ انتُدب لتوزيع مثلثات الجبن، أمَرتُ أنا أن يتحلّق الرفاق في ثلاث حلقات، لكلّ حلقة قارورة مشروب؛ لأنَّ الكؤوس لم تكن موجودة، أوصى إدْريْسو بشجّ قرون الخبز، ليصب لكلّ واحد منا قطرات من زيت السردين.. موجة ضاحكة من حركة المضغ والقهقهة.. لنا دهر لم نأكل أكلا لذيذا كهذا، اللّهم إلا ما ذقته أنا شخصيا، عند عشيقتي ماليْنا وأمها جاكلينْ من وجبات باردة وفواكه طازجة.. أحسب هكذا حال الرفاق، على الأقل ممن نعرفه من أهل مجلسنا وG‍ـــمْكَلنا.. إذا ما استثنينا إدْريْسو في بعض أيامه.. الأمر بلا ريب يصدق على أهل طاوة منا، أما الكاماراديونْ الآخرون، فأغلب الظّن أنهم ذاقوا أفضل منه في أوقات رخائهم، قبل حروبهم الأهلية وهذا هو المؤكد.

لم تكن مدّة تناولنا طويلة، الوقت ليس في صالحنا.. ما قدّمه الباطرونْ لنا من غذاء، إنما لشحننا وتقوية بطارية همّتنا.. عرفنا هذا بأنفسنا دون تذكير من أحد.. نهضنا مجدّدا، أخذ كلّ منا مكانه، عاودت الحركة في أجواء الصالة من جديد، كرم المقاول الطارقي معنا، زادنا مُصافاة معه.. لا سيما بعد سماعنا خبر إمكانية نقلنا لطاما. مرّت ساعات من العمل الشّاق، بدأ ضوء الشمس من نوافذ الصالة يفتر، حتى عادت أماكن الطرق والتفتيت تغيب عنا.. بعدها بلحظات، جاء المُنقاد يحمل مصباحا كهربائيا، معه خيط كهربائي طويل يجرّه، علّق المصباح في سقف الصالة، ربط الدارة الكهربائية من الخارج، الصالة مضاءة الآن بشكل جيّد.

(إن المقاول أحضر له اللحم والدقيق، ليعدّ لنا عشاء دسما!! المهم أن نكسّر ما تبقّى من أجزاء الخَرَسانة..) قال لنا هذا الأخير قبل خروجه.

لم نكن بحاجة لمن يلقننا درسا في ردّ المَعروف.. ندرك جيّدا أن جميل نقلنا بالضّمان لطاما، دون مساءلة من الجنود، لا يبلغه حتى ذلك السردين والجبن والمشروب ولا حتى هذا العشاء الدسم.. الذي بشّرنا به ذلك المسكين.

مع نفسي:

(آه!! يا أمي سَلاماتو وأختي زيْنابو ويا رفاقي في "Gـــمْكَلي"، لو تعلمون!!) قلتُ.

الحديد المحشو في بطن الخَرَسانة، ظهر بشكل شبه كامل.. لم يبقَ منه سوى الصف الأرضي الأخير، الوقت يمر وتنصرم معه الأمنيات والتوق لمعانقة الحبيبة طاما الباريسية.. أخيرا ومع منتصف الليل، نكون أجهزنا على كامل تلك المذكورة، أقمنا همهمة وتهليلا عند الإنهاء داخل الصالة، البعض منا رقص وردّد زَبوره:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..) (Gـــايْ شيكا.. Gـــايْ شيكا..).

سمَعنا المُتضعضع، جاء مهرولاً، كانت أسنانه البيضاء، تدلّ على الرضى، نسيَ هذا المخلوق، أن رضى الباطرونْ هو الأهم لدينا. الجروح متفسّخة، الكدمات مظفّرة، لا تكاد تخلو منها أيادي الرّفاق.. لم نشعر بذلك أثناء العمل، كلّ شيء كان يهون أمام أحلامنا المسحوقة.. حتى تميمتي السحرية اشتكتْ الارتعاد، خفتُ عليها أن تُبلى والله!! فتضيع مني حلولي السحرية وقد نبّهكَ سيّدي.. عامل الفندق بداية بأساطيرها وما أتى وسوف يأتي من أخبارها.

أحضر ناطور الورشة الماء عند باب الصالة، غسلنا وجوهنا وأطرافنا هذه المرّة. مشينا خلفه حتى بلغنا بيت الحراسة عند مَدخل الورشة، بيت صغير مربّع تنفتح في جهة منه كوّة صغيرة، رُكن في زاوية منه معاول وأدوات البناء وحزمة أنابيب بلاستيكية سوداء ودِلاَء. الحصير البلاستيكي الأخضر مفروش، تتوسّطه صينية بلاستيكية، فيها كؤوس شفافة باهتة، إبريق شاي أحمر متّسخ. في الزاوية الأخرى هناك، قارورة غاز بيضاء منتصبة، بجانبها موقد غازي موصول بأنبوب أبيض رفيع، عليه قِدر يتصاعد منها بخار يعبق برائحة اللحم، سُمِّر بحائط البيت في الجهة المقابلة للباب، وتد عُلّقت به حقيبة مهترئة، ضائعة المغلاق، تتدلى منها ملابس قديمة متسخة، تراكم الغبار على ما تدلّى من أكمامها.

ارتشفنا شاينا، تناولنا عشاءنا الدسم.. لست مبالغا، إن قلتُ (هذا أحسن عشاء أكلته في حياتي) سيّدي المُخرج.. على الأقل أحكم على نفسي، ما يضيرني بهذه المصارحة، الحقيقة هي الحقيقة.. رنّ هاتف الحارس، التفتَ إلى جيبه، أخرجه في جوقة الرنين.. هذا الأخير صغير من الجيل الأول (L.G)، لونه أسود، دون أن ينظر لشاشته ويعرف الرقم وصاحبه، في ارتعاد ظاهر:

(ألو.. مونْ باطرونْ..).

حديثهما بنفس الشاكلة التي تحدّثنا بها بداية، أكمل هذا الأخير المكالمة مع ولي نعمته، قال لنا بعدها:

(الباطرونْ يشكركم على إنجاز المَهمة، عليكم أن تستيقظوا باكرا، فسيأتي لكم في الساعة الخامسة صباحا، ليقلّكم معه لطاما؛ لأن لديه موعدا مع مدير البناء بمقر محافظة طاما، في الساعة الثانية والنصف زوالا..).

لفتَ انتباهي وجود الهاتف النقّال عند الحارس، سألته في فضول هادئ:

(قُلْ لي يا رفيقي.. بكم اشتريتَ شريحة الهاتف النقّال في طاما؟).

تبسّم قليلا حتى ظهرت أسنانه الأمامية، اغتالها ببهتة فيها حشمة، قال لي وهو يدعك أرنبة أنفه الفطساء:

(اشتراها لي الباطرونْ مع النقّال، ليسهل له التواصل والاستخبار، عن سير أمور ورشته من طاما، لا أعلم من أمرها، سوى الضغط على زر الفتح والغلق..).

خطف الكلمة ساكو ونطق بأعجوبة مستحضرا الشاهد:

(وكفى الله المؤمنين القتال..).

ضحكتُ حتى أُصبتُ بالإهْزاق والله.. خاطبتُ نفسي وأذعتُ للجماعة:

(لستِ وحدكِ يا سَلاماتو، من لا تحسنين أمر النقّال.. ولا أنتِ كذلك يا أختي زيْنابو وإن كان العذر معكما أقوى وأشهد.. لانطماس مكتوب ورموز تلك الأزرار..).

لم نغسل أيدينا من الدّسم، ليس لعدم وجود الماء، لا أبدا.. بل تعمّدنا ذلك قصدا!! كنا نتمنى أن تنام معنا رائحة اللحم.. المفيد من القول خرجنا للعراء خلف البيت، اخترنا مكانا مرمّلا، انتشرنا فيه كشواهد القبور في جبّانات الصحراء، توسّدنا حقائبنا، قوّى فضولي في أمر الكاميرونيينِ، ابتعادهما الليلة كذلك، لم نمكث مدّة طويلة، باغتنا النوم بضراوة، نظرا للإرهاق، الذي قِلنا وليّلنا فيه مع الكتلة الإسمنتية الصَّلدة.

أحسستُ بهزّة خفيفة برجلي من طرف أحد الرفاق، أفقتُ مهووسا، الظلام لا زال يخيّم على الأفق، صوت الأذان للصلاة، يكسّر سكون مدينة عينْ قَزامْ، عفوا مرسيليا.. شعاع ضوء السيّارة من البعيد يتقدّم نحونا، عرفنا أنه المقاول، حمل كلّ منا حقيبته وتكتّف جالون الماء، توقّفت هذه الأخيرة، المحرّك يدور، الباطرونْ لم ينزل من سيارته.

الطريف والمدهش في الموقف هنا، أن المقاول نادى على أَلَيْكسْ، بأن يركب بجنبه في المقصورة هذه المرّة.. من قال له إنه زعيمنا؟ كيف تفرّس فيه كاريزما القيادة؟ حتى يؤثره علينا.. لا أحد استطاع فهم الموقف.. مفارقات كثيرة وقعت لـنا مع رفيقنا أَلَيْكسْ في الطريق، كنا في كلّ مرّة نزداد إيمانا، بأحقيته للزعامة، كان ذلك يبهجنا ويسرّنا، لم يكن فينا حاسدٌ له، كان ساكو يقول لنا دائما:

(لا بدّ للغنم من راعٍ..).

قفزنا لسطح عربة المركبة بسهولة، تراصفنا فيها كسردين المصبرات، انطلقت بنا هذه الأخيرة، غير آبهة بالحفر والأحجار، التي توجد بالطريق الفرعي غير المعبّد، من بعيد رأينا الأضواء تشتعل في مقهى إيدير الأمازيغي.. سلّمتُ عليه في قلبي.. دخلنا الطريق المعبّد رقم (01) قُطريا عندهم بالجزائر، حسب القوس الإسمنتي الأحمر على حافة الطريق، آخر ما شهدناه من هذه البلدة الطيّبة، مع عتمة الفجر، هو ذلك الطابور من

سيارات الدفع الرباعي، التي كانت تصطف بمحطّة البنزين، عند المَخرج الشّمالي لمارسيليتنا!!

الظلام لا يزال حالكا بعض الشيء؛ لكنه بدأ يحتبس بفعل ضوء الصبح، سرنا ما يقارب الخمسين كيلومترا أو دونها قليلا، الصبح اكتمل، التضاريس بدأت في التغيّر، شجيرات يتيمات متناثرة هنا وهناك.. أعشاب نبات الدّيس هي الأخرى، بدأت تفرح بها الأرض في هذه الفضاءات.

توقّفنا عند مقهى استراحة بالطريق، قيل لنا بعد نزولنا، إنه لشخص يدعى (مولاي القايَمْ) قِرب الماء معلّقة هناك في معالق، تشكّلت تحتها خرائط من التراب البُلال، تدور عليها إحاطة بالجريد، كراسي وطاولات حديدية متناثرة.. شاحنات محمّلة بأغنام (أسيداونْ)[50] ثلاث سيارات تويوتا أفْ جي 45، معلّقة في كلّ واحدة منها قِربة. نزل المقاول، طلب لنا قهوة بالحليب وقطعة خبز، مع بيضة مسلوقة لكلّ واحد منا، سَاكو ورفيق من ثلاثة أهل طاوة، عاودا طلبهما للشاي. شكر ألَيْكسْ المقاول شكر المجاملة نيابة عنا، على كرمه الزائد معنا، ركبنا السيارة وانطلقنا.

ما زال الحال في الطريق.. نتجاوز شاحنات مختلفة الأحجام، سيّارات تويوتا ستَيْشَنْ تتجاوزنا بسرعة جنونية في الاتّجاه المعاكس، شاحنات أخرى تمشي ببطء في نفس الاتّجاه الأخير، قال لنا أهل طاوة (إنها تنقل التمر التوّاتي لمدينتهم، المشهورة ببيع التمور..). النهار يزداد اتساعا مع سيرنا، الجبال بدأت تتكاثر بشكل سريع.. كلما اقتربنا نحو طاما، لون الأرض هو الآخر أصبح يميل للون الحمادة، الرمال بدأت تختفي ويحلّ محلّها الحيف.

الوقت ساعتها قبيل منتصف النهار، عندما وصلنا نقطة تفتيش للجنود، كتب على يافطة بقربها (نقطة "أمْسَلْ" على بعد (30) كلم من تَمَنْراسَتْ) تمهّل المقاول، كان الجنود يجلسون في حاوية تشبه حاوية البواخر.. تقدّم

50- سلالة أغنام إفريقية.

واحد منهم نحو الطريق، أشار الجندي للمقاول بالمرور، يعرفهم ويعرفونه، هو دائم المرور.. بحكم أشغال ورشته بـمرسيليا.. وسكنه بباريسْ.. إن لم أقل كرمه معهم في إهدائهم خراطيش المالبورو وإن كنت لا أجزم بهذا قطعا سيّدي المُخرج.. لكن المؤكد عندي أن هناك مودّة ما بينهم!! سَرتْ بهجة عارمة في أوصالنا ونحن نبتعد عن الجنود، الجوّ تغيّر وبدأ يميل للبرودة قليلا.

الجبال هي الأخرى بدأت تشهق أكثر، قال لي إدْريْسو لحظتها ونحن نجتازها، إنها جبال (الهُـGـار) المُنيفة.. التي تحدّث لي عنها إبْراهيما بـ(واGــا)، دعك الرفيق قرن رأسه كالعادة، كأنه كان ناسيا أمرا فتذكّر.. (إبْراهيما موجود هنا بطاما، فور نزولنا وأخذنا لشريحة الهاتف، سنتصل به) بينما نحن في هذا الحديث.. كانت سيارة تويوتا (هليْكَسْ) المقاول، تدخل بنا المَدخل الجنوبي لمحافظة باريسْ ليكامارادْ المحروسة، أبقاها الله لنا ذخرا وفخرا سيّدي المُخرج..

تَمْرَاسَتْ

(باريس ليكامارادْ)

(1)

منتصف نهار الخامس من شهر أوت، لعلّه الأحد.. دخلنا الأطراف الجنوبية لمدينة (طاما)، ههههه عفوا.. باريس ليكامارادْ كما يحلو لي دائما أن أصفها.. بعد رحلة مُقرفة، دامت خمسة عشر يوما بالتمام والكمال، رأينا فيها أشياء.. تشبه تلك التي يقولون عنها؛ أهوال القيامة!! المدينة في بدايتها، تبدو كما لو أنها عشوائية وقصديرية، هذا هو المُحقّق بلا مبالغة.. الجوّ مستلطف نوعا ما، بيوت طينية وزنكية متناثرة هنا وهناك، الماعز كالقوافل على الطريق.. الطوارق رجال ونساء وأطفال، إخواننا ليكامارادْ، نساء وشيوخ من أهل زَنْدَرْ ومعهم أطفال يتسوّلون في الشوارع بطاساتهم، أُناس سود مثلنا من أهل البلدة، قوم آخرون بيض مُشربون بسمرة، القمامة وحتى لا أنساها، موجودة هي الأخرى، ما يمكنني الوصول إليه ونحن نعبر شوارع المدينة ونزداد توغلا نحو وسطها، إن طاما هي تجمّع لمجتمعات إثنية مختلفة، إفريقية زنجية، طارقية، تفاصيل المكان تشبه (Gـــمْكَلي) ونيامي وكل بلاد الله بإفريقيا، في نفسي:

(معكَ حقّ يا إيدير الأمازيغي، هنا لا نبدو غرباء..).

نكون قد قطعنا بالتقريب مسافة (2158) كلم من ديارنا (نيامي) عندما أفرغنا المقاول بوسط مدينة طاما، أعطى لكلّ واحد منا (2000 دج) نظير عَرقه.. ورقتين حمراوين من فئة (1000 دج)، كان كريما معنا في كلّ شيء وكنا عند حسن ظنه أيضا.. (هكذا هي الحياة، تبادل منفعة..) قلتُ لـرفيقي إدْرِيْسو، ودّعنا بتحية يده، رددنا عليه التحية شاكرين له معروفه، فرحتُ بالمبلغ المقبوض، اقترب مني مسّ الرقص.. والله سيّدي المُخرج..

(ها نحن في باريسْ ليكامارادْ يا رفاق.. حلم كلّ إفريقي كامارادي مهاجر..) قال لنا أليْكسْ.

أضاف:

(ليس مخطئا من سمّى "طاما" محافظة الخمسين جنسية..).

لا تبدو كامارادیا غريبا هنا.. كما لا تخشى على نفسكَ من أي شيء، كأنكَ في باماكو، نيامي، (واGــادوGــو)، أبيدجان أو غيرها من بلدان ليكامارادْ جنوب الصحراء.

الحركة صاخبة مع الغبار، الجوّ بارد نسبيا مقارنة مع صحاري الجنوب، أضاف أليْكسْ لمعلوماتنا:

(إنَّ سبب برودتها، كونها مرتفعة عن سطح البحر بحوالي "1200م"..).

والعهدة على الرّواي سيّدي المُخرج..

اللّون الأحمر الطيني يغلب على واجهة البنايات، سيارات الدفع الرباعي، سيّدة المَقام هنا بلا ضرّة.. فيها القديم والمتهالك وآخر طراز، الدرّاجات النّارية متكاثرة بشكل كبير جدّا، حتى لتكاد تختلط بأرجل المارّة، الملثّمون بعباءاتهم يضفون على سواد البشر هنا حُسنا ظاهرا، نساء الطوارق العامرات الملحفات، يزدن زينة وبهجة للنساء الإفريقيات الباهتات.. اللائي يضعن خلف ظهورهن أولادهن الرُضّع في مربط (رِنّي). روائح شواء المايْناما، في كلّ مكان كذلك.. تذكّرتنا- نحن الثلاثة- جمر كانون فَضَا، لا سيما إدْريْسو ومايْناماه بالسوق الكبيرة بنيامي، القمامة مستشرية في كلّ مكان، كأن بيننا وبينها نحن ليْكامارادْ قصة عشق أبدية سيّدي المُخرج..

عشاء الأمس بالرغم من دسمه غير المعتاد للرفاق، أغلبه ضاع واحترق عبر ألياف عضلاتنا في تكسير الخَرَسانة.. أمعاؤنا تشكو الجوع، انعطفنا نحو أحد الشوارع الكبرى، سرنا على عدد محدود من المطاعم، التي تظهر أنها لا تليق بنا أو لا نليق بها.. حتى وجدنا مطعما شعبيا، تنبّهت حاسة شمّنا لرائحة المايْناما، بناؤه بسيط ومتواضع، أمام مَدخله جهة اليمين دلو بلاستيكي أحمر، منصوف بالماء، يكاد يكون هذا الأخير شبه متسخ.. تظهر فيه صحون وملاعق.

بجانب الباب من جهة الشِّمال برميل حديدي قديم مقطوع عند ثلثه، في جوفه جمر، عليه شباك حديدي، وضعت عليه قطعة لحم، يفور منها دخَان كثيف، عبثت رائحته بأنوفنا وعاقبتنا أمعاؤنا عليه!! ليس به طاولات أو كراسيّ، إنما حاضنات كرتونية فارغة للبيض، مرصوصة على بعضها، حتى كأنها دَكّة.

ألَيْكسْ لإدْرِيْسو، دون أن يستشير أحدا منا:

(هذا يصلح بنا وبحالنا..).

هزّ إدْرِيْسو رأسه لألَيْكسْ وبثقة ردّ:

(هذه حرفتي يا رفيقي..).

استغربتُ محاورا إدرِيْسو:

(كيف يصلح بنا يا ابن موطاري ولحم المايْناما غالٍ؟؟ أهي الحرفة أدركتكَ وأنستكَ جيوب الرفاق؟؟).

التفتَ إليّ ألَيْكسْ، الذي يكون قد وضع قدمه اليمنى على عتبة المطعم، قال بعد أنِ استدار في تلك الوقفة:

(لقد خبَرتُ أحوال المعيشة في باريس، خلال رحلتي الخائبة.. ألمْ ترَ أني أجبتُ إيدير الأمازيغي صاحب المقهى، لما أبلغني ضرورة أخذ الاحتياط فيما بعد باريسْ شَمالا؟ قلتُ له إن الأمر له تدبير!!).

(حقا..) قلتُ.

دخلنا المطعم وهو يردّد:

(هناك حكايات وغرائب، ستراها في هذه البلدة يا رفيقي!!).

من غريب الصدف أننا وجدنا هذا المطعم، لأحد الرفاق من طائفة (لـيكاماراذْ) المقيمين بالمدينة، شاب ثلاثيني، يلبس تبانا عند الركبة أو قُل عنه سروالا.. له قميص رياضي أصفر، به ألوان فريق مالي لكرة القدم، قصير القامة، مدقوق، انتعاله بالبلاستيك.. كان ظاهرا من ألوان قميصه

وفرنكفونيته، أنه مالياني، أخبرنا إن اسمه (أدْيارا) جاء إلى هنا من باماكو منذ عامين، عن طريق معبر (تيمْياوينْ) الحدودية.

جلسنا على الدَكّات الكرتونية، بقيَ منا ثلاثة رفاق بلا مقاعد.. ليس هناك خيار في الوجبات، صحن بلاستيكي صغير، نُثرت فيه ثلاث أو أربع قطع من لحم المايْناما، المهم أنها لا تصل الخمسة، وضع بجانبها قدر قليل من البهارات الإفريقية الصفراء والبرتقالية وشرائح البصل، بالإضافة لنصف خبزة للواحد، المنتصبون من الرفاق التهموا الأكل وقوفا، عبأنا ما تبقّى في بطوننا من فراغ بالماء، أنهينا غداءنا بسرعة مفرطة، طلب منه ألَيْكسْ بالفرنسية تسعيرة الوجبة، صوّتَ له بالحرف والعدد:

Deux cents dinars (200 دج).

طلب ألَيْكسْ من كلّ واحد منا المبلغ المطلوب، البعض من الرفاق ارتبكَ.. إذ لم يكونوا قد تعوّدوا أو عرفوا صرف الدينار الجزائري، لعلّهم معذورون، بصراحة سيّدي مولى الصورة.. كنتُ واحدا منهم. بعضهم أعطاه ورقة ألف دينار، الحلّ.. أن تفرج عمّا في يدكَ، يأخذ منه الرفيق المراد وكان هذا هو الخلاص.

قبل خروجنا، انزوى ألَيْكسْ مع أدْيارا غير بعيد عنا، سأله عن أماكن تواجد ليكامارادْ وإقامتهم، سمعته يقول له (البعض يسكن في "تَــGــقَّارتْ الشّومارة"، البعض الآخر في "مقطعْ الوادْ" و"سَرْسوفْ الفيرايْ"، البقية في "الرّوشي" وجبيلة "الشَّاطو") كما استدركَ معه (أن معظم الوافدين الجدد، الذين لم تكن إقامتهم أقلّ من العام، يقطنون بأكواخ عشوائية، بنوها وسكنوها في أطراف المدينة وأن لكلّ دولة مخيمها ورئيسها وولي أمرها..) بعدها سأله عن مكان بيع شرائح الهاتف النقّال، أبلغه بوجودها، في أقرب محل مكتوب على يافطته (**Taxi phone**)، شكره وكما يودّع الرفاق عاملناه.

كان همّي الوحيد، بعد إطفاء جذوة الجوع، الحصول على شريحة هاتفية ومهاتفة أمي سَلاماتو وأختي زيْنابو أولاً.. كما أن إدْريْسو أخاله هو الآخر مستعجل للأمر مع أمه خديْجاتو وصديقه إبْراهيما (السنِـGــالي)، الذي كتب له رقمه في رسالة فيسبوكية ذات مساء ومن المفترض أن يكون هنا وقس على ذلك ساكو مع أهله وجميع ليكامارادْ.

تذكّرنا خلال انعطافنا عند مقدّمة الشارع قبل عثورنا على المطعم، وجود محل لجهة الشِّمال مكتوب عليه (Phone)، مشينا إليه دون أن نسأل أحداً، المحل بابه الخارجي الحديدي مفتوح، مغلوق بباب زجاجي شفّاف، وُضعت خلف الباب الزجاجي لجهة الولوج، ورقة ملصقة، مكتوب عليها (Ouvert)[51]، أدار أليْكسْ مقبض القفل، فتح الباب، المحل بارد ومنعش.. عُلّقت في جوانبه الأربعة، هواتف نقّالة من كلّ الأنواع والأحجام، يخلد خلف خزانة قصيرة من الألمنيوم، شاب أبيض، بياضه بَهُتَ في سمرة مفتوحة، وسيم، معتدل في كلّ شيء، يلبس عباءة بزان جديدة تحدث خَشْخَشَة.. غير ملثّم، لا يضع شيئاً على رأسه، سلّمنا عليه، ردّ التحية بأحسن منها.

سأله أليْكسْ بفرنسية عادية عن الشرائح، ظهر أنه لا يتقن الفرنسية، نزّل أليْكسْ سقف اللّغة، أخلطها بكلمات من لهجة العرب والطوارق وعدد لا متناهٍ من الإشارات اليدوية.. أخيراً فهم الشاب المقصود، قال له بإشارات يدوية وكلمات فرنسية غاية في البساطة:

(هناك ثلاث شركات للهاتف هنا بالجزائر ولكم الاختيار:

الأولى: شركة موبيْليسْ (Mobilis) رمزها (06).

الثانية: شركة جيزي (Djezzy) رمزها (07).

الثالثة: شركة نجمة (Ndjma) رمزها (05)).

51- مفتوح.

كما ذكّره أن أغلب المشتركين هنا، من مستعملي موبيْليسْ، لذلك من الأحسن لنا وفي ذلك شفقة علينا وعلى جيوبنا الباكية من حدّة سكاكين أهل لَفْرودْ[52]، أن نقتنيَ شريحة هذه الشركة الأخيرة.. عندها تذكّر إدْريْسو رقم إبْراهيما، قال لي (إنه فعلاً يبدأ بـ"06")، عَرّض إدْريْسو لألْيكْسْ بقطب عينه اليمنى، أن يُبقي الاختيار على ما أشار إليه صاحب المَحل.. قبل تقديم الشرائح، طلب منا تصوير جوازاتنا بناسخة لديه، التفتنا إلى بعضنا!!

أشار ألْيكسْ، أنَّ الأمر لا يعدو إجراء طبيعيا، لا يدعو للقلق من المطاردات الأمنية.. كوننا رعايا أجانب في بلد أجنبي، لا ندخله إلا بالتأشيرة.. أعطيناه جوازاتنا بغرض التصوير، صوّر الصفحة المشتملة على المعلومات، بآلة تصوير بيضاء عنده ماركة (TOSHIBA). أما جورجْ الليبيري وباسيلْ السيراليوني وإمانْوالْ (الإيـVـواري)، بحكم أنهم فقدوا أهاليهم في الحروب الأهلية وأصبحوا كمن قُطع من شجرة.. لم نكلّفهم عبئا آخر في شراء الشرائح، فما حاجتهم إلى زيادة أعباء أخرى تثقل كواهلهم المثخنة أصلا بالجراح؟ تريد الحقيقة سيّدي.. هؤلاء الثلاثة لم تكن لهم هواتف حتّى والله!!

ألْيكسْ وإدْريْسو وأنا والكاميروني المثلي وثلاثة آخرون من (الإيـVـــواريين)، قمنا بتثبيت الشرائح لوحدنا، أعطى البقية هواتفهم، بمن فيهم ساكو وأهل طاوة وبقية الرفاق، لصاحب المحل لكي يثبّت لهم الشرائح ويشغّلها. لقد تركَ فيّ عدم معرفة تثبيت الشريحة بشركة (ORANGE) بنيامي حرقة.. ما جعلني أتفرّس في فهمها.. نظرا لسرعة فضولي للأشياء، بعدها ظهر للجميع أن الهواتف جائعة هي الأخرى، لم أتمالك نفسي من الضحك سيّدي.. وهكذا جميع الرفاق، تبعنا صاحب المحل في الضحك بلا مقاومة.. لما فهم الأمر!!

52- التهريب.

التاجر الوسيم يقول:

(إنَّ الحلَّ الوحيد إن كنا مستعجلين على الاتصال، أن نشحن عنده أربعة هواتف، لوجود أربع توصيلات فقط بالمحل وذلك لمدّة نصف الساعة.. وهي فرصة للراحة بأحد المقاهي القريبة..).

استحسنا رأيه، أعطيته هاتفي، الشيء نفسه بالنسبة لإدْريْسو وأليْكسْ وواحد من أهل طاوة، اختلط عليّ اسمه؛ لكني متأكد بأن نهاية اسمه تُنهى بـ(ـــو). شاحن ساكو معطّل.. أطعم له التاجر نقّاله بشاحنه الشخصي.. أخيرا تناقش مع أليْكسْ بخصوص السعر، طلب منه (**400** دج) للشريحة مع التعبئة.

خرجنا نتلهّى في الشوارع القريبة من المحل، الوقت ساعتها الظّهر، الجوّ في الخارج معتدل نوعاً ما، مقارنة بصهد البراري الجنوبية القاتلة، التي نجونا من حرقتها بقدرة قادر.. الحركة العامة فاترة بعض الشيء بالمدينة، انزوينا إلى مقهى متواضع على الرصيف الآخر من الشارع الخلفي، تنبعث منه موسيقى صاخبة، عرفتُ فيما بعد، أنها موسيقى (الرّاي).

حشرنا أجسادنا داخل المقهى، تكوّمنا على كراسيه، كانت فيه لوحتان معلقتان، واحدة فوق ضاغطة القهوة السريعة، بها إطار ذهبي، تُظهر اللّوحة صورة طارقي على جمل وسط الصحراء.. الثانية في الجهة المقابلة، لشاب أربعيني وسيم ضحوك.. كُتب تحتها بالفرنسية (**Cheb Khaled**)، صاحب المقهى كان خمسينيا، أشقر كإيدير؛ لكنه مشرب بحُمرة قليلا، يضع قبعة سوداء على رأسه، قذف فينا عينيه كالرصاص.. ظنا منه أننا سنشغل الكراسي دون طلب.

نهض أليْكسْ، تحدّث معه بفرنسية عادية، تجاوب معه صاحب المقهى بكلّ أريحية، طلب لنا زعيمنا مشروبا باردا، أتانا النادل بقارورات عصير

برتقالي صغيرة، مكتوب عليها (Jus Ngaoues)[53]، الموسيقى كانت خفيفة، إيقاعها عجيب، ما سمعته من كلماتها العربية الدارجة ولم أفهمها في حينها:

(المستقبلْ مسدودْ..

ما أبقى فـَ الدُّوقْ حتى بَنَّة..

الحوتْ ولا الدودْ..).

أخرج أليْكسْ من جيبه علبة سجائر مالبورو حمراء، شبه فارغة أو هكذا كانت تبدو.. قال لي إن المقاول الذي أقلّنا وركب معه بالمقصورة، أعطاه إياها، كانت مثقوبة ثقبة جانبية في أعلاها، لم أتحقق سيّدي المُخرج.. أهي لجهة اليمين أم الشِّمال؟ أدخل إصبع سبابته اليمنى فيها، فتّش زواياها، في النهاية عثر فيها على ثلاث سجائر، تناول واحدة، أعطاني الثانية، الثالثة لإدْريْسو، كأن الله حسبها لنا.. ساكو لم يكن مدخّنا طبعا، طلب من صاحب المقهى عود ثقاب، أعطاه ولاّعة صفراء، أشعل سيجارته وأعطانيها، أشعلت بدوري سيجارتي وناولتُها إدْريْسو.

لست أدري لماذا أصبحتُ أتقدّم في الترتيب على إدْريْسو، في أخذ السيجارة من أليْكسْ، الذي قدّم لي الولاّعة قبل إدْريْسو؟ مع أن هذا الأمر لم يحدث طوال الرحلة.. حتى إدْريْسو لم يقل شيئا.. المهم لم أشغل نفسي كثيراً بهذه التفاهات، تركتُ الأمر للصدفة وعدم الاكتراث.. أخذتُ نَفَسا أوليا للاشتعال، أتبعته بأنفاس قوية، برّدت بها حرقة حنيني لأمي وأختي.. أصبحتُ لا أطيق الانتظار.. لستُ أدري، انتابني في هذه اللّحظة، شعور سلطوي داخلي.. أُحسّه كحمل ثقيل على كتفي.. حتى بقرتنا بَكْتو التي ركبتُ بذمّتها إلى هذا المُقام، أيقظت فيّ جلد الذات.. ازداد توتري ومعه أنفاس دخّاني.

53- عصير نـGـاوس.

نبّهنا ساكو أن مهلة نصف الساعة، التي أعطاها لنا بائع الهواتف، قد كمُلت أو تجاوزت بقليل.. أشار أليْكسْ بيده لصاحب المقهى، كان يغسل الأكواب الزجاجية في المغسل، نشّف يديه، وقف عندنا، سأله القائد عن الثمن، بلا زيادة أو تبديل:

cinquante dinars (**50 دج**) قال له.

ارتبك القوم كذلك.. أما أنا فقد بتُّ أفقه التصريف، استدعيتُ في ذاكرتي سعر الغداء، قسّمته على أربعة، البعض من القوم بمن فيهم إدْريْسو وساكو والمثلي الكاميروني، فهموا اللّعبة كذلك.. أعطوا لأليْكسْ الثمن بلا معاونة.. ربما الأمر بقيَ مستغلقا على الباقين؛ لكنهم مع مرور الوقت، سيفهمون، مسألة وقت فقط.

خرجنا مسرعين، عبرنا الشارع، حتى بلغنا المحل، سلّمنا الشاب الظريف هواتفنا، قبل وداعه، طلب ساكو شاحنا كهربائيا جديدا، لكون شاحنه تعطّل كما قلنا.. قال له صاحب المحل (هناك نوعان من الشواحن، الأول صيني مقلّد، ثمنه رخيص "**200** دج"، الثاني دوريجيني أصيل، ثمنه "**600**" دج) حتى لو قلتُ لكَ سيّدي المُخرج.. إن ساكو اختار الثمن الأخير، فلن تصدّق من فرط ما ذكرتُ لكَ آنفا من تقشّفه.. بالفعل اختار الأول.. شكرناه على إكرام هواتفنا، ودّعناه وداع المجاملة.

الساعة تكون الرابعة والنصف، خرجنا، توقّفنا عند نهاية الشارع المنفتح على الساحة العامة، اختلى كلّ واحد منا بهاتفه، أخرجتُ من حقيبتي، تلك الورقة المربعة، التي أعطانيها موظف شركة (**Orange**) بنيامي.. منذ تلك اللّحظة طويتها واحتفظت بها، هذه أول مرة أفتحها، لم يأخذني الفضول من قبل، رغم ادعائي المزعوم بالتطفّل.. وجدتُ مكتوبا فيها الرقم (**9041....**)، لم أكن غبيا ولا في حاجة لمن يشرح لي ضرورة إضافة الترقيم الدولي لبلدنا (**00227**) فعلتُ ذلك بكلّ ثقة، ربما إدْريْسو لم يكن مطمئنا

على ساكو في معرفة هذا الصنيع!! ضغطتُ على الأزرار الباهتة، (ثَنْ.. ثَنْ.. ثَنْ..) سجّلت الرقم كاملا مع ما يلزم من إضافة وحذف فيه.

(الهاتف مغلق أو خارج مجال التغطية) هكذا ردّت عليّ مجيبة الاستعلامات، ذات الصوت الرنّان!! شركات الاتصالات يتخيّرون أصوات هؤلاء الموظفات المستقبلات الجميلات بإتقان.. أعدتُ المحاولة ثانية، ثالثة، رابعة.. كان الرّد كسابقيه.. ازداد توتري.. التفتُّ لإدْريْسو، المخلوق غارق في بحر من البكاء مع أمه خديْجاتو، ساكو من هناك، مع أخيه المعاق في نحيب ليس له نظير، رفيقنا من أهل طاوة، كان طالعه منحوسا مثلي، عاود المحاولات مرات دون جدوى.

أمران جعلاني أتريّث وأنتظر إدْريْسو حتى يكمل مكالمته وبالتالي أسجن إبليس والوسواس في زنزانة إلى حين:

الأول: معرفتي بوحدة أمه وأنه كبدها الوحيد.. لذلك تركتهما يفرغان قربهما من الدموع..

الثاني: سماعي في درج كلامه، للرد عن سؤال أمه عن أحوال الرفاق وسؤاله عن صديقتها سَلاماتو وابنتها زيْنابو وقوله بعد سماع ما سمع منها:

(الحمد لله..).

واسيتُ نفسي:

(قول "الحمد لله" يدعو للاطمئنان على أية حال..).

أكمل إدْريْسو مكالمته في حدود خمس دقائق أو أكثر، لعلّه ادَّخر قليلا من التعبئة للتواصل مع إبْراهيما، اقترب كلّ منا للآخر، كنتُ متلهفا لمعرفة أخبار أمي وأختي و(Gـــمْكَلي) والرفيقين عُسْمانو وغاريْكو ومجلسنا فَضَا.

قبل أن أسأله:

(يبدو أنَّكَ وجدتَ هاتف أمكَ مغلقا، لا تقلق.. أخبرتني أمي أنها بكل خير وأن أمي قد دبّرت لأختكَ زيْنابو، عملاً كشغالة ومنظّفة عند إحدى العائلات الميسورة بحي (يانْطالا) الثري بنيامي، كما أبلغتُ والدتي، أن

تطمئن أمكَ وأن تشحن لها الهاتف ببيتنا وستتصل بها من الغد، فلِمَ القلق يا دودو؟) قال لي.

تطمينات إدْريْسو هدّأتْ من روعي.. أعادتني إلى رشدي شيئا فشيئا، منحتني الاستمتاع بوجودي في هذه المدينة الباريسية الجميلة.. التي يحلم كلّ شاب كامارادي أن يتواجد بها.

عجّلتُ إدْريْسو لأن يتصل بإبْراهيما، الوقت يمرّ، ليس من مصلحتنا التأخر أكثر، بحث إدْريْسو في قائمة أصدقائه بالهاتف الجديد، هذا الأخير، نسخ فيه كلّ الأرقام السابقة من هاتفه العتيق، الذي أعطاه لأمه، أخيرا عثر على رقم إبْراهيما.

اتّصلَ برقمه كما كتبه له برسالة الفيسبوك.

ثَنْ.. ثَنْ.. ثَنْ.. (......0663).

انتظر مدّة..

(ألو.. إبْراهيما.. أهلا صديقي.. أنا إدْريْسو.. كيف حالك..).

إدْريْسو يستمع لمحدّثه..

إدْريْسو في توتر:

(وما العمل ما دمتَ أنتَ الآن بغَرْداية؟؟).

إدْريْسو يصغي لمحدّثه.

(أوكي.. طيب.. دعني أكتب رقم صديقك المالياني (كايْطا) الموجود بـمكان تجمّع ليكامَرادْ المُسمى الشَّاطو نواحي مقطع الوادْ هنا، انتظر لحظة إبْراهيما..).

أشار إليّ إدْريْسو بيده متعجّلاً:

(تعالَ.. أخرج هاتفكَ واكتبْ هذا الرقم الذي أمليه عليكَ..).

(ألو.. إبْراهيما.. نعم.. املِ عليّ الرقم..).

إدْريْسو يملي عليّ الأرقام وأنا أكتب على شاشة هاتفي..

ثَنْ.. ثَنْ.. ثَنْ.. (......0665).

أشار ساكو إليّ، أن أنبّه إدْريْسو، ليكلّم إبْراهيما حتى يخبر كايْطا بقدومنا، قبل غلقه للمكالمة، حتى نجد هذا الأخير، على خلفية واستعداد لاستقبالنا.

في نفسي وأنا أنقل الاستدراك لإدْريْسو:

(يا لك من ماكر يا ساكو..) قلتُ.

استدركَ إدْريْسو مع إبْراهيما الكلام:

(أكِّدْ يا إبْراهيما الخبر في الحال مع كايْطا من فضلك الآن، لا تتأخر.. أرجوكَ..).

(أوكي.. شكرا رفيقي..).

أنهى إدْريْسو مكالمته مع إبْراهيما، دون أن نسأله أنا وساكو:

(إبْراهيما كان يعمل هنا قبل أيام ولما وجده المقاول الشّعَانْبي[54]، الذي كان يشتغل عنده بورشة حفر خنادق الصرف الصّحي، عاملا مقتدرا وأمينا.. اصطفاه وأخذه معه لمحافظة "غَرْدايَة" رفقة رفاق آخرين، لإنجاز أشغال أخرى عنده بورشة هنالك.. وقد أعطاني إبْراهيما، رقم أحد أصدقائه الماليين كايْطا، الموجود بحي الشَّاطو من نواحي جهة مقطع الوادْ، على كلّ نحن لم نخسر شيئاً، إبْراهيما عمل الواجب وطمأنني بأنه سيتصل للتو مع كايْطا..).

انتظرنا مدّة ربع الساعة، عاد إلينا خلالها ألَيْكسْ، الذي كان مختليا في مكالمة هاتفية مع أهله أولاً ثم اتصل بعدها بأحد رفاقه الموجودين هنا بحي (تَهــGـــقَّارتْ الشّومارة) كما قال لنا. الرفاق الثلاثة من أهل طاوة، قالوا لنا كذلك إن أحدهم اتّصل برفيق لهم هنا بنواحي (سَرْسوفْ الفيْرايْ) واتفقوا معه على مكان الالتقاء.

54- الشعانبة: قبائل عربية تستوطن نواحي متليلي، غرداية، المنيعة، ورقلة من الجزائر.

أعطيتُ هاتفي لإدْريْسو، قلتُ له بدهاء حاذق تشيّختُ فيه على شيخنا ساكو:

(لعلّ تعبئتكَ قد شارفت على النهاية، لا أحسبها ستبلّغكَ مرادكَ مع كايْطا، خذْ.. تكلّمْ من هاتفي.. ها هو رقم كايْطا على شاشته..).

أشار إليّ بسبابته اليمنى المهتزّة، دليلا على الفطنة، كما فعل لي بالضبط ذات مرة بفَضَا.

تناول هذا الأخير هاتفي..

برهة..

- (ألو.. كايْطا..).
- (معكَ إدْريْسو.. صديق إبْراهيما..).
- (كيف حالك.. نعم.. قال لي ذلك إبْراهيما..).
- (أين.. آه حي الشَّاطو.. أجل.. أوكي رفيقي..).
- (طيّب حالما تصل من عملكَ، نكون قد وصلنا لحي الشَّاطو..).
- (نعم سأرنّ عليكَ فقط، كدليل وصولنا للحي..).
- (باي رفيقي..).

نهاية المكالمة مع كايْطا من لدن الرفيق إدْريْسو، كانت بمثابة اللّحظة الفارقة بين عِشرة الرفاق ليكامَرادْ خلال الرحلة، التي دامت أسبوعين. أليْكسْ سيتوجّه نحو (تَهَــGـــقَّارتْ الشّومارة)، حيث يقيم رفاقه الذين هاتفهم. الرّفاق الثلاثة من أهل طاوة، بدورهم سيتوجّهون صوب أصدقائهم نواحي (سَرْسوفْ الفيرايْ). بقيَ جورجْ الليبيري وإمانْوالْ (الإيــVـــواري) وباسلْ السيراليوني والكاميرونيان.

بإنسانية جنوبية كامَرادية، قال أليْكسْ لإدْريْسو وهو يربتُ بعطف على كتف إمانْوالْ:

(أنا سآخذ معي أبناء بلدي الثمانية وباسل السيراليوني والبينيني.. أنتم الثلاثة خذوا معكم جورجْ الليبيري والكاميرونيَّين..).

استحسنا ما ذهب إليه أليْكسْ بهذه المناصفة في القسمة، مع أنه أضاف واحدا فوق حسابنا.. تبادلنا أرقام هواتفنا مع أليْكسْ، على أمل التواصل مستقبلاً، أخيرا تواعدنا معهم ومع أهل طاوة، ذهب كلّ منا إلى سبيله.

(2)

كنا ستّتنا نسير في الشوارع، أنا وإدْريْسو وساكو وجورجْ الليبيري والكاميرونيان، لم نكن نظهر كغرباء حلّوا ضيوفا على المدينة، في هذه الظهيرة السعيدة.. قد تقول سيّدي المُخرج ومعكَ كامل الحقّ.. إننا نحمل على ظهورنا حقائب تدلّ على الوافد الجديد.. هذا ليس فارقا هنا في باريس.. قد يكون في مكان آخر، أجل.. أتّفق معكَ. لكن في هذه الديار، الجميع يتأبط أو يحمل على ظهره. في طاما كيفما كنتَ، ستجد من يشبهكَ، في اللّباس، اللّون، سواء كنتَ من الطوارق، ليكامارادْ من أمثالنا، أهل التّل الجزائري، أهل تيديكَلتْ أو تَواتْ من صحراء واحات النخيل والفقّارات[55].

يبدو الماعز هو الآخر كما عندنا هناك.. مظهر من المظاهر الفاتنة للمدينة.. يتجوّل بطلاقة وأريحية معهودة، يحسد الناس زراعة أي شيء أخضر أمام بيوتهم، قال لي كايْطا ذات مرّة بعد أيام من إقامتنا:

(إنّ البلدية أعياها التشجير وصناعة المساحات الخضراء في فضاءات المدينة، حتى ابتدع الساكنة حيَلا أمام بيوتهم، نقلت البلدية الفكرة عنهم مع إبقاء براءة الاختراع لمبدعيها!! يعمد هؤلاء إلى زراعة نبتة أو غرس شجيرة صغيرة، فيبنون عليها بالعجلات المطاطية المَطروحة، يبقى حال المذكورين معها في الصعود، حتى ترتفع عن الأرض ولم يعد بمقدور الماعز تسلّقها..).

كنا كلما قطعنا شارعا أو عبرنا ساحة، نسأل أحد هؤلاء المذكورين عن حي (الشَّاطو)، يرشدنا هذا الأخير بكلّ سعادة.. لم يحدث أبدا سيّدي المُخرج.. أن سألنا أحدهم وعبس في وجهنا أو أظهر شيئا من القنوط

55- الفقارة: سلسلة من الآبار، مرتبطة ببعضها البعض، يعتمد عليها الفلاحون في سقي واحات النخيل قُرب القصور.

حيالنا.. حتى قال لي ساكو (الناس هنا يسعدون ببعضهم..) يا الله.. حقا إنها باريسْ ليكاماراد.

ابتعدنا عن وسط المدينة، توغّلنا أكثر باتجاهنا المقصود.. الطريق المعبّد يتناقص، الطرقات غير المعبّدة تزداد ومعها تتكاثر القمامة وكلّ أنواع التلوّث تكشّفا وضراوة، بالمقابل تقلّ معها الصورة الحيّة لإنسان المنطقة.. من بعيد يظهر حي الشَّاطو، حي قصديري فوضوي، بناياته طينية هشّة قصيرة.. بُنيَتْ بشكل عشوائي، آثار العجلة في إقامتها بادٍ للعيان.. كابلات الكهرباء المجرورة من الأحياء المحاذية، هي الأخرى ترسم في طريقنا إلى هذا الأخير منظرا فاتنا والله..

أول ما يصادفكَ من حال هذا الحي الغريب، تلك الوجوه السوداء المتعبة، المرضوعة من السعادة.. كنا قد اقتربنا على بعد أمتار من الحي المستهدف، الموسيقى الإفريقية يبلغ صداها من كلّ جهة، هذه مالية ومن الجهة المقابلة (سنِـGـــالية) ونيجيرية ولا أبعد أنها لـ(فاطي ماريْكو) ومن الجهة الخلفية (كوت ديــVـــــوارية) والتي تقابلها كاميرونية وهناك بنينية.. أصوات مغنين رجال ونساء تختلط مع بعضها وتنسج مواويل للحالمين العابرين.. لن أتحدّث لكَ مونْ باطرونْ.. عن الرقص هو يسري في عروقنا كالدم.. لم يخطئ من قال في حقنا (لو تردّى أحدهم – يقصد الإفريقي – من الجبل فسقط، لسقط وهو يرقص..!!).

عند مَدخل الحي لجهة الشِّمال، وجدنا كاماراديا، يحمل بين إصبعيه مقصّا، منكبا على رأس رفيق له، يتحلّق قربهما ثلاثة أشخاص من ليكاماراد أيضا، لن أعيد لك َذلك سيّدي صاحب الغليون.. هذا الأمر؛ لأن كلّ سكان هذا الحي من ليكاماراد رضي الله عنهم.. هذا الأخير يبدو أنه احترف الحلاقة في مساء يومه، ليكثر من ماله ويتعجّل إكمال الرحلة نحو الفردوس.. هناك من الجهة المقابلة للحلاّق، طاولة صغيرة منتصبة، يجلس خلفها على حجر، طفل حدث بائس، يبيع السجائر بالتجزئة والولاّعات

وعلب الكبريت وقطع الحلوى، كما رمقتُ بفضولي وجود قارورة صغيرة صفراء، لتعبئة الولاّعات بالغاز وأشياء أخرى بسيطة كانت على بعضها.

توقّفنا قليلا عند مَدخل الحي، الحلاّق وجماعته ينظرون إلينا، نظرة المقيم للوافد الجديد.. ضربنا نظراتهم في الصفر!! ضغط إدْريْسو على رقم كايْطا، رنّ الهاتف مرّتين أو ثلاثة، المهم أنها أكثر من رنّة واحدة.. بعد دقائق قليلة، خرج لنا شاب ثلاثيني، طويل، معتدل مع عرض بيّن في الأكتاف، يلبس سروال جينز أزرق فاتحا وقميصا رياضيا أصفر، كالذي رأينا صاحب المطعم أدْيارا المالياني يرتديه؛ فقط هذه المرّة بخطوط خضراء وحمراء بارزة عند الصدر، النّعال لم أنتبه إليها جيّدا، أغلب الظن أنه كان حافيا.. نظرا لقرب المسافة من جهة والعجلة التي قام فيها من جهة ثانية، قلتُ في نفسي وهو يتقدّم نحونا (لماذا يتمسّك الماليون بلباسهم الرياضي، المشكّل من ألوان علمهم الوطني، الأمر ذاته عند "الإيـVـــواريين" وتشبّثهم في لباسهم اليومي باللّون البرتقالي ولا نفعل ذلك نحن أهل النيجر مع ألوان علمنا، في ملابسنا؟؟).

عانقَنا كايْطا بحرارة، كان وفيا لصديقه (السنِـGـــالي) إبْراهيما، قال لنا كايْطا إن إبْراهيما (كان معظم جلوسه معي ليلا خارج الحي!!) لن أحكيَ لكَ السبب، لعلكَ ستعرف ذلك بعد حين سيّدي مُخرج فيلم مغارة الصّابوق.. ظهر لي من الأول أن كايْطا شخص حبّوب ومرح، بينما نحن وقوف في تلك اللّمة قبل دخولنا، أعطانا هذا الأخير لمحة عن الحي وقاطنيه من سلالة ليكاماراذْ..

يشير بيده.. تلك الجهة لأهل المالي والنيجر و(السنِـGـــال)، هذه لأهل (الكوت ديـVـــوار)، هناك لأهل البنين، قربهم أهل الكاميرون، جنبهم أهل ليبيريا، ذِكرُ ليبيريا من طرف كايْطا، جعل الرفيق جورجْ يحرّك رجله اليمنى.. كان بجنبي؛ لم يتكلّم مطلقا.. كلّ ما بدر منه من سلوكات أحسبها خفيّة.. كانت وقفا عليّ، كوني كنتُ قريبا جدّا منه.. كما أن الكاميرونيينِ هما

الآخران، وقفتْ أذناهما، كوقوف أذني الحمار، لسماع مخيّم الكاميرون هنا، لا سيما ذلك المثلي منهما!! كان شكل هذا الأخير، غريبا في كلّ شيء، حتى في صوته الرقيق، الذي يتصنّعه ويتكلّف رقّته بشكل عجيب والله!!

بعدها تناول الكلمة إدْريْسو، عرّف بنا كايْطا، يشير إليّ أولا.. هذا مامادو، هذا ساكو، هما من حيّنا (الـG ـمْكَلي)، هذا جورجْ من ليبيريا، إيقاع اسم جورجْ على كايْطا، جعله يتشوّش قليلا في مكانه.. أعاد تنظيم ذاته في الحين؛ لكنه أبقى على استراق النظرة بين الحين والآخر لجورجْ، أكمل التعريف إدْريْسو، هذان من الكاميرون، نفس الشيء وقع له من المذكورين، أصابته دهشة خفية ومريبة، لا سيما من المثلي! بعدها طلب منا كايْطا جوازات سفرنا، كما تقتضي الطقوس الكامارادية حسب قوله، لم نسأله عن ذلك؛ لأننا سمعنا بهذا الإجراء، في تلك الأخبار التي كنا جمعناها عن عالم الهجرة.

سلكنا زقاقا ضيّقا متّسخا فيه أعقاب السجائر وعلبها المرمية والأكياس الفارغة للمعكرونة والأرز، تنفتح في هذا الزقاق، أبواب أكواخ حديدية وخشبية مهترئة، تنبعث منها فَوْغَة نتنة، جلست نساء كاماراديات شابات قبالة البعض منها، اجتهدن كثيرا في تسبيط شعرهن الجعد وترطيبه.. أجسادهن شبه عارية، نظراتهن إلينا تشي بالحبور.. كتلك التي ينتشي بها الصياد، لرؤية صيد جديد.

قال لنا كايْطا لما ابتعدنا قليلا (هذا الزقاق لمجتمع دولة "كوت ديـV ـوار") انعطفنا خلفه في الزقاق المتفرّع عن الأول لجهة اليمين، هو الآخر تنفتح فيه أبواب وبنفس الصفة أو أكثر، تنبعث منه نفس الروائح، تتسمّر عند أبوابه نساء أخريات أيضا، يختلفن قليلا عن الأوليات؛ قال لنا مرافقنا (إنه لمجتمع دولة ليبيريا)، استرقتُ النّظر لجورجْ، رأيته يبتسم قليلا، المهم وجه الخلاف بين هذا الزقاق والذي قبله، كان في الموسيقى المنبعثة من تلك الدور وفقط.

مشينا كثيرا بين الأزقة الضيّقة الملتوية والمتسخة طبعا، تعترضكَ فيها سيقان المومسات كذلك، قال لنا محدثنا كذلك (إنها تجمعات لدولتي الكاميرون وسيراليون)، حتى بلغنا زقاقا، قال متقدّمنا (إنه لمجتمع دوَل مالي والنيجر و"السنِـGـــال") تنفتح في هذا الأخير أبواب كذلك؛ لكنه كان خاليا من العاهرات، هكذا بدا لنا على الأقل.. وإن كان هناك أمر خفي الله أعلم.. أنا أحكم بالظاهر وبما رأتْ عيني وما أدراني أن أرجم بالغيب سيّدي مُخرج فيلم (كامارادْ).. قد يكون خفيّا تحت حجاب ربما.. هذا ليس محالا، المهم لحد الساعة، لم أرَ شيئا كالذي قبله.

كانت بيوتات أهل غرب إفريقيا الفرنكوفونية، متقاربة جدّا، دخلنا بيتا يتوسّطها، بابه مصنوع من برميل حديدي صادئ غير مصبوغ، حاله هكذا، كما خلقه الله.. يتدلى من وسط ثلثه الأعلى، حبل يسع مقبض اليد، عبرنا العتبة، موسيقى المغني (ساليفْ) المالياني كما أخبرنا كايْطا فيما بعد، تصدح بها أرجاء البيت، رحبة واسعة معرّاة، لا وجه للمقارنة بين هذه الأخيرة ورحبتنا من حيث الاتساع.. حيطانها الخارجية ليست عالية، تنفتح فيها غرف كثيرة.. يتجمّع عند مَدخل كلّ غرفة ثلاثة أشخاص أو أربعة، فيها من يتجمع أمامها حتى السبعة، يجلسون على الأرض بلا حصير، البعض على حصير مهترئ، يشربون الشاي، كُتب على حيطانها تذكارات لرفاق من ليكامارادْ، تحمل أسماء بعينها وتواريخ محددة.. يكونون قد مرّوا يوما من هنا.. وتركوها للذكرى!! بعضها بالفحم، البعض الآخر منها بالطباشير الأبيض أو الجير، القليل منها منحوتة في طين الحائط.

قذف فينا المقيمون أعينهم المثخنة بالشقاء، ألقينا عليهم السلام، ردّوها.. أشار كايْطا بيده أن نتعقّبه لغرفته في الزاوية اليمنى من الرحبة، دخلنا الغرفة معه، أسدلنا أطرافنا بحركة انسيابية كالعادة، تدلّت معها حقائبنا من على ظهورنا، سلّمناه إياها مع جالوناتنا بعد إفراغ ما تبقى في هذه الأخيرة من ماء، ركنها في زاوية من الغرفة مع أغراض أخرى، كانت تقبع فيها، الغرفة

غير مبلّطة ولا مدهونة، تستطيع القول (إنها مصبوغة بالدّخان)- هذا جائز- مسمّرة في حيطانها الأربعة أوتاد، تحمل حقائب وأمتعة مربوطة، سقفها مغطّى بأعواد شجر الكرنك والألواح المُستغنى عنها من ورشات البناء، وُضع فوقها كرتون، لمغلّفات الثلاجات وما يماثلها.

كان الوقت حينها العشيّة الضيّقة، طيلة الرحلة لم نلتفت لروائح أجسادنا ورقنا، غسل الأجساد في رحلة صحراء التهريب يا سيّدي.. ممنوع بتاتا!! ربما لو شاهدوكَ تغتسل بالماء، لرجموكَ بالخَبال سيّدي ثانية.. لشح الماء وحاجة الناس إليه في الشرب للبقاء على قيد الحياة.. حتى عندما كان الله يهدينا ونتذكّر الصلاة في أوقات المسغبة من سفرنا- نحن مسلمي النيجر- كنا نتيمّم فقط.. الآن يكون لنا أكثر من نصف الشهر، لم يرَ جسدنا الماء فيها مطلقا والله.. لم نغيّر ملابسنا مطلقا، أصبحت كالورق، تصدر أصواتا مُخَشْخَشَة ومزعجة.. الخرائط البيضاء للعرق على الألوان الداكنة وما أكثرها.. يشكّل هو الآخر جغرافيا مبكية، سراويل الجينز، وحدها التي شكّلت الاستثناء، في هذا البكاء من الوسخ!!

كايْطا شخص نظيف ومنظّم، لعلّه ربما رثى لحالنا، أحضر لنا دلو ماء بلاستيكي أزرق، قال لإدْريْسو أولا، الحمّام هناك.. استحمْ، ثم يتعاور الرفاق من بعدكَ، طلب إدْريْسو حقيبته وطلبناها معه، أخرج كلّ منا بدلته، لم يستغرق إدْريْسو وقتا طويلا في استحمامه، لا صابون ولا هم يحزنون!! حتى المناديل لم تكن لدينا، حتى نتأخر في تنشيف أجسادنا، دقائق وجاء إدْريْسو يتقاطر ماء، ثيابه نصف مبلّلة، سنابل شعره المتدلية، تشكّل مشهدا رائعا في وصف التقطير.. أخليتُ الأمر لساكو بعده، حمل دلو الماء وذهب، لحظات وجاء يتصبب كذلك.. أمرتُ جورجْ أن يذهب قبلي، حتى لا يشعر بالغبن.. هنيهات وأتى يقطر هو الآخر، بعدها اصطفيتُ الكاميروني غير المثلي، بعده مواطنه المثلي.. استغرقا وقتا طويلا نسبيا مقارنة بالجميع، قد

يكون لهما صابونا، اتضحت لي رائحته المنبعثة منهما بعد خروجهما، بفرط تدخّلي.

أخيرا جاء دوري، عبرتُ الرحبة في ذلك الصّخب، المنبعث من الحلقات، أحمل في يدي اليمنى دلو الماء وفي يدي الشِّمال كومة ملابسي، إن لم تخني الذاكرة، سروال الجينز الآخر مع القميص الأسود، ما يمكن أن أكون قد لاحظته خلال هذا العبور، أني شاهدتُ في تجمّع الحلقة المنضوية هناك عند الغرفة المحشورة في الزاوية الشِّمال، تجمع أولئك الذين التقيناهم في سفرتنا كذا مرّة.. البعض منهم ربما عرفنا كذلك.. لا سيما كهلهم المفاوض، كانت بيننا مودّة كبيرة.. لكوننا تعاطفنا مع حالهم أزيد مرّة، كما حكيتُ لكَ سلفا مونْ باطرون.. عبوري كان سريعا، رغم هذا جزمتُ في يقيني، أنهم كذلك.. صار الأمر جليّا عندي في خانة اليقين، بعد تأرجحه قُرب الشّك.

الحمّام ليس له باب، استعاض القوم برداء مرقّع من لباس بالٍ، مساحته ضيّقة، أقدّر طوله متر ونصف المتر، هكذا عرضه أو أقل.. غير مغطى، وضع على أرضه، لبنة قالب إسمنتي مستطيل، يقف عليه المُستحمّ أثناء الاستحمام.. لحسن الطّالع، وجدتُ وتدا مسمّرا، علّقتُ فيه ملابسي أولا، نزعتُ تميمة (G‍ـــونْكي) أخيرا، علّقتها برفق.. كنتُ أخشى عليها أكثر من دراهمي والله.. ألقيتُ الماء على رأسي وجسدي، علّقتُ تميمتي في رقبتي، لبستُ هندامي، شورت بوكسر خردة.. كنتُ قد خِطتُ فيه من الداخل، ما بين شعر العانة وفضاء الخصيتين جيبا لوضع الأوراق النقدية والأغراض الجليلة الصغيرة.. بعدها لبستُ سروال جينز أزرق خردة كذلك وقميصا أسود مستعملا هو الآخر، هههه.. ولا شيء غير ذلك.. عبرتُ الرحبة في مثل حالة الرفاق قبلي.

فرّش لنا كايْطا حصيرا بلاستيكيا أحمر باليا بعض الشيء، جلسنا قُبالة غرفته، أخرج أواني الشاي، أشعل جمر الكانون، في الوقت الذي كان هذا الأخير يصبّ الماء على ورق الشاي في الإبريق، ليضعه على الكانون، رنّ

هاتفه، نظر لشاشته، ابتسم وقبل ضغطه على زر الاستقبال، نظر إلى إدْريْسو نظرة تشي بأن المُهاتِف، هو إبْراهيما..

(ألو.. إبْراهيما..

كيف حالكَ؟

نعم هم الآن في الضّمان عندي..

لا تقلق يا رفيقي..).

يضيف:

(ليسوا ثلاثة فقط..

معهم شخص آخر ليبيري وكاميرونيان..).

يُربي:

(أجل.. هو يوم الضيافة..

سيذهب الليبيري لأهل بلده..

هكذا الحال مع الكاميرونيينِ..

أوكي.. ها هو إدْريْسو..).

كايْطا يناول الهاتف لإدْريْسو:

(أهلا رفيقي إبْراهيما.. الحمد لله..

نعم قام بالواجب.. بل أكثر..

شكرا لكما.. نتواصل لاحقا..).

(دمتَ رفيقي..).

إدْريْسو يعيد الهاتف لكايْطا:

(العفو رفيقي.. باي..).

كايْطا يعدّ الشاي، أنا على يمينه وحرفي ساكو، إدْريْسو عن شِماله، سيفه جورجْ، محاذاته الكاميرونيان، بعدها قال لنا كايْطا:

(إبْراهيما كان يسكن معي قبل ذهابه مع شخصين آخرين من مالي لمدينة "غَرْدايَة" رفقة مقاوله الشّعَانْبي..).

موسيقى أغنية (موGــــوبالو) للمغنية المالييانية (رماتا دياكيتي) تغطي أرجاء البيت مع الرقص.. كان بالبيت مسجّلٌ واحدٌ، يرقد على صندوق خشبي وسط الرحبة، لونه أسود، بابه يربط بخيط، الجميع منهمك في شرب الشاي، الحلقات المشكّلة أمام الغرف، بدورها تكوّن تجمعات مصغّرة لمجتمعات بلدانها، شربنا الكأس الأولى من الشاي، بعدها سأل ساكو كايْطا في فضول:

(أليس هؤلاء الشيوخ والنساء والأطفال من النيجر؟).

(نعم..).

(ألم يأتوا بالأمس؟).

(حقا!!).

(ألم يخبروكم بأنهم من نواحي زَنْدَرْ؟ وأصيبوا في الطريق بهلاك ثلاثة أطفال وامرأة عجوز وشيخ مسن؟).

الخبر الأخير، زاد من استعجاب كايْطا.

لَكَمَ إدْرِيْسو دهشة كايْطا بالقول:

(لنا مع هؤلاء المساكين، قصة طويلة.. تمتدّ حكايتها من مدينة "أGــــادَزْ"، حيث ركبوا معنا على متن شاحنة (مانْ) حمراء، اخترعوا لنا فوق الأغنام سطحا ثانيا، وصلنا معا لمدينة أرْليتْ ونظرا لظروفهم المادية القاهرة أكثر منا، اختاروا مركبا بسيطا غير مصنّف، عبارة عن "لانْدْرُVــــرْ" قديمة، وقع لهم بها عطب في الصحراء الموحشة، بين مدينتي أرْليتْ ومرسيليتنا.. اهْتَور من اهْتَور، بالأمس عندما دخلنا هذه الأخيرة.. وجدناهم بها كذلك، رثينا لحالهم، تركنا لهم مركبة (المازْدا) النفعية، لتقلّهم إلى باريسنا..).

بينما كنا نرتشف الكأس الثانية، دخل علينا ذلك الكهل المفاوض، الآن أستطيع لقربه، أن أصف حاله جيّدا، خمسيني، وجهه العريض به بثور.. معتدل؛ لكن هزاله يجعلكَ تراه طويلا والله.. يلبس عباءة زرقاء رثّة

فضفاضة ونعلين بلاستيكيينِ، سرواله كان قصيرا مغطّى بالعباءة، الغبار لا زال يصبغ حالته العامة، خطوط العرق بادية للعيان.. لا أحسب أنه قد استحمّ مثلنا، كان يحمل في يده كيسا شفافا من البلاستيك، كانت تظهر منه علبة حليب غبرة، لم أتحقّق اسمها، لكون علامتها التجارية، كانت مقلوبة من الجهة المعاكسة لي؛ لكن لا أبعد أن تكون علامة **(Lahda)** أو **(Nespray)** ومعها أكياس عجائن معكرونة وأرز.

ألقى علينا هذا الأخير سلاما جماعيا، انعطف صوب ناخبيه، الكاميرونيان ساكتان لا يتكلمان، كانت نظراتهما تشي بالقنوط.. هما متحرران جدّا.. يعرفان أن أهل البلاد المسلمة محافظون، لذلك كان جلوسهما معنا على الشوك والله.. لم يكونا يفهمان ما كنا نقول؛ لكونهما لا يعرفان الفرنسية، جورجْ الليبيري، هو الآخر كان صامتا؛ لكن تعاطفنا معه كان باديا، هذا الأخير يفهم فرنسية التواصل، ربما هذا التصرّف، زاد من ضيقهما، بالإضافة لأشياء أخرى، لا أرى داعيا لذكرها وأحسبُ أنها مفهومة عندكَ سيّدي هههههه..!!

هامش مدن الضواحي..

(اللّذة والممنوع)

(1)

في الوقت الذي ذهب فيه كايْطا لشراء بعض الأغراض خارج الحي، اغتنم إدْريْسو الفرصة ليتعرف على الكاميرونيينِ وقصتهما، رسمنا مجموعتين، انزويتُ أنا وساكو وجورجْ، اقترب إدْريْسو منهما، تجاذبَ معهما أطراف الحديث بالإنجليزية، بينما انشغلنا نحن بأخبار تلك الأزقة التي مررنا بها، قال لي ساكو بلهجتنا التي لا يعرفها جورجْ:

(بإمكانك أن تطرّق[56] مِنجلك هنا يا دودو!!)[57].

دندنتُ قهقهة شامتة؛ لكنني سرعان ما سَرَطْتُها، خوفا من أن يظنّ بنا جورجْ الظّنونَ وأن الأمر يعنيه وإن كنتُ متيقنا، من قناعته لحبنا له.

كان الوقت مغربا، عندما عاد الرفيق كايْطا يحمل أغراضا في كيس بلاستيكي أسود، حجبت عني عسعسة لونه، معرفة ما فيه، كم كان يصيبني التذمّر من هذه الأكياس السوداء.. لأنها لا تسمح لتطلّع عيني باختراقها.. إدْريْسو عاد لحلقتنا بأخبار طريفة جدّا.. استسمحنا كايْطا لإعداد العشاء في المطبخ الوحيد بالبيت، الطبخ هنا كما قال هذا الأخير بالدور والساعة.. إذا كان دوركَ في طبخ عشاء الأمس تاليا، يكون ترتيبكَ وسطا اليوم وسابقا في عشاء الغد.

حركة عالم الطبخ.. تبدأ ما قبل المغرب، تستمر حتى منتصف الليل، لم يكن هناك إلا موقد غازي واحد بثلاث عيون، بعضها معطّل، تتعاور عليه أكثر من أربع قُدور، لبياض بَختنا، الطهي لم يكن يستغرق وقتا طويلا، لا

56- بمعنى تشحذ.

57- كناية عن شهوة النساء.

يخلو أن يكون عجائن معكرونة أو أرزا، الأخير هو الغالب.. هكذا روى لنا كايْطا وعرفناه بالإقامة فيها بعد.

نصف الساعة وعاد لنا كايْطا بقِدر غاية في القدم، تفور بمعجون بالأرز، هذا الأخير أبيض كما خلقه الله.. لا محمّرات، لا توابل، اللحم غائب هو الآخر، وضعه وسطنا، أتى بصحن قديم لا لون له، أفرغ فيه ما بالقِدر، كان أرزا متماسكا، معجونا مع بعضه، تركناه فترة حتى يبرد قليلا، خلال هذه المدّة، أتى مُضيّفنا بطاسة كبيرة وعلبة حليب (لحظة) صبّ قليلا منها، أراق على تلك الغبرة ماء من جالون كبير مغلّف، يرقد وسط الرحبة بجانب ذلك الصندوق، مَذَقَه كما أخلطنا الحليب بالماء، يوم قدّمه لنا ذلك الشيخ الطارقي صاحب اللّحية.

لم تكن هناك ملاعق.. خلا واحدة لكايْطا، آثر أن يضعها ويأكل بيده مثلنا، التقمنا وجبتنا الحافية، شربنا عليها الحليب البارد. الوقت لا زال مبكرا قبل النوم، لكون دورنا الطّهوي من الأوائل هذه الليلة.

عدد المصابيح الكهربائية هنا محدود.. هناك واحد ضعيف قوة (**w40**) بوسط الرحبة الكبيرة، معلّق في عمود به قِربة ماء، مُلئت قبل الغروب فقط، آخر في المطبخ، لا أظنه يفوق الأول، الأخير عند مَدخل الباب، يُستفاد من شعاعه للمرحاض غير المغطّى أصلا، حركة عارمة بالرّحبة والمطبخ، تختلط فيها حركة الملاعق بقاع الصحون وبكاء الأطفال. جلسنا نتسامر ونأكل وقتا قبل النوم، قال لنا مُكرمنا (إن ليلة الضيافة للكاميرونيينِ مع جورجْ، ستنتهي الليلة، سآخذهم غدا لتجمعات بلدانهم، الملاصقة لنا..) هو صديق حميم لرئيسيهما، كما أن الأعراف الكامارادية، تقتضي استقبال ابن البلد، لا يهم إن كان مسلما، مسيحيا، وثنيا، شيوعيا أحمر أو حتى مثليا.. لكلّ تجمّع رئيس منتدب، هو يقبض سهم الكراء على الرعايا ويجمع المصروف ويتدبّر الأمور، خلاصة القول؛ هو الآمر والناهي سيّدي مُخرج فيلم مغارة الصّابوق..

في اللّحظة التي غاب فيها كايْطا خارج البيت، ليُشعر مندوبي الكاميرون وليبيريا، بقدوم رعايا جدد وأنه سيأتي بهم غدا صباحا قبل توجهه للعمل، كنت متسرّعا، لأن استفهم من إدْريْسو عن أخبار هذين الكاماراديينِ الكاميرونيينِ. قال لي إدْريْسو لمّا علِم مني ذلك بالإماءة:

(إن المثلي اسمه ''سيلْفانْ'' والآخر اسمه ''جيرومْ'' وأن حكاية هجرتهما نحو الفردوس.. فيها طُرفة مضحكة.. ذكرا له أن القوانين في الكاميرون، تجرّم العلاقة المثلية الطوعية وأنهما تعرضا للهوموفوبيا[58] والمضايقة الشديدة من طرف المجتمع.. ما جعلهما لم يقدرا على العيش في تلك البيئة، بعد انضمامهما لجمعية سريّة للمثليين، غايتهما من الهجرة نحو جنّة النّعيم.. أن يجدا مرتعا خصبا بالضّفة الأخرى.. يسمح لهما بمزاولة طقوسهما بكلّ حرية وبلا حرج!! وقد أتيا من مدينة ''دْوالا'' مرورا بنيجيريا حتى بلغا النيجر ومنها إلى باريس..).

عاد مُستقبِلنا مع تقدّم الليل قليلا، الحركة هادئة نسبيا، أبلغنا هذا الأخير، أننا كنا مسافرين، يلزمنا النوم والراحة، كما أخبرنا بأنه سينهض باكرا للعمل، بإحدى ورشات البناء بالمدينة وعلينا ألاّ نتعب أنفسنا بالنهوض فجرا، كما أنه سيعمل جاهدا من أجل تدبّر العمل لنا خلال يومين أو ثلاثة، ربما سيجده لنا في عمله الجزافي، بحسب قوله.. أعطانا مفتاح البيت، الحركة تناقصت كثيرا في أرجاء البيت وبالرّحبة، مثانتي ومعي الغليظ!! اشتكيا لي.. قلتُ في سرداب نفسي:

(هي فرصة مناسبة، أضرب بها عصفورين بحجر، التدخّل يأخذني في كلّ شيء، حتى إلى معرفة تفاصيل المرحاض.. من خلال حركة الرفاق الغادية والرائحة، عرفتُ أن هذا الأخير عند مَدخل الباب جهة الشِّمال..).

58- رهاب المثلية.

حملتُ قليلا من الماء، اتّجهت نحو ذلك المكان، مثله ما يسمّى بالحمّام؛ بل هو أقل منه مساحة والله.. لا باب له كذلك، بُئِرتْ فيه حفرة عميقة، سُقّفتْ بأنصاف خشب ورشات البناء المُستغنى عنه، وضعتْ عليه صفيحة برميل حديدي، مغطاة بالطين، رسم البول على هذا الأخير خرائط عجيبة، تُركتْ منها ثقبة، تسع ما يفرغه الإنسان من أمعائه أو قِربة مثانته، قضيتُ حاجتي، وجدتُ الفرصة سانحة في هذه الخلوة، لعدّ ما تبقى معي من دراهم بعيدا عن أعين الرفاق، ذمة بَكْتو- ذكرها الله بالخير- بقي منها (**12000** فرنك سفا) مع (**2000** دج).. أعدتها إلى أمكنتها القَصيّة وخرجتُ.

مكثنا في أماكننا على الحصير الأحمر، قبل انطفاء الأضواء، طلبنا حقائبنا لتوسّدها، كنتُ راغبا في بقاء جورجْ معنا؛ لكن قرار كايْطا، لم أطق اختراقه، كانت حكايته المحزنة ووحدته في الوجود!! تجعلنا نسرف على أنفسنا في العطف عليه، على أية حال، هو باقٍ في الحي، ليس بعيدا عنا، سنراه ويرانا.. هكذا صبّرتُ النفس.. قبل النوم عاودني الحنين لتذكّر أمي وأختي؛ لكنني صرفتُ الشيطان بتطمين إدْريْسو عنهما زوال اليوم، غدا صباحا سأكلّمهما..

حاولتُ أن أبقى متأخرا وأتظاهر بالنوم، علّني أرصد شيئا من حركات سيلْفانْ وجيرومْ!! لكن التعب المتبقي من جهد خَرَسانة الأمس، تحالف مع النوم عليّ وإن كنتُ في الحقيقة، أستبعد حدوث شيء بينهما الليلة.. لحشر المكان وضيقه، أظن أنها كانت خالية من الانبطاح!! هذا هو الراشح عندي سيّدي مُخرج فيلم كامارادْ التراجيدي..

صباح اليوم الموالي من قدومنا، نهضنا متأخرين، وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة فقط بالبيت، الحركة ساكنة، الشمس تبسط أشعتها على نصف الرحبة، تركَ آوينا بجانبنا إبريق شاي وخبزة واحدة حافية، غسلنا وجوهنا وأطرافنا، ساكو كان يتحمّل الانضباط في أداء الصلاة أكثر مني ومن إدْريْسو، عيبه أن تديّنه كانت فيه رائحة الرياء والنّفاق.. يصلي أحيانا من أجل التظاهر، لاسيما عندما نكون مع الغرباء.. أنا وابن موطاري، لم نكونا

منافقين، إن هدانا الله نصلي وإن غلبنا الشيطان لا نصلي ونستغفر الله، في لحظات التوبة والتذكّر، هكذا حالنا في الحضر وقد ربا خلال هذه السفرة.

الرفيق كايْطا ذهب لعمله، لا يعود إلا مع العصر، الكاماراديون الآخرون، الذين كانوا معنا بغرف البيت المتفرّقة، بدورهم في أعمالهم، الشيوخ والنساء والأطفال، يكونون قد انزرعوا في طرقات وشوارع المدينة بطاساتهم يتسوّلون.

ساكو يبادر:

(علينا أن نجمع قَدرا من المال ونعطيه لكايْطا، لنساهم في المصروف والكراء..).

اتّفقت كلمتنا على دفع (**1000** دج) للواحد كمرحلة أولى، كان لزاما عليّ أن أتظاهر بالمرحاض ثانية.. مثانتي امتلأت حقا.. هي مصادفة جميلة لأن أقضي الغرضين.

توجهتُ صوب شِمال باب الدار، حيث لا أحد معي غير الله والشياطين التي يُقال (إنها تسكن هذه الأماكن الوسخة..)، رَبَضتُ جلسة الراحة، ساقية البول تسيل.. وسلّ الورقة الحمراء من أختها فئة (**1000** دج) جارٍ هو الآخر.. أثبْتُ ما تبقّى من دراهمي إلى بئرها.. كانت أخبار السرقة التي سمعناها قبل الرحلة، في تجمعات ليكامارادْ ومخيمات تواجدهم، من الأمور التي تجعلكَ تطمِر دراهمكَ في مكان سحيق جدّا من تلافيف جسدكَ، لم أترك بجيبي الخارجي إلا قطعا معدنية قليلة.

ساكو كان شخصاً متقشفاً بالطبع، أنا وإدْريْسو، كنا مبسوطي اليد على أنفسنا أكثر منه، لذلك أخلينا له أمر المصروف.. هو يرى كلّ شيء بَعْزَقَة، السجائر بَذْرَقَة، ما سنشربه من مشروب تقليدي يدوّخ يراه باستهجان مُسَفِّه، ما كنا نتوق إليه لتطريق مناجلنا عند العاهرات اللائي مررنا عليهن بالأمس منعوت عنده بالإسراف، لا يفعل ذلك خشية من الله، حبا في الجنة، رهبة من النار!! إنما اقتصادا وتوسّطا في المعاش.. أنا على يقين تام، لو واتته

الفرصة ونجح في هذه الرحلة ووصل الفردوس الأوروبي واستغنى.. أو وجد سبيلا آخرَ للغِنى.. فإنه لا يدخن (السيــGـــار) الكوبي فقط كما قلنا؛ بل ويشرب الخمر ويركب النساء أيضا ويتعاطى جميع الملذّات والمنكرات، ما ظهر منها وما بطن والأيام بيننا سيّدي الجنتلمانْ!!

الوقت الضحى المتوسّط، ارتشفنا الشاي مع عضّات من الخبز الحافي، تذكّرتُ أن أهاتف أمي وأختي، المؤكد أن هاتفهما يكون قد شُحن بالأمس ليلا عند رفيقتها خديْجاتو، أخرجتُ تلك الورقة المربّعة، التي أعطانيها موظّف الشركة البرتقالية.. ضغطت على الأزرار المفترضة في مكانها، مع إضافة الترقيم الدولي لبلدنا طبعا، هذا الأخير أحفظه دون كتابة والله..

ثَنْ.. ثَنْ.. ثَنْ.. (....002279041).

لم يدم رنّ الهاتف عندها كثيرا، أغلب الظّن أنها كانت تنتظر المكالمة!!

(ألو.. أمي.. كيف حالك.. الدموع تتجمع في مقلتي..).

(الحمد لله.. اطمئن يا "دو".. أختكَ صارت تعمل وتجلب القوت..).

(الحمد لله يا أمي.. الله لا يغلق بابا، حتى يفتح آخر.. عندما تعود زيْنابو من شغلها بلغيها سلامي..).

الوالدة في دعاء:

(ردّك الله [سالما] [حيّا] يا ولدي..).

تضيف:

(إيّاكَ أن تنسى وصية "Gـــونْكي" وقت الضيق..).

(أجل.. أجل يا أمي..).

ارتبكتُ قليلا كوني قرب الرفيقين..

أحببتُ أن أخبرها بنجاعة وصيّتها؛ لكن تأكيدها بكتمان السرّ على الرفاق، جعلني أضمر هذا لوقت آخر، أكون فيه بعيدا عن الرفاق.

(إلى اللقاء يا أمي..).

كنت مطمئنا على أمي وأختي منذ مهاتفة إدْريْسو لأمه بالأمس، رَبا اليوم أكثر، بعد المكالمة.. حتى هي المسكينة، بالرغم من وصول خبرنا بالأمس، عن طريق الجارة.. أننا بخير، غير أن سماع صوتي سيزيدها دَعَة فوق الاطمئنان، إبليس- لعنه الله- له مودّة قريبة مع الأمهات من أولادهن الغيّاب!!

أطبقنا الباب دوننا، اجتزنا تلك الأزقّة الملتوية، الأبواب معظمها مقفل، الحركة شبه منعدمة بالحي، عدا سماع الموسيقى في بعض المَقاطِن، السواد الأعظم الآن في عمله، بغية جلب المال والتقوية على إكمال المشوار شَمالاً، لا مجال لإضاعة الوقت، قلتُ في خاطري (العاهرات يسهرن حتى الفجر ولا يستيقظن إلاّ مع الظهر..).

خرجنا من الحي، النّعال الخارجة على الأرض، ترسم خطوات مستعجلة للعمل فجر هذا اليوم، آثار الأقدام المعاكسة كانت شبه منعدمة، قال لي ساكو (الحياة لا تزدهر بالحي إلا مساء وليلا..)، هذا أول انطباع لاحظناه على حي إقامة ليكامارادْ بحي الشَّاطو، توغلنا نحو المدينة في طريق مجيئنا بالأمس، الناس غادون ورائحون، أصوات المركبات من ذواتي العجلتين والأربع، دخان هذه الأخيرة مع غبار الطريق وتعرية الأرصفة، يزيد من نتانة الجوّ، كلما تعمّقنا باتّجاه المدينة، كلما قلّت مظاهر التلوّث نسبيا، الماعز يرافقنا هو الآخر بلا وَجَل!!

وصلنا مكانا يقطعه الوادي، به قنطرة تصل الضفتين بطريق، تناثرت على حرفي هذا الأخير، بنايات إسمنتية، عرفنا بعدها سبب تسمية المكان بـ(مقطعْ الوادْ) كان هناك خلق غفير من الرفاق ليكامارادْ، يجلسون هناك على قارعتي الطريق، إنه المكان الذي يتجمع فيه ليكامارادْ، صار هذا الفضاء الأخير معلوما لتواجد اليد العاملة الكامارادية، من لدن المقاولين وطالبي اليد العاملة، بالإضافة إلى مكان آخر، أدركناه فيما بعد مع كايْطا، يطلق عليه

(فيْراجْ أنْكوفْ)، توقّفتُ كثيرا عند كلمتي (الفيرايْ) و(فيراجْ)، قلتُ في نفسي (ما بال القوم هنا يُفَرْنِسون الأشياء!!).

الساعة الآن الحادية عشرة ونصف الساعة، انعطفنا اتّجاه دكان للمواد المعيشية أو كما يسميها أهل باريس هنا بـ(المواد الغذائية)، انتظرت أنا وإدْريْسو خارج الدّكان، ولج ساكو، اشترى خبزتين، مع علبة ياغورتْ، ملعقة أكل صغيرة، فضيّة اللون لكلّ واحد منا، جاء هنا أوان كشف حيرتكَ من ذلك التذكار.

كنا سمعنا في أخبار طقوس ليكامارادْ قبل الرحيل، من أن (الملعقة) تبقى معكَ حيثما رحلتَ وأقمتَ ولا غرابة إن ركبتْ معكَ قوارب البحر.. أو تسلّقتْ معكَ السِّياج.. سمعنا كثيرا عن أخبار هذه الملاعق.. البعض عندما يبتسم حظّه ويصل الجنّة يعلّقها كتذكار في بيته هنالك بالضفّة الأخرى!! البعض الآخر من المغضوب عليهم، يعود بها كذلك لمتحف بيته!!

عند خروج ساكو من الحانوت، ذكّره إدريسو بضرورة شراء مسحوق صابون (OMO) لغسل ملابسنا، رجع القهقرى، دخل المَحل ثانية، ابْتاع ما نبّهه عليه ساكو، رجعنا للبيت بالطريق نفسه الذي أتينا منه بالأمس وخرجنا من خلاله هذا الصباح، كانت هناك طرق كثيرة ومنافذ متعددة.. تؤدي للحي من كلّ الجهات؛ لكننا لم نعقل إلاّ هذا الطريق في أيامنا الأولى.

(2)

كان الوقت منتصف النهار عندما رجعنا للحي، الحركة بدأت تنشط قليلا، البعض من النساء الكامارادايات، بدأن يظهرن عند مَدخل الحي كسلعة رائجة، كما كن بالأمس عشيّة بأبواب الزقاق، بالصدفة وجدنا الرفيق جورجْ بالخارج يطرد الوحدة.. أخذناه معنا ريثما يعود رفاقه من العمل، الأبواب بعضها فُتحت، الموسيقى الكامارادية بدأت تستيقظ من نومها هي الأخرى، رائحة طبخ الأرز هي المسيطرة.. عبرنا الأزقة، أثناء مرورنا بتجمع ليبيريا، قال لنا جورجْ (هنا نسكن مع الرفاق..). كان همّي أن نصل سريعا للبيت وأسأل بنفسي هذه المرّة الرفيق جورجْ عن عالم وهامش أهل ليبيريا، ثقافته بالفرنسية تسمح له بالتواصل مع الآخر (لِمَ أنتظر إدْريْسو حتى يشفع لي من أخبار؟ وأنا شخص ثرثار!!) ناجيتُ نفسي.

فتح رفيقنا ساكو باب البيت، دخلنا الرحبة، الحصيرة البلاستيكية الحمراء لا زالت في مكانها، جذبناها قليلا عن الشمس، التي تكون قد وصلت إليها، كان الظّل لا يزال يرتسم تحت الحائط القريب من غرفتنا، إدْريْسو غاب في سمّاعة هاتفه مع أغاني "بوبْ" و"ماريْكو"، ساكو انشغل بغسل ملابسه، بقيتُ مع جورجْ، كان همّي أن أعرف ولو قليلا عن أخبار ليكامارادْ الليبيريين، من خلال نافذتي الوحيدة جورجْ، لم يمكث إلا وقتا قصيرا مع أهل بلده، من الفجر حتى منتصف النهار، ظرف قصير؛ لكنني كنتُ متعطشا جدّا، حتى إلى هذا النزر القليل من رذاذ الأخبار، الذي يكون قد شاهدها بتجمّعهم. مودّتي عليه، لم تكن بريئة في الحقيقة!! هو لا يعرف هذا.. كلّ الذي يدركه، أني كنتُ أشفق عليه أكثر من الرفاق.. هذا أمر ظاهر، لا يحتاج إلى عناء سيّدي المُخرج الفرنساوي..

قلت له في سُعار:

(كيف وجدتَ أهل بلدكَ؟).
تبسّم وردّ عليّ في الحال:
(نحن أهل ليبيريا نختلف عنكم - دول الساحل المسلمة- كثيرا!!).
في استفهام متكلّف:
(كيف ذلك يا رفيقي جورجْ؟) قلتُ.
جورجْ:
(من خلال مبيتي معكم ليلة الأمس وتصبيحتي على الرفاق عندنا، الأمر مختلف جدّا.. فمثلا في مخيمكم هناك النساء المغلوبات والشيوخ والأطفال والمتعبّدون الناسكون.. في تجمعنا لا أثر للشيوخ، هناك نساء متحرّرات، يمشين في المخيم بدعامة الصدر.. التبّان القصير.. كما وجدتُ قناني كثيرة فارغة، مزروعة بأرجاء البيت للمشروبات الكحولية المقلّدة، التي يصنعونها تقليديا هنا، كما رأيتُ بإحدى الغرف جهاز الماسح الضوئي في تعليبه الكرتوني، مكتوب عليه بالبنط العريض، ماركة مسجلة "**HP**"، تخلد بجانبه محاليل كيميائية، في قارورات زجاجية صغيرة، قال لي رفيق أسكن معه بالغرفة "إنها لتزوير عملة الدينار واليورو"، هذا ما رأيته وأمكنني إخباركَ به ساخنا من فرنه اليوم..).
كان الرفيق ساكو بالكاد أنهى غسل ملابسه ونشرها على حائط الرحبة، رفيقي إدْريْسو لا زال تائها مع موسيقاه.. أحضر الأُميّ الخبزتينِ مع علبة الياغورتْ، دخل هذا الأخير غرفة كايْطا، أحضر خلاّطا كذلك، قسّم الخبزتينِ علينا بالتساوي، صبّ الياغورتْ في الكوب الكبير حتى امتلأ، أضحت كأسا.. تناولنا غداءنا البارد، بعدها اشتقنا لشرب الشاي، قام ساكو للغرفة ثانية، وجد الصينية مع الإبريق والأكواب؛ لكنه لم يعثر على ورق الشاي والسكر، طبيعي أن يكون رفيقنا كايْطا، وضعه في حقيبته وأغلق عليه بمغلاق ذهبي صغير، البيت مُشاع.. الغرفة ليست لها باب، هذا أمر منطقي، نشدّ على يديه في هذا التصرّف.

جورجْ استأذننا بالرجوع إلى تجمّعهم، استلقى ساكو على الحصير، بينما إدْريْسو ظلّ موتّدا في زاوية من الحصير، يسمع الغناء، هو ثريّ بالنسبة لنا، له بدلات يفوقنا بها، لا حاجة له لغسل الثياب الآن.. انطويتُ نحو جهة الحمّام، حملتُ كيس الصابون الشفاف مع ثيابي المُقَشْقَشَة بالعرق.. ذهبت لغسلها، كان هناك حوض بلاستيكي أزرق متوسط، يغسل الرفاق فيه كلّهم.. عندما يروق لهم الغسيل طبعا أو يجدوا أنفسهم، قد بكت ثيابهم من الوسخ.. لا يمكن بعده إسكات.. وضعت الثياب في هذا الأخير، زرعت عليها حبات صغيرة من غبرة الصابون، كان ساكو أوصاني بالاقتصاد فيها.. أرقتُ عليها كثيرا من الماء، عركتها جملة غير منفردة، خرجتْ منها أوساخ كالقطران والله سيّدي..

أرقت الوسخ في الحمّام، كان آخره ثقيلا ليس كأوله، شلّلت الثياب بالماء، لا زال الوسخ يعانقها؛ لكنني اكتفيتُ بما خرج وأبقيتُ على الباقي، مخافة انزعاج ساكو، لقد حدد بعينيه مستوى الصابون في الكيس، قبل مناولتي إيّاه.. بعدها بَرَمتُ هذه الأخيرة، الوسخ أكثر من الرّغوة.. أقنعت النفس بالغسيل وزيارة الصابون والماء، هو أمر نادر الوقوع في يومياتي.. نشرتها على حائط الرحبة المشمس. استرحتُ قليلا بجنب الرفاق، ما هي إلا لحظات ويبدأ توافد ليكامارادْ من العمل والعجزة من التسوّل تباعا.

في عشيّة اليوم الثاني من إقامتنا بمعسكر ليكامارادْ، بدأنا نلمس الحركة المسائية لمخيّم الإقامة، فمع وصول عقارب الساعة الخامسة مساء، تبدأ القوافل تزحف من المدينة باتّجاه الحي، مجيئهم كان متقطّعا، يكون أولا قليلا، اثنين، ثلاثة، بعده يتضاعف قليلا خمسة أو ستة، مع بلوغ الساعة السادسة، يكون التدفّق قد بلغ ذروته، فتعمّ الحي حركة صاخبة، كنا- نحن الرفاق الثلاثة- جالسين على الحصير، دخل علينا أولا، ثلاثة شباب من ليكامارادْ، يحمل أحدهم في يديه خمس خبزات، الآخر كيسا بلاستيكيا أصفر شفّافا، يظهر فيه، أرز، علبة جبن، قارورة ياغورتْ، الثالث كان يحمل في يده علبة

شاي صغيرة، لم أتبين علامتها التجارية، أخال وزنها (250غ)، كيسا صغيرا مصرورا، أقدّر ما في هذا الأخير من السكر (500غ)، كان واضحا أنهم من مالي، قميص واحد منهم أصفر مخطط بالأخضر والأحمر والأصفر.

ألقوا علينا السلام، لم نجد مشكلة في التأقلم معهم في الحقيقة، لاسيما نحن رفاق بني (زرْما)، هم يتحدّثون نفس اللّهجة، أصولنا الأولى تمتدّ إلى مملكة (السَّنْـGـاي) وعاصمتها التاريخية (Gـــاوْ).. واحد منهم توجّه للحمّام، آخر ذهب للمطبخ، سمعنا حركة الإبريق وما يأتي معه.. بقيَ ثالثهم عند مَدخل غرفتهم، كانوا بالقرب من غرفتنا، جرّني تشوّقي المعتاد للحديث مع أحدهم، أخبرنا أن اسمه (تْراوري) ورفيقه الذي بالحمّام اسمه (مايْـGـــا) والآخر الذي بالمطبخ اسمه (سيسيكو) وأنهم من مدّة بهذا الحي.

بينما نحن نتجاذب أطراف حديث التعارف مع الماليين، دخل علينا فوج آخر من ليكامارادْ، كانوا سبعة أو ثمانية، وجوههم مغبّرة، الإرهاق بادٍ عليهم، قال لنا تْراوري (إنهم من "السنِـGــــال")، يحملون عشاءهم في أكياس بأيديهم، لا شيء غير الأرز والعجائن والخبز والجبن واللّبن والياغورتْ، مع الشاي والسكر.. لم يحدث مطلقا في تاريخي الكامارادي بباريس ليكامارادْ أو غيرها من مدن أحلامنا، أني رأيتُ في مُقَبّلات وأطباق الرفاق ليكامارادْ، بطاطس، سلاطة، تفاح أو موز، قد يحدث ذلك نادرا.. يكون من إهداء ربّ العمل أو بعض المحسنين، اللحم لم يكن معدوما؛ لكنه كالمطر في الهَيْماء.. المهم بحسب وفرة المداخيل وزيادتها على الحساب اليومي المفترض، لإكمال السّفرة شَمالا.

دخل بعدها نفر آخر من ليكامارادْ، كانوا ثلاثة، يحملون عشاءهم في أيديهم كذلك، كانوا متعبين أكثر من السابقين، ألقوا علينا السلام أيضا، اتّجهوا ناحية غرفتهم، بحسب نطقهم لبعض الحروف، بدا لي أنهم من قبائل هوسا مدينة (مُورادي) وهو ما نصره (تْراوري)، ناولنا رفيقنا الجديد

تْراوري الشاي، بحسب ما رأيتُ بالأمس من تعداد القوم، بقيَ كايْطا وأولئك الشّحاتون.. لا شكّ أنهم الآن في طوافهم الأخير بممرّات المدينة.

قبل نهاية ارتشاف كؤوسنا الثانية، دخل علينا كايْطا، كان متعبا حقا والله.. حاله كسابقيه.. حيّانا بحرارة، يحمل في يده اليمنى كيسا أسود، لا أبعد أن يكون به كيلوغراما من الأرز أو علبة معكرونة، مع قليل من السكر وعشبة الشاي، ذهب هذا الأخير لغرفته مباشرة، وضع أغراضه، حمل منشفته، ملابسه الأخرى، اتّجه نحو الحمّام، وجده مشغولا، عاد إلينا، ريثما يشغر، هو قائد المخيّم بالنسبة لمجموعة دوَل الساحل، حتى وإن لم يكن دوره في هذا المذكور تاليا، سيتنازل له الرفاق.. ناداه ساكو، اقترب منه، أعطاه المبلغ الذي جمعناه واشترينا منه بعض الأغراض. قال له ساكو (إنه مساهمة مبدئية منا في الكراء والمعيشة، حتى يفتح الله..) المِضْياف هزّ رأسه في استرضاء، مسكَ المبلغ دون عدّ، وضعه في جيبه.

بعدها زفّ لنا كايْطا خبرا سارّا، مفاده عثور هذا الأخير على فرصة عمل لنا معه، الرفيق المذكور بنّاء ماهر، يأخذ البناء، ربط الحديد، صب الخَرَسانة بالجزاف.. انشرحنا للنبأ السعيد.. (بقاؤكَ هنا بلا عمل، يعني ازدراد ما تبقّى عندكَ.. ليس من مصلحتكَ ذلك، فضلا على أن اليوم الذي يمرّ عليكَ معدود..) قلتُ في مُهجتي.

كم مرّة تأخذني الحيرة في طرح بعض التساؤلات الفلسفية خلال محطّات مدن أحلامي بهذه الرحلة، بدايتها جاءتني هنا بباريسْ ليكامارادْ سيّدي المُخرج..

ردّدتُ خفيّا:

[[الرجوع ليس سهلا!! الوصول للفردوس ليس سهلا!! البقاء هنا ليس سهلا!!]].

نادى أحد (السنِـGـــالين) كايْطا، أن الحمّام ينتظره.. حمل أغراضه، خلال فترة تواجد هذا الأخير بمكان النظافة المذكور، عاد المُسْتعطون،

يتقدّمهم ذلك الكهل النحيل.. أجسامهم المتعبة، زادها السعي بين صفا المدينة ومروتها ضَنىً.. توجّهوا مَيْمَنة غرفتهم، في الطرف القصيّ من الرحبة. استأذنّا تْراوري ورفيقيه سيسيكو و(مايْـGــا)، شكرناهم عن قِراهم لنا قبل مجيء رفيقنا كايْطا.

مع غشيان البيت بهؤلاء الطالبين ومرافقيهم، تغزو الحركة المكان، خلال هذه الفترة خرج المُستحم، يبدو أنه ثَوى مدّة معتبرة في نقاوته، مقارنة مع مكوثنا بالأمس، هو شخص نظيف ومنظّم كما قلتُ لكَ من ذي قبل سيّدي.. فضلا على أنه مُنْعتق، بفراسته عرف أن إدْريْسو وأنا متحرّران على ساكو.. لست أدري كيف تَبَدّى له ذلك؟ (هي الطبائع وكواليس عُبّادها تعرف أهلها..) قلتُ في نَعامتي.

الوقت ساعتها قبل الغروب، عندما قال لنا كايْطا (إن نوبتنا في طبخ العشاء ستكون وسطى..) أوْعَز لي هذا الأخير مع إدْريْسو، أن نتفسّح قليلا عند مَدخل الحي، أخرج صاحب البيت المسجّل العتيق لساكو، وضعه على ذلك الصندوق الخشبي قرب القِربة، شغّله لهذا الأخير، حتى لا يبقى شيئا من خاطره.. ساكو تفهّم لأمر خروجنا.. قبل برحنا للباب، أخرج علبة سجائر بيضاء بها دائرة حمراء، مكتوب في وسطها علامة (RYM) الجزائرية، وضع سيجارة في فمه، أعطى سيجارة لإدْريْسو وناولني أخرى، هكذا فعل مع الإشعال بالقدّاحة. بعدها شغّل مذياع المسجّل، رصده على موجة إذاعة النيجر، قبل المغادرة وعند وصولنا عتبة الباب، قال لنا ساكو (طرّقوا مناجلكم يا رفاق..)، قهقهة بارودية صدرت مني ومن إدْريْسو، أكمل قَرْقَعَتها كايْطا، عندما فهم اللّغز تالياً.

كنتُ متحمّسا جدّا للخروج والله.. كالعادة مررنا بتلك الأزقة.. العاهرات بعضهن كن منشغلات بالزبائن، البعض منهن كن يجلسن على كراسيّ تقليدية، تبادلنا الافترار.. كايْطا يعرفهن.. يحكي لكَ تضاريس جسد كلّ واحدة.. هو من عليّة القوم في الحي طبعا والباقي أكمله من عقلكَ

سيّدي.. تابعنا خروجنا في تلك الروائح كما المعتاد، مع رجع الصدى للموسيقى المنبعثة من تلك الدور دائما، انزوينا قليلا هناك لجهة اليمين، الأرض عارية ومغبرّة، انتخبنا أحجارا مكعبة، جلسنا عليها، ليكامارادْ كلّ عشيّة يشكّلون زُمرا خارج الحي.

بعد رَبَضنا على تلك المجسّمات، قلتُ لكايْطا:

(ما هذه الروائح المنبعثة من بعض البيوت؟).

أردف تبسّمه بقهقهة خادعة، بعدها قال لي:

(إنه المشروب الروحي لشعب ليكامارادْ يا رفيقي.. منه مشروب "GـــوروGـــورو" اخترعه سجناء التمييز العنصري بجنوب إفريقيا قبل خمسين سنة، يصنع من تخمّر بقايا اللّباس المتسخ والجوارب المعكّرة.. كما أن هناك مشروبا روحيا آخر، نُطلق عليه "بيليبْلي" وثانيا ندعوه "كاسيْلي" كلاهما يصنع من الذرة والدّخن، هناك مشروب آخر ندعوه "شومْبولو" تقليدي أيضا، تُباع هذه المشروبات رخيصة هنا، الكأس الواحدة منها، لا تتعدى (50 دج)، البعض يأتي من خارج الحي، من غير ليكامارادْ لشرائها، نظرا لثمنها البَخْس..).

بفعل الفضول دائما، طلبتُ من كايْطا، أن يشتري لنا كأسين من (GـــوروGـــورو)، حتى ننسى قليلا من غربتنا؛ لكنه استدركنا بالقول (إن ميعاد دورنا بالمطبخ، يكون قد اقترب، علينا العودة للبيت سريعا، لتحضير العشاء، بعدها نعاود الخروج ثانية؛ لأن الحركة بالحي تزداد ازدهارا بعد العشاء خارج البيت..).

رجعنا للبيت، وجدنا ساكو كالمسكين وحده، تبسّم ظنا منه أننا طرّقنا مناجلنا!! تركناه في حسابه الضّال.. طلب إدْريْسو من كايْطا أن ينوب عنه في طبخ عشاء اليوم، ذهب هذا الأخير للمَطهى، وجد الذي قبلنا بقيَت له دقائق حتى يُكمل طبخه. اغتنم كايْطا فترة الانتظار، أخرج أواني الشاي، أشعل الكانون، خلال هذه الفترة تذكّرت جورجْ، ما عساه أن يكون مع

رفقائه الليبيريين، خبأتُ في قلبي السؤال عن عالم الليبيريين، حتى أتعرّف جيّدا على كايْطا.

انشغل إدْريْسو هناك بالمطبخ لتحضير العشاء، أعطاه كايْطا علبتين من المعكرونة ليطبخ لنا عشاء أبيض، ساكو كان مسرورا بخبر فرصة العمل لنا.. كانت الرحبة وقبالة غرفها عامرة بالجلبة، صراخ الأطفال الصغار وشكواهم من الجوع والمرض لا تتوقف.. الرفاق ليكاماراد هناك يتسامرون، جاء رفيق من (السنِـGـــاليين)، أعطى لكايْطا شريطا أسود ليستمعوا إليه، نسيتُ والله اسم الأغنية.. لكنّي أتذكّر صاحبها (إنها للمغني "السنِـGـــالي" الشهير "ناري كانْ").

أضاف كايْطا:

(ناري يشبه بوبْ مارلي في وجهه وسنابل شعره المفتول..).

ساكو يعقّب:

(ما دام هذا المغني يشبه بوبْ، فمعنى هذا أنه يشبه أليْكسْ وإدْريْسو كذلك..).

بعدها سألنا كايْطا عن أليْكسْ من يكون؟ أخبرناه أنه قائد رحلتنا ومفاوضنا مع السماسرة، أجابه إدْريْسو (إيـVـــواري) أتى معنا في الرحلة من مدينة (أGـــادَزْ) حتى مدينة أرْليتْ ومنها لمارسيليا ليكاماراد، وصولاً حتى باريس وقد تفرّقنا معه، ذهب عند رفاقه بحي "تَهَـGـــقّارتْ الشّومارة").

أخذ الكلمة كايْطا:

(صحيح "الإيـVـــواريون" حذقون، لهم كاريزما عجيبة، لولا الحروب الأهلية عندهم، لكانوا أفضل الدوّل الكامرادية، بلدهم استوائي، لهم ثروات من الكاوكاو والأناناس والموز والقهوة وغيرها من الخيرات، فضلا أن بها الموانئ..).

تمثيل ساكو لسنابل شعر "بوبْ"، أيقظ فينا تذكّر ألْيكسْ، ذلك الشخص العجيب، أخرجتُ هاتفي، بحثت عن رقمه، الذي خبأته في ذاكرته يوم افتراقنا، عثرتُ على رقمه:

ثَنْ.. ثَنْ.. ثَنْ.. (......**0667**).

(الهاتف مغلق أو خارج مجال التغطية..).

قال لي الرفاق لعلّ هاتفه عطشان أو جوعان..

لم نلبث مدّة طويلة، حتى أتانا إدْريْسو بالقِدر تفور، أحضر صحنا، أفرغ فيه تلك المعكرونة المعجونة ببقايا الأرز الذي كان يتخفّى بقاع القدر من الطبخة التي سبقتها، تذكّرنا ملاعقنا الجديدة التي اشتريناها، أحضرناها، كان اندهاش كايْطا غريبا من هذا السلوك الحضاري.. الذي لا يقوى على معرفته إلا خبير بهامش ليكامارادْ.. اليوم كايْطا استعمل ملعقته بلا حرج وقد حسب لنا هذا الحِجا.. حركة الملاعق مع الصحن والقِدر، هي الصوت المنمّط في هذه اللّحظات.

تعجّلنا كان وضّاحا للخروج، تركنا ساكو في ردهة البيت، خلال سلوكنا بتلك الأزقة المعروفة، توقّفنا عند أحد الأبواب، قال لنا كايْطا (إنه للإيـ**V**ـــواريين)، رضّ هذا الأخير الباب، خرج له كامارادي، عشريني، معتدل في كلّ شيء، ترك له الحلاّق قصّة شعر أمامي على رأسه، يلبس قميصا برتقاليا، سروال جينز، كان حافيا بلا ريب، طلب منه كايْطا، أن ينادي زعيمهم، إِئتَمر خُطْروفا.

لحظات قليلة، حتى خرج علينا كامارادي آخر، ثلاثيني هذه المرّة، طويل، عريض، يلبس قميصا أحمر مبتور اليدين، لم أشغل نفسي بسرواله وقدميه، كان همّي أن أتبيّن أديمه وأمارات القيادة في محيّاه، جاء متبخترا، صافح كايْطا بحرارة، مصافحته لنا باردة والله.. بعدها طلب منه كايْطا، ثلاث كؤوس من شراب (**G**ـــورو**G**ـــورو) نادى أحد موكليه صائحا من فم الباب للدّاخل، لحظات حتى أتانا ذلك الكامارادي المعتدل، بثلاث

كؤوس كبيرة، هو على أية حال، سائل أصفر داكن، كما ظهر لي في ضوء الكهرباء الخافت، كان خاثرا قليلا، استسمحه كايْطا، أن نخرج بها خارج الحي، لنشربها هناك.. أعطى كلّ منا للمَرسول (50 دج)، خرجنا، الليلة مقمرة، هناك كاماراديون كثر، متحلّقون عبر الفضاء الخارجي للحي، هذه أول مرّة أعبُّ فيها مشروبا روحيا، هو التطفّل يدفعكَ لفعل كلّ شيء سيّدي.. إدْريْسو فضّ بَكارة الفضول في أمر دوخة المشروب الروحي قبلي، ذكر لي ذلك عندما ذهب في سفريته الأولى لـ(واGـــا) البوركينابية.

رائحة ذلك المشروب كانت قذرة جدّا، امتعضتُ بادئ الأمر، إدْريْسو هو الآخر، عافَه في الأول، كايْطا شرِب عَلَلا، شجّعنا هذا الأخير، بذر فينا شيئا من الرّجولة.. لأن نغمض أعيننا ونلقي في جوفنا، ذلك المشروب الحامض على فترات.. مع نهاية الكأس بدأنا نسلتذّ راحتها، دعونا كايْطا بإضافة كأس ثانية، أعطيناه (100 دج)، تركنا مسمّرين في مكاننا، ذهب نحو ذلك البيت، لحظات وعاد يحمل الكؤوس الثلاثة، شربنا في زهو عارم والله..

رأينا بعدها كايْطا يُخرج ورقة خفيفة شفّافة!! وضع وسطها سيجارة ريم، بعدما بلّ جهة منها، بطرف لسانه، نزع منها ذلك الوجه بحركة مدهشة وغاية في الإتقان.. بعدها أخرج قطعة سوداء معجونة، قرّبها قليلا من صهد القدّاحة، فتّتَ منها ضئيلا على التبغ، بعدها برم الورقة، ألصق طرفها بلسانه، ليلفها بشكل مدهش أكثر من الأول!! أشعلها، جذب أنفاسا متتالية، انطلقت منها رائحة مميّزة، بعدها ناول السيجارة لإدْريْسو، جذب أنفاسا هو الآخر، قدّمها لي، كانت وقتها عند منتصفها، بدوري أخذت أنفاسا عميقة منها، أعطيتها لكايْطا ليكملها، هذه أول مرّة أدخّن فيها الحشيش كذلك، لا أظن إدْريْسو قد فعل ذلك قبل اليوم، لو فعل ذلك بـ(واGـــا) كما شرب الرّاح، لقال لي ذلك، لم نحس بدوار، بمعنى الدّوخة، التي تجعلكَ تسير متمايلا.. إنما أحسسنا بابتهاج داخلي يغمرنا، شعور بالفرح

تنسى فيه كلّ شيء!! حتى نفسكَ التي بين جنباتكَ، هذا حالي أنا على الأقل، أظنّه حال الرفيقين كذلك.

كان الوقت ساعتها الحادية عشرة ليلا، ألجمتُ فضولي في الدخول على المومسات لفرصة أخرى، إذ لو بقيت تابعا لنزوات نفسي، لأفرغت دراهمي في هذه الليلة وبقيتُ ضحكة بين الرفاق وأنا غريب الديّار سيّدي..

أثناء عودتنا للمأوى، وقفنا أمام بيت (الإيـVـــواريين)، دقّ كايْطا الباب، خرج نفس الكامرادي الأول، يا سبحان الله.. كأن هذا الأخير مكلّف بفتح الباب.. أعطاه الأكواب، أكملنا سيرنا حتى بلغنا بيتنا، ولجنا الباب، بمجرد رؤيتي لساكو انفجرتُ ضاحكا.. افتراري كان عاليا، زاد من التفات أهل الرحبة جميعا، أتبعها إدْريْسو بقهقهة ثانية.. شرِق فيها هذا الأخير، كاليوم الذي أخبرنا فيه ساكو عن كواليس جغرافيا مربط القمامة.

كنت متمالكا في نفسي قليلا، لكن بمجرد أن أعاد ساكو كلمة (طرّقتم مناجلكم!!) زادت شرعة نوافذ قهقهتي أكثر.. كانت هذه الكلمة تثير الضحك في صحوي.. فما بالك وأنا منتشٍ، ساكو لفت انتباهنا للشيوخ والنساء والأطفال وبعض الرفاق.. تمالكناً أنفسنا، كايْطا أخبرنا أن ننام باكرا لننهض للعمل فجرا، أخرجنا حقائبنا، اتخذناها وسادة كالعادة، استلقيت على الحصير، كانت السماء حينذاك مقمرة، النجوم أراها تتراقص لعيني.. كنتُ سعيدا جدّا في هذه الليلة حقا، اللّعنة عليك أيها الشقاء.. المجد لـ(Gـــورو Gـــورو).

الحركة بدأت تخفّ قليلا مع الثانية عشرة، الأضواء انطفأت، بقيتُ في ذلك الجَذَل.. لا أذكر أني تذكّرت أمي وأختي مطلقا في هذه الليلة والله.. أستطيع القول، إني تذكّرتُ نفسي فقط!! ونسيتُ العالم.. غاب محدّثكَ سيّدي.. في هذا التهَلُّل ونام.

ساكو يستيقظ دائما قبلنا، أسمع صوته يوقظني كمنادٍ أسفل البئر، ظلمة الفجر لا زالت تعمّ الأفق، كايْطا بالمطبخ يحضّر الشاي على عجل.. في

الصباح تحضير الشاي يكون على الغاز سريعا، إشعال الفحم في الكانون يستغرق وقتا، لذلك استغنى عنه الرفاق، أحضر كايْطا خبزتين وإبريق الشاي، تناولنا خبزنا حافيا، أنزلنا عليه شايا ساخنا، نبّهنا كايْطا ألاّ نتركَ شيئا كالدراهمِ في حقائبنا؛ لأن مفتاح البيت عند الجميع، كنا قد أخذنا احتياطاتنا سلفاً، الرفاق الآخرون استيقظوا للعمل كذلك، الأطفال لا زالوا نائمين، الشيوخ والنساء ربما قد نهض البعض منهم للصلاة، هم يتأخرون قليلا في الخروج والرجوع دائما.

(3)

خرجنا مسرعين، بدأ الضوء يسرق الظلام، البيوت التي مررنا عليها بالأزقة، هي الأخرى تشهد حركة نشيطة للرفاق ليكامارادْ، العمل وجمع المال لإكمال الطريق نحو الفردوس، يجعلكَ تطرد النوم في الاستيقاظ.. نحن الآن في شهر سبتمبر، بقيَ لنا شهران فقط لنكون عند مليلية أو سبتة، لنتسلّق الأسلاك في أعياد نهاية هذه السنة وإلا انتظرنا حتى العام القادم، أمر شاق ومكلّف.. علينا العمل بكثرة أو اختراع أية طريقة غير قانونية، تدرّ علينا مالا وفيرا!! في ظرف قياسي، مع التقليل نسبيا من رغائب شهواتنا، التي تسرط الدراهم.

أفواج غفيرة من ليكامارادْ يقذف بهم الحي للخارج في هذا الصباح الكامارادي الباريسي.. البعض يركض، البعض الآخر يمشي متعجّلا، كنا نسير كالقوافل، ضوء الصباح ينشر سلطانه على الفضاء، الشمس لا زالت لم تشرق، كلما قطعنا شوطا من الطريق، يشرّق البعض أو يغرّب الآخر ويكمل الباقي الطريق.. جاء دورنا الآن، غرّبنا عند مَدخل الشارع العام للمدينة، كانت هناك نقطة معلومة عند أحد بائعي الشاي، يأتي إليها المقاول ليقلّ كايْطا للورشة، وصلنا عَرْصَة شاب طارقي، نصب أوتادا كـأعواد مجلسنا الموّقر (فَضَا)، خلق من المكان مقهى شعبيا للرفاق.. المكان يُسمى (منعرج أنكوفْ) أو كما يصطلح عليه أهل باريس (V ـــيراجْ أنكوفْ)؛ هو مكان معلوم لتواجد اليد العاملة الكامارادية.. كذلك المكان الذي مررنا قربه، صباح الأمس عند قنطرة الوادي.

طلب لنا كايْطا من عند هذا الأخير كأس شاي ساخن مع بيضة مسلوقة لكلّ واحد منا، التهمناها بسرعة البرق، دخل دكّانا موازيا لصاحب الشاي،

اشترى خمس خبزات وثلاث علب جبن رخيص.. وثلاث علب ياغورتْ، فضولي يدفعني دائما في حساب التوافه.. قلت في باطني:
(هذا الخير كلّه لنا!!).

لحظات وقفت سيّارة تويوتا (هَلَيْكَسْ)، كالتي أقلّتنا من مارسيليا لباريس، الفرق بينهما أن هذه صفراء وتلك بيضاء، لم ينزل المقاول من مركبته، كايْطا يعرف هذه الأخيرة من صوت بوقها.. وضعنا أكواب الشاي البلاستيكية الفارغة على الأرض أو رميناها، الأخير هو الراجح سيّدي ضيف النيجر.. ركب كايْطا مع باطرونه في المقصورة، لم أتبيّن شكله جيّدا؛ لأننا أتينا راكضين خلف للسيّارة.

قفزنا كالجنود إلى سطح عربتها، بعد صعودنا، لاحظت السائق من الزجاج الخلفي للمقصورة، لا أخاله يبعد عن الستين، يلبس عمامة بيضاء وعباءة بازان (Gــنيليا) بيضاء، عريض الأكتاف، طوله لا أستطيع وصفه الآن.. ربما حتى يخرج من المقصورة ويستوي واقفا.. شقّت بنا اليابانية طريقا وعرة، سلكناها بالرعدة والاهتزاز بين الحفر، سنابل إدْريْسو، تعشق الاهتزاز هي الأخرى، يسحرني تمايلها، يشدّني والله.. أتمنى لو تمكث الرّجة أكثر، الغبار كان يتصاعد كثيفا بفعل السرعة المفرطة للسائق.

وصلنا أطراف المدينة الشَّمالية، توقّفنا عند مَدخل ورشة للبناء، وجدنا مجموعة صغيرة من ليكامارادْ واقفة تنتظرنا، كان عددهم حوالي الثلاثة، قال لنا كايْطا (إنهم يعملون تحت إمرته منذ أسبوع، تصيّدهم من جانب قنطرة الوادي، عند نزولهم أول يوم بباريس..) هو لا يحبّ أن يشغّل مَن مكثوا مدّة كبيرة بالحي؛ (لأنهم في البداية يشتغلون بثمن معقول، بعدها يتشرّطون في الأسعار ويتحلّبون..) كما قال، لذلك كلما شغّل جماعة من الوافدين الجدد مدّة، يطلّقها ويبحث عن أخرى، فهمتُ عندها، لماذا اشترى من الدّكان، ذلك العدد من الخبز والجبن والياغورتْ؟

الساعة تكون السابعة والنصف، الورشة مسيّجة بسياج الشبكة الحديدية، ذات المربعات.. التي توضع أخيرا فوق لبنات قوالب التسقيف الإسمنتية قبل صبّ الخَرَسانة، السِّياج مشدود بأعمدة خشبية، مُستغنى عنها، بكتْ هذه الأخيرة كثيرا من ذنب المطارق، أمارتها الشقوق والذكريات الخالدة للمسمار.. عُلّقت عند مَدخل الورشة، لوحة مدهونة بصباغة بيضاء، كتلك التي رأيناها عند مدخل ورشة مارسيليا.. كُتب على هذه اللّوحة بالفرنسية وبلون أسود متدرّج، الهيئة الوصية (Direction de la construction / w. Tamanrasset)[59]، اسم المقاولة (Entreprise ASKREM)[60]، اسم المشروع (Construction 250 logements)[61]، مدّة الإنجاز (30 Mois)[62]، المراقبة التقنية للبناء (Bureau des études C.T.C)[63].

قفزنا من سطح عربة المركبة، نزل كايْطا أولا، ثم المقاول ثانيا، الأخير فارع الطول، ليس بدينا؛ لكنه مكتنز قليلا، فمه وأنفه غير مسيّج خلف اللّثام.. سمرته مفتوحة، فيه ملامح الطوارق، قال لنا كايْطا فيما بعد (إن أباه توّاتيّ وأمه طارقيه..) دون أن يكلمنا، أشار إلينا كايْطا بيده، الرفاق من ليكامارادْ الثلاثة خلفنا، تخطينا الألواح الملقاة هنا وهناك بحذر.. نتّقي المسامير العالقة بالألواح المرمية، حتى بلغنا صفّا من المنازل دون تسقيف، كان عددها خمسة، بالجهة المقابلة، كان هناك كاماراديون آخرون.. يشتغلون بصفّ آخر، أمر كايْطا عمّاله أن يقرّبوا الألواح.

59- مديرية البناء لـ ولاية تمنراست.

60- مقاولة أسَكْرَم. (أسكرم) اسم جبل شهير بتمنراست.

61- بناء 250 مسكن.

62- 30 شهرا.

63- مكتب الدراسات.

بعدها سألنا إن كنا احترفنا حرفة البناء من قبل، قهقهنا عليه بدعابة، قال له ساكو:

(يمكن أن أشتغل عندكَ هنا في جمع المسامير والألواح المستعملة وإعادة بيعها بالمدينة كخردة.. أما إدْريْسو فلا أرى له من صنعة هنا، إلا أن يوقد النار في هذه الأخشاب ويشوي عليها اللحم.. ابن بوريْما لا أظنّ أن له أعواد "Gـــورو" هنا، حتى إن وجدت، استبعد من يأكلها..).

ضحكنا كثيرا لدعابة الداهية.

بعدها قال لنا كايْطا:

(حرفة البنّاء ليست صعبة كما يتوهّم الكثير.. مشكلتها أن يد صاحبها مخروبة.. يجمع مالا كثيرا ولا ترى له أثرا..).

حاول ساكو أن ينسج منها نكتة؛ لكن كايْطا صرفه.. مخافة ضياع الوقت في القيل والقال.. حمل كايْطا مطرقته ومسامير غليظة مع آلة القياس، ارتقى السلّم الخشبي نحو السقف المُعرّى، طلب مني أن أصعد بجنبه، لأساعده في شدّ الألواح، لست أدري، لماذا اصطفاني هذه المرّة، لأن أكون من أعلى وإدْريْسو من أسفل مع ساكو؟ ربما لو بقيَ ساكو أرضا، لما أوّلتُ الأمر تأويلا.. ككلّ مرّة أتعلّل بالمصادفة وتوبيخ نفسي بتوهم ضحالة الأشياء.

ليكامارادْ الثلاثة منشغلون بجلب الألواح، ساكو وإدْريْسو يقدّمان لنا الألواح، الرفيق البنّاء يقوم بترتيبها وفق مقاس محدّد، يشدّها بالمسامير، أعاونه في تثبيتها، كنتُ أسترق الصنعة.. صوت المطارق مع بكاء المسامير والألواح.. هو الغالب هنا بالورشة، سواء عندنا أو بالجهة المقابلة، الوقت يمرّ.. ما زلنا في ذلك الطرق والشدّ، حتى منتصف النهار، نزل كايْطا أولاً ثم تبعته، أخرج كيسا من زاوية، كان قد خبأه بها صباحا عند قدومنا، أمر أحد ليكامرادْ الثلاثة، أن يملأ لنا إناء بالماء البارد، من جالون مغلّف قربنا، قسّم الخبز علينا بالتساوي، هكذا مثلثات الجبن، أما الياغورت، أعطى

ليكامارادْ الثلاثة قارورة، احتفظ لنا بالباقية، الثالثة اقتسمناها، تناولنا وشربنا.. رجعنا لهمّنا، استمرّ العمل على هذه الوتيرة حتى الخامسة مساء.

سمعنا بوق سيّارة المقاول، توقّفنا عن الأشغال، ليكامارادْ الثلاثة، يسكنون غير بعيد عن الورشة، من ناحية (الرُّوشي)، لذلك يقطعون الطريق مشيا على الأقدام.. صعد كايْطا مع باطرونه، وثبنا لسطح العربة كالأرانب على الأرض.. الورشة كانت متطرّفة نوعا ما، المقاول غير مبالٍ بسيارته وما أدراك بنا نحن؟ يرغمها بالقفز على الأحجار والنزول للحفر، وصلنا أخيرا لمنعطف أنْكوفْ، ولج كايْطا للدّكان الذي زاره صباحا، تركنا ننتظره، اشترى أرزا فقط.

حيّنا بالشَّاطو، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه من أهل البلدة.. إلا أولئك المعربدين، الذين يطلبون اللذّة ولا يخشون الأمراض الجنسية المتنقّلة كـ(السيدا) والباحثين عن الخمور التقليدية الرخيصة من المتشردين، لا يهمهم أن يتعرّضوا لشجّ لكمات أو بصق.. المهم أن يقضوا وطرهم من مبتغاهم المقصود ويعودون أدراجهم في الحين.. حتى الشرطة، لا تقوى على دخول الحي، هو منطقة كامارادية حمراء كما توصف في التقارير الأمنية لمدينة باريسْ المحروسة سيّدي ضيف إفريقيا الغربية..

عُدنا للحي راجلين من منعرج أنْكوفْ أو قُل (فيْراجْ أنْكوفْ).. الحي نشطٌ في العشيّة الضيّقة دائما.. الجماعات متحلّقة عند المَدخل العام للحي، الحلاّقون مع زبائنهم من أهل الحي هناك، عبرنا الأزقة، حالها كالمعتاد، فكّرت في حرفة خبيثة، قلتُ في جوهري:

(لماذا لا أذهب للصيدلية وأشتري علب الواقي الذكوري؟ وأنصب عند مَدخل الحي، أبيع للرفاق طالبي اللّذة، بذلك أكون قد وفّرتُ عملا مسائيا لزهو خاطري وأقدّم خدمة إنسانية جليلة لهم.. تقيهم شرّ ذلك الأخطبوط..).

دخلنا البيت، الفكرة تلعب في رأسي كالمجنون.. جميع ليكامارادْ الذين يسكنون معنا عادوا، بقيَ الشيوخ وعوائلهم، لا زالوا في سوق المدينة، يتشفّعون المارّة، مظهرين أطفالهم كطعم صيد.. سلّمنا على الرفاق، ذهب كايْطا للحمّام، مداومته على الاستحمام بعد الرجوع من العمل، أجبرتنا بلا أمر، على التقيّد بهذا الدوام المُمِلّ.. فعلنا مثله بقنوط.. لاسيما أنا وساكو، إدْريْسو كان ميّالا للنقاوة صراحة.

أخرج كايْطا الحصير الأحمر البالي والمسجّل كالعادة، أشعل فحم الكانون، استعدادا لجلسة الشاي المسائية، صارت تذكّرنا بجلسة فَضَا، ما كاد أن يحضّر الكأس الأولى، حتى دخل علينا جورجْ، كلّ القوم سلّموا عليه من جلوس، إلا أنا فقمتُ، عانقته بحرارة.. جلس حرفي، كان اليوم مبتهجا جدّا.. كان ظاهرا عليه أنه سيسرّ لي بأمر خفيّ.. بعدما علم شغفي بفضول الرفاق ليكامارادْ وأسرارهم وأخبار هامش حيواتهم، تعجّلتُ شرب الشاي، كان الوقت يمّر عليّ بطيئا، ارتشفنا الكأس الثانية بقلق مفضوح.. خرجت مع جورجْ للخارج عند مَدخل الحي، انطوينا بعيدا.

قال لي جورج في شجاعة:

(هل تريد أن تستغنى في ظرف قصير يا دودو؟).

(أجل.. ومن ذا يجد الغِنى السريع ولا يقبل؟؟).

(لكن الأمر جلل وقد تكون نهايتكَ بالسجن!!).

(ما نوع العمل يا جورجْ؟).

حنحن وقال:

(عندنا في تجمّع ليبيريا، جماعة مختصّة في تزوير النقود، من العملة المحلية واليورو، يصرفون مبلغا معتبرا، لمن يروّج لهم تلك الأوراق في المدينة..).

كنتُ أعلم أن الأمر ليس سهلا.. وإذا ما قُبض عليّ، سوف لن تراني سَلاماتو وزيْنابو أبدا!! حتى وإن أُفرج عليّ بعد ذلك، سأجد أمي حتما قد تُوفِّيَت وأختي هرمت بكلّ تأكيد أو ماتت هي الأخرى من الغمّ والوحدة..

طلبتُ من جورجْ، أن يمهلني حتى الغد.. حتى أفكّر الليلة في الأمر؛ لأن هذا الأخير خَطْب.. ليس من اليسر اتّخاذ قرار حاسم فيه بهذه السهولة..

سألته بعدها:

(هل وجدتَ عملا؟).

أجابني:

(إنه سيحترف تبديل العملة المزوّرة بالمدينة، ليس له ما يخسره، ليس له أبٌ يبكي عليه أو أمٌ تنوح عليه ويتركها ثكلى بعده..).

قاربتُ في عقلي، وضعيتي الاجتماعية بحالته، وجدتُ الفارق فاضحا بيننا..

قلتُ في مكنوني:

(صحيح.. هو الآن كالمقطوع من الشجرة، لا أحد سيبكي عليه.. أما أنا فسَلاماتو وزيْنابو تنتظران قدومي يوما ما [حيّا].. [سالما].. غانما ليس بالضرورة، لا سيما لمولاتنا الأولى سلاماتو..).

كان الوقت بعد المغرب بكثير، رجعنا، دخلنا الزقاق، ودّعته حيث ذهب عند رفاقه، أكملتُ سيري لرفاقي أنا أيضا، دخلت البيت، الرفاق مستلقون على الحصير يتسامرون، قال لي كايْطا (لا زال موعدنا من المطبخ لم يحن بعد..)، تذكّرت أن وقتنا اليوم تاليا، جلستُ معهم، سرحتُ بخيالي، في أمر النبأ الجديد.. كنت مشغولا جدّا بالفكرة.. جسدي مع الرفاق، عقلي مع نفسي، إدْريْسو وضعه المادي ليس مثلي، هو لم يخبرني بما تحته من المال؛ لكنني أدرك تماما، أن الذي معه يكفيه.. حتى هذه الأعمال الشّاقة التي يقوم بها معنا، ربما يقوم بها لإشباع رغباته ونزواته، التي لا تنتهي!! أما ساكو فهو متقشّف، معه من المال ما قد يكفيه، لا يدخّن، لا يشتهي النساء، لا رغبة له في الشراب الروحي.. الوقت يداهمني وإلاّ ذهب الرفاق نحو الشَّمال وتركوني تائها هنا.. بقيَ أمامي أقلّ من الشهرين، يلزمني المال بأية طريقة أو بأخرى.. لعلي أجد سبيلا..

كرّرتُ تيهى:

[[الرجوع ليس سهلا!! الوصول للفردوس ليس سهلا!! البقاء هنا ليس سهلا!!]].

نادى الكهل الذي كان دوره قبلنا على كايطا، طلبتُ من كايْطا، أن أقوم بالطبخ هذه الليلة (حتى تكون محبوبا، غير ثقيل على الرفاق في السفر، عليكَ أن تبادر دون قول أو إشارة..) قلتُ في سرّي.

دخل هذا الأخير لغرفته، ناولني كيس أرز(1 كلغ) مع نصف كأس صغيرة من الزيت وكميّة قليلة من الملح، الماء لا يباع ولا يشترى.. أجده هناك في الجالون. توجّهت بهذه الأغراض إلى المَطهى، هذا الأخير يقع في الزاوية البعيدة هناك، كان صغيرا جدّا، ربما مساحته بالكامل أربعة أمتار، صدّقني لستُ مبالغا سيّدي.. غير مسقّف كذلك.. يخلد موقد غازيّ قديم في زاويته اليمنى، كان منظره أكثر ترديا من حالنا.. ترسّبت عليه طبقات من الأوساخ، كانت به عين واحدة صالحة، أظنها الكبيرة التي على الشِّمال، العين المتوسطة على اليمين والصغيرة الوسطى، كانتا معطّلتينِ، تتودّد إلى سيفه، قارورة غاز بيضاء.

الأوساخ منتشرة في كلّ مكان بالمطبخ، على الأرض، على الحيطان، قِدر وحيدة يتعاور عليها الرفاق، طاب قاعها من النار.. الكهل الذي قبلنا، طهى فيها أرزا كذلك، لذلك لم أغسلها مطلقا، بحسب توصيات كايْطا؛ لأن بقايا الزيت المترسبة بجوانب القِدر، تخدمنا وتخدم الرفاق كثيرا في تحضير الوجبة، كان هذا الأمر حتى مع المعكرونة، نادرا ما تأتيكَ بلا بقايا أرز أو يأتيكَ الأرز بلا بقايا عجين المعكرونة!!

فتقتُ الكيس البلاستيكي الشفّاف، نزلت حبات الأرز في القدر بسرسرة طَرِبة، كسرسرة فرنكات حرفة (Gـــورو) في حجر أمي.. أرقتُ عليها قَدرا من الماء، أذرفتُ عليها نصف الكأس الصغيرة من الزيت، رميتُ كميّة الملح دون تفتيت فيها، أشعلتُ الموقد بالولاّعة، دثّرتُ القِدر بغطاء آخر،

ربما يكون هذا الأخير، قد تركه بعض الرفاق، يكونون حاليا بإسبانيا، إيطاليا أو فرنسا ولربما البعض منهم - بلا ريب - قد غرق وأكله الحوت أو ردّوا ردّا مليحا بالطائرات إلى بلدانهم.

انشغلتُ بالطبخ وبالفكرة الجنونية.. التي قذفها جورجْ في مسمعي وغزتْ عقلي.. كنتُ مائلا للمغامرة، رغم تقديرات السجن ونحيب أمي ووَلْوَلة أختي.. ربما كنتُ أبتعد عن الأمر، لو كان في الوقت متسعٌ، قلت في نفسي (قرّرتُ المغامرة، يجب أن أقامر، إما السجن، الموت أو العودة القسرية، هي خيارات وضعناها في حسابنا من الأول وأخبرنا بها إبْراهيما عن طريق إدْريْسو بالفيسبوك..).

تركتُ القِدر على الموقد، رجعت للرفاق، توتري فاضَ.. ساكو الوحيد من الرفاق، الذي تفطّن لوجود أمر ما يشغلني؛ لكنه لم يُفصح.. كانت نظراته تشي بذلك، فكّرتُ أن أكاشف رفاقي بالخبر؛ لكني عدَلتُ عن الفكرة، ثم قرّرت مفاتحتهم.. كايْطا كان قد أومأ لي في الخرجة الليلية بالأمس مع إدْريْسو، أنه يبيع المخدرات هنا، لم ينطقها بصريح العبارة؛ لكني فهمت هذا، ربما إدْريْسو هو الآخر، قد شكّ في الأمر!!

صحيح أن فكرة بيع الواقي لزبائن العاهرات عند مَدخل الحي بالعشيّة، سيلقى رواجا منقطع النظير.. نظرا لرخائها ونفعها العميم.. لم يفكّر أحد مطلقا في ابتداع هذه الحرفة قبلي؛ لكن مداخيلها لن تكفي، هذه هي الكارثة بالنسبة لي والله.. سيف الوقت يكاد يقطع رقبتي، قد يكون هذا العمل الاستثنائي مفيدا، إذا كنتُ على قَدر لا بأس به من المال أصلا، ما أسترزقه منه، أصرفه على معاشي وشهواتي وأحتفظ بمبالغ العمل اليومي الشّاق للرحلة أو كنتُ قد أتيتُ إلى هذه الديّار قبل تسعة أشهر أو أكثر، ربما يكون هذا مثمرا.. أمَا والحال هكذا، فلا مفرّ من المغامرة!! وليكن ما يكون سيّدي مُخرج فيلم مغارة الصّابوق..

الرفاق لحظتها يتسامرون، جلبة نواحي الرحبة كالعادة، لم انتبه لكلّ هذا، كلّ ما وعيتُ عليه، مناداة إدْريْسو لي أن (خُذْ كأسكَ من الشاي يا دودو..)، غير هذا لم تلتقط كاميرات عيني شيئا صراحة.. رغم ادعائي التصوير البصري الفضولي، كما ذكرتُ لك أكثر من مرّة، سيّدي مولى العدسة..

ارتشاف كأس الشاي، لوى عنّي نسيان القِدر على الموقد.. نهضتُ مسرعا للمطبخ، هذه الأخيرة تكاد تتطاير، معركة حامية من التَغْتَغة بداخلها، رائحة الأرز المختلطة ببقايا المعكرونة تملأ الأجواء.. أدرتُ بيدي مغلاق قارورة الغاز، فتّشتُ عن ورقة أو خرقة كتّان لحمل القِدر الساخنة، وجدتُ علبة سجائر فارغة (RYM) كانت مرمية في زاوية من المطبخ، نصفتها، حملتُ الطّاهية من عروتيها، وضعتها أُزوف الحصير، أحضرت ملعقتي الشخصية وصحنا من غرفتنا، أمَلتُ المُتَغْتِغة، أخرجتُ ما فيها من أرز، صوت الملعقة يُحدث صوتا بقاعها، حتى تلك المَباطن منها، التي يكون قد تبقّى فيها (ما يعمّر الضّرس الفارغة المسوّسة..) كما تقول أمي، لم أترك فيها شيئا.

تركنا الطعام مدّة حتى يهدأ قيظه، أحضر الرفاق ملاعقهم الشخصية، أجهزنا عليه بمعاولنا نحفر، حتى بان قاعه، أتينا عليه عن آخره، تأخُّرنا اليوم لم يبقِ وقتا لشرب الشاي، الساعة تكون الثانية عشرة إلاّ ربع الساعة، أصبحنا مدمنين على خرجة ما بعد العشاء، كانت أحلاها وأوسعها، تلك التي يكون طبخ عشائِنا فيها أولا ومغربا.. المهم خرجتُ رفقة إدْريْسو وكايْطا، معرفتنا بوجود المخدرات عند كايْطا، كفانا البحث عن المشروب الروحي، ابتعدنا قليلا بفضاء الساحة، عند مَدخل مخيّمنا، الليلة مقمرة كذلك اليوم.

أخرج كايْطا قطعة سوداء من الحشيش، قال لنا اليوم صراحة (إنه يبيعها هنا في الحي!!)، فهمتُ جيدّا حرصه الدائم ووسوسته على غلق حقيبته، أحيانا يخرج حتى عند الباب ويعود مسرعا للالتفات إلى مغلاقها.. طلبتُ

من هذا الأخير قطعة صغيرة مقدار (200 دج) على أن أعطيه ثمنها عندما نعود للبيت و(أدخل للمرحاض..) قلتُ هذا في حفيظتي فقط..

إدْريْسو طلب قطعة (300 دج)، أعطاه في الحين ثمنها، أخرج إدْريْسو سيجارتين من علبته، ناولني واحدة منهما، المُحشِّش بدوره أخرج سيجارته، أعطى لكلّ واحد منا ورقة شفافة رقيقة، لم نكن على معرفة بلفها، قام لنا بالدّور واللّف.. قدّم لكلّ واحد منا لفافته جاهزة، أشعلناها، سافرنا في بحر النسيان.. بعدها قلتُ للرفيقين (إني من الغد مساء، عاقد العازم على أن أحترف بيع العملة الصعبة المزوّرة بالمدينة!!)، شكوتُ لهما قصر ذات يدي، عن توفير المال اللاّزم، لاستكمال الرحلة شَمالا بعد شهرين.

الحقّ أقولُ، إدْريْسو نبّهني لتداعيات ذلك على أمي وأختي وتركَ الحرية أخيرا لخَياري.. كايْطا سكتَ.. لم يجب بالتأكيد أو النفي (هو نفسه يحترف أمرا ممنوعا..) قلتُ في جَناني.

فهمتُ من سكوته موافقته الضمنية، كانت كتلة رؤوسنا الكروية، التي تتسمّر على رقابنا.. تبعث فينا نشوة وشعورا بالفرح، أتممنا سجائرنا الملفوفة، دخلنا للحي عبر أزقته كالعادة، توقّفتُ عند مَدخل بيت الليبيريينَ، أكمل رفيقاي الطريق، طرقتُ الباب، خرج لي رفيق ثلاثيني منهم، كان فاتح السواد قليلا، يلبس قميصا أسود، قبّعة بنية مائلة على رأسه، حيّته بالفرنسية، فهم.. هذا جيّد.. طلبتُ منه أن ينادي على مواطنه جورجْ، دخل، بعد لحظات قليلة خرج المَقطوع من الشجرة.. كنت متعجّلا على الرجوع، قلت له في عجلة من أمري (إني اتّخذتُ القرار، بالمغامرة في ترويج الأوراق النقدية المزوّرة وموعدنا مساء الغد، بعد العودة من العمل بالورشة..) اتّفقنا وتوادعنا.

وصلتُ البيت، الضوء منطفئ، غير مصباح الرحبة، الذي تركه لي الرفاق، كانوا متراصين على الحصير، كأزرار مسجّل إدْريْسو بنيامي.. دلفتُ للغرفة، أحضرتُ حقيبتي، مددت يدي للقاطعة الكهربائية، الظلام يعمّ

الرحبة قليلا، ضوء القمر يرسم منتصف هذه الأخيرة، ساعدني الوضع على تخطي أجساد الرفاقِ المتمدّدين هنا وهناك.

توسّدت حقيبتي، ألقيت بجسدي الخفيف والمنتشي من الزّطْلة على الحصير، بالمناسبة سيّدي مُخرج فيلم كامارادْ المأساوي.. مصطلح الزّطْلة يطلقه أهل باريس ليكامارادْ على المخدرات.. مفعول المخدّر اليوم كان قويا نسبيا مقارنة بأمس، تجاوبتُ مع الموسيقى المنبعثة من شقوق الجدران لبيت الجيران، إدْريْسو كان لا يزال صاحيا، أراه بجنبي يلتفت لهاتفه، يضع سماعة الأغاني في أذنيه، كايْطا هو الآخر لا يزال مستيقظا من خلال حركة رجليه، الوحيد الذي كان نائما هو ساكو.

فكّرت قبل مجيئي للرفاق، أن أبشّر الرفيق النائم، بتنازلي له عن حرفة بيع الواقي لزبائن الشّهوة النسائية، عند مَدخل الحي، أعرف أنه سيسرُّ بهذا الزّفاف.. تديّنه كان رقيقا، عزوفه عن الملذّات سببه مضيعة الفلوس فقط، ليس إلاّ والله.. كان برغماتيا بمعنى الكلمة، حتى أكون منصفا وصريحا معكَ سيّدي.. تردّدتُ أكثر من مرّة في حرفة تزوير العملة؛ لكن تيمية (Gــــونْكي) التي أوصتني بها أمي.. كحلٍ سحري لكلّ هول.. شجّعتني كثيرا، لوجود علامات صدقها، منها ما ذكرتُ لكَ آنفا.. يوم كنا على حاشية الموت بالصحراء، فأنقذتنا.. لأجل ذلك، قرّرت المغامرة بلا رجعة!!

هامش مدن الضواحي..

(الشقاء في النعيم)

(1)

في صباح اليوم الموالي، استطردنا عملنا بالورشة مع رفيقنا كايْطا كالعادة، خلال أوْبنا من العمل مساء، توقّفت عند مَدخل الحي، اشتريتُ من الطفل الحدث سيجارتينِ، وجدتُ جورجْ ينتظرني عند المَدخل، استأذنته لحظة.. حتى أدخل المرحاض، دخلتُ البيت في قلقة من حالي، ولجتُ مكان حاجة الإنسان.. قضيتُ حاجتي من الإفراغ.. أخرجتُ من عميق تلافيفي، ورقة نقدية فئة (200 دج) لكايْطا، مقابل قطعة الحشيش، التي اشتريتها عليه أمس، خرجتُ لملاقاة شريكي المُروِّج.

ولجتُ إقامة هذا الأخير، هي المرّة الأولى التي ألجُ فيها بيت الليبيريينَ، موسيقى، نساء شبه عاريات، روائح (G‍ـــورو‍Gـــورو)، أجهزة سكانر، أشياء أخرى.. لم أكن أراها في بيتنا وغرفنا، كانت بالبيت رحبة واسعة كذلك، تنفتح فيها غرف كثيرة جدّا، قطعنا الرحبة باتّجاه إحدى الغرف الشرقية، وقفنا أمامها، كان الباب شبه مفتوح، خرج لنا أحد الرفاق، أحسبه أربعينيا، ضخم، عيناه حمراوان كجمرة، رحّب بنا، دعانا للدخول، كانت هناك علبة كرتونية كبيرة لماسوح ضوئي، مكتوب عليها (CANON) أعلى دقة (pixel 4800)، أوراق، قِنن أحماض، كما وصف لي جورجْ أمس.

(هذا هو رفيقي الكامارادي النيجيري، الذي يرغب في ترويج العملة بالمدينة..) قدّمني جورجْ.

خاطبني المُضيّف، بلهجة فرنسية حادّة وعيناه ازدادتا احمرارا وجحوظا:

(إن قُبض عليكَ متلبّسا بالعملة المزوّرة، عليكَ ألاّ تصرّح، أنكَ أخذتها من هنا.. كلّ ما عليكَ قوله، حتى لو وضعوكَ تحت تعذيب صعقة الكهرباء، إنكَ أتيتَ بها معكَ من بلدكَ الأصلي النيجر.. لقد أعطيتُ

لجورجْ هاتفاً نقّالاً، حتى يسهل التواصل بينكما، فقط ضعا كلمة السرّ بينكما للدلالة على الحرفة الخطرة..) حذّرني.

تذكّرت في الحين:

(وكفى الله المؤمنين شرّ القتال..) بحسب استشهادات الماكر.

ادّكرتُ أهوال صعق الكهرباء.. عندما وخزني بها عُسْمانو مجازا قرب النهر، لما تلبّسني الفضول، في تركه لحرفة أبيه (الصيد).. يومها سيّدي مبروم الشوارب.. أقسمتُ أن أقلع عن الفضول نهائيا والله.. حاولتُ.. عجزتُ صراحة.

المزوّر:

(إنكَ ستنال في صرف كلّ "eur 100" علاوة ما قيمته "eur 10").

بين جوانحي:

(مبلغ يغري بالشراء سريعا.. هذه فرصتكَ يا ابن بوريْما..).

عدّ لي المُزيّف وسادة، كتلك التي رأيتها يوم بيعت بقرتنا - ذكرها الله بالخير- بسوق الجمعة، الفرق الوحيد بينهما، أن هذه الأخيرة كانت باهتة مقارنة بالأولى.. الساعة السادسة والنصف مساء، خرجتُ مع جورجْ، اتّفقتُ معه، أن نتفرّق عبر أرجاء المدينة، تعمّدتُ هذا الإجراء.. هناك حالات أستنجد فيها بعضّ تميمتي (Gـــونْكي) لا أريد أحدا ممن أعرفه يكتشف سرّها.. ظهر له أن الأمر عاديا (ليس معقولا أن نرتزق من أمر نأتيه معيّة.. كحال مخبزتينِ في شارع واحد، لا يفصل بينهما إلاّ حائط..) قلتُ له.

تبادلنا أرقام هواتفنا لعقد ميعاد العودة للحي ليلا، حذّرته أن يشيَ في الهاتف بأمر يخصّ ترويج العملة، اتفقنا على كلمة السر (أعواد Gـــورو) كدلالة رمزية للعملة المزوّرة في المهاتفة.

شريكي:

("أورو" قريب من "Gـــورو"..) هههههه.

تبسّمت لمفارقة تقارب مَخرج صوتيهما، انفضضنا عند مفترق الطرق، اتّجهتُ غربا، اتّجه الرفيق شرقا.

كنتُ قد سمعتُ قبل ثلاث سنوات، من أحد تجار التمر التوّاتي بنواحي السوق الكبيرة بنيامي، أن سكان مدينتي باريس وروما، يتقاطرون على العملة الصعبة، رجاء مبادلتها لأداء مناسك العمرة على مدار العام أو في موسم الحجّ.. لذلك تصيّدتُ ملامح أهل البلدة، ممّن أتوسّم فيهم الطيبة وعدم الوشاية، هكذا اخترتُ الضحايا.. عبرتُ الشارع المحاذي للوادي، رمقتُ شيخا، أشرتُ له بيدي من بعيد، انتظرني، لحسن سعدي، دراستي الفرنكوعربية، تسمح لي بالتواصل مع متحدّثي العربية ودارجيها، كان الأخير ذا لحية كثّة بيضاء، سبعينيا، يلبس عباءة فضفاضة، يكوّر عمامة بيضاء، قلتُ له في ابتسامة:

(السّلام عليكم..).

ردّ عليّ:

(وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته..).

بلهجة ثقيلة:

(سيّدي هل تريد عملة اليورو للعمرة أو الحج؟).

أجابني على الفور:

(أتيتُ من العمرة قبل شهرين والحجّ أدّيتُ فرضَه قبل خمس سنوات وهو مرّة واحدة في العمر يا ولدي..).

ودّعته في رقّة.

تصيّدتُ كهلا آخر بالجهة المقابلة من الشارع، يهمّ بالنزول من سيارته أفْ جي 45، كان جليا عليه أنه من أهل الثراء.. توسّمت أنه ليس عدائيا، هكذا حدّثني قلبي.. نادرا ما خذلني هذا الأخير والله.. حاولت الاقتراب من الكهل، بالصدفة كانت هناك سيّارة زرقاء للشرطة تقترب منا في الاتّجاه المعاكس من الطريق، تظاهرت بسؤاله عن ناحية الشّاطو، دلّني بكلّ صدق،

لما ابتعدت مركبة الأمن، قلتُ له، كمن كان يريد أن يقول أمرا ولعارض طارئ غيّر قوله، استدركتُ سائلا:

(هل تريد عملة "اليورو" مونْ باطرونْ؟).

تشوّش مكانه قليلا، لَمْلَم نفسه، قال:

(الأورو!!).

الجواب على الفور:

(أجل.. "اليورو" أو "الأورو" هما بمعنى واحد مونْ باطرونْ..).

المُشوَّش يَستكنِه:

(أنت كامارادي أليس كذلك؟).

(ويْ مونْ باطرونْ).

(من أي بلد أنت؟).

(من النيجر مونْ باطرونْ).

(ليكامارادْ هنا، أصناف.. منهم الطيبون ومنهم الشريرون..).

أغلب الظنّ كان سيسترسل في التصنيف؛ لكني تعجّلته:

(من هم المُستساغون والمَنبوذون مونْ باطرونْ؟).

(الدَمِثون من ليكامارادْ، أغلبهم من النيجر وبعض الماليين و"السنِـGـــالين" والقلّة القليلة من "الإيـVــــواريين"، أما السافِلون فمعظمهم من ليبيريا والبينين وغانا وبعض "الإيـVــــواريين" والكثرة من الكاميرونيينَ..).

ثم طرق يقول بلا سؤال:

(صحيح إني خلال هذه الفترة في حاجة ماسّة للعملة الصعبة، كي أحجّ هذا العام ولولا أنكَ قلتَ لي من النيجر، ما كنتُ وثقتُ بكَ أصلا.. لقد كنتُ تاجرا في سالف عهدي وتليد أيامي، بين طاما وطاوة، أبيع التمر

التوّاتي هنالك وأجلب أغنام (أسيداونْ)[64] والفحم و(المانْـG) ولما بدأنا نسمع أخبار قطّاع الطرق بالصحراء وأنباء ظهور (القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وبلاد الساحل..) وكذا الأفكار المتطرّفة لحركة (بوكو حرام).. لهذه الذرائع صُمْتُ عن التجارة لبلدكم وفتحتُ محلا هنا..).

أخيرا أراد أن يمتحنني في أمر قد حسبته سلفا كذلك:

(وبكم تصرّف "الأورو" كامارادْ؟)

بلا تأتأة:

(بـ"عشرة" مونْ باطرونْ).

كنتُ قاطعا، لو قلتُ له، كما أوصى المزوّر، بمقابل (خمسة)، لشكّ هذا الرجل في الأمر؛ لكن رفع السقف، أفادني في أمرين، الأول؛ ربح النّصف دون علم الملفّق، الثاني؛ كسب ثقة الزبون، دون حساب فائدتي المتّفق عليها معه وهي (العُشر) في كلّ ورقة من فئة (100 eur)، الوقت ساعتها مغرب، قال لي بعد ارتياح:

(إن المبلغ، الذي أريدُ تصريفه، ليس حاضرا معي الآن، موعدنا من بعد الغد صباحا).

لما وجدتُ ثقته عامرة، أظهرتُ له نوعا من الدَّلال:

(بعد الغد صباحا أكون مشغولا مونْ باطرونْ.. إذا كانت حاجتكَ للصرف ماسّة.. عليكَ أن تعقد معي موعدا بعد الغد مساء، في الساعة السادسة والنصف في مكاننا ذا..).

عدم قَبولي بموعده وتأخيري له، زاد من ثقته أكثر، هو يعلم أن صرف اليورو حاليا يفوق ما ذكرتُ له بـ(يوريينِ)، مبلغ يغري حقا؛ لكنه لا يضع طابور الامتراء.. اتّفقتُ معه أخيرا على الموعد الذي قطعتُه.

64- سلالة أغنام إفريقية.

(2)

كان الوقت ساعة الغسق، حين هاتفتُ جورجْ، أخبرني أنه بوسط المدينة ولم يبعْ شيئا من (أعواد G ــــورو..) التي اتّفقنا عليها كـ(كلمة السرّ) بيننا، كما علمتَ سيّدي.. استعجلته في العودة وإني بانتظاره في المكان الذي افترقنا عنده من ذي قبل.. اقتنصتُ الفرصة خلال هذه المدّة، بمهاتفة أمي وأختي، الآن أنا وحدي.. يمكن الحديث مع صاحبة القرط.. حول أسرار تميمتي وحلولها السحرية، كما أن الوقت مناسب لوجود المَوَلْوِلة الآن بالبيت.. بحثتُ عن الرقم البرتقالي بهاتفي.. كنتُ قد سجّلته بذاكرة هذا الأخير.

ثَنْ.. ثَنْ.. ثَنْ.. (....002279041).

(ألو.. والدتي..

أهلا يا أغلى أم في الدنيا..).

(أتمنى أن تكونَ [سالما] يا "دو"..

كيف وجدتَ حِرْز (G ــــونْكي) يا ولدي؟).

(الآن أثق فيه إلى أبعد الحدود يا أمي..

كدنا نموت من العطش في الصحراء..

أنقذتنا والله..).

(إيّاكَ أن تكشف سرّها، كن حذرا..).

(لا تقلقي يا أمي..).

(ها هي أختكَ تريد أن تكلّمكَ..).

(أهلا أختي زيْنابو.. الحمد لله..).

(كم تقبضين من عملك في الشهر زيْنابو؟)

("30000 فرنك سفا".. قليل جدّا..

لكن أفضل من اللاّشيء يا أخي العزيز..).

(المهم يستر عورة الفاقة.. أختي المُناضلة..).
(باي..).
ردّت عليّ أختي، دون أن تعلم معناها، عملتْ طريقة (قص/ لصق):
(باي..).
إبان وداع أمي وأختي في المُهاتفة، هلّ جورجْ متثاقل الخُطى، رجع بخف حنين، قال لي:
(كلّ الزبائن الذين تقرّبَ منهم، خيّبوا أمله، بل فيهم من هدّده بمناداة الشرطة والوشاية به، الجميع هنا مستاء من الليبيريينَ.. يبدو أن بعض مواطنينا، تركوا انطباعا سيئا عند ساكنة طاما..).
بعدها سألني في إبْلاس:
(هل صرّفت شيئا أنت؟).
(لا.. كما ترى..).
ربما هذه النتيجة، هوّنت عليه خيبته..
طلبت منه أن نهرول للحي، لأن نوبة طبخنا اليوم بعيد المغرب مباشرة، الرفاق يكونون بانتظاري حتما. القمر بدأ يتخفّى قليلا، بعد بدره خلال اليومين السابقين. نوره المُهْتاب يسمح لنا برؤية الطريق، بلغنا الحي، الأضواء الخافتة من بعيد تضيء الحي، أصوات الموسيقى لا تنقطع كما الحال، دخلنا الزقاق، ودّعته عند مَدخل تجمّعهم، على أمل اللقاء غدا، وجدتُ الرفاق ينتظرون، العشاء حضر باكرا كما افترضتُ.. ساكو قام بالطبخ اليوم، هو احترافيّ في كلّ شيء إلاّ البناء.. معكرونته اليوم مقبولة، تماما كطهي كايْطا، فقط أنا وإدْريْسو كنا نأخذ نقاطا هزيلة في الطبخ من الرفاق، حتى أعفونا منها طواعية، وجدتُ في ذلك مستراحا لخروجي مساء كلّ يوم لصرف العملة المزوّرة.

زحفنا على العشاء الأبيض المعجون ببقايا حبّات الأرز، الوقت واسع، للتسامر الليلي خارج الحي مع الرفيقين، أبلغتهما أن يتقدّما وأني أريد ساكو في أمر.. خرج الرفيقان، بقيتُ مع ساكو، قلتُ له:

(اخترعتُ حرفة ولا في الأحلام!! كنتُ عاقدا النيّة على احترافها؛ لكنني أخيرا قرّرتُ ترويج العملة الصعبة والربح السريع أو السجن المؤبّد!!).

حاضَ ساكو لمعرفة هذه الحرفة التي ابتدعتها، قلت له:

(أنْ تذهب للصيدلية وتشتريَ العوازل الذكورية وتنصب بجانب طاولة بيع السجائر، عندها سيكون الإقبال عليكَ كثيفا.. الكثير لم يفكر في ارتداء هذه الجوارب الذكورية، عندما يجدها جاهزة هنا ورخيصة سيشتريها، حتى المومسات سيشجّعن هذه التجارة، فهي تجنبهن السيدا كذلك.. لا ترفع السقف، هي رخيصة أصلا، لا يتعدى سعر العلبة في الصيدليات **"150 دج"**، تبيع العوازل بالتجزئة، بمبلغ **"50 دج"** فقط، فالروّاد والزبائن كثر.. ستجد نفسكَ تربح يوميا (**400** دج) وفي أسواء الأحوال **"300 دج"**).

مصابيحه الخارجية وفوانيسه الداخلية اتّقَدتْ، قال لي:

(يا لكَ من عبقري..).

تركته في عرسه.. تظاهرتُ بحاجة الإنسان، أخذت قطعتي السوداء المدوّخة من شق حائط المرحاض، التحقت بالرفاق، كانوا وقتها، قد انتصفوا في تدخين سجائرهم السحرية!! بدأ الانتشاء يلفّهم ويسافر بهم.. بَرمتُ سيجارتي لوحدي، أشعلتها، بدأت استقلّ في القدّاحة والسجائر والورق الشفاف واللّف أيضا والله.. طربت أنا الآخر، قلت بعدها للرفاق (ألم أقل لكم، إن ساكو برغماتي وإن تعفّفه عن هذه المشتهيات، إنما يعود بالأساس لشحّه على نفسه، لقد اقترحتُ عليه حرفة مسائية بديعة، لم يفكّر بها أحد من العالمين!!)، زادت النّشوة من قهقهة إدريسو، كايْطا سكتَ.. طبعا قدّروا في عقولهم أشياء كثيرة في الحقيقة؛ لكن لم يفترضوا الذي ذكرتُ

لهم وبشهادتهم.. بعدها سألني كايْطا بشيء من التدخّل، حول خروجي في اليوم الأول لترويج العملة المزوّرة، أخبرته (إن العشيّة كانت حافية وأن هناك أملا منشودا من بعد الغد..).

رنّ هاتف إدْريْسو، نظرتُ للرقم، الرقم يظهر أنه مسجّل عنده باسم رأيت حروفه من بعيد؛ لكنني لم أتمكّن من قراءته، تبسّم، فتحه:

(ألو.. أليْكسْ كيف حالك؟)

المُهاتِف يجيب حسب إدْريْسو:

(أنا بخير في تجمّع ليكامارادْ، الذي ينتهي بكلمة "الشّومارة"، كلّ الرفاق الستّة، الذين أتوا معنا يبلغونكم التحيّة، بمن فيهم باسلْ السيراليوني..).

إدْريْسو:

(نحن كذلك بخير في حي الشَّاطو..).

(هناك خبر جدّ مفرح، ظهر عندنا اليوم بتجمع "تَهَــGــارت الشّومارة"!!!!).

(ما هو يا أليْكسْ؟)

(الأمر لا يُقال بالهاتف.. نلتقي غدا مساء ونحكي..).

(أوكي أليْكسْ، تجدنا هنا بالشَّاطو مساء!!!).

(باي رفيقي..).

(باي مونْ كامارادْ..).

أغلق إدْريْسو الموبايل، بحثنا كثيرا في حفلة النّشوة، بثنايا مخّنا وزوايا رؤوسنا، عن أمر هذا النبأ الباهر!! الذي بشّرنا به أليْكسْ ولم يفصح به لنا.. أتعبنا أنفسنا كثيرا، وجدنا أنفسنا أخيرا، أننا ضيّعنا قَدرا كبيرا من متعة الطرب في اللاّشيء.. دون أن نصل لأمر يقيني، تركنا الأمر لغاية مجيء أليْكسْ غدا مساء، عندها (للبيت ربّ يحميه..) قال ساكو.

الوقت كان قد مضى كثيرا، الساعة تكون الحادية عشرة وثلث الساعة، انثنينا نحو أزقّة الحي، رأيتُ (إيـVــوارية) جميلة تقف عند مَدخل باب الرفاق (الإيـVــــواريين)، عشرينية، سوادُها فاتحٌ، تُظهِر كثيرا من خيوط دعامة نهديها البرتقالية، تبسّمت لي.. حرّكت فيّ الاشتهاء والله.. رددتُ عليها بابتسامة طويلة وعريضة!! أشار لها كايْطا أننا سنكون ضيوفا عندها في فرصة لاحقة.. بلغنا البيت، الحركة لا زالت في المطبخ، صراخ الأطفال قلّ، الرفاق ليكامارادْ لا زالوا يتسامرون هناك، ساكو لا زال مستيقظا على غير العادة، يبدو أن فكرة العوازل الذكورية، قد أخمرته.. تبسّم لي بسمة غير معهودة، ناداني أن أقترب منه، فعلت، قال لي:

(غدا مساء سأخرج معكما، أنت ورفيقكَ جورجْ، نشتري – نحن الثلاثة – ما يقابل عددنا علبا، أدفع لكلّ منكما ثمن العلبة، أنت تعرف أن طلب ثلاث علبٍ من الواقي دفعة واحدة، سيثير دهشة الصيدلي وتحفّظه!!).

استدركه كايْطا بالقول:

(بالعكس يا ساكو، الجزائر أدركت استفحال "السيدا" هنا بطاما، أعطت وزارة الصّحة عندهم، تعليمات للصيادلة، أن يرغّبوا الناس في شراء العوازل، رغم تحفّظ بعض الجمعيات الدينية عندهم، من هذه الناحية كن مطمئنا يا ساكو..).

فاضت على وجنتيه بهجة عارمة لهذا الخبر المُفرِح، الذي أنبأه به كايْطا. أما أنا فكنتُ واثقا من جديّة الكهل في رغبته بمبادلة العملة الصعبة المزوّرة في اعتقادي والسليمة في فؤاده طبعا.. كلّ هذا مع تبسّم تلك (الإيـVــــوارية) الجميلة لي وما تبقّى من جذل الحشيشة في رأسي، جعلني أسعد مخلوق في هذه الليلة والله!!

مرّ يوم الخميس كاملا كبقية الأيام الأربعة من بداية إقامتنا، نهضنا في اليوم الموالي، تابعنا أشغالنا في الورشة كالعادة، كايْطا كان كلّ شيء عنده بحساب، يريد أن ينهي اليوم، تسقيف المسكن الأول، صالة بمساحة (12)

م2، غرفتين صغيرتين (9)م2، حمّام (4)م2، مرحاض (2)م2، رواق (6)م2، مساحة كبيرة نوعا ما، احتقنا الدم في عروقنا طيلة النهار وأكملناها بعد ضَنى.

أقلّنا المقاول كالعادة لمكاننا المعهود، اشترى كايْطا، أرزا، خبزا، دلف للجزار المقابل، اشترى لنا (500غ) لحم جمل، تذكّرت أن ضيفا عزيزا سينزل عندنا الليلة.. كنا قد تواعدنا معه بالأمس عن طريق الهاتف وأنه سوف يسرّ لنا بخبر فاتن. أووووف.. مرّت مدّة كبيرة لم نذق فيها اللحم، منذ تلك الليلة بمارسيليا ليكامارادْ، لم يُسَلِّم هذا الأخير على أسناننا.

عند وصولنا للحي في حدود الساعة الرابعة، كنا من الأوائل اليوم في العودة، معظم الأقدام المرسومة على الطريق الترابي للحي خارجة، حتى الحلاّق والحدث، لم ينصبا بعد، عند مرورنا بمكان طاولة بيع السجائر بالتجزئة، قلت لساكو (هنا تنصب طاولتك غدا!!) التفتَ إليّ كايْطا وإدْريْسو، اللّذان كانا أمامنا، تبسّما.. الموسات هن الأخريات، لم يخرجن من جحورهن بعد، المهم كالعادة.. سرنا حتى بلغنا بيتنا.

أعدّ لنا كايْطا شايا مستعجلا، شربنا الشاي، أتى شخص يدقّ الباب يسأل عن كايْطا، لعلّه يريد زَطلةً.. كثيرا ما كانوا يأتونه عند الباب، يخرج لهم، يرجع لغرفته، نسمع خرخرة الحقيبة ثم يعود لهم، ضاع كايْطا مع هذا الأخير زمنا طويلا خارج البيت.. خرجتُ مع ساكو للمدينة، مررنا على جورجْ، الرفاق لا زالوا يأتون من أعمالهم، خطاهم ثقيلة متثاقلة، كنا الوحيدينَ السائرينَ في الاتّجاه المعاكس، وصلنا مفترق الطرق، ودّعت جورجْ كالعادة، اكملتُ طريقي مع ساكو لإحدى صيدليات المدينة، كانت علامة الثعبان الملتوي لرمز الطب عند الإغريق.. كافية لمعرفة الصيدليات دون سؤال، موعدي مع الكهل بقيَ له نصف الساعة، مشينا نغزو الطرقات، حتى بلغنا محل الدواء.

ولجنا صاحبة اللّباس الأخضر، علب الدواء ترسم جداريات على رفوف الدّاخل، المصبوغ بالأخضر الفاتح، كانت هناك امرأة مسنّة تشتري الدواء، تلبس حجابا، استحيينا أن نسأل عن حاجتنا في حضورها والله.. تركناها حتى قضتْ وَطَرَها، الصيدلي شاب ثلاثيني، أشقر، أنيق، لحيته محلوقة، له نظارات طبية على أرنبة أنفه، حيّاه ساكو، طلب منه ثلاث علب عوازل ذكورية، لم يبدِ الصيدلي أدنى حركة، تدلُّ على التحفّظ، زادت قناعتي بما قاله كايْطا بالأمس لساكو.. أعطاه مبلغ العلب الثلاث (**450** دج).

خرجنا من دكّان الشفاء، تكتّمي على تميمتي (**G**ـــونْكي)، التي قد أوظّفها في أي لحظة طارئة، بفعل واشٍ أو في مخافر الدرك والشرطة.. جعلتني أستغفل ساكو وأحثّه على الرجوع للبيت، كان الأمر عاديا له، همّه في تجارته.. والله سيّدي المُخرج.. لو قلتُ له ابقَ معي، لن يفعل.. تعمّدت الإبطاء على الكهل خمس دقائق.. حتى يزداد يقينه بسلامة الوضع وأنه عارٍ عن التعجّل الذي يصيب أهل الزّور.. فيتعجّلون الأشياء.. وجدته مسمّرا كالوتد في مكانه سيف مركبته أفْ جي **45**، يلتفتُ يمنة ويسرة، اقتربت منه، عمّ السّرور خدوده، دخلنا مقصورة السيّارة، التي ركنها في زاوية متطرفة عن المارّة.

أخرجتُ الوسادة من تلافيفي الخارجية، إذْ كان لقبر الأوراق النقدية تلافيف داخلية وخارجية.. قال لي (إنه بحاجة لـ**"1500** يورو**"**) قيمة المبلغ بالدينار ضخمة!! عدّ لي ما يقابلها (كانزْ مليونْ سنتيم)[65] ياالله.. ما هذا الغنى الذي حلّ بحفيد غَنْدا، بين عشيّة وضحاها؟ كم أنت عظيم يا يوم الجمعة..!!!!

(رقصتُ رقصتي المعتادة..).

ردّدتُ زَبوري كالعادة:

65- 150.000 دج.

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).
بعدها قلتُ في بئري مخاطبا يوم الجمعة:

[[فيك يسّر الله لي بيع البقرة (بَكْتو) - ذكرها الله بالخير- بثمن غالٍ وفيكَ اكتمل نصاب الناقلة التي شحنتنا وفيكَ تذكّرت تميمة (Gـــونْكي) وأنقذتنا هذه الأخيرة من الموت بالصحراء الخالية وها أنتَ اليوم تتفضّل عليّ بسبعة ملايين ونصف المليون من السنتيمات الجزائرية بلا حساب!!!!]].

ما يماثل سبعة ملايين ونصف المليون، فسآخذ منه (10 يورو) في كلّ (100 يورو)، بمعنى سأربح (75 يورو)، يقابلها بالدينار (7500 دج)، المجد لكَ جلالة عيد الأسبوع.. الآن صرتُ غنيّا أو على حرف غَضارَة العيش.. صار بمقدوري تعجّل الرحلة نحو الشّهد.. في أقرب فرصة ممكنة.. المهم فصلتُ حصتي المربوحة عن المبلغ المتفق عليه.

تعجّلتُ الرجوع للبيت، النبأ الجَذَل، الذي قذفه في قلوبنا ألَيْكسْ بالأمس ولم يفصح عنه، أثار فيّ القَفْل سريعا للبيت وملاقاة هذا الأخير.. اتّصلتُ بجورجْ لأخبره بعودتي المستعجلة، هاتفه يرن ولا يردّ!! ما صرفتُ به عقلي، أن هذا الأخير كتمَ صوت نقّاله وسها عنه (والصلاة على النبي..) كما قال مشتري بقرتنا بَكْتو لعمي بامْبا، ذات يوم من أيام سعدي الجمعة.

هامش مدن الضواحي..

(الغربة والتيه)

(1)

رجعتُ للبيت مَزْطولا بربحي الوافر، حِيال مَدخل التجمّع، أشار لي ساكو بيده من بعيد، هذا الأخير يجلس جنب الطفل الحدث، على لبنة قالب إسمنتي، يضع أمامه صندوقا خشبيا، ربما ذلك الذي كان كايْطا يضع عليه المسجّل، رصّ عليه علب العوازل.. ترقد جنبها لافتة، كتب عليها (هنا بيع العوازل الذكورية بالتجزئة- الوقاية خير من العلاج- حياتكَ أفضل من "50" دج..) رغم أن العملية بدأت للتو في يومها الأول، غير أن الإقبال كان غير محتشم.

تهيّأ لي أن كَايْطا، وشى العاهرات، ألاّ يقبلن دخول الزّبون عليهن دون واقٍ وكان الأمر كذلك.. مازحته عند وصولي وسلامي عليه، أن يعطيني ثمن براءة الاختراع!! لو كان هو صاحب الاختراع لطلبه صدقا لا هزلا والله.. قهقه ساكو وقال لي بتندّره الفاكه (إن يديّ في شكوة اللّبن، إن لم تأتِ بالزبدة، فلا محالة تأتي بالحليب..) أخبرني أن رفيقنا ألَيْكسْ جاء، هو عند الرفاق.. ودّعتُ التاجر الصحيّ، متمنيا له التوفيق في عمله المسائي الجديد.

مررتُ أولا ببيت اللبيريينَ، طرقت الباب، خرج لي مُستقبلي الدائم، طلبتُ منه مناداة المزوّر، لحظات حتى خرج لي ذلك الرجل، كان متزنا كالعادة، سألني أولا عن رفيقي جورجْ، قلت له (إني افترقتُ معه كالعادة وقبل رجوعي هاتفته، رنّ هاتفه ولم يرد!!) صرف هذا الأخير الأمر مثلي.. قال لي (يكون قد نسى كتمان صوته، سيأتي مع العَشاء..) أعطيته المبلغ المصرّف بالدينار، ابتهج الرجل، صرف لي (**7500** دج) عدت للبيت كمن بُشّر بالجنّة والله.. كنت سعيدا جدّا!!!! لا أخفيكَ سعادة مُخرج الفيلم الأسطوري مغارة الصّابوق الغرائبي.. أني (رقصتُ رقصتي المعتادة..) بالطبع ردّدتُ مقولة حبوري:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

ولجتُ عتبة مَرقدنا، الضوضاء بالبيت هذا وقت ذروتها كالعادة، الرفاق النيجيريون من غيرنا، منشغلون بالعشاء، رفاق الغرفة، يلعبون الورق ويشربون الشاي، قام لي أليْكسْ، تعانقنا كثيرا.. أليْكسْ حكى للرفاق الخبر قبل مجيئي، دون أن أسأل، قال لي إدْريْسو:

(قال لنا أليْكسْ، إن هناك مالياني بمخيّم "تمَــGـــارت الشّومارة"، يبيع جوازات سفر مالية مزوّرة، مختومة من طرف شرطة الحدود بـ"تيمْياوينْ"، بمعنى آخر، أنكَ يا "دودو"، ستجتاز الطريق في الحافلات من هنا حتى مدينة "مَغْنية" حيث الحدود مع المغرب، بلا متاعب المساءلة في نقاط المراقبة الكثيرة والمتعددة عبر الطريق نحو الشَّمال!!).

سألتُ:

(مسألة الصورة واللّقب والاسم، ما موقعها من الإعراب يا رفاق؟)

قهقه أليْكسْ، قهقهة مجلجلة، أيقظت من كان نائما من الأطفال هناك والله.. قال بعدها:

(نحن الأفارقة ولعلّ ذلك من لطف الله بنا.. أن جعل التشابه "المرفولوجي" في وجوهنا كثيرا، كاليابانيين والكوريين والصينيين وهو ما يصطلح عليه في قاموس رجال الأمن بـ"البروفايلينغ").

استفهمتُ:

(كم ثمن الجواز المزوّر؟)

الأخير:

(أربعة ملايين من السنتيمات الجزائرية فقط..).

قهقهت أنا الآخر قهقهة (Gـــمْكَلية) هذه المرّة، قلتُ له في استغراب:

(أربعة ملايين وتقول بعدها: فقط!! ألا تعلم أن ما يعادل أربعة ملايين في حي "Gـــمْكَلي" بنيامي، تكفي معيشة أسرة كاملة، متكونة من أربعة أو خمسة أفراد، لمدّة عام كامل بأشهره ولياليه!!).

حمدتُ الله في سرّي، أن عثرتُ على حرفة تزوير العملة.. لولاها ما استطعتُ شراء الجواز.. بعدها ذهب كايْطا للمطبخ، أحضر العشاء، نوبتنا في المطبخ كانت وسطى اليوم، عشاؤنا اليوم دسم، فيه لحم جمل، كالعادة وضع القِدر جانبا، أحضر الماعون، صبّ الأرز المعجون مع اللحم، لحسن الحظّ، اليوم طبخ (السنِـGـــاليون) في نوبتهم الوسطى قبلنا أرزا كذلك، كان أمرا جيّدا وجميلا، الأجمل منه، الرفاق النيجيريون الذين سيطهون بالقِدر بعدنا.. سيستفيدون وينعمون ببقايا دسم اللحم في القدر لوجبتهم.. تركنا الأرز حتى يسكن قليلا، ذهب كايْطا للغرفة، أحضر صحنا صغيرا، تركَ فيه سهم ساكو من العشاء.. كما أن ألْيكسْ سيأكل بملعقة ساكو، الذي يوجد حاليا في مكانه المعروف.

تناولنا أرزنا ولحمنا بكلّ هَناءَة، علامات النُضْرة بادية عليّ.. كلّ الرفاق بمن فيهم الضيف، تكهّنوا سبب حبوري؛ لكن لم يسألوا.. أدخل كايْطا عشاء ساكو للغرفة، كان حريصا على عشاء هذا الأخير بشكل لافت!! خرجنا مع ألْيكسْ خارج الحي، سينام معنا الليلة، من الفجر سيذهب من هنا مباشرة لعمله، عبرنا الأزقة، حركة نشطة لنخاسة الأجساد.. ساكو وجدناه منشغلا مع أحد الزبائن، الزبون يشتكي قلّة دراهمه مع ما سيعطيه للمومس، كان ينقصه (10 دج) فقط لشراء العازل، شفع فيه كايْطا، قال للبائع بما يفهمه من الشواهد:

(كما تدينُ تُدان يا ساكو..).

عندها قبل ساكو بعد تردّد..

بعدها همس كايْطا في أذن ساكو، قال له:

(ألا تعلم أني كنتُ سببا في رواج سلعتكَ؟ لقد قلتُ للمومسات، إلاّ يقبلن الزبائن بلا واقٍ، لكون العوازل أصبحت في متناول الجميع عند المَدخل بثمن زهيد..).

أطْرى ساكو على رفيقه كايْطا، يكون قد بقيَ عنده واقٍ واحد ويطوي عمله، أخبرناه أن عشاءه بالغرفة، تفرقنا بعيدا، ألْيكسْ هو الآخر كان يتعاطى المخدرات ويبيعها كذلك بمُعَسكرهم هناك بـ(تهَــGــارتْ الشُّومارة). تذكّرت اللّحظة رفيقي جورجْ.. استأذنتُ الرفاق، ذهبتُ لبيت الليبيريينَ، سألت عن جورجْ، قيل لي (لم يعد بعد..) وإن مواطنيه منشغلون عنه أيضا، ما زاد من ضياعهم حياله، هاتفه الذي يرن ولا يرد!!

ثمّة أمر آخر لم يلتفت إليه أحد، إلا ألْيكسْ- رضي الله عنه- سيّدي مُخرج فيلم كامارادْ الدرامي.. ذهب هذا الأخير إلى القول (إن الدوائر الأمنية، عندما تقبض على المتّهم متلبّسا بالجريمة.. أول إجراء تقوم به، أن تفصله عن هاتفه النقّال.. وتترك هذا الأخير مفتوحا عمدا.. لاستقبال المكالمات دون رد.. حتى يتسنّى لهم معرفة الشبكة التي يتواصل معها..).

نَصحنا ألْيكسْ بعدم معاودة الاتصال برقم المُبْهَم..

شكرناه بالأطنان هذه المرّة وليس بالقناطير!!

ازداد قلقي.. استيقظت هواجسي.. تقرّب مني إبليس!! لعلّ الرفيق أصابه مكروه ووشى به أحدهم عند مخفر الشرطة وقبضوا عليه مُتنمّسا بالعملة المزوّرة.. رجعتُ للرفاق خارج الحي، كانوا يدخّنون الحشيش منتشين مطربين، توتري على الرفيق.. لم يتركْ لي طعم نَشوة الحشيش ولا زفاف غنيمتي من التزوير.. الأكثر من هذا، أني كنتُ قاصدا اليوم الدّخول عند تلك (الإيـVــوارية) الجميلة؛ لكن لم يعد لي ذوق في أيّ شيء.. كلّ دقيقة تمرّ، ألتفتُ فيها للطريق المُدخل للحي، علّني أبصر جورجْ المسكين وأستريح.. قضينا مدّة لا بأس بها، لم يعد جورجْ، الساعة حاليا الحادية عشرة، حتى الشوارع بدأت تتخفف من المارّة والقاصدين، الأمر الآخر الذي جعل الخنّاس يصادقني - كما كان يقول أبي- أني اتّفقت معه في المهاتفة، خلال خروجنا، ألاّ نبقي هواتفنا مغلقة أو مكتومة الصوت.

أجمعتْ كلمة الرفاق، على أن في الأمر خَطْبا.. قالوا لي (اتركْ الوقت واسعا حتى الثانية عشرة، وربما أخّره حتى الواحدة لتقطع الشكّ، فإذا لم يعد، فلا محالة أنه قد وقع في قبضة الأمن!!) عدنا للبيت، وجدنا ساكو قد أنهى حرفته ودخل، ساكو يتناول عشاءه، كان مسرورا جدّا بحرفته الجديدة وبما درّته عليه، كلّ طاقم الرحلة، الذى أتى معنا على الصراط يشفق على المُتّهم.. تعاطفي معه أكثر.. بعدها سألني ألْيكسْ عن رغبتي في الحصول على الجواز الملياني المزوّر؟ أبلغته بالموافقة.. قلتُ في فؤادي (المجدُ لكَ يوم سعدي الجمعة.. العظمة لكِ تميمتي الساحرة.. لولاكما ما طمعتُ بالجواز ولا حلمتُ بالهجرة هذا العام..).

طبعا إدْريْسو وافق، ساكو سكتَ.. كايْطا كان يفضّل البقاء بمُعسكر الشّاطو، قال لنا هذا الأخير (إنه قريبا سيترقّى في منصبه الشهر القادم أو الذي بعده، ليصبح قائدا عاما للحي؛ لأن القائد العام ينوي الهجرة هذه السنة، بعدما مكث وتدرّج في الرّتب هنا ثلاث سنوات..) تظاهرت بالذّهاب للمرحاض.. أخرجت المبلغ المطلوب لألْيكسْ، وضعتُ جنبا ما تبقّى من العملة الصعبة المزوّرة، افترضت أمرين، إن عدتُ لذلك المذكور ووجدتُ جورجْ قد آبَ.. أُبقي ما تبقّى منها لترويج الغد وإن وجدته وقع في قبضة الأمن - لا قدّر الله- أُرجع الباقيَ لصاحبه وأُطلّق المغامرة بالتراضي.

لبثتُ مدّة منشغلا بأمر جورجْ، تأخّره المُقلق، طرد عنّي بهجتي بغنيمة الزّور.. نظرت لساعة نقّالي، الساعة الثانية عشرة والنصف، قبل خروجي، حسبتُ المبلغ لألْيكسْ (أربعة ملايين)، ذهبت مسرعا كالمجنون لبيت الليبيريينَ، إذا بالكامارادي البوّاب، قبل سؤالي، رسم لي بيده إشارة النّفي في الهواء!!!! كان الباطرونْ الكامارادي المزوّر، قد أشعر ذلك الشاب، إن أنا

وَرَدتُ ثانية، عليه بمناداته، طلب مني الانتظار حتى يأتي رفيقه، جاء الرجل الملفّق متثاقلا، علامات الحيرة بادية عليه.. عيناه ذبلتا من الاحمرار، سألني قبل وصوله بخطوات:

(متى افترقتَ مع رفيقنا جورجْ؟)

(يكون الوقت ساعتها الخامسة مساء مونْ كامارادْ..).

نظر في ساعته، الوقت حينها الواحدة صباحا إلا ربع الساعة، هزّ رأسه بأسف.. قال لي بلا تردد (لا شكّ أنَّ رفيقنا لا محالة قد وقع في يد الشرطة!!)، أخرجت له المبلغ المَذكور.. ودّعته بحرارة ورِضى، أخيرا:

(باي.. باي..) قلتُ له.

شيّعني هذا الأخير، بابتسامة مغصوبة بأمر جورجْ.

قفلتُ راجعا للبيت.

لولا أن جورجْ رفيقي، لاستشهدتُ بها يستدّل به ساكو، وقلتُ:

(الحمد لله الذي نجّى موسى وغرّق فرعون..).

الرفاق تعمّدوا انتظاري، لمكاشفة النبأ.. دخولي عليهم بخيبة مفضوحة.. جعلهم يعلمون الخبر، بعدها قال لي كايْطا ووافقه ألِيْكسْ وطبع على قولهما إدْريْسو وساكو، أن بيع المخدرات أهون من بيع العملة المزوّرة، قلتُ له:

(كلاهما ممنوع ومآلها السجن!!).

كايْطا:

(صحيح ما تقول؛ لكن في تجارتنا لها، لا نتعامل إلا مع زبائن أهل الحي ولا نخرج بها للمدينة.. فبيعها بالمدينة أخطر، بعكس ترويج العملة، التي يتحتّم عليكَ تسويقها خارج الحي..).

وافقته على ذلك، قلتُ له ثانية:

(قرّرت التوقّف عن ترويجها وما بلغني من ربحها صار الآن يجعلني في وضع مريح.. مع ما سأقبضه من عَرقي عندكَ..).

ساكو كان متكئا فجلس، قال لكايْطا:

(وبكم ثمن عَرق اليوم عندكَ يا رفيق؟).

تبسّم كايْطا، وضّح لنا:

(لا تقلقوا.. ذلك رهين شطارتكم في العمل، عندما نكمل تسقيف المساكن الخمسة، ستحصلون على عَرقكم وأن ثمن الكراء والمعاش، سأقتطعه منه وفي الأخير نُصَفّي الحساب..).

وافقناه على رأيه، قبل نومنا، طلب منا ألْيكسْ، أن نذهب غدا للمصوّر بالمدينة، حتى يأخذ لنا صوّرا فتوغرافية، بغرض مطابقتها مع صوّر الجوازات المزوّرة، التي كانت تأتي من محترف مالياني يقيم بمدينة (برجْ باجي المختارْ) الحدودية، كلّف كايْطا أن يأتيه بها أو يرسلها له مع أحد ليكامارادْ من حي (تمَــGـــــارتْ الشُّومارة)، الذين يتردّدون على رفاقهم بحيّنا، فالتواصل قائم بين جميع مخيمات وتجمعات ليكامارادْ هنا بباريس، يتزاورون ويستضافون عند رفقائهم وأهل بلدانهم، كما حذّرنا من مغبّة إظهار جوازاتنا الأصلية، مخافة سقوطها في قبضة الأمن، غير أن ما حيّرني صدقا، قبل استرجاعي لصحوتي:

(هل من اليسير، العثور على صوَر جوازات مزوّرة، لوجوه بها ثلاث وخزات أفقية كما وجهي.. لجهة اليمين وما يماثلها لجهة الشِّمال؟).

تداركتُ وعيي بعدها، عندما خفّتْ لجّة توتري بسبب اعتقال جورجْ، تذكّرتُ ما رأيته كثيرا على وجوه أندادي وما قاله لي والدي قبل موته، من أن هذه الوخزات، هي أمارات منتشرة في عموم بلاد السّود، منها الأفقية والعمودية والمائلة، كما منها الوترية والشفعية والثلاثية وأحيانا الرباعية.

تأخّرنا اليوم في إطفاء ضوء الرحبة، جلّ الرفاق من حولنا ناموا، أعطى كايْطا لألَيْكسْ، فراشا مهترئا قليلا، كان خاصا بالضيوف، نامت الجماعة، تباطَأتُ بعدهم، شغلني أمر رفيقي جورجْ:

(ما عساه يكون؟

كم سيحكمون عليه؟

في كلّ الأحوال، مدّة سجنه ستكون طويلة جدّا..).

هكذا قدّرتُ الأمر.. بعدها نوّمتُ نفسي، فنامت بعد أرق طويل مونْ باطرونْ (كاميرا مانْ)..

(2)

مع بداية فجر السبت، انتشر خبر اعتقال جورجْ كالهشيم في حي (الشَّاطو) من عاصمة ليكامارادْ باريس.. بسبب ترويج العملة الصعبة المزوّرة، بينما نحن نشرب الشاي الصباحي، هتف مُنادي على كايْطا ليخبره بالواقعة، هو النائب الأول للقائد العام للحي كلّه، لذلك تقتضي التقاليد الكامارادية، إبلاغ القائد العام للمخيم بأي طارئ، مع نائبيه، الأول والثاني. الافتراضات السلبية التي نمتُ عليها بالأمس، جعلت الصدمة تأتيني بتردّدات مقبولة.. لا أعرف كيف هجعتُ بالأمس؟ ولا كيف تمدّدت؟ ولا على أيّ جهة واتاني النوم؟ المهم نمتُ. اندهشتُ وفغرتُ فِيَّ، عندما تحيّر ساكو، الذي نام جنبي بالأمس.

(رأيتُ فجرا عندما أشعلتُ المصباح، أن هناك خيطا أصفر مفتولا، يظهر من رقبتكَ..) تنبّه ساكو بلا ظنّ.

رميتُ ساكو بعيدا في وهمه، أفحمته بكلّ ثبات:

(هو حجاب للتحصين من العين، كتبته لي أمي، عند إمام جامع حيّنا "الــGـــمكلي"..).

بعدها حاولتُ صرف نظره بالأمر الجَلَل، الذي حلّ برفيقنا جورجْ، ساكو بلهجته وطريقته، التي لا يشبه فيها أحدا:

(يداه أوكتا وفوه نفخ.. كما يستشهد إخواننا العرب..).

تَمَزْمَزنا شاينا مع خبزنا الحافي كالعادة، خرجنا مع ألَيْكسْ، نُلقي بأجسادنا للخارج، كانت مشيتي متخلّفة عن الرفاق، صدمة جورجْ أثّرت علينا جميعا، وقعها عليّ أكثر والله.. كان رفيقنا جورجْ يبني هرما من الأحلام للعيش هنالك.. لا زلتُ أذكر، عندما أسرّ ذات مرّة في خلوتي معه (إن الأوروبيات الشقراوات، يفضلن الرجل الكامارادي الأسود، كون الرجل

الأوروبي باردا ولا يشبع لهن رغبة في الممارسة الجنسية، يصرفن عليكَ ويشوينَ لكَ اللحم ويقدّمنَ لكَ البيض والحليب ويسعينَ في تسوية أوراق إقامتكَ، المهم أن تدفع الفاتورة على السرير..).

بلغنا المنعرج، لا أدري كيف وصلناه.. توادعنا مع ألَيْكسْ، على أن يمكننا من الجوازات بعد إرسالنا لصوَرنا، كايْطا بدا قلقا لتأخر المقاول.. تمنّيتُ في خاطري، ألاّ يأتي هذا الأخير اليوم.. انتظرنا نصف الساعة ولم يأتِ، سيّارة بيضاء قديمة قادمة تتراقص.. نوع (405) "بيجو" الفرنسية، لوّح لها كايْطا بيده، جاءتنا تهتزّ كأنها جان.. لم تكن مَركوب أجرة، لا ترقيم فيها للتاكسيات، قال لنا كايْطا (إن الطوارق من أهل باريس يصطلحون على هذا النوع "كلونْديسْتانْ"[66]).

طلب كايْطا من صاحب السيّارة، أن يقلّنا للورشة، تفاهم معه على السعر، كايْطا ركب بجنب السائق، اقتعدنا أنا وساكو من الخلف، صاحبها ستينيّ، ثرثار مثلي من أهل باريس.؛ لكنه أسود مثلنا، أنفه مثلنا، شعره مثلنا أيضا، يضع نظارات شمسية رخيصة على عينيه، سأل عن إقامتنا، أكلنا، شربنا، هل نحبّ النساء البيضاوات، أم نكتفي بسلعتنا؟ كان يتمنّى لو تطول الطريق ليسألنا أكثر، كان متحرّرا جدّا، قال لنا كلّ شيء عن أسراره.. زوجته وخصامه معها.

وصلنا للورشة في حدود الثامنة، قال لنا كايْطا (إن المقاول ربما يكون اليوم مشغولا بأمر عارض.. علينا أن نسقّف البيت الثاني اليوم بلبنات الطوب كاملا..).

ساكو في خضوع:

(السمع والطاعة يا مولانا!!!!).

66- طاكسي غير قانوني.

(كونه أصدر تعليماتٍ أمس للمومسات، بضرورة عدم قبول الزبائن، دون عوازل..) في مناجاة مع خاطري.

منذ هذا اليوم، صرتُ مقتنعا بوقوع تقارب ما.. بين الرفيقين كايْطا وساكو، أتعبتُ نفسي كثيرا في معرفة سبب هذا الاقتراب المفاجئ بينهما، ما وصلت إليه- نادرا ما خذلني تخميني - أن شفاعته للعاهرات، بضرورة شراء ضريبة اللّذة عليه من قبل الزبائن.. كانت هي السبب، في هذه اللّحمة الجديدة بينهما.. لم يكن كايْطا يكرهنا أو يظهر شيئاً من امتعاضنا، أبدا.. لم يساورنا الشكّ في هذا، حتى في منامنا.

من الإنصاف وجب القول كذلك (إني كنتُ شديد الالتصاق والتجاوب مع إدْريْسو أكثر من ساكو) لكن سرعان ما تداركتُ نفسي:

(إن ذلك ليس بالأمر الجديد والطارئ، منذ طفولتنا كان هذا حاصلا، جدّيته وتقشّفه جعله بعيدا عنا قليلا منذ الصغر، المهم اقترابهما وتمتمتهما، زاد من التصاقنا أنا وإدْريْسو أكثر من أي وقت مضى.. حتى لم يعد الأمر بخاف على أحد منا جميعا.. هما يعلمان ذلك ونحن ندرك هذا..).

المهم صرتُ أخشى من الآن فصاعدا، أن أقول كلمة شاردة بلا قصد، عن كايْطا فينقلها له ساخنة من فُرْن اللّسان.. هو يفعل ذلك بلا حِشْمة والله.. سيّدي المُراهن على شريحة ليكامارادُ..

كالعادة أنجزنا عملنا اليومي بالورشة، أخيرا سمعنا بوق السيّارة عند مَدخل الورشة، صار ساكو يميّز زمّارة مركبة المُقاول عن غيرها أيضا، الأخير:

(إنه المقاول قد حضر..).

طاف المُقاول بناحية الأشغال، في حماس:

(على هذه الوتيرة، تبقى لنا ثلاثة أيام، لتسقيف المساكن الثلاثة الأخرى، نضيف يوما واحدا بعدها، لتثبيت الشبكة الحديدية ذات المربعات، مع زرع

الأسلاك الكهربائية بالسطح من طرف التقني الكهربائي، وفي اليوم الثالث الذي بعدها، يمكننا جلب آلة الخلط وصبّ الخَرَسانة..).
كايْطا:
(مونْ باطرونْ.. يجب ألاّ نستعجلَ.. علينا أن نمنح أنفسنا يوما إضافيا، لتتبع ما يمكن أن يكون من نقص، سهوٍ أو إغفالٍ..) ردّ على قوله مباشرة.
هزّ المقاول رأسه، معجبا برأي كايْطا.
كانت الساعة الخامسة وربع الساعة، حين انطلقت بنا سيّارة المُقاول نحو جهتنا المعلومة.. وأنا على سطح عربتها مع الرفاق بين الورشة ومنعرج أنْكوفْ، تذكّرتُ حبيبي جورجْ المسكين وحظّه التعيس.. (الحياة أشهرت كلّ دباباتها وقنابلها المتفجّرة نحوه، مات أبوه، قُتلت أمه.. لم تكتفِ هذه الأخيرة بإبقائه وحيدا، لعلّ هذا وحده ليس سهلا.. طموحه عجيب، رغم الخيبات التي تعرّض لها، اغتيل حلمه في المهد بلا رحمة.. هو الآن قابع خلف القضبان ينتظر المحاكمة..).
في اللّحظة التي كنتُ أفكر فيها، أن أستشير كايْطا في جمع التبرعات له، عبر كامل المخيمات الكامارادية الباريسية، بغرض تدبير محام ليرافع عنه وإن كنتُ في الحقيقة مدركا أنه لن ينجوَ من السجن الطويل؛ لكن مرافعة المحامي، قد تخفّف عنه بعض السنوات، فبدل أن يخرج وهو في التسعين من عمره، يتعجّل الخروج في السبعين.
أحسستُ بالسيارة قد تراخت، يد إدْريْسو تربتُ على كتفي، أن قد وصلنا المنعرج، نططنا من سطح العربة، أخبرْنا كايْطا برغبتنا في الذهاب للمدينة، قصد التصوير الفوتوغرافي، كايْطا اتّجه نحو الحي، ساكو ذهب معنا للمدينة، دون أن يذكر لنا شيئا عن أمر الجوازات الماليانية المزوّرة.. كنتُ أحسُّ فيه برودة ظاهرة لموضوع الهجرة وإكمال مشوار الطريق معنا نحو الفردوس.. لا سيما خلال اليومين الأخيرينِ، بدا ظاهرا للعيان التِحامه مع رفيقه كايْطا!! وصل الغدّار لأقرب صيدلية، انتظرناه حتى اشترى أربع

علب من عوازله.. بعدها تعذّر بأعذار واهية (أنه مريض ويشعر بالدوخة ولا يستطيع الذهاب معنا للمصوّر اليوم، قد يذهب للتصوير في وقت لاحق، من الغد أو بعده..) المهم رجع هذا الأخير للحي، أكملتُ مشواري مع رفيقي الدائم.

في سبيلنا نحو التصوير، استيقظت فينا تراكمات الأيام الأخيرة، في هذا التقارب المفاجئ، بين الرفيقين المذكورينِ.. هناك أمر غائب عنّي، حضره مجمعه إدْريْسو؛ لكنه لم يلقِ له بالا.. قال لي إدْريْسو (إني عندما خرجتُ متأخرا بعد العشاء، للاستفسار الأخير عن أحوال رفيقي جورجْ، أعطى لأليْكسْ مبلغ الجواز المزوّر (أربعة ملايين سنتيم)؛ لكن ساكو تعلّل بعدم وجود المبلغ معه حاليا ولم ينفِ أو يثبت رغبته فيه، أجاب عنه كايْطا إن المبلغ قد يكون غير موجود معه حقا..)، قلّبنا الأمر على عدّة وجوه مفترضة، خلصنا أخيرا، أنه يكون قد اتّفق معه على المكوث وعدم الذهاب معنا شَمالا.. كما رسمنا في خارطة طريقنا بمجلس فَضَا.. نحن لا نجبره على الذهاب معنا عنوة.. هو حرّ في اتخاذ القرار، الذي يختاره؛ لكن الذي حزّ في خاطرنا سيّدي المُخرج والله.. هو عدم مصارحتنا وردم ملح عِشرة السنين بفَضَا و(Gـــمْكَلي)!!!!

وصلنا بوتيك الكاميرا، أخذ لنا صوَرا آنية استعجالية.. انتظرنا خمس دقائق على كراسي الانتظار، كان المَحل كأنه متحف، صوَرٌ من كلّ الأنواع والأحجام معلّقة على الجدران، أحسُّ بميل داخلي لهذه العدسة الرهيبة سيّدي المُخرج.. لا أدري من أين أتاني العشق لها.. كم أتمنّى أن أكون مصوّرا.. صاحب المَحل أشقر، لطيف، لا يشبه أهل البلدة، كان قمرا هلّ عليه، أخاله من هؤلاء الذين يأتون من التّل الشَّمالي.. دسّ صُوَرَ كلّ واحد منا، في ظرف مربع صغير، سلّمها لنا، أعطيناه ثمنها كما طلب، مبلغ (**150** دج) للواحد، قفلنا راجعين، نخضُّ أمر علاقة الرفيقين، كما يُخضُّ الحليب في شكوة اللّبن.

(3)

أدركنا الحي بعد نصف الساعة من المشي، عند مَدخله، ساكو قابع في مكانه بجانب طاولة بيع السجائر، ينصب سلعته الميمونة.. الارتباك سافر عليه، نظراته مرتعدة تشكو الخجل، تظاهرنا بعدم معرفتنا الافتراضية لحميميته مع رفيقه.. سلّمنا عليه كالعادة، أشعلنا قليلا من مصابيح أسناننا في وجهه، ودّعناه وتركناه خلف ظهورنا متوغّلين في أزقّة الحي، الجَلْجَلة تعمر الأزقة والبيوت المفتوحة فيها، الجنس اللّطيف الكامارادي، يستعرض سحره بكلّ الطرق المتاحة، (الإيـــVـــوارية) الجميلة التي طبعتْ لي ابتسامة عميقة بابها مغلقٌ، لا شكّ أنها الآن ترفع ساقيها..

انتهينا إلى البيت، تغلغلنا من عتبته حتى بلغنا الرحبة، كايْطا خرج لغرض ما.. الرفاق من (السنِـGـــاليين) هناك يشربون الشاي، غير بعيد عنهم رفاق نيجيريون، البعض منهم ملتزمون بالصلاة، يحملون في أيديهم مسبحات، يخرجون بها حتى للعمل.. تقواهم وخشيتهم لله، أفضل من ساكو المنافق.

دخنّا سجائرنا أنا وإدْريْسو، لحظات حتى جاء كايْطا، سلّم علينا كما الرّوتين، عيناه كانتا تسترق النظر لنا، كان يدرك أنه خطف منا رفيقنا ساكو.. رفيقنا الخائن طمّاع ميكافيلي، يبيعكَ بثمن بَخْس، سيتنازل عنه هو الآخر، يوما ما إن وجد من هو أفضل منه.. لا لوم على كايْطا في الحقيقة (اللّوم على صاحب العِشرة والرفقة الطويلة وهذا هو المنطق..) قلتُ في عتمتي.

أخرج كايْطا أواني الشاي، أشعل الفحم في الكانون، هيأ المسجّل على الصندوق الخشبي، أثناء شرب الشاي، أخبرنا أن المُقاول في تلك اللّحظات، التي اختلى معه، أخبره (أننا بعد صبّ الخرَسانة مباشرة، سيصرف له مبالغ

العمل الجزافي الذي اتّفق معه وسيعطينا حقّ عَرقنا..). خبر مفرح على أيّة حال، يَلْكَمُ خبر جلوس جورجْ خلف القضبان، كما يخنق خداع ساكو ويركله ركلة على مؤخرته!!

بينما كنا نرتشف كأسنا الثانية، رنّ هاتف كايْطا، نظر لشاشته، تبسّم ونظر لإدْريْسو، قبل فتحه للاستقبال، قال له (إنه إبْراهيما) بعدها ضغط كايْطا على زر النقّال والابتسامة لا زالت ترتسم على محيّاه:

(ألو إبْراهيما..

أهلا رفيقي..

كلّ شيء تمام..).

يضيف كايْطا، مجيبا على ما سمع:

(هو معي رفقة مامادو أو دودو، لست أدري أيهما صحيح، مع أن الرفاق يدعونه بهما..).

يجيبُ هذا الأخير على سؤال آخر:

(آه رفيقهما الآخر، تقصد ساكو، هو في عمله المسائي..).

أسنانه البيضاء تنقشع أمام ميكرفون الهاتف، متبوعة بكَهْكَهة:

(هههههه.. هو يبيع العوازل الذكورية للزبائن، عند مدخل الحي وقد لاقت تجارته رواجا مذهلا رفيقي إبراهيما..) هكذا في صورة تندّر.

بعدها يطلب منه إبْراهيما، أن يمرّر الهاتف لإدْريْسو، تلقّف الأخير الهاتف في تصحُّر:

(أهلا رفيقي الغالي.. وأنت..

أجل نحن على وعدنا ولن نحيد..

قرّرنا..

اطمئن..

نتواصل لاحقا..).

أعاد الهاتف لكايْطا، ودّعه هذا الأخير، قفل الهاتف.

أكملت الرشفة الأخيرة من كأس الشاي، كان الوقت ساعتها المغرب، العشاء سيتأخّر اليوم، دورتنا تالية في المطبخ، طلب منا كايْطا الصوَر، حتى يتمكن من إرسالها لأليْكسْ بحي (تهَــGـــارتْ الشّومارة) مع كامارادي كاميروني يقيم هناك، التقى به عند القائد العام للحي، هذا الأخير من الكاميرون بحسب ما أخبرنا كايْطا وسيترك مكانه لكايْطا خلال الأشهر القادمة كما قلنا سيّدي مُخرج فيلم مغارة الصّابوق العجائبي..

(لماذا لا يوجد كامارادي نيجيري، في قائمة المناصب ولا الترشيحات لقيادة المُعسكر؟) حدّثتُ كايْطا في استفهام.

غرق في نهر ضحك دموعه:

(أنتم النيجيريون، محافظون، غير متحرّرين، أراكَ أنت وإدْريْسو وساكو بدعا عنهم، صحيح تأتينا نماذج متحرّرة منكم بين الحين والآخر؛ لكنها قليلة مقارنة بذلك العدد الضخم من أمّة ليكامارادْ المجيدة - وقاها الله مَتاريس سُبل الجنّة- حتى نحن الماليين، فينا المحافظ كذلك؛ لكن المُتمرِّدين مثلي كُثر..) قال لي بعدها.

دون شعور، تابع هذا الأخير:

(ربّما ساكو سنقلّده منصبا يوما هنا..).

لم يتدارك كايْطا الموقف إلاّ بعدما خرجت الكلمة من فمه، هي كطلقة الرّشاش سيّدي.. جذبكَ للزِّناد بالسبابة، يمضي بالطلقة، ولن تعود أبدا..

ارتبكَ المذكور كثيرا.. حاول أن يعيد ترتيب ذاته مستدركاً في تأتأة:

((**peut- être**) تفيد الاحتمال في الفرنسية، كما في كلّ اللّغات..).

تجاهلنا الأمر قصدا.. لعلمنا بمصائر الأمور كيف آلتْ إليه.. قلنا له (نفدَ حشيشنا، الذي اشتريناه عليكَ قبل أيام..)، كان تظاهرا منا فقط، لا زالت باقية عندي منه، قُطيعة صغيرة بحجم رأس الذبابة.. ذهب كايْطا لغرفته، سمعنا المغلاق الحديدي الأصفر لحقيبته يُفتح، عاد وأحضر لنا

قطعتين بقَدر بنان الإصبع، ثمن الواحدة كما طلب (500 دج)، لم نكن مدمنين لا أنا ولا إدْريْسو، قد تكفينا مدّة شهر.

خرج هو لتجمّع الكاميرونيينَ وخرجت أنا وإدْريْسو خارج الحي، أصبح لا همّ لي في المرور بهذه الأزقة، غير تلك (الإيــVـــوارية) الباهرة، الباب الذي كانت تجلس أمامه هذه الأخيرة، فيه مُسافِحة أخرى، لا أدري ما خبر تلك البرتقالية الجميلة.. المُنافق مشغول مع زبائن جواربه.. أشار بتحيّة اليد فقط، بادلناه سيميائية الحركة، اشتريتُ سيجارتينِ نوع (مالبورو) على الطفل الحدث. انزوينا هناك بعيدا، ليكامارادْ حلقات، البعض يشرب المشروب الروحي التقليدي، البعض يدخّن الحشيش والبعض الآخر الذي لا حيلة له، يستنشق الغراء وأشياء أخرى، كان الظلام يحجب عنا حقيقتها.

دخّنا سجائرنا الملفوفة، طلعت النّشوة، أغنتنا نشوة الحشيش عن ذلك المشروب الروحي القذر.. دوّخنا أرواحنا تدويخا عمديا، رجعنا للبيت، الناكِث لا زال منهمكا في شغله، عبرنا الأزقة المفضية للبيت، باب (الإيــVـــوارية) تقف فيه نفس المومس التي تركناها عند خروجنا، بدا لي جسدها مترهّلا، لم يوقظ فيّ شهوة الشبق، كما فعلتْ بي رفيقتها الجميلة.. رغم أحمر الشفاه، الذي كانت تضعه هذه الأخيرة على شفتيها، المذكور كان منطمسا في سواد شفتيها أصلا، رفيقتها الجميلة سمرتها حلوة والله..

كايْطا كان بالمطبخ يحضّر العشاء وقتها، كان صاحب طبخة اليوم يتفنّن في شراء أحجامها، حتى يذهب عنا تأفُّف عجينها السرمدي.. مرّة يشتريها رقيقة، مرّة متوسطة، مرّة أخرى غليظة، مرّات قليلة يميل لخيوط السباغيتي الإيطالية، ها هو أحضر العشاء، معكرونة معجونة طبعا كما توقّعتُ.. وضع القِدر ترتاح من حروب جوفها الضروس، أحضر الصحن، إناء الماء السّاكر من القِربة كما يقول المريتانيون بجانبه.

في قاموس كايْطا الغذائي، ليس شرطا التعاور والخلط بين العجائن والأرز، كان ذلك يخضع لمزاجه والله.. قد نتعشّى يومين أو ثلاثاً بالعجائن

ويأتينا بالأرز في اليوم الرابع وأحيانا لما يروق له، يراوح بينهما يوما بيوم، كان يعجبني هذا الاختيار؛ لكن لم يكن ثابتا عليه، أحضرنا ملاعقنا دون غسل، زحفنا للصحن، نلوكُ تلك العجائن البيضاء في أفواهنا، خلال فترة العشاء، أخبرنا أنه سلّم صوَرنا الشمسية للكامارادي الكاميروني المقيم بـ(تَهَـــGـــارتْ الشُّومارة)، الذي بدوره سيسلمها لأليْكسْ غدا مساء.

فضولي كان قويا، لأن أسأله عن حال الكاميرونيينِ، اللّذين وصلا معنا؛ لكني خشيتُ أن يذهب به الظنّ، أني من أهل الصنعة هههههه.. لكن نتفا عن أحوالهما أتى عرضا في حديثه المُقتضب، أن المثليين بتكتُّل الكاميرون، لهم غرف خاصة بهم ويستعملون أحمر الشّفاه كالنساء ويتوسّلون بدعامتي الصدر، تحت قمصانهم، لإبراز أثدائهم الضامرة، هذا ما قاله وسكتَ، ليته لم يسكتْ!!

تأخّرنا في نوبة العشاء، الوقت لم يسمح لنا بالخروج ليلا، انطفأت الأضواء، أبطأتُ كثيرا في النوم، غطيط أحد الرفاق هناك من أهل نهرنا، نغّص عليّ النوم، هو لم يكن غطّاطا كلّ ليلة، لعلّ حقيبته التي يتوسّدها، قد أمالت رأسه قليلا، سرعان ما حرّكَ رأسه فسكتَ عن إصدار ذلك الصوت المُزعج في خَرْخَرته.. التفكّر في رفيقي الليبيري المسجون.. طرد عني النوم والله.. موسيقى سعال حاد من أحد الشيوخ، تنبعث من هناك حيث المُتضرّعون.. هذا الأخير يخفت قليلا ثم يتكرّر، اغتنمتُ أرَقي في فكرة جمع التبرعات لرفيقنا جورجْ، تركتُ الأمر لمشاورة كايْطا بعد إنهاء صبّ خَرَسانته، هو من أهل الحلّ والربط بالحي وذلك ما كان.. حتى أتتني غائرة نوم فنمتُ.

هامش مدن الضواحي..
(الحيف والضياع)

(1)

قضينا ثلاثة أيام كاملة، في تسقيف المساكن الثلاثة المتبقية بلبنات القوالب الإسمنتية، أتبعناها بيوم واحد، لبسط الشبكة الحديدية ذات التربيعات وربطها بالأسلاك الرفيعة في الأعمدة الحديدية، التي ترقد على حافتي تلك القوالب الثلاثية التثقيب، قال لنا كايْطا أن باطرونه، يدعو هذه الأخيرة بقوالب (الورْدي)، لم أفهم كيف أُطلق عليها هذا الاسم عندهم؟ كلما فرغنا من مسكن، تتبَّعَنا تقني كهربائي، هو ليس من ليكامارادْ على أيّة حال، أخاله من أهل التّل الجزائري، أزْعَر الرأس، معتدل القوام، يضع قبعة سوداء على رأسه، أرنبة أنفه واقفة كالسيف، شفتاه رقيقتان، كان به عرج خفيف في رجله اليمنى.

أضفنا يوما لتقصّي الثقوب، التي تكون لا محالة في بعض اللّبنات، كنا نطَبِّبها، نأتي بورق أكياس الإسمنت، نبلّله في برميل الماء، ثم نغرزه هذا الأخير، بدكّ عود أو مقبض مطرقة، في تلك الفوهات والغيران، فحصناها كلّها والله.. الواحدة تلو الأخرى، حتى عاد الضوء لا يظهر من سقفها بالداخل.

في صبيحة اليوم الموالي، أظنّه يوم الجمعة، نهضنا مبكرين أكثر من اللاّزم، أحسست نهوضي في هذا الصباح ثقيلا جدّا، كيوم نهوضي متثاقلا من مسامير النوم، ذات صباحات (**G**ـــمْكَلي)، لبيع سيقان (**G**ـــورو)- رحمه الله- سيّدي مُخرج فيلم قضية العالم (كامارادْ)..

هي الصبيحة الأولى التي نَبُذُّ فيها نهوض أولئك الشيوخ لصلاتهم.. كنا نمنّي النّفس مستقبلا بنومة حتى الضحى من الغد، بعد صبّنا للخَرَسانة وقبضنا لأجر عَرقنا، ساكو مهتم بالأمر.. كأنه صاحب المشروع، بلا طلب

من أحد، ذهب للمَطهى، طبخ الشاي، أحضر الخبز في تكلّف مُمَجّ.. قَدْره بدأ يسقط في قلبي وعيني رفيقي الدائم إدْريْسو!!

أتانا المُقاول في هذا الصباح الاستثنائي، حتى منتصف الطريق غير المعبّد المُفضي للحي، شعاع ضوء الـ(هيْليكسْ) من البعيد، كان الظلام يعمّ الكون ونحن نثب لسطح عربة الأخيرة، سمعنا المؤذّن يُنادي لصلاة الصبح، تمتم ساكو لدى سماعه الأذان.. كما يفعل ذلك دائما تصنّعا، لا خشوعا لله.. كما يفعل رفاقنا مواطنونا ليكامارادْ المقيمون معنا، نباح الكلاب الضّالة هناك في المدى القَصيّ، يكسّر سكون ما قبل فجر باريس.

بعد استكمال صبّ الخَرَسانة، كالعادة عُدنا مَحمولين في ناقلتنا من عملنا الشاق، كان ذلك ساعة خروج المصلين من صلاة الجمعة، المناظر في الطرقات تتزيّن بالثيّاب الثُّلاجية، نَطّت في ذاكرتي، سيميائية اللّون الأبيض، يوم أتيتُ بقميصي الرياضي الأبيض.. ودخلتُ به على الرفاق في مجلس (فَضَا) ضُحى يوم مغادرتنا لـ(Gـــمْكَلي)، على أيّة حال اليوم عيد الأسبوع.. لي معه مُتَوالية في السعد والرقص، كما رأيتَ أكثر من مرّة سيّدي ضيف الجنوب..

كنا من الأوائل في العودة للحي، لم يكن في يومياتنا الكامارادية خارج الديّار.. أيام عطل أو أعياد.. وصلنا الحي، الحركة العامة شبه نائمة، خلا نشاز لأصوات قليلة من الموسيقى، عبرنا الأزقّة كما المعتاد من الأوصاف، أخيرا بلغنا بيتنا، دفعنا بأجسادنا المتعبة وسط الرحبة، جذبنا الحصير الأحمر لناحية الظّل، بلعتنا الأرض.. ساعدناها بتراخينا في الهبوط بحركة معانقة للراحة، نمنا ولا ندري كيف صَفعنا النّوم ودوّخنا.. كلّ الذي أحصيناه، أننا نهضنا بعد أن نشطت الحركة وعلا الضجيج أطراف المَأوى زمن العشيّة الضيّقة.

العياء لا زال يعبث بأوصالنا، زبون الصيدلية استأذننا وطار لهذه الأخيرة بالمدينة، لا أعتقد أنه تَبَتّل اليوم.. منذ أن ظهر لي منه هذا الزيف الأخير..

أصبحتُ أخْفُر تقواه.. أحضر كايْطا أواني الشاي، قمتُ بلا تلميح من أحد، أشعلتُ الفحم في الكانون، أخرج هذا الأخير المسجّل، جلسنا نرتشف الشاي، قلت لكايْطا بلغة إنسانية:

(رفيقنا جورجْ في السّجن الاحتياطي كما تعلم وقد فكّرت في جمع التبرعات له، قصد الاتفاق مع محام، علّه ينزّل سقف المحاكمة الجنائية المشدّدة!!).

رماني بنظرة شَزَر.. لم أفهم معناها إلاّ بعد ما قال لي:

(ستَبْلَح نفسكَ وترهق الرفاق معكَ، بلا جدوى يا دودو..).

أعرفُ عن طريق ثقافتي العامة، أن تدليس العملة، جريمة مغلّظة.. تضرب اقتصاد الدّول في الكبد وأن عقوبتها من المُنكرات العُظمى.. في نظر القوانين والشرائع الدولية بلا استثناء؛ لكني رغبت في الاستبانة أكثر، قلت لهذا الأخير:

(كيف ذلك؟)

قال بلا تردد:

(لن أطيلَ معكَ الحديث كثيرا في هذا الموضوع، جورجْ سيمكث في السجن المؤبد وانتهى.. لن أزيدَ..).

الوقت قبيل المغرب، هناك متّسع قليل للعشاء.. نوبتنا أولى هذه الليلة، كايْطا خرج لجلب العشاء، اختليتُ مع رفيقي الأزلي، أبلغته رغبتي في شراء نقّال متطور خردة، رغّبني هذا الأخير في الفكرة، اتّفقنا على الخروج للمدينة غدا صباحا، عملنا ختمناه مع كايْطا، صارت علاقته مع ساكو تؤذينا، الحركة باشرت نشاطها بالمطبخ ومعها ما يلحقها من تلك الأصوات المَألوفة بمثوانا ومَقاطِن المُعسكر الكامارادي.

(2)

عاد كايْطا من الخارج، يحمل العشاء، يبدو الكيس البلاستيكي الشفّاف، الذي كان يحمله في يده اليمنى منتفخا على غير العادة.. ثقبته بعيني الفضولية.. فيه أرز ولحم ملفوف في ورق.. كان جليا من حجم العظم، أنه غنم لا محالة، أحسبه رِطلا، إذا حدث وصدق حدسي، ستكون المرّة الثانية، التي نأكل فيها لحم الأغنام بباريس، بعد تلك القِطع الأربع من المايْناما، التي أكلناها نهار نزولنا بهذه المدينة الحالمة.. عند المالياني أدْيارا، سار في عروقي حبور عميق، إدْريْسو لا أخاله قد تفطّن.. كلّ همّه، أن يخلد إلى زاوية من الحصير ويسافر مع موسيقاه.. الليلة سيكون عشاء باللحم، مع قبض مبالغ جهدنا المكدود، الذي لا زالت أتعابه تشتكي منها عضلاتنا حتى الساعة.. بعدها أخبرنا كايْطا، أن العشاء كما ظننتُ، ربما هذا الأخير، لم يدرك أني استعملتُ كاميراتي..

الوقت مغرب أو بعده بقليل، حان وقت نوبتنا في المَطهى، قام كايْطا بالدور كالعادة، الاختلاف الوحيد، زيادة اللحم كما سمعتَ. الذين سوف يتعاورون على القِدر بعدنا في هذه الليلة، سيكونون من المحظوظين والله.. ببقايا الدسم في قاع هذه الأخيرة، ساكو في تجارته المربحة، صنعنا جلسة شاي متكلّفة بعض الشيء.. أصبحتُ أحسّ بنوع من القلق في هذا المُقام.. لا أدري كيف رَبا هذا الشعور بهذه الوتيرة المتسارعة؟ ما زاد من هذا الاحتقان، طريقة ساكو البدائية السمجة، في نكران ملح السنين وعِشرة الأعوام، يعمى بصره مع مصالحه، يبيعكَ ببصلة حمراء كبصل ضفّة نهرنا.. عندما يجد جَدَاء في الطرف الآخر.

ارتشفنا كأسنا الأولى، نهض بعدها كايْطا للمطبخ، أتى بالفائِرة، لم يضعها كالعادة عند طرف الحصير، أدخلها لغرفته، صبّها في الصحن، كنتُ

اسمع قَعْر هذه الأخيرة، يشتكي من حركة الملعقة، سَتَرَ المذكور ذلك الصحن (ما عساه يفعل هكذا؟) قلتُ في سراديبي. كنا في نوباتنا التي تكون أولى بالمَطْبَخ، نتناول عشاءنا في الحين، سواء قبل احتراف ساكو لتجارته الجديدة أو بعدها.. فيترك له نصيبه مُغطّى بالغرفة؛ لكنه شذّ هذه الليلة، حتى إدْريْسو انتبه لذلك.. ما ذهبتُ إليه، كان هو الحاصل بالفعل؛ بقينا مسجونين عن العشاء، حتى ينهي ساكو تجارته في الثانية عشرة والنصف، حَيف كبير وقع علينا.. (لماذا هذا الجور في حقنا؟) نبقى كلّ هذا الوقت، حتى يخلّص النَّكار بضاعته، بعدها يأتينا ذلك الأرز وقد برُد وعاف نفسه.

ارتشفنا كأسنا الثانية، لم يأتِ العشاء، امتعاضي بدأ ينفد.. طلبتُ من إدْريْسو أن نخرج قليلا خارج الحي، حتى نطرد هذا الوَلَه، الذي بدأ يتنَمَّسنا في البيت، خرجنا، تركنا كايْطا بالبيت، قضينا كلّ الطريق في تلك الأزقة في النميمة المشروعة بخصوص الرفيقين المذكورين وما فعلاه بنا.. بلغنا مَدخل الحي، بَشّ الماكر لينه الخبيث.. هو يدرك أننا مسجونون من العشاء، حتى يُنهي اكتداحه. رفع لنا يده بتحيّة مصطنعة، رددنا عليه مثلها بتصنّع، كان يقول لنا في أيام مودّته، قولة مشهورة:

(الذي باعكَ بـ "G‍ـــــورو"، بعه بقشوره..).

هو حريّ بهذا.. أعطيناه ظهرنا، جاءتني ريح كريهة.. ونحن نبتعد عنه قليلا، أعطيناه ظهرنا، قذفتُ هذه الأخيرة سرّا، نويتها في خاطري له والله.. تطرّفنا لناحية قصيّة، برمنا لفائفنا.. علّنا نطرد قليلا، من هذا الرَّهاب.. الذي بدأ يُلحق بنا في حي الشَّاطو من مدن الضواحي، دخنّا كثيرا، لم تكفِنا سيجارة واحدة، عاودنا ثانية، الوقت لا زال واسعا، الساعة لا زالت الحادية عشرة، يلزمنا ساعة ونصف الساعة، حتى يُكمل القوّال - غفر الله له - بيع عوازله. تعمّدنا ازدراد أكبر قَدر من الوقت خارج البيت، حتى مبلغ عَرقنا، لن يعطيه لنا كايْطا، إلاّ بعد عودة رفيقه الجديد!!

خلال هذه الفترة، تذكّرتُ جوازات السفر المزوّرة، التي دفعنا مبالغها الباهظة لأليْكسْ وأرسلنا بصورنا له مع الكاميروني الكامارادي، لم ننسَ الأمر مطلقاً.. تركنا الوقت موسَّعا؛ لكننا قلّبنا الأمر في عقولنا، أنه لو عثر لنا هذا الأخير على صور مورفولوجية مشابهة، لأرسلها في الحين.. هو شخص نزيه وضعنا فيه ثقتنا بخلوات الموت.. كيف لا نثق به في برّ الأمان؟ التفتَ إدْريْسو لساعة نقّاله، كان الوقت لحظتها الثانية عشرة، الجوع قطّع أمعاءنا.

قفلنا راجعين للبيت، ساكو وقتها بالكاد يجمع علبه الفارغة ولافتته الإشهارية، التي ابتدعها له رفيقه الجديد كايْطا (الوقاية خير من العلاج)، تبادلنا تحية مشبوهة من كلينا، لم ننتظره.. تعمّدنا ذلك في الحقيقة.. يستحق أكثر من هذا والله.. سيّدي صاحب الداكتيفون.. (لكنه لا يرتدع نتعب أنفسنا) قلتُ لرفيق العُمر.

دلفنا من باب البيت، كايْطا وجدناه قد عاد للتوّ، أخبرنا أنه كان عند (الإيــVـــــواريين)، أعطوه جوازا واحدا كان يحمله في يده، لم يقل لأيّ منا؟ لكني- والله- عرفتُ أنه لإدْريْسو، كنتُ معقّدا جدّا من هذه الوخزات الثلاث على خدودي، أخبرنا مُضيّفنا، أن أليْكسْ يبلغنا التحيّة مع أحد مواطنيه، كما أبلغه هذا الأخير، عدم وجود شبه مورفولوجي لي في صور الجوازات المزوّرة الجاهزة، التي جاءت من مدينة بُرْجْ باجي المختارْ الحدودية، حيث يقيم المزوّر، وأن صوَري أُرسلت إلى هذه الأخيرة خلال عشيّة اليوم، قصد نحتها في الجواز وستكون عندي، الجمعة القادمة.. في اللّحظة التي كان كايْطا يسلّم فيها الجواز لإدْريْسو، دخل رفيقه.. كان مرتبكا بعض الشيء، قلت لإدْريْسو عندما همّ كايْطا بإحضار العشاء من الغرفة (إنكَ من الآن صرتَ ماليا..) فتح إدْريْسو الملياني جوازه.. الصورة تقول (كأنّه هو..) والله.. الشبه كان كثيرا، استلّ الخِبّ رقبته، ألقى نظرة لصورة الجواز، استشهد كعادته:

(إن الله يخلق من الشبه أربعين..).

لم نضحك مطلقا؛ لكن بصراحة أحسسنا بنوعٍ من الافترار في نفوسنا من خرجاته غير المتوقّعة.. لم أخطِئ، عندما قلتَ لكَ بداية عن أوصافه سيّدي مولى القُبّعة.. إنه غريب الأطوار..

زرع فيّ تأخّر جوازي، محبّة عظيمة مع إبليس!! ذهب الخنّاس بي فيها لطرح عديد الاحتمالات، قلتُ بين أضلعي (حتى وإن سلّمنا بتلفيق صورتي بالجواز، من طرف المزوّر هنالك؛ لكن احتمال موته وارد، وقوعه في قبضة الأمن حاضر أو حتى هروبه بعد وشاية الحسّاد ممكن.. أشياء جعلتني لا أذوق بنّة اللحم الغنمي..) غير أن قول كايْطا، نقلا عن المَرسول (الإيــVـــــواري) بسنده عن أليْكسْ عن المكلّف بالعملية، إنَّ الجواز سيأتي يوم الجمعة، بذر فيّ نوعا من الاطمئنان، لسبب بسيط، أن مُتتالية حسن طالعي، كانت تأتيني يوم الجمعة دائما!!

امتعاضي من سلوكات ساكو ونعي عدم العثور على وسيلة عبوري الآمن للجزائر، حرماني من حفاوة قبض دراهم عملي عند كايْطا أو السؤال عن الاسم الجديد، الذي سيلبسه إدْريْسو المالياني من جوازه الجديد، كان إبْلاسي كبيرا، دعاني الأمر، لأن أكلّف إدْريْسو، بقبض مبلغي، انزويت في زاوية من الحصير، تكوّرت ككرة أكلة (هُرا)، أعطيتُ ظهري لرفاقي، وجهي للرفاق (السنِـGــــاليين)، الذين كانوا نائمين. الحركة كانت خافتة أو كادت أن ترقد هي الأخرى، الرفاق النيجيريون المتصوّفة.. لا يسهرون مطلقا، يستيقظون باكرا، الكهل ومن معه، بعضهم نام، البقية منهم على وشك.

العياء مع فعل تركيز المخدّر، الذي كانت جرعاته زائدة، مضاف إليها دوخة عدم وجود شَبَه مورفولوجي لوجهي، ألفيتُ نفسي بعد هذين الأخيرين، كاللّوحة الساكنة على الأرض، غرقتُ في بحر نومة عميقة. نهضنا بعدها متأخّرين من ضحوة اليوم الموالي، وجدنا كأس شاي واحدة في

الإبريق، اقتسمنا شربه، الخبز لم نجده.. آه يا ساكو.. إن بقيتُ [حيا] وعدتُ [سالما] من الفردوس، سأفضحكَ لرفيقينا عُسْمانو وغاريْكو.

بعدها أبان لي إدْريْسو عن سهمي من جهد مساكن الورشة، (مليون من السنتيمات الجزائرية للواحد..)، خصمَ منه مُشغّلنا وآوينا، نفقة الكراء والمعيشة، بقيَ للواحد منا (6500 دج)، الغادر كان قد قَطْرَبَ باكرا مع رفيقه الجديد.. لتفقد كُتل الخَرَسانة وسقيها بالماء، أخبرني إدْريْسو، أن كايْطا لم يعطِ لساكو شيئا في حضوره!! بمعنى أن سهمه سيكون زائدا علينا.. هذا أمر مفهوم، ما يمكن الجزم به سيّدي صاحب العطر الرجالي الباريسي.. إن علاقتنا صارت منقبضة مع ساكو وحياتنا في هذا البيت، أضحت هي الأخرى مُبَلْبَلَة!!

عباءة اليسوع..

(1)

بعد أسبوع من الانتظار القانط، المحفوف بكوابيس الاحتمالات السلبية بأمور الجواز ومع مرور الثواني ثقيلة كالساعات والأيام كالشهور، عرفتُ خلال هذا الأسبوع، الهويّة الجديدة لرفيقي إدْرِيْسو. لقد أصبح ماليا مسيحيا، يُدعى (باتْريكْ دومْبيلي) حسب الهوية سيّدي المُخرج..

مع ضحى يوم الجمعة، الرابع والعشرين من شهر أوت، رنّ هاتفي الشخصي، التفتُ لشاشته، إذا به رقم ألِيْكسْ، الذي كنتُ قد سجّلته، بومضة البرق أو قُل سرعة الضوء.. فتحتُ الهاتف في ارتعاد وقلق فاضح:

(ألو.. ألِيْكسْ..).

لم يكثر من حبّات تسبيح تحيّته كثيرا - هذا ما أفضله في مثل هذه الحالات- زفّ إليّ مُبشِّري بالخبر السعيد عبر كلمة السر التي اتفقنا عليها كذلك:

(''أعواد G ــــورو''.. قد جاءت من مدينة بُرجْ باجي المختارْ الحدودية فجر هذا اليوم يا دودو وإني أحمل هذه الأخيرة في يدي ولا أسمع بها أو قيل لي عنها، اطمئن..).

ثناء جمّ مني لألِيْكسْ:

- (أشكركَ عميقا يا رفيقي.. نلتقي مساء بأحد مقاهي وسط المدينة وندردش..).

- (باي رفيقي الرائع..).

(رقصتُ رقصتي المعتادة..).

ردّدتُ خلال رقصتي زَبوري:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

كنتُ أسمع بالفرجة، لعلّي عشتُ بعضها النّادر في حياتي البائسة؛ لكن هذه الأخيرة، لم أبلغ فرحتها إلاّ يوما واحدا والله.. عندما لمستني يد جاكلينْ النّاعمة ومرّرتها على شعر رأسي الجَعد.. تمنّيتُ يومها، لو يبقى الكف الناعم، لهذه الأخيرة على رأسي إلى الأبد.. هناك أمر آخر، عليّ البوح به هنا سيّدي مولى (الرّاي بَنْ).. أن رفيقي إدْريْسو - كثّر الله من أمثاله - رغم حصوله على الجواز المزوّر، كان قلقا معي لعدم وجود شبه مورفولوجي لي بالجوازات الجاهزة، شاركني هواجسي.. حتى صرّح لي هذا الأخير، أنه لن يهاجر، إلاّ معي.. وإذا لم يأتِ جوازي، فسيبقى معي حتى محاولة الهجرة العام القادم.. فقط قال لي (إذا بقينا، علينا أن نغيّر المُستقرّ..)، قلتُ بعدها في تلافيفي:

(رفيق كإدْريْسو لا تستعيضه حتى بالتبر ورفيق كساكو، تبعه بقطعة زَطْلَة!!).

هي الغربة والطريق، تريكَ من طبائع البشر، ما يستتر عليه العيش في الحضر.. صرتُ مدركا تماما، للمقولة التي تقول:

(سُمّي السّفر سفرا؛ لأنه يسفر عن حال الإنسان..).

أجل.. ينزع قِناعات الحضر ومساحيقه الزائفة..

مُتوالية سَعدي، هو يوم الجمعة حقّا، قلتُ لإدْريْسو:

[[فيه سهّل الله لي بيع بَكْتو بثمن غالٍ.. فيه اكتمل نصاب الناقلة التي شحنتنا.. فيه تذكّرت تميمة (G ـــونْكي) وأنقذتنا من الموت بالصحراء الخالية.. فيه ربحتُ بلا تعب سبعة ملايين ونصف المليون بلا حساب.. فيه كذلك قبضتُ مقابل عرقي مليونا من كايْطا.. ها هو جاء فيه جواز سفري وإطلاق سراحي..]].

رفيق مَجلس فَضَا ساكو، أصبح يصرّح جهارا وبلا وَجَل، أنه باقٍ هنا بالضواحي مع كايْطا.. خرجنا حوالي الساعة العاشرة والنصف صباحا للمدينة، سرنا من معبر آخر غير الذي اعتدناه.. صرنا نعرف المَداخل بعد طول إقامتنا، السبيل الأخير مختصر جدّا مقارنة بالمعتاد.

وصلنا البيت في حدود الحادية عشرة، بعد ضياعنا في المدينة، الحيّ شبه خال، وجدنا الرفيقين المتحالفين، قد عادا من تفقّد خَرَسانتهما، اشتريا لحما وأرزا، كايْطا كان جالسا على الحصير الأحمر، ساكو في المطبخ، حيّانا كايْطا كالمعتاد، ليست لنا مشكلة معه مطلقا، البيت كان خاليا، الطلاّبون هذا يوم بَختهم أمام المساجد، لن يرجعوا حتى العشيّة، الرفاق الآخرون الزّهاد من أهل النيجر والرفاق (السنِـGـــالين) في أعمالهم، أخرج كايْطا صينية الشاي، أشعل الكانون، برمنا سجائرنا الملفوفة، دخّنا مُخدّرنا هذه المرّة بالبيت، هي أول مرّة نفعل هذا، طربنا..

عاد ساكو من المطبخ، يحمل القِدر، وضعه في مكانه المعتاد، لم يلقِ علينا حتى التحيّة!! كايْطا أحسّ بالحرج، أخرج ساكو الصحن من الغرفة، تعمّدنا عدم القيام لملاعقنا.. لم يقل لنا رفيقنا القديم تفضّلوا للأكل معنا.. استدرك كايْطا الأمر، في اضطراب:

(هيا دودو وإدريسو شاركونا..) قال.

اعتذرنا له، بأننا قد تدبّرنا غداءنا؛ لكنه أصرّ على أن نشاركهما الغداء، بعدها قمنا لملاعقنا، كان أرزا بلحم الغنم.. ساكو صار فقيها بالطبخ أكثر، رغم امتعاضنا منه، أكلنا أرزه بشراهة، نظرا لحلاوته وبنّة اللحم فيه، بعدها ألزَمْنا كايْطا أن يشاركنا السردين كذلك.. الثقيل ساكو، زحف لدائرة الصحن، لم نقلْ له (تفضّل) والله.. ألمْ أُشر لكَ من ذي قبل سيّدي صاحب القلم المذَهّب.. (إنه لئيم؟) أخيرا رحّبنا به، بعد شفاعة الرفيق كايْطا.

أصبح كايْطا مُحرَجا بين ضيفَيه - أنا وإدْريْسو - من جهة ورفيقه ساكو من جهة ثانية، سلوكاته كانت تظهر عدم موافقته على أعمال ساكو لنا؛ لكنه بالمقابل، كان يجاري رفيقه أو لعلّه كان يظهر ذلك.. وإلاّ كيف يسكت على حيف هذا الأخير؟ أليس بالنائب الأول للقائد العام للحي؟ الذي أعرفه مُقنّنا في السّجل الكامارادي، أن من مهام هذا الأخير؛ ردع الحيف!!

خرجنا مساء، لمُلاقاة ألِيْكسْ وعباءة هويتي الجديدة.. مع فرصة شراء هاتف نقّال مستعمل من سوق المدينة جهة الصّفصاف، كنت أبلغتُ رفيق العُمر، رغبتي في الحصول على هاتف يسمعني الأغاني ويكسّر رتابة حياتي، التي أصبحت لا تطاق بفعل التصرفات السخيفة لساكو.. الجوّ معتدل، بدأنا نلاحظ إرهاصات الخريف.. الناس منشغلون، حركة المركبات كالعادة، الملثّمون لا ينقطعون، لا يمكن أن يمرّ عليك نفر من البشر هنا، دون أن ترى اللّثام عليهم، هو من الرموز الملتصقة بالإنسان الطارقي.. بالمقابل يستحيل، تجاوز رهط من الخلق، دون أن ترى بشرتهم فاحمة، ليكامارادْ هنا، كما بجنوبنا والله..

انعطفنا نحو الشارع الدي يقع على الضفّة اليسرى للوادي، توغّلنا فيه حتى بلغنا مفترق الطرق، تنفتح أمامه ساحة واسعة، يقف وسطها تمثال لـ(سَبّيبة الطوارق)[67]، خلال وقوفنا وتمعننا لهذا التِّمثال، رنّ هاتفي، نظرت لشاشته، هو ألِيْكسْ.

- (ألو.. أهلا أليكسْ..).
- (نحن بوسط المدينة..).
- (أين نلتقي؟).
- (في مقهى الهُـGـــار..).
- (أين يوجد هذا المقهى؟).
- (آه.. أوكي.. دلني على معلم بقُربه..).
- (قرب تمثال سَبّيبة الطوارق..).
- (نحن حرفها..).
- (أوكي.. باي رفيقي..).

67- خمسة رموز مربعة بيضاء، تذهب الأسطورة الطارقية، إنها بمثابة كف اليد، تستعمل عندهم للزينة وعين الحسود..

أغلقت هاتفي، قلت لإدريسو (المكان ليس بعيدا من هنا..) تعمّقنا في الشارع المذكور، بانت لنا من بعيد يافطة مقهى مكتوب عليها (**Café HOGGAR**)، ألِيْكسْ خرج أمام باب المقهى، لوّح لنا بيده اليمنى، أشرنا له من بعيد بأيدينا كذلك.. وصلنا المقهى، سلّم علينا بحرارة، ولجنا المقهى، الحركة صاخبة، شباب من كلّ الجنسيات، جزائريون من كلّ النواحي، ليكامارادْ من كلّ الجهات.. الدخان كثيف، الموسيقى بلعتها أصوات الجالسين، كان مع هذا الأخير، رفيق كامارادي آخر، يجلس على الطاولة، اتّجهنا نحوه، نهض وسلّم علينا، قام ألِيْكسْ بدور التعارف:

(هذا رفيقي إدرِيْسوْ من نيامي..).

أشار لي:

(هذا رفيقي مامادو.. بإمكانكَ أن تدعوه دودو.. من نيامي كذلك.. سندعوه باسم جديد بعد حين!!).

ينظر لرفيقه الضاحك:

(هذا رفيقي روكْسْ، هو اسمه الجديد الذي ندعوه به.. لن تسمعوا اسمه الحقيقي القديم.. إلا إذا وصلنا مدينة "قبرص ليكاماراد"..).

يضع يده على صدره، يوجه الخطاب لي وإدْرِيْسو:

(ابتداء من محطّة المسافرين، يوم خروجنا من هذه المدينة المضيافة، عليكما مناداتي باسم جوازي المالي "فيْليبْ".. لا أقبل غيرها.. حتى نصل سالمين مشارف مدينة وَجْدَة المغربية..).

كان روكْسْ كامارادیا لطيفا، كأن الله خلقه ضاحكا.. معتدل، سواده ناعم، سنابل شعره مثلهما، كنتُ شاذا بينهم في شعر رأسي.

بعدها أشار ألِيْكسْ إلى جيبه بيده وهو يبتسم.. للدلالة على جواز سفري.. قال لي بعدها بصوت خافت جدّا:

(ابتداء من اليوم ستصبح ماليا يا مامادو، سندعوكَ باسمكَ الجديد.. كما ستكون مسيحيا مثلنا.. أشار بيده للصليب في رقبته!!).

بعدها سأله رفيقه روكْسْ، في غرابة وهو ينظر لشعر إدريسو المُجَدّل:
(إدْريْسو يبدو كحالنا نحن "الإيـVــــواريين" شعره كعناقيد الموز عندنا!!).
دون هذا لم يتكلّم هذا الأخير قط، لكَ أن تفسّر ضحكه كلاما.. قال لنا رفيقنا أليْكسْ (إنه جاره بموطنهم الأصلي.. فقد أهله جميعا في الحروب الأهلية الأخيرة ببلدنا، حتى اختلّ عقله..).
كان أليْكسْ خلال زيارته لنا في الأسبوع الماضي بالحي.. قد لاحظ برودة ما، بيننا وبين ساكو.. تختلف عمّا كان قد تركه على حالنا عند فِراقنا.. في أول أيام قدومنا.. أدركتُ أنه أحسّ بأمر معين؛ لكنه لم يسألْ.
كاشَفْنا أليْكسْ بالحقيقة وأوضاعنا المستجدّة مع ساكو.. لم نذكر كايْطا مطلقا، ليست لنا مشكلة معه في الحقيقة، إنما مشكلتنا مع رفيق مَجلسنا.. عندها صارحنا أليْكسْ، أنه لاحظ ذلك، خلال مبيته معنا تلك الليلة، (كان باديا، التصاق ساكو بكايْطا، أكثر منا..) بحسب قول هذا الأخير.
أليْكسْ يزرع فينا حقنة تهدئة:
(إذا كنتم تودّون تغيير الإقامة من هناك، يمكنكم الصبر مدّة شهرين فقط.. فقد قرّرتُ التقدّم شَمالا نحو "روما ليكامارادْ" بعد إنهائي لعملي مع أحد المقاولين وقبض مبالغي، فهي مدينة من مدن الأحلام..).
يضيف أليْكسْ:
(ما دمتما الآن قد تحصلتما على الجوازات مثلي وأصبحنا من جنسية مالية، فدخولنا من مالي بصفة قانونية، تظهره مصادقة شرطة الحدود الجزائرية بـ"تيمياوين"، فمن المفيد لنا التوغّل شَمالا، نحن الآن على أعتاب الخريف والشتاء على الأبواب ولم يعد يفصلنا عن شهر ديسمبر، سوى ثلاثة أشهر، "روما ليكامارادْ" مدينة رائعة، عرفتها خلال رحلتي السابقة، التي أكديتُ فيها.. لي بها رفاق في حي "أبْني وسْكتْ" أو كما يطلق عليه بعض السكان هناك، بـ"الحي الغربي" لكونه يقع في الضّاحية الغربية لمدينة أدْرارْ..).

التفتُ لإدريسو، دون أن أشعر، أشرتُ له بعلامة قبض اليد.. هزّ رأسه.. ساعتها كان النادل يمرّ سيفنا، طلب منه ألِيْكسْ أن يسألَنا عن رغبتنا، طلبنا قهوة مضغوطة.. ومع نشوة النبأ المُفْرِج.. واقتراب هروبنا من جحيم ساكو، أخرجنا علب سجائرنا ودخّنا نكاية في هذا الأخير.

أنهينا قهوتنا، خرجنا نحو سوق المدينة جهة الصّفصاف، لشراء موبايل، يُقدّم خدمة سماع الأغاني، خلال سيرنا أخرج ألِيْكسْ الجواز الأخضر.. أعطاني إياه مع سلسلة ذهبية صغيرة، عُلّق في واسطتها صليب ذهبي هو الآخر!! أدخلتهما في جيبي، مع كنّاش صغير، قال لي (بأنَّ في هذا الأخير؛ أقوال مأثورة عن المسيح..) فرحتي كانت ظاهرة بالأول.. وريبتي لم تكن خافية بما بَقيَ!!

ألِيْكسْ لاحظ عليّ البَلْبَلَة عندما قدّم لي الصليب!! قال لي بعدها:

(من الآن يا "روبنْسون كوليبالي" أصبحت ماليا.. مسيحيا..).

لا أخفي عليكَ سيّدي المُخرج.. أني تَزلزلتُ.. تَهَلْهَلتُ والله!!

في ذوات صدري:

(تغيير اسمكَ وهويتكَ يا "كوليبالي".. أمر مقبول.. تستبدل ديانتكَ ومعتقدكَ يا "روبنسون".. قرار صعب!!).

أضفتُ في بنات عقلي:

(كلّ شيء يهون من أجل تحقيق حُلمي.. سأعلّق الصليب في رقبتي وألبس عباءة اليسوع من أجل خداع رجال الأمن، أني مالياني مسيحي كما في جوازي.. في عميقي سأبقى نيجيريا مسلما وما يضيرني ذلك..).

استدركتُ بعدها في نفسي، بما يستشهد به المَلعون دائما:

(الضرورة تبيح المحظورة..).

تهتُ بعدها في مُنولوج داخلي أيضا:

(لو لم تقبلْ بهذا الخيار الحَرِج.. ستبقى هنا.. أو يعترض رجال الأمن طريقكَ نحو فردوسكَ المنشود بأول نقطة تفتيش، لن تذهبَ بعيدا.. سيكون

ذلك حتما، بالمَخرج الشّمالي لباريس.. ألمْ تكن تَردّد في حيرتكَ دائما [الرجوع ليس سهلا..]؟).

أخيرا قبلتُ بالأمر الواقع.. بإمكانكَ من اللّحظة سيّدي المُخرج.. أن تُضيف إلى قافلة أسمائي.. لقبا جديدا.. هو (كوليبالي).. رفيقي إدْريْسو، لم يقلّب انتحال هويّته واستبدال معتقده كثيرا.. عزا فعله بمقولة شهيرة، كنا نسمعها من الرفيق الغادر.. مفادها (الغاية تبرّر الوسيلة..).

في لُبّي:

(وداعا "مامادو".. باي باي "دودو".. تحياتي (ماحامادو).. سأعود لكم بعد وصولي [حيّا] [سالما] عند آخر نقطة من التراب الجزائري، حيث الحدود مع المغرب..).

أدخلتُ رأسي في سلسلة الصليب، صارتْ رقبتي محمّلة بمعلَّقين.. التميمة من الداخل، الصليب من الخارج.. مضى معنا ألْيكسْ ورفيقه روكْسْ، نحو سوق الصّفصاف، بُغية شراء مُسمع الطَرَب.. الوقت ساعتها العشيّة الضيّقة، حركة نشطة بالمدينة وشوارعها المفضية للسوق، وصلنا السوق، ولجناه، هناك في الزاوية اليمنى، قرب الطارقي بائع عباءات (البازان).. يخلد كامارادي، يحترف بيع الهواتف النقّالة المستعملة، ليكامارادْ هنا يشاركون أهل المدينة في كلّ شيء.. تقدّمنا نحوه.. ثلاثيني، فرنكوفوني مالياني، مسيحي، هو الآخر يعلّق في رقبته صليبا، لم أبادره بالسلام.. ألقيتُ عليه التحيّة.. رمق الصليب في رقبتي، تبسّم، ردّ عليّ التحيّة.

تركتُ الاختيار لألْيكسْ وإدْريْسو، اختارا لي واحدا مستعملا رخيصا جيل (Gــلاكْسي) لمّا وقر في قلبي، أن البائع الكامارادي متعاطف معي.. تكلّفتُ المطارحة معه في السعر، رفِق بي هذا الأخير والله.. أعطيته كما اتّفقنا مبلغ (3000 دج)، خرجنا من السوق، الوقت ساعتها المغرب، توادعنا مع ألْيكسْ ورفيقه المَعتوه، على أمل اللّقاء قبل الرحيل نحو روما ليكامارادْ بعد شهرين.

(2)

بعد شهرين من مُعاناة الغربة ومُقاساة رفيقنا الخَسيس ساكو.. أخيرا هاتفنا رفيقنا فيْليبْ.. أنِ الرحلة قَرُبتْ.. كنا خلال هذه الفترة المذكورة، قد عثرنا على أعمال متقطّعة.. من أجل مقاومة مصاريف العيش والكراء وبعض الشهوات البسيطة.. وبالتالي الحفاظ على ما كان عندنا.. فمثلا أنا، حافظتُ على (83000 دج)، المبلغ المذكور؛ هو حاصل تصريف ما تبقّى معي من عملة (سفا) مع ثمن عَرقنا بمارسيليا وحصادي المُعلن وغير المتّفق عليه من تزوير العملة صحبة رفيقي الليبيري المَسجون.. إضافة لثمن جهدي عند كايْطا.. مخصوم منها مساهمتي في البداية مع رفاقي الثلاثة، لأجل المعيشة والكراء وكذا شهواتي ورغائبي.. أخيرا ردّدتُ عبارة حيرتي الدائمة خلال سفرى، ملتمسا فى وسطاها معنى الخلاص هذه المرّة..

[[الرجوع ليس سهلا!! الوصول للفردوس ليس سهلا!! البقاء هنا ليس سهلا!!]].

في صبيحة ذلك الخميس الخريفي.. الخامس والعشرين من شهر أكتوبر، تحيّنا فرصة خروج ساكو من البيت، حتى لا نُحرج بوداعه.. ذهب لغرض ما خارج البيت.. بسرعة فائقة ودّعنا كايْطا، شكرناه كثيرا.. أوصاه إدْريْسو إن عاود رفيقنا (السنِـGــالي) إبْراهيما الاتصال.. أن يبلغه، بأننا كنا عند وعدنا.. وحاولنا الاتصال به مرارا قُرب سفرنا؛ لكن هاتفه مغلق.. كايْطا شاهد على ذلك، كونه جرّب الأمر ذاته مع هذا الأخير، كذا مرّة.

خرجنا من الحي الكامارادي العجيب (الشّاطو) قاصدين محطّة المسافرين بطاما، بعد دفن عميق لجوازاتنا الأصلية من تلافيفنا الداخلية جدّا.. وكذا قبر إسلامنا ومامادويتنا وإدريسيتنا معنويا في طمر سحيق من ذاكرتنا.. لقد كفانا فيْليبْ حجز التذاكر بالأمس ونحن نضع الحي المذكور خلف

ظهرانينا، تذكّرنا أيامنا بهذا الأخير، حلوَها.. مرّها.. الطريق النافد للحي فارغ.. كالعادة كنا متخفّفين، حقيبة على الظهر، زدنا فيها ملاعقنا فقط.. هذه الأخيرة، لا نستطيع التَّفريط فيها.. هي تذكاراتنا!! جالوناتنا المغلّفة هي الأخرى لم ننسَها.

عند المفترق، ألقينا التحيّة الأخيرة على منعرج (أنْكوفْ) وصباحاته المُضحكة.. بلغنا وسط المدينة، المشاهد تكاد تتكرّر، لا حاجة لمعاودة سردها ووصفها سيّدي المسحور بـ(ليكامارادْ).. خلا مصادفتنا لحادث مرور، بين درّاجة هوائية وسيّارة (ستيْشَنْ)، كانت هذه الأخيرة، تسير بسرعة جنونية من طرف طارقي ملثّم، داستْ الدرّاجة ومن عليها، أصبح رضوضا تحت عجلاتها والله.. كاميرات عينيَّ صوّرتْ كومة معجونة من دماغه الأبيض على العجلة الأمامية جهة السائق.. غير هذا لم أقوَ على الرؤية أكثر، لهول المشهد.

أُصارحكَ سيّدي مُخرج فيلم مغارة الصّابوق.. هي المرّة الأولى في حياتي، التي لا أكون فيها فضوليا.. حتى أنا تعجّبتُ من نفسي!! خلق غفير من المارّة تجمّعوا عند الحادث المروري، مركبة حمراء للحماية المدنية تقف عند الواقِعة.. الشرطة أتوا متأخّرين.. لسوء الحظّ صاحب الدرّاجة المَدوس كامارادي.. عرفنا من حديث الواقفين، إنه من رعايا دولتنا النيجر (عميقا).. ولكَ أن تقول سيّدي.. من مواطني جارتنا (ظاهرا).. المهمّ لن أُكرّر لكَ ضيفَنا.. خطاب هويتي الأصلية أو المنتحلة، كيفما تحدّثتُ لكَ بأحدهما مستقبلا، لا سيما خلال المسافة المذكورة.. فلكَ أن تقبله وتفهمه.

أثناء إكمال مشوار سبيلي، بعد صدمة نازلة الاصطدام.. استحضرتُ في نفسي قول يسوع المسيح حول مآل الظّالم.. كنتُ قد وقفتُ عليه في ذلك الكنّاش المُهدى لي من لدن رفيقي فيْليبْ:

[وَأَمَّا الظَّالِمُ فَسَينَالُ مَا ظَلَمَ بِهِ، وَلَيْسَ مُحَابَاة] رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي **3- 25**.

لم ننشغل كثيرا بالحادث، فوّضنا الأمر للرّب.. أكملنا طريقنا نحو المحطّة، وصلناها في حدود الساعة الحادية عشرة، الجوّ غائم، المحطّة كمجتمع النّمل.. الطوارق رجال ونساء.. توّاتيون، عين صالحيون، أولفيون[68]، البعض من أهل التّل الجزائري، جمع غفير من ليكاماراد، الماليون الحقيقيون والمزوَّرون وغيرهم.. موعد انطلاق الرحلة الثانية زوالا، بحسب مكالمة رفيقنا فيْليبْ، هذا الأخير لم يصل بعد، انتخبنا كراسِيَّ بأحد المقاهي الموجودة بالمحطّة، طلبنا كأسي قهوة، اشعلنا سجائرنا، تجاذبنا ذكريات طاما.. (حلم واحد لم يتحقق هنا..) قلتُ لرفيقي باتْريكْ، ندامة النيجيري مامادو في تضييع فرصة ابتسامة تلك الإيـVـــوارية الجميلة، بحثَ عنها كثيرا.. قيل له أخيرا (إنها انتحرت!!).. مع ما كابده من مكائد رفيقه ساكو.. خلا هذا لم يرَ إلا سعدا بهذه المدينة الجميلة والله..

بعدها توجّهنا نحو مطعم للوجبات السريعة، مكتوب على يافطته (FAST FOOD)، طلبنا قطعة خبز محشوّة بالبطاطس والبيض، بالمناسبة وحسب ملاحظاتي.. هي الوجبة الرائجة هنا لأمثالنا البؤساء.. (صحيح هنا في باريس هناك البؤساء.. لكن ليسوا كفقرائنا..) قلتُ لرفيقي باتْريكْ.

المهم تناولنا الوجبة السريعة برفق ولين هذه المرّة.. شربنا الماء من جالوننا.. لحظات وحضر أليْكسْ، بمعية رفيقه الضحّاك، الساعة وقتها الواحدة والنصف زوالاً.

حيّاني الأخير:

(أهلا رفيقي كوليبالي..).

رددتُ عليه بما أوصى:

(أهلا رفيقي فيْليبْ..).

بعدها صافح باتْريكْ.. تبادلنا التحيّة مع الرفيق روكْسْ كذلك.

68- نسبة لمدينة أولف التيديكلتية.

لم أغفل عن تقليب أمر تحية فيْليبْ ومصافحته لي قبل باتْريكْ، كنتُ في أيام نيجيريتنا.. وزمان إسلامنا يقدّمه عليّ أحيانا.. فهمتُ الأمر.. قلتُ في برزخي (صحيح إن باتْريكْ مسيحيّ؛ لكنه لا يعلّق صليبا مثلي.. ختمتها؛ لا شيء آخر غير هذا..).

أعطانا فيْليبْ تذاكر سفرنا، بعادة حب التطلّع، نظرتُ للاسم الذي يكون قد دوّن في تذكرتي.. قرأتُ:

(COULIBALI Robinson) !!

بدأ خلق الله من الطوارق وأهل البلد وشعب الله المختار – ليكامارادْ- يتقدّمون نحو حافلة نقل المسافرين، الرّزم والأمتعة، لم تكن كحال جنوبنا البائس.. الحافلات هي الأخرى، أفضل بكثير من حافلاتنا هنالك.. انسللنا نحو الحافلة المذكورة، هي على أيّة حال، بيضاء، كُتب عليها بالبنط العريض الأحمر (**TIDIKELT**)[69].

خلال تجمهُرِنا أمام باب هذه الأخيرة، كانت نظرات الطوارق وأهل تواتْ والبعض من أهل التّل، تسلِّط أضواءَها الكاشفة على رِقاب الرفاق الصليبيين- فيْليبْ وأنا وثلاثة أشخاص من ليكامارادْ آخرين- رفيقي الدائم باتْريكْ.. لم يكن معلّقا لهذا الأخير، كان في منجاة عن هذا الوضع المُقلق نوعا ما.. فهمتُ بعدها أن الأهالي القاطنين، يتذمّرون من رؤية تعليق الصُلبان في الرِّقاب.. صحيح سيّدي.. أصبتُ ببعض الارتباك من هذه النظرات في البداية.. لكني لم أكترث للأمر فيما بعد وضربتُ تلك النظرات في الأصفار، كما فعلنا عند وقوفنا عند مَدخل حي الشّاطو، أول مجيئنا لهذا الأخير.

69- منطقة تاريخية من المناطق الثلاث، المكونة لإقليم توّات الكبرى، تضمّ منطقة تيديكلت (أولف وعين صالح).

السائق يجلس مكانه، مرافقه يقف عند الباب، يحمل في يده الشِّمال ورقة بها جداول مملوءة، وفي يده اليمنى قلما أزرق (Bic)، ينظر هذا الأخير لتذكرتكَ، يُقابلها في ورقته، أخذنا أماكننا نحن الأربعة من الوسط.. رفيقنا روكْسْ يضحك، لا ينقطع عن الافترار.. يمشي وهو يضحك.. حاله وهو يقف أو يجلس.. مجموعة كبيرة من ليكامارادْ كانت تجلس في نهاية الحافلة.. الساعة الثانية إلاّ خمس دقائق.. شغّل السائق المحرّك، هزّة خفيفة لا تشبه حافلاتنا هنالك.

تحرّكت الحافلة دون تمايل لافت.. كما في حافلاتنا.. تعمّدتُ مقاربة ذلك بنسبة تمايل سنابل شعر باتْريكْ، كان الفرق جليّا.. شقّت بنا الحافلة الأطراف الشمالية لمدينة (باريس ليكامارادْ) عبر الطريق البري القُطري الجزائري رقم (01)، هو رقم السبيل نفسه، الذي دخله إنسان كامارادي نيجيري مُسلم اسمه (مامادو) من الجهة الجنوبية للمدينة المُغادِرة.. حيث الأحياء القصديرية، تماما ها هو يخرج منها الشخص ذاته، كامارادي مالياني مسيحي اسمه (روبنْسون) عبر مساكنها الهشّة أيضا، لا سيما عند عبورنا واجهة حي (تَهَــGـــارت الشّومارة)، قال لنا رفيقنا فيْليبْ (هنا كان يسكن رفيق كامارادي اسمه أليْكسْ..)، الرفيق روكْسْ يضحك.. أول نقطة مراقبة طرقية كَبَحْنا عندها، كانت أمام جامعة تَمَنْراسَتْ.. تمهّلت الحافلة قليلا، أشار لها الشرطي صاحب البذلة الزرقاء، أن تمضي لسبيلها.. كنا نعلم من تلك الأخبار المحصودة عن عالم الحَرْGـــة، أن نقاط تفتيش الشرطة أهون من الدرك.. شخصيا تمنيتُ صعود الشرطة والمطالبة بالجوازات؛ لكنهم لم يفعلوا.

بعد سعينا لمسافة (40) كلم من طاما شَمالا، توقّفنا توقّفا إجباريا، حركة غير عادية بين الرفاق ليكامارادْ في آخر الحافلة.. قيل لنا (إنها نقطة المراقبة للدرك الجزائري..) عند مفترق الطرق (أَبَلْسَة)، حيث مَخرج اتّجاه الحدود الجنوبية (تينْزاواتينْ وبرجْ باجي المختارْ)، قلتُ في فقّارتي أثناء قراءة

المَعطوف من العبارة الأخيرة (المجدُ لكَ يا "برجْ باجي المختارْ" لولاكَ لبقيتُ هناك أو ردوني من هنا..).
صعد الحافلة دركي يلبس بذلة خضراء داكنة، كان أشقر، معتدل القامة، أوصافه الأخرى عادية، سوى بروز فاضح لأذنيه.. تفرّس الوجوه عند مقدّمة الحافلة، تقدّم نحونا- نحن الأربعة- أولا، سألنا عن جنسيتنا، أجبناه (مالية)، طلب أوراق هويتنا، ناولناه جوازاتنا.. فحصها.. قلّبها.. أحدث تقليب صفحات الجواز صوتا، كصوت الأوراق النقدية المزوّرة الجديدة.. دون كلام أرجعها لنا.. توغّل نحو مؤخرة الحافلة، حيث أمّة ليكامارادْ.. طلب جوازاتهم بالفرنسية طبعا.. البعض منهم تذرّع بعدم فهم الفرنسية.. نادى الدركي على زميل له يُتقن التواصل الإنجليزية، خطب هذا الأخير، فيمن ضلّلوا:
(Give me your passport please).[70]
بهتوا!! تركهم في عُرس دهشتهم.. ريثما يجهّزون أنفسهم.. التفتَ الدركي لرهط قريب منهم، قبل وصوله إليهم، أخرجوا جوازاتهم المالية الخضراء.. قلتُ في باطني (ماليون حقيقيون..)، أخلى سبيلهم في أماكنهم، عاد للرفاق الذين سُقط في أيديهم.. غَمْغَموا.. أخيرا أخرجوا جوازاتهم، حمراء داكنة، حمراء قانية، سوداء، خضراء داكنة.. عرفنا أنهم من الكاميرون وليبيريا والبينين وكوت ديـVـوار.. طبعا وجدها دون تأشيرة.
أمروهم بحمل متاعهم، أنزلوهم.. قلتُ لباتْريكْ بصوت خافت جدًا:
(لولا التزوير لكنا مثلهم!!).
استدركني باتْريكْ بصوت واهن أيضا:
(التزوير عندكَ يا روبنْسون، يُحمل على محملين؛ احتراف تزوير العملة والجواز!!)

70- ناولني جواز سفرك من فضلك. بالإنجليزية.

تبسّمتُ، أشرتُ له بعلامة النصر.. بإصبعي السبابة والوسطى..
ربطتُ له:
(لولا الأولى ما أتتْ الثانية..).
كانت علامات الخيبة والانكسار بادية على الرفاق النازلين أو قُل المجرورين للنزول.. صدّقني سيّدي.. البعض منهم لم يتمالك نفسه، جرتْ من عيونهم وديان.. بعدها أمر الدركي سائق الحافلة بالانطلاق. الأرض عارية، إلاّ من بعض الشجيرات الشوكية هنا وهناك.. الجبال وأرض الحمادة الرمادية لا تزال ترافقنا، بعد ساعة ونصف الساعة، توقّفنا عند نقطة المراقبة العسكرية لمدينة (عَينْ أمْــGـــلْ)، الإشارة المرورية قالت (إنها تبعد عن طاما بـ "130" كلم) فحصوا الهويات.. (لا مشكلة..).

(3)

مع الغروب وصلنا منطقة (أَراكْ)، نكون قد قطعنا ما بين خمس ساعات أو ستّ ساعات من السير، قضيتُ معظمها مستمتعاً بأغاني (ماريكو) بواسطة سمّاعة هاتفي الجديد.. المنطقة الأخيرة، قرية صغيرة، تسكن الوادي، تُطلّ على تضاريسها الواطئة، الجبال العالية من كلّ ناحية، تناثرت في ذلك الوادي، سكنات هنا وهناك. توقّفنا عند نقطة التفتيش الخاصة بالدرك، كالعادة صعدوا.. قلّبوا.. فحصوا.. أخيرا (لا عائقة..).

غير بعيد عن نقطة المراقبة، انعطفت الحافلة جهة الشِّمال، حيث محطّة الوقود، شربتْ الناقلة حتى ارتوتْ.. اتّجهت بنا الحاملة قليلا، انزوتْ جهة اليمين، فور نزولنا، توجّهنا صوب مطعم بسيط، صاحب المطعم تلّيّ أشقر.. بدا لي أمازيغيا، كذلك الذي آوى الرفاق بمن فيهم مامادو وإدريسو وساكو وألِيْكس وغيرهم، بـ(مارسيليا) ذات صباح.. طلبنا وجبة من الأرز.. تناولناها، دلفنا لمقهى مجاور، لا يبعد كثيرا عن حال المطعم، شربنا قهوة مضغوطة، دخنّا سجائرنا.. حتى روكْسْ يدخّن.. نظرات أصحاب العمائم والعباءات من الركاب تتلقّف صليبي ورقبتي دائما!! قلتُ لهم في خاطري (لولا "كوليبالي" و"صليبي" لبقيتُ في "طاما" أو ردوني ردّا غير جميل من أول نقطة تفتيش..) بعد نصف الساعة، أعلن بوق الحافلة للركاب (اركبوا..).

الظلام عمّ الكون.. قامات الجبال تبسط هيبتها على المكان، هذه الأخيرة تظهر حتى في العتمة.. انطلقت بنا الحافلة شَمالا، ما زلنا نسير.. واللّيل يغطينا.. أنا شخصيا نمتُ والله.. لم أستيقظ إلاّ مع بداية تمهّل الحافلة، استعداداً للوقوف عند نقطة التفتيش العسكرية، عرفتُ بعد ذلك من خلال العلامة الطرقية، أنها تبعد عن مدينة عينْ صالح بـ(**130**) كلم. أشعل

السائق مصابيح الحافلة العلوية، صعد ضابط عسكري برتبة ملازم، يلبس بذلة خضراء أيضاً، مفتوحة قليلاً عن دَكْنَة الدرك.. البعض من أصحاب النوم الثقيل لا زالوا نائمين، مرّر هذا الأخير، ملامحنا في ماسوح عينيه الضوئي.. طلب منا وثائق هويتنا، مسحها ببؤبؤ عينيه ثانية.. هكذا مع الرفاق في الخلف.. (لا معضلة..).

كان الوقت ساعتها يقترب من الفجر.. نزل الضابط، أشار للسائق بيده (انطلقوا..) مع اقترابنا لمدينة (عينْ صالح) بدأ ضوء الفجر ينقشع وتختفي معه الظلمة، أصبحنا نلمس تغيّرا حتى في التضاريس.. الرّمال وسيوف عروقها، أصبحت تُلبِس الأرض حلّة صفراء.. اختفت الجبال تماما.. من البعيد تظهر هذه الأخيرة.. كلما اقتربنا تزداد صفرة الرمال تشابكا مع خضرة نخيل الواحات وحمرة البنايات الإسمنتية والطينية.. الحافلة تتمهّل.. نحن عند المَدخل الجنوبي للمدينة، بنقطة تفتيش الشرطة، لا أدري هل صعد الشرطي للحافلة أم لا؟ كلّ الذي أستطيع القطع به، أننا لم نمكث مدّة كبيرة عندهم.

انعطفنا غربا، عن الطريق القُطري الجزائري رقم (01) المتّجه شَمالا نحو مدينة (المَنيعَة) من محافظة (غَرْداية) وصلنا وسط مدينة (عينْ صالح) عبرنا الشارع الكبير، المدينة بسيطة، الرّمال تعانق كلّ الفضاءات.. البنايات حمراء، كثيرها إسمنتية، قليلها طينية، واحات النخيل في الأطراف.. توقّفنا عند مقهى بمَخرج المدينة، الساعة تكون السابعة صباحا، إن لم تخني الذاكرة سيّدي.. دخلنا المقهى، طلبنا قهوة بالحليب، قطعة خبز، بيضة مسلوقة، تعاملت معها مقاطع أسناننا وطواحن أضراسنا بمودّة.. دخنّا سجائرنا، مثانتي شكتْ الامتلاء، ولجتُ مرحاض المقهى، كذلك فعل رفاقي الثلاثة.

كنا نحن ليكامارادْ أصحاب الصليب ممن رضيَ عنهم الرّب.. وشملتهم عناية اليسوع.. أكثر من ليكامارادْ المسلمين، كانوا يشكّلون أقلية بالنسبة لنا في الحافلة.. لكننا نحن المُعلنين لمسيحيتنا، نتأذى أكثر بسهام الريبة من طرف

الرّكاب.. فكّرتُ كذا مرّة في إخفاء صليبي حذوَ تميمتي (Gـــونكي)، في الحقيقة تعمّدتُ هذا المظهر السلوكي.. غير أني قلتُ في نفسي (سيكون يسيرا على رجل الأمن، أن يربط اسم صاحب الجواز والصليب المُعلّق..).

تخفّفت الحافلة، من تسعة مسافرين بمدينة عين صالح، غادرنا هذه الأخيرة، في حدود الساعة الثامنة صباحا، صعد ما يملأ أماكنهم خمسة رجال وثلاث نساء وطفل حدث، كان باديا من بشرتهم القمحية، أنهم من أهل البلدة.. ونحن نعبر المَخرج الغربي للمدينة، عبر الطريق القطري الجزائري رقم (52)، كانت واحات النخيل تزداد بشكل لافت جدّا.. لا سيما ناحية قصر (البَرْكَة)، تضاريس السبخة المالحة هي الأخرى، تكتسح معظم المنافذ الغربية للمدينة، الحركة قليلة بالحافلة، الأطفال كانوا قلّة، الضجيج والبكاء لا يزدهر إلا معهم.

بعد سيرنا مدّة الساعة، توقّفت بنا الحافلة ثانية، عند النقطة الكيلومترية التي تبعد عن عين صالح بـ (60) كلم، الإشارة المرورية، نطقت كتابة، إنها نقطة تفتيش الدرك الجزائري بمدينة (إينْغَرْ)، فُتح باب الحافلة، صعد دركيان أشقران، واحد منهما يحمل كلاشينكوفا في يده اليمنى، هذا الأخير، كان طويلا جدّا.. أكثر من أطولنا دومبيلي، يكاد رأس هذا الدركي يلامس سقف الحافلة والله..

ألقى صاحب الرشّاش، نظرة فاحصة على الركاب، الصرامة بادية عليه أو هكذا أراد أن يظهر لنا هذه الأخيرة.. تقدّم نحونا- نحن الأربعة- أولا.. طلب جوازاتنا، أعطيناه إياها، نظر لصوَرنا، قابلها مورفولوجيا أو بما يصطلح عندهم بـ(البروفايلينغ)، قلّب صفحة ختم الجواز من طرف شرطة الحدود، وجد مدّة الإقامة لا تزال قانونية.. أعادها لنا بلطف، سرق خلالها نظرة خاطفة على صليبي الأصفر.. بدا لي أنه مرتاح.. قلتُ في خَلدي (الأمن الجزائري لا يهيبه منا- نحن الأفارقة- سوى أصحاب اللِّحى من تنظيم "القاعدة" و"بوكو حرام"..).

توغّل الدركي الطويل، نحو نهاية الحافلة، طلب من الرفاق ليكامارادْ وثائق هويتهم، أعادها لهم، قفل راجعا بالخلف.. وهو يلقي النظرة الأخيرة على الركاب، أخيرا استدار للأمام عند كرسي السائق، طأطأ رأسه كثيرا، نزل، أشار للسائق بالانطلاق.

عاودت حافلتنا الميمونة مُضيّها، الوقت ساعتها الضحى، الجوّ خريفي معتدل، الأرض قاحلة، هضبات هنا وهناك.. عروق الرّمل، التربة الجيرية أحيانا، الحمادة أحيانا أخرى، الجبال شبه منعدمة، النهار يتقدّم ومع سيره، تقترب بنا الحافلة التيديكلتية نواحي منطقة (أوْلَفْ)، أول قصر بانت لنا لوحته الإعلامية على الطريق، كان قصر ('تيْطْ) جهة الشِّمال، بعدها الطريق النافد لقصر (أقَبْلي) بالاتّجاه نفسه، أخيرا شارفنا مدينة (أوْلَفْ)، عبرنا منطقة طينية حمراء، توقّفت بنا الحافلة عند محطّة البنزين بها، نزل الركاب التّسعة، الذين أتوا معنا من عينْ صالح، صعد معنا كامارادِيان.. يبدو أنهما كانا يعملان هنا، عرفتُ من خلال سؤال مرافق السائق في حجزهما بالحافلة، أنهما فرنكفونيان يقصدان مدينة (رَGـــانْ) القريبة.

تبدو مدينة (أوْلَفْ) مأهولة بالسكان، بحسب بناياتها.. بعدها قلتُ لـرفيقي (باتْريكْ)، من هنا تمتدّ الأصول الأولى للتجّار التيدكلتيين في نيامي بالنيجر، كما لا أستبعد طوافي بعتبات دور البعض منهم، لا سيما عائلة (فرْجاني) المعروفين هناك بـ(أولادْ عَمّارْ)، عندما احترفتُ في سالف عهدي بيع أعواد (Gـــورو) – ذكره الله بالخير– المهم تركنا خلف ظهرانينا مدينة (أوْلَفْ)، شيّعتنا واحة كبيرة من أشجار النخيل، عند خروجنا من هذه الأخيرة.

قطعنا مسافة (100) كلم قاحلة بلا حياة، نزلنا سطح أرضٍ عبر منحدر، بانت لنا مدينة (رَGـــانْ) ونحن نعبر المنحدر النافذ للمدينة، قال لنا رفيقنا (فيْليبْ) وهو يشير لنا بيده الشِّمال، نحو منطقة "حَمودْيا" (وأنا أبحث عن تدوينات الرفاق عبر النّت، لمسار الهجرة نحو الفردوس.. مما ذكره أحدهم

عن هذه الجهة، إن منطقة "حَموديا" بـ"رَGـــانْ" شهدتْ تفجيرات نووية قوية من طرف الاستيطان الفرنسي خلال بداية الستينيات من القرن الماضي..).

الساعة تكون الحادية عشرة أو بعدها بقليل، المهم لم تصل منتصف النهار تماما، حين توقّفت بنا الحافلة بوسط المدينة، رجال بعمائمهم وعباءتهم، بيض وسود.. نساء بملاحفهن، الطوارق هنا كذلك.. ومعهم رفيقهم الدائم الماعز.. جنود كُثر ببدلاتهم العسكرية أيضا.. تبدو المدينة عسكرية بامتياز.. نزل الكامارادِيان بنقطة قصدهما.. أخلى السائق للمسافرين استراحة قصيرة، دخلنا المقهى، سمعتُ أحد الراكبين يقول لرفيقه (إنها مقهى خالدي)، النظرات ازدادتْ نحو صليبي ومعها رَبا إصراري على بقائه والتلذّذ بتعليقه.. تناولنا أكلا خفيفا.. زمَّر بوق الحافلة، صعد معنا ركّاب جدد، خمسة رجال طوارق معهم امرأة وطفلها وشابان أشقران، كان واضحا من شعر رأسهما المحلوق.. أنهما جنديان بإحدى الثكنات العسكرية.

استوينا في مقاعدنا، بعدها قال لنا رفيقنا (فيْليبْ) لم يبقَ لنا سوى (150) كلم، لنصل مدينة (روما ليكامارادْ) قلتُ في خاطري (شيء جميل، سندخلها زوالاً..)، سعت بنا الحافلة شَمالا بالطريق القُطري الجزائري رقم (06)، مررنا على قصر (تاغْرابْ)، هو آخر الأحياء التي تنزرع عند المَدخل الشَّمالي للمدينة، انثنينا بعدها شِمالا لمحطّة البنزين، تزودّت الحافلة بالمازوتْ، أكملت هذه الأخيرة سبيلها، الطريق معبّد، كما الحال من باريس إلى هنا.

خلال مسارنا شَمالا، كنا نعبر قصورا كثيرة جدّا، على شكل أرخبيل.. أغلبها إن لم أقل كلّها على شِمالنا جهة الغرب.. منها الصغير والمتوسط وبطبيعة الحال الكبير، لكلّ قصر قصبة طينية محصّنة بأبراج وسور، بها ضريح أبيض لولي صالح عندهم، يقيم له ساكنة القصر وعدة سنوية، قاطنو هذه القصور يختلفون في الأعراق.. منهم البيض والسود مثلنا.. لا وجود للطوارق بينهم، ثمّة أمر هام هو الآخر، يتمثل في وجود آبار فقّارات تأتي من

جهة الشرق، تتّجه نحو واحات النخيل غربا، يكاد هذا الوصف يكون عاما وغالبا على كلّ قصور منطقة (تواتْ) سيّدي مُخرج فيلم كامارادْ المُراهن عليه..

منها قصور ناحية (رَGــانْ) بدايتها (تيهادَنينْ)، نهايتها (آية المَسْعودْ)، بعدها تقابلكَ في العبور شَمالا، قصور ناحية (سالي) أولها قصر (أنْزَGــلوفْ)، آخرها قصر (بَرّيشْ)، تباشركَ بعدها في نفس الاتّجاه قصور ناحية (أنْزَGــميرْ) استهلالها قصر (تيلولينْ) أُفولها قصر (بَوانْجي)، لتصل بعدها قصور ناحية (زاوية كُنتة) صدرها قصر (أظْوى) لتمرّ وسط هذه الناحية الأخيرة، على قصر عتيد وعتيق.. يُسمّى (زاوية الشيخ المَغيلي)، كنتُ قد ذكرتُ لكَ نتفا عن الصومعة الشاهقة لمسجد هذا الشيخ، بمدينة (أGــادَزْ) النيجيرية، إن كنتَ تعي سيّدي.. لتصل بعده لقصر آخر وسطها، سُميّتْ الناحية باسمه، هو قصر (زاوية كُنتة)، قيل لنا (إنه قبيلة الرقاقدة من ''آل كُنتة''، التي تنزرع سلالتها هنا وعندنا بـ''مالي'' و''النيجر'' هي من أسّسته وعمّرته، تولّى سدنة هذا القصر الأخير بعدها، شرفاء يُقال لهم ''أولادْ السّي حَمو بَلْحاجْ'') لتصل عجز هذه الناحية، هو قصر (مَكّيدْ).

دخلنا بعدها ناحية أخرى، في نفس الاتّجاه دائما، هي ناحية قصور (تامَستْ)، رأسها قصر (أغيلْ) قدمها قصر (باعمَرْ)، قابلتنا بعدها قصور ناحية (فُنوغيلْ) فاتحتها قصر (سيدي يوسفْ) خاتمتها قصور (وَدْغا- بَنْهمي- العَلوشيّة- أغْباني- تاسْفاوتْ)، لتنعطف بنا الحافلة باتّجاه القِبلة بعض الشيء، عبر منعرج واضح، لتجد نفسكَ تنزل من هضبة، فتقابلكَ قصور ناحية (تَمَنْطيطْ) المشهورة تاريخيا، سمعنا (أن بها أسرة علمية، يُطلق عليها ''آل البكري'').. طليعة قصور هذه الأخيرة (نومَنّاسْ)، يكاد يكون هذا القصر الأخير مع قصري (أغَرْميانو) و(تيطّافْ) من قصور ناحية (تامَستْ)، نشازا لوقوعهم جهة اليمين، عبر كامل الأرخبيل القصوري،

الممتد بين مدينتي (رَGـــانْ) و(أدْرارْ).. لتصل منتهى قصور هذه الناحية، هو قصر (زاوية سيدْ البكري).

بعدها تجد نفسكَ وكأنكَ تصعد منحدرا خفيفا، لتطلّ بعدها على قصور ناحية (تيمّي)، مقدّمتها قصر (المَنْصورية) آخرها قصر (أولادْ أحمدْ)، قبل هذا الأخير، هناك قصر آخر له شذوذ الجهة، كالقصور الثلاثة المذكورة، هو قصر (بني تامر)، تحسُّ بعدها بتمهّل إجباري لنقطة تفتيش للشرطة، بلا سؤال عليكَ سيّدي.. نكون مع فترة الزوال الساخنة قليلا، عند المَدخل الجنوبي لمدينة (روما ليكامارادْ)..

(أدْرارْ)

روما ليكامارادْ

(1)

دخلنا روما ليكامارادْ (أدْرارْ)، زوال يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر أكتوبر، نكون قد قطعنا مسافة (**1180** كلم) من مدينة باريس، بمعنى آخر أني قطعتُ بـ"مامادويتي" و"كوليباليتي" من نيامي حتى روما حوالي (**3333** كلم) هذا الذي يهمّني سيّدي.. رقم مدهش.. توالي هذا التثليث في العدد.. وقفتُ عنده كثيرا والله.. وإن كان وقوعه مصادفة في الحقيقة؛ لكني وجدتُ له دلالات في ذلك الكنّاش الذي سلّمه لي فيْليبْ مع الصليب، فالثالوث يرمز لثلاثة أقانيم:

(الأب – الابن– روح القدس).

كما جاء في العهد الجديد:

(ركع أمام الطفل يسوع ثلاثة ملوك مجوس، الأشوري "بلتزار" العبري "ملكيور" الهندي "غاتاسيا" وهم ينحدرون من ثلاثة أجناس بشرية "سام"، "حام"، "يافث"..)

وفي الإنجيل:

(أن السيّدة العذراء ويوسف، وجدا يسوع في الهيكل بعد ثلاثة أيام..) "لوقا2/ **46**".

أول ما يقابلكَ من مَدخل روما الجنوبي، محطّة البنزين (بَوانْجي)، جمهور غفير جدّا من ليكامارادْ يربِضون الأرصفة، علمتُ فيما بعد، أنها محطّة كبرى من محطّات تسويق اليد العاملة الكامارادية هنا.. اتّجهت بنا الحافلة نحو المحطّة الطرقية للمسافرين، أغلب الذين كانوا يسيرون في الطرقات يلبسون ثياباً بيضاً، تذكّرت بأن اليوم عيد المسلمين.. تبدو (روما ليكامارادْ) نظيفة نوعا ما، مقارنة بـ(باريس ليكامارادْ) لا أثر لحد الساعة للطوارق وصديقهم

الحميم الماعز.. اللّون الأحمر للبنايات الإسمنتية والطينية، علامة سيميائية بارزة لا خلاف حولها.. أخيرا توقّفت بنا الحافلة بالمحطّة البريّة.

الوقت ساعتها الثالثة مساء، الجوّ خريفي، السماء صافية، حملنا حقائبنا وجالوناتنا، فيْليبْ يتقدّمنا، هو يعرف المدينة جيّدا.. قَصَدنا ناحية الجنوب، الحركة هادئة بوسط المدينة، أكثر ما شدّ انتباهنا، تشابه المعمار الأدْراري مع معمارنا الإفريقي، في مدن (أGـــادَزْ) و(طاوة) و(تَساليتْ) و(Gـــاوْ)، قال لنا رفيقنا فيْليبْ (إن الاستيطان الفرنسي هو الذي أدخل هذا النموذج المعماري إلى هنا من بلداننا الإفريقية، فبنى بالطين.. وسمّك الجدران.. وسقّف بجذوع النخيل.. وصبغ المظهر الخارجي لبنايات المدينة بالأحمر الطيني.. لامتصاص الحرارة القاتلة لهذه المناطق زمن الصيف..).

وصلنا بعدها ساحة واسعة، قال لنا فيْليبْ أيضا، إنها ساحة (ماسينا)، تنفتح فيها أربعة أقواس حمراء، عبرنا القوس الواقع في الجنوب الغربي منها، مكتوب عليه (باب بوبَرنوسْ)، لنجد أنفسنا باتّجاه الغرب في شارع (بودة)، شارع طويل جدّا، أضاف قائدنا (هو من أنشط الشوارع حركة وتجارة بروما..) فبالرغم من أن اليوم جمعة وعطلة، إلاّ أن الحركة بهذا الشارع بدتْ نشطة وغير عادية، لون الأمل.. هو الطاغي على ألبسة أهل البلدة، قدّرتُ في غوري (إن نزولنا بها، فيه فال خير لنا..).

في غائرتي ثانية:

(اللّون الأبيض سواء عند المسلمين أو المسيحيين، يدلّ على النقاء، الصفاء، الوضوح..).

سرنا على الأقدام زهاء الساعة، بدأت ملامح التحضر تتقلّص، كما أخذ الماعز في الظهور كذلك.. ملامح الطوارق بلثاماتهم وملحفات نسائهم المزركشة، هي الأخرى تتناسل، الأوساخ والقمامة تتكاثر، الرفاق ليكامارادْ بغزارة.. البنايات هشّة.. بلا تعريف أو تذكير من فيْليبْ، عرفنا أننا بحي (أبْني وسْكتْ) الذي قال لنا عنه بباريس قبل شهرين.

ونحن نتوغّل في الحي الشعبي المقصود، سأل دومبيلي فيْليبْ عن معنى (أبْني وسْكتْ)؟

قال له:

(إنه خلال السبعينيات من القرن الماضي ولما ضرب الجفاف شَمال دولة مالي، وقعت مجاعة كبرى هنالك، نجم عنها نزوح هائل للطوارق من تلك الناحية، فدخلوا الجزائر.. البعض منهم استقرّ بـ"برج باجي المختارْ" و"تيمياوين" الحدوديتين، البعض الآخر أكمل طريقه نحو الشَّمال، ليستوطن بـ"حي النّجاة" بـ"رَGــــانْ" وحي "أبْني وسْكتْ" بأدْرارْ المركز.

سمّوا الأول حي النّجاة؛ لأنهم وجدوا فيه الخلاص من جفاف ومجاعة الصحراء عندهم.

الثاني نعتوه حي (أبْني وسْكت)؛ لكونهم بنوا سكناتهم بلا بيع أو ملكية ومن هنا جاء معنى "ابْنِ واصمتْ").

تستطيع القول إن الحي المذكور، من هامش مدن الضواحي!! مثله مثل حي (الشّاطو)، الفرق بينهما، أن حي ضواحي باريس، خالص لأمّة ليكامارادْ.. بينما حي ضواحي روما، خليط، فيه الطوارق وهم الغالبية الساحقة، يسكن معهم البعض من أهل قصور المنطقة، بالإضافة لشعب ليكامارادْ طبعا.

ما زلنا نسير ونتوغّل عبر شوارع الحي البسيطة، حتى بلغنا باباً خشبياً لبيت طيني، دقّ فيْليبْ الباب، خرج لنا كامارادي فرنكوفوني، تعانق مع فيْليبْ كثيرا، بدا لي من ملامحه، أنه مالياني حقيقي.. حيّانا، رددنا عليه التحيّة، تصافحنا.. دخل مسرعا ليبشّر بالغائب العائد.. تبعه فيْليبْ مع إشارة لنا بالدخول، ولجنا، البيت عبارة عن رحبة أو قُل عنها ساحة كبيرة، الوصف الأخير مناسب لها لشساعتها.. تنفتح فيها ثلاث غرف كبيرة جدّا على شكل مراقد.

الأولى جهة الشرق، الثانية جهة الغرب، الثالثة جهة الشَّمال، الجهة الجنوبية من الساحة، ينفتح في زاويتها الغربية مرحاض وحمّام، كما ينفتح في زاويتها الشرقية مطبخ، التذكارات الحائطية موجودة هنا كذلك.. ربما هي لنفس الأشخاص الذين خلّدوا أسماءهم بحي (الشّاطو)، قيل لنا بعد مدّة من إقامتنا (إنَّ هذا البيت هو لأحد سكان المنطقة من تجار التمر التوّاتي بمدينة (Gـــاوْ) الماليانية) كلّف كامارادياً ماليا اسمه (توري) بقبض الكراء على المقيمين من ليكامارادْ.

لا أثر هنا للتجمعات السكنية لكلّ دولة كامارادية، كما الحال بضواحي باريس.. البيت هنا، يسكن فيه الرجال والنساء – مع تزامن ندرتهم– على السواء، من الماليين، الكوت ديـVـــواريين، الكاميرونيين، النيجيريين، السنِـGـــاليين، الغانيين، البينينيين، الليبيريين، السيراليونيين.... المهم أن تكون من شعب ليكامارادْ.. وقفنا وسط الساحة، الوقت ساعتها الخامسة مساء، تخفّفنا من حقائبنا بتلك الحركة الاهتزازية المعتادة لأكتافنا وأطرافنا.

خرج خلق كبير من أهل ليكامارادْ من مراقدهم، كانوا لتوّهم رجعوا من أعمالهم الشاقة، البعض منهم لم يعد بعد.. فيْليبْ ولج لأحد المراقد، سمعنا العناق وألفاظ التحايا من الرفاق القدامى له، بعدها خرج هذا الأخير، عند أحد المراقد، الذي كان لجهة الغرب، أشار بيده، أن نتقدّم نحوه، سرنا عابرين الساحة، وصلنا باب المرقد، أمرنا بالولوج، دخلنا، مرقد واسع، طويل وعريض، أكثر ما أقدّر طوله (20)م، عرضه (5)م، مسقّف بالزنك والأعمدة الحديدية، التي تشبه سكك الحديد، تنفتح منه كوّتان جهة الساحة، مصبوغ بدخان التدفئة زمن الشتاء، به تذكارات كامارادية أيضا.. علّقت في حيطانه أوتاد وأعواد كثيرة، تتعلّق بها ملابس بالية وحقائب مهترئة.

الكرتون هو الفراش الغالب هنا.. المحظوظ من وجد بطانية رخيصة وبسطها على كرتونه، في الحقيقة الرفاق اهتمّوا بنا.. فرّشوا لنا حصيرا

بلاستيكيا عتيقا، جلسنا، تعارفنا، فيْليبْ حلقة الوصل بيننا.. هذا رفيقي كوليبالي النيجيري.. وهذا دومبيلي النيجيري أيضاً وهذا ابن بلدي روكْسْ، أقرّ لكَ سيّدي.. أن الحيرة بدتْ جلية على الرفاق الماليين، كما الدهشة ساطعة على الرفاق النيجيريين، سأله رفيق مالياني حاذق:

(كوليبالي ودومبيلي ألقاب مخصوصة بالماليين، فكيف تقول لنا إنها لرفاق من النيجير؟)

قهقه فيْليبْ وأجاب:

(هل نسيتَ يا رفيقي أني كنتُ معكم المرّة الماضية باسم أليْكسْ وها أنا اليوم فيْليبْ المالياني..).

تبسّم المالياني السائل، هزّ رأسه بعدها.. عرف الرفاق أننا انتحلنا هوية جوازات مالية مزوّرة، لأجل المرور السلس بنقاط التفتيش، هو إجراء معروف في كواليس وهوامش عالم ليكاماراد، خلال هذا الحديث دخل علينا رفاق من العمل، كانوا خمسة، يحملون في أيديهم أكياساً بلاستيكية، بها أذرع خبز، أرز، شاي، سكر، فيهم كامارادي مالياني أخرس، يتكلّم بالإشارة فقط.. قصير بلا رقبة، نحيف، وجهه عريض، عيناه جاحظتان، كان هذا الأخير غريب الأطوار حقا.

أحضر الرفاقُ المُضيفون، صينية الشاي، كوّنا حلقات داخل المرقد، الرفيق الأخرس قام بإعداد طقوس الشاي، كان فضوليا أكثر من اللاّزم، نظراته لا تكاد تفتر من تصويري ومسحي ضوئيا مع رفيقي (دومبيلي).. ونحن نشرب الشاي، دخل علينا الباطرونْ الكامارادي (توري)، قيل لنا (إنه هو صاحب قبض الكراء) سأل عنا أحد الرفاق.. طلب جوازاتنا.. جاءني المرحاض!! قمتُ متظاهرا بقبض مثانتي.. ذهبتُ صوب الزاوية الغربية من الساحة، دورة المياه بلا باب، بسيطة، حالها لا يبعد كثيرا عن مرحاض حي (الشّاطو).. التفتُ لتلافيفي الداخلية، أخرجتُ جوازي الأصلي، وضعته في جيبي، أتيتُ الرفاق، تركته حتى يطلبني إياه.. لم يتأخر

في طلبه، أخرجته من جيبي، أعطيته إياه، فتحه، نظر في صفحة المعلومات ثم أغلقه، ضمّه لمجموعة جوازات الرفاق الثلاثة.. لم نسأل عن هذا الإجراء، نعرفه كتقليد جارٍ به العمل في الطقوس الكامارادية التهريبية والإقامية طبعا.

مع الغروب أكملنا ارتشاف كؤوس الشاي، آخر القوافل الكامارادية عادتْ، الحركة في أطراف الساحة والمراقد، تقاليد طبخ العشاء هنا يختلف عن حي (الشّاطو)، التقليد المعمول به هنا، هناك قِدر كبيرة جدّا.. كُلّف أحد الرفاق السنِـGـاليين بالطبخ، اسمه (كامارا) على أن يكون طهيه للرفاق، مقابل ثمن كرائه.. هذا الأخير نظيف، طعام يديه رائق، لم أذق في حياتي أرزا حلوا، مثل الذي يحضّره والله..

خلال فترة تحضير العشاء، خرجنا مع فيْليبْ خارج البيت، سألناه عن الحشيش، قال لنا إنه موجود بالداخل عند رفيقين من ليبيريا، الخمور التقليدية هي الأخرى موجودة؛ لكننا مججناها.. لمذاقها العفن وروائحها السمجة.. أعطيناه مبلغ (300 دج)، تركنا عند الباب بالخارج، دخل هذا الأخير، لحظات وأحضر لنا قطعة حشيش، بقدر ظفر الإصبع.. دخلنا ثانية، التمسنا مكانا قصيا عن الرفاق، فتتنا وبرمنا، دخّنا، عادت السعادة المفقودة.. تذكّرتُ أمي وأختي.. فانتابتني حيرة!!

قلتُ في دهليزي:

(أمي وأختي لا يعلمان شيئا عن "كوليباليتي" ولا "نصرانيتي".. سأهاتفهما كذات لا تتلون بتلوّن المجريات..).

الساحة ليلا مضاءة بمصباح مقبول الإضاءة، على أيّة حال أحسن من إنارة رحبة حي (الشّاطو).. التجمعات داخل الساحة للرفاق سيّدي.. مقسّمة على زمرتين، الأولى فرنكفونية وهي الغالب في العدد مع قلّة نفوذ في السلطة الكامارادية.. الثانية أنجلوسكسونية، قليلة العدد بالنظر لرفيقتها.. غير أنها نافذة الرأي.. طبعا شعوب ليكامارادْ من دول الساحل فقيرة نسبيا

مقارنة مع الدول الاستوائية وشبهها.. ليس هذا فقط، ثمّة أمرٌ آخر حيّرني حقا والله.. هو انقسام بعضنا في هذه الساحة بحسب التقسيم القبلي (الهوسا) و(الزرما).. الموسيقي لا تفتر كذلك.. النساء بالمُقام نادرات، رأيتُ ثلاث عجائز منهن فقط بالبيت وكاميرونية لا ينقطع الرفاق من فوقها، حتى مرضت..

لحظات.. سمعنا تصفيقا من لدن الطبّاخ السنِـGـالي (كامارا)، التصفيق هنا صوت يضيء له الوجه.. بمصابيح الأسنان البيضاء.. كما يعزف إيقاعا داخليا جميلا.. شكّلنا سبع حلقات، في كلّ حلقة زهاء العشرة، تذكّرنا ملاعقنا ورفيقنا الدائم.. نهضنا لحقائبنا، في مجتمع ليكامارادْ، عليكَ أن تكون دائم الالتصاق بملعقتكَ وإلاّ التَقَمْتَ بيديكَ.. الصحن وسط حلقتنا، تتكون هذه الأخيرة، مني أنا وباتْريكْ وفيليبْ وروكْسْ وأربعة رفاق من كوت ديـVـوار ورفيقين حقيقيين غير مزوّرين من مالي.. الإضاءة تسمح لنا برؤية الوجبة جيّدا، أرز ناعم، مسقي بالملوخية، فوقه قطعة لحم غنم، وزنتها في خيالي، ما بين (**300**)غ أو (**400**)غ، الأرز لذيذ (تربتْ يداكَ أخ الكامارادْ "كامارا"..) قلتُ في أعماقي.

عليّ أن أكونَ صريحا هنا أيضا سيّدي المُخرج.. لم أذق قط في رحلتي الكامارادية.. عشاء لذيذا كهذا.. ربما أذهب في القول إلى أكثر من ذلك (إني لم أذق وجبة ساخنة كهذه في حياتي كاملة..) قد تقولُ لي سيّدي المخرج.. (لعلكَ ذقتَ أحسن منها في مسكن "جاكلينْ"..)، صحيح وهمكَ منطقي سيّدي.. (لكن نعمات بيت "جاكلينْ" - ذكرها الرّب واليسوع- كان وقفا على الفواكه والوجبات الباردة كالجبن واللحم المشوي وحده..).

كنتُ أتمنّى أن يكون الكامارادي الأخرس معنا في حلقتنا أو مرقدنا.. شخص ظريف لا يُمل والله.. ما نقص منه كلاما، زيد فيه طرافة وغرابة!! المشكلة الكبرى بحسب ما رويَ لي من الرفاق (إنه ينوي الهجرة نحو الألدورادو كذلك..) وهذا ما رغّبني في معرفة أخباره وأحلامه، هو نفس

الشعور الذي انتابني حيال رفيقي المسجون (جورجْ) ذكره الرّب واليسوع أيضا.

الطقس الخريفي لا زال يسمح للرفاق بالنوم بالساحة ليلا، بعد العشاء ارتشفنا كؤوس الشاي، تحدّثنا عن أحلامنا، ماضينا، مستقبلنا.. سهرنا حتى منتصف الليل أو بعده، بدأ الرفاق ينامون، تحضيرا ليوم جديد.. مثقل بالشقاء.. ناولونا بساطا كرتونيا مع أفرشة بالية لرفاق كانوا هنا.. تركوها تذكارا للرفاق.. لا أكذب عليكَ سيّدي.. قد لا تسلم تلك الأفرشة من القمل.. والله..

توسّدنا حقائبنا، وضعتُ سماعة الموسيقى للهاتف في أذني، بعدما تركته يُشحن من الغروب حتى بعد العَشاء، ترسبات وبقايا المخدّر، لا زالت تحدث ذنذنة الذباب في رأسي، حالة من الاسترخاء التام، معه عشاء لذيذ.. بعده كأس شاي منعنع.. تتخلله موسيقى حالمة.. في مثل هذه الأجواء، سافرتُ في قطار الأحلام هذه المرّة فنمتُ.

قضينا سبعة أيام كاملة في البحث عن العمل دون جدوى، المبلغ الذي كنتُ أحتفظ به، بدأ ينفد قليلا.. إذا لم نجد عملا، سنأتي عليه ونبقى هنا.

رددتُ حيرتي:

[[الرجوع ليس سهلا!! الوصول للفردوس ليس سهلا!! البقاء هنا ليس سهلا!!]].

في ليلة الثامن من أيام إقامتنا، تذكّرتُ حلولي السحرية.. التي وصفتها لي أمي من صيدلية أبي، انزويتُ عن الرفاق، أخرجتُ تيميمتي ورفيقتي الدائمة (Gــونكي)، نفّذتُ التوصيات بحذافيرها.. ونمتُ.

(2)

صبيحة اليوم العاشر من إقامتنا، خبأتُ صليبي في حقيبتي، بدا لي السكان هنا محافظين جدّا.. قد يُضحي أحدهم، بعدم العمل عنده، لكونكَ مسيحيا.. هذا أدنى تصرّف قد يتخذه حيالكَ.. خرجنا كالعادة، لملتقى الطرق (أدْغا- الحي الغربي- وسط المدينة) المعروف بعلامة التوقف المرورية (سطوبْ أقاسمْ) هكذا يدعونه أهل روما.. بحكم محاذاته لبناية شاهقة، لأحد أثرياء المدينة من عائلة (أقاسَمْ) البورجوازية، بالإضافة لوقوع هذه البناية عند الإشارة المرورية (قفْ) لذلك ابتدع له السكان هذا الاسم الطريف.. فنطقوا أمر الوقوف (**STOP**) وأدرجوه في قاموسهم اليومي.. ليس هذا فحسب، تكاد تنطق أغلب الأشياء عندهم مفرنسة، فمثلا البنّاء لا تسمع له إيقاعاً مع كلمة ''الماصو'' الشائعة ولفظ الكبريت لا أثر له مع ''زالاميط'' وفريجيدير للثلاجة وغيرها مما لا يمكنني سرده وحصره لكثرته.

الأطفال يتأبطون محافظهم في ذلك الصباح الباكر، الموظّفون والعمال يهرولون إلى عملهم.. صخب وضجيج يعمر المكان بجلبة أصوات المحركات وأبواق السيارات وكذا أصوات المفاوضات والمطارحات السعرية للمقاولين الجدد بالمدينة.. التي تختلط فيها الفرنسية المكسّرة عند هؤلاء بالعربية المعطّبة من لدن الرفاق ليكامارادْ؛ لكنكَ تستطيع دون عناء القبض على أهم ألفاظها، (كامارادْ).. (مونْ باطرونْ)..

معظم الرفاق تكوّموا في شكل مجموعات عبر الأرصفة، البعض منهم تسنّد الحيطان الحمراء للشوارع المنفتحة على ذلك المفترق الرهيب.. حتى غدا وقوفهم كلّ صباح من المشهديات التي تلوّن لوحة (سطوبْ أقاسمْ). الوقت ساعتها يقارب الثامنة، لا تزال أمواج ليكامارادْ تتدفّق على المفترق عبر الشارع المتصل بحي (أبْني وسْكتْ) غرب مدينة روما.

لم تكن لدينا خلفية عن المفاوضات وعقلية المقاولين، غير ما سمعناه في تلك الأخبار الطريفة، التي جمعناها أيام البعث.. وما أضفنا إليها بباريس وأيامنا الثمانية هنا بالمرقد الجماعي.

اقترب منا أحد المقاولين، شاب أربعيني، متوسط الطول غير أن كرشه المنتفخة أمامه كالقِربة، طمستْ طوله وأغرتْ الناظر بالقصر فيه.. بشرته سمراء مفتوحة، تعتمر رأسه عمامة بيضاء، يلبس عباءة بيضاء أيضا، لحظتها كان يردّد آخر كلمات الغضب.. لعن فيها مجموعة من ليكامارادْ كانت بعيدة عنا، فاوضها في السعر ولم يفلح.

قال لهم بلهجته المحلية وهو ينفض كمي عباءته:

(أنتو تحلّبتو يا الخاوة.. خلينا أنشوفْ هادْ الجدادْ..).

كنا - نحن الرفاق الأربعة- شبه متحلّقين، دنا ظلّ هذا الأخير منا، وقف عند الفرجة المتبقية من حلقتنا، رفعنا رؤوسنا بطريقة لا شعورية نحو صاحب الظلّ الواقف، في استعلاء بيّن:

("بونْجورْ"[71] ليكامارادْ..).

رددنا عليه بلغة جماعية تدعو للاستعطاف:

[72]**(Bonjour Mon Patron..)**.

تلعثم المُستعلي في البحث عن الكلمات الفرنسية، ليفهمنا ويتفاوض معنا، قاموسه الفرنسي ضعيف.. متنه اللّغوي فيها هزيل أيضا.. أكمل عبارات مراده بإشارات يدوية.. يتكلّم كثيرا ولا تفهم شيئا.. كلمة واحدة يتردد رجع صداها في كلامه المضحك هي (كامارادْ).. المهم إشاراته وإيحاءاته أنقذته.. هززنا له رؤوسنا.. اتّفقنا.. حالنا لم يترك لنا مجالا للمناقشة أو المزايدة، ابتسمنا، الظلام العاتم بوجوهنا يُضاء من جديد بفوانيس أسناننا

71- بالفرنسية: صباح الخير.

72- صباح الخير رئيسي.

البيضاء.. أخيرا عرفتُ أن الفَرَج قد أتى من جهتين.. من جهة تميمتي (Gـــــونْكي) ومن جهة متتاليتي الجديدة مع يوم الأحد..

(رقصتُ رقصتي المعتادة..).

ردّدت أنشودة فرحي:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

[[أصبح سعدي هو يوم الأحد، شكرا للرّب، المجدُ لكَ يسوع المسيح..]].

مشى المقاول أمامنا حتى بلغنا الرصيف الآخر، ركب سيارته من نوع تويوتا (هليْكسْ) البيضاء الجديدة، ذات المقصورة المزدوجة، أشار بإصبعه أن نقفز لسطح عربتها، قفزنا بكلّ سرور، رغم وجود الأماكن الشاغرة بالمقصورة التي تسعنا وزيادة.

سلك بنا شوارع المدينة، حتى بلغنا مسكنه بحي (Gـــــــراوي). وثبنا من سطح العربة، فتح الباب، البيت عبارة عن ورشة.. إعادة تهيئة عامة، أروقته، صالة الضيوف، غرفة النوم، المطبخ، الحمّام، حديقة البيت.. علمنا فيما بعد، إنه بيت زوجته الثانية الشابة الجديدة.. رغم خصومتي مع ساكو.. تمنيت حضوره هنا.. قواطع الكهرباء صالحة، ترمى وتغيّر بأخرى جديدة، الأقفال حسنة، تستبدل بأقفال مذهّبة المقابض.. الصباغة لم يمضِ على دهنها عامان، تجدّد هي الأخرى.. أشياء كثيرة تذهب للقمامة، بينما لا يجدها فقراء الجنوب عندنا والله..

تذكّرتُ مقولة مأثورة، قرأتها في ذلك الكنّاش العجيب:

(الغني والفقير يتلاقيان، فكلاهما صنعهما الرّب..) "أمثال22/ 2".

قضينا النهار في العمل، كلّفنا بتكسير البلاط الأرضي القديم، يبدو أنه سيستبدل بالرّخام، هذا أمر يقين بلا رجم والله.. تمنيتُ لو كانت أختي زيْنابو هي فتاة أحلام هذا المقاول، فتسكن معه الجنّة.. فبالرغم من استعلائه علينا بداية، بدا لنا سخيّا بعض الشيء.. كنا قد أحضرنا معنا خبزا وسردين؛

لكنه جلب لنا خبزا وجبنا وحليبا أيضا.. أنهينا العمل مع السادسة مساء، حملنا بسيارته إلى مَربطنا الصباحي (سطوبْ أقاسمْ)، اتّفقنا على اللّقاء غدا صباحا، لإكمال ما تبقّى من أشغال، كان مستعجلا جدّا على إتمام أعمال تهيئة المَقطن، قال لنا (إن زفافه بالعروس الجديدة سيكون بعد شهرين..).

رجعنا للبيت، الرفاق أغلبهم عادوا، استقبلنا الكامارادي الأخرس، كان جالسا أمام الباب بالشارع، هَمْهَمَ.. تبسّمَ.. أخيرا سخِرَ!! كان طنّازا.. لا يمكن أن يمرّ عليه مشهد دون أُهْكومَة..

رفيقنا كايْطا بحي (الشّاطو)، علّمنا عادة حميدة سيّدي المُخرج.. هي الاغتسال بعد العودة من العمل، تعاورنا على الحمّام، حاله ليس بعيدا عن حمّام الضواحي بـ(باريس).. الوقت ساعتها المغرب، الرفاق منزرعون بالساحة كالقمامة في نيامي، شربنا الشاي، رائحة العشاء تتسرّب من مطبخ الرفيق السنِـGـــالي (كامارا)، بحسب الرائحة أرزا أيضا.. لكنه ليس كـأرز (كايْطا) وحي (الشّاطو).. انتظرتُ بشغف صوت أكُف الطباخ.. بعد ساعة صفّق تصفيقاته المعهودة.. مصابيح وجوه الرفاق اشتعلت.

تحلّق الرفاق في حلقاتهم المعهودة، ملاعقنا دائما معنا، وضع الرفيق الطبّاخ الصحن وسط المجموعة، أرز مسقي بمرق أحمر، تفوح منه بهارات سنِـGـــالية عطرة.. قطعة اللّحم فوقه دائما وبنفس المقدار، طعمه لذيذ.. صدّق أو لا تصدّق، الحال كما الصرف الصحيّ بالعاصمة (نيامي) سيّدي المُخرج.. قُل هو ضرب من الخيال أو مسٌّ من الجنون، المهم هي المرّة الأولى التي أذوق فيها طعاما ساخنا مرقه أحمر بالطماطم المصبّرة!!

العياء مع استرخاء نشوة الزّطلة، خطفا منا السهر هذه الليلة، بحثتُ عن كرتونتي العزيزة.. توسّدتُ حقيبتي.. أحسستُ بحكة.. القمل هنا مثله مثل البَعوض هنالك سيّدي.. والله.. لا يستيقظ هذا الأخير ويقترب من صاحبه إلاّ ليلاً كما الرفيق الأول في (نيامي)!! هههه ذلك البَعوض

اللّعين.. بعد مقدّمات من الحكّ والالتفات الشديد بالأظافر للجلد ولذّة حركة هذه الأخيرة عليه.. رحلتُ لجزيرة النوم العميق.

نهضنا في صباح اليوم الموالي، حالتنا النفسية مع الصباح، بدتْ مرتاحة، عمل اليوم مضمون؛ بل لمدّة معتبرة، بحسب ما أذاعه فينا المقاول المَغروم.. عشيّة الأمس، حركة لا توصف عبر ساحة البيت والحمّام والمطبخ والمرحاض.. كانت تلك التي تقع عند الأخير أغربها وأشدّها طرافة.. حتى تفرغ قِربة مثانتكَ أو صهريج أمعائكَ، عليكَ أن تقف في الطابور طويلاً، طيلة وجودي هنا بـ(روما)، لم يحدث أبدا، أن ذهبتُ للمرحاض فجرا ووجدته شاغرا أو كان انتظار الواقفين أقلّ من الخمسة، اليوم المرحوم، الذي يرضى فيه المسيح.. تجد أمامكَ ثلاثة رفاق والله..

المهم ارتشفنا شاينا الصباحي مع تناولنا لخبزنا الحافي كما المعتاد.. الساعة تكون السابعة، (سطوبْ أقاسمْ) غير بعيد، بخلاف المسافة بين إقامتنا في (باريس) و(فيراجْ أنْكوفْ).. بلغنا - نحن الأربعة- سوق اليد العاملة الكامارادية.. انتظرنا زهاء عُشر الساعة، من بعيد، زمّر لنا المقاول المَخبول.. أتيناه طائعين، هذا الأخير قبض أصابع يده اليمنى وأطلق سبابتها بتحريك ظاهر.. كما يفعل المسلمون في تشهّد صلاتهم، فهمنا، أنه رفق بنا، صعدنا المقصورة، على أيّة حال، هذه أول مرّة أركب فيها مقصورة سيّارة رباعية الدفع والله.. فيليبْ معه من الأمام وأنا ودومبيلي وروكْسْ من الخلف، صالة المقصورة فارهة، تبعث على الراحة، مسجّل المركبة تنبعث منه موسيقى شعبية شجيّة، قال لنا المقاول المُغرم (إنها لزمّار قصر "بوعْلي".. "أبا البَداوي" وأبناء "أبابريكْ" أولاد "بَعَزَّة"..) لا أخفيكَ سيّدي مُخرج فيلم مغارة الصّابوق.. طربتُ لهذه النغمات الأخيرة.. حتى دقّ نبيّ الرّقص بباب روحي والله..

بتاريخ العاشر من شهر نوفمبر، أنهينا عملنا عند المقاول الزّهوانيّ، هي مدّة معتبرة نسبيا، قضيناها عند هذا الأخير، حوالي ستّة وثلاثين يوما، هاتفنا

خلال هذه الفترة المذكورة، أهالينا ثلاث مرّات، المهم قبضنا قيمة جهدنا.. (28800 دج) للواحد منا، يا الله!! يا أيها اليسوع.. ما هذا الفيض، الذي غَمَر كولييالي..

أعصابي وعضلاتي المتّصلة بما يسمّى بالرقص، تنبّهت.. إن لم أقُل لكَ سيّدي (كاميرا مانْ)، إني لم أرقص، ستكذّبني.. أجل.. معكَ كامل الحق والله..

(رقصتُ رقصتي المعتادة..).

عزفتُ:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

مُنقِذي من ضلالتي، مونْسيوغْ (جاكْ)، اليوم هو يوم الأحد.. شكرا للرّب.. المجدُ لكَ يسوع المسيح..

[[توالى بَختي في يوم الأحد.. فيكَ نجونا من براثين البطالة، بعد فترة طال انتظارها.. ها أنت تتفضّل عليّ كذلك، بمسك مبلغ معتبر، من عملنا لدى المُقاول الغرامي..]].

بلا سابق كلام بيننا - نحن الرفاق الأربعة - اتّفقت كلمتنا على الرحيل السريع من روما ليكامارادْ، والتقرّب شَمالا نحو فردوسنا.. إرهاصات الشتاء بدأت تستعرض نفسها، شهر ديسمبر على الأبواب.. علينا بأخذ احتياطنا التام من الوقت، لنكون بجبل (GـــوروGـــو) المطل على حاجز مدينة مليلْية أو بغابة (بَلْيونَشْ) عند سيَاج مدينة سَبْتة، صار الآن معنا من المال ما يكفينا وزيادة..

ردّدتُ حيرتي الدائمة، مركّزا على الشطر الأخير منها:

[[الرجوع ليس سهلا!! الوصول للفردوس ليس سهلا!! البقاء هنا ليس سهلا!!]].

اتّفقنا على أن نضيف يوما للراحة وشراء ما يلزمنا من ثياب صوفية مستعملة، اتّقاء شتاء الشَّمال وأمطاره المرعبة..

في صبيحة اليوم الموالي، رافقْنا فيْليبْ باتّجاه دكاكين بيع ملابس الخُردة، بشارع (بودَة) الشهير، قال لنا هذا الأخير (إن أهل "روما"، ينعتون ملابس "البالة" بـ"الشيفونْ"..).

اشترينا جاكيتات جلدية مستعملة بألوان متعددة، اخترتُ البُني منها، مع ملابس صوفية وأحذية جلدية متينة، تقوى على الصعود في الجبال والنزول في الوديان أيضا، أضفنا لهذه الأغراض المستعملة، بطانية صوفية لكلّ واحد منا (ستفيدنا هذه الأغراض، كثيرا في اتّقاء البرد والأمطار الغزيرة هنالك..) قال لنا رفيقنا المُجرّب.

بعدها قفلنا راجعين للبيت، الحركة بالشارع المذكور مُستعرة، الوقت ساعتها منتصف النهار، علينا أن نأكل شيئا، بأحد مطاعم المدينة، كلّ الرفاق الآن في عملهم، ولجنا مطعمًا بتلك النواحي، صاحبه أسمر، طويل، يلبس مئزرا أبيض، نظيفاً، انتخبنا طاولة متطرّفة، رفيقنا روكْسْ يضحك، تشوّش النادل.. فيْليبْ تفطّن للأمر، أفهم النادل بالفرنسية، أنَّ هذا الأخير مجنون.. سرد علينا قائمة من الوجبات، طلبنا أربعة أطباق أرز باللحم المطبوخ، قارورة مشروب (**Miranda**) أحمر.

خلال فترة تناول الغداء، صوّرت عدسات عيني، الفضاء الداخلي للمطعم، حيطانه مصبوغة بالأصفر، عُلّقت بإحدى جهاته، لوحة فنيّة لواحة نخيل بمحاذاة قصبة طينية محصّنة بأبراج وأسوار، بعد تناولنا وجبة الغداء الأخير بروما، أعطينا لصاحب المطعم ثمنه، خرجنا متأبطين لأسْمالنا المُشتراة، قصدنا محطّة المسافرين، حيث حجزنا تذاكر سفرنا باتّجاه مدينة (تِلمْسانْ) من الغد مساء، خلال رجوعنا، مررنا بـ(سطوبْ أقاسم) جمهرة غفيرة من الرفاق ليكامارادْ هناك، تنتظر مقاولا، ألقينا التحيّة الأخيرة عليهم وعلى المكان أيضا.

وصلنا البيت، الرفاق لا زالوا غارقين في عَرق أعمالهم.. كامارادي واحد وجدناه بالبيت، هذا الأخير مالياني، أُصيب برَضّ خفيف عند أحد

المقاولين، كان متحسّرا جدّا على فترة النقاهة، التي أخذت أياما من سفرته بلا عمل.

سأل رفيقنا فيْليبْ هذا الأخير، عن المُكلّف بالمخيّم (توري) هل جاء في غيابنا؟ أجاب الرفيق المُتوعّك، بأن الباطرونْ جاء وقت الضحى ولم يجدنا، حيث أوصى هذا الأخير الرفيق المُقعَد، أنه سيعود مساء، ليسلّمنا جوازاتنا ونتحاسب معه حول مصاريف الكراء والمعيشة.

في حدود الخامسة مساء، كما المعتاد، يبدأ توارد الرفاق من عملهم تباعا، كان تطلّعي كبيرا، لملاقاة الكامارادي الأبْكم، هذا الأخير سيتوجّه شَمالا مع رفاق آخرين، نهاية شهر نوفمبر، نظرا لأشغال تربطهم مع مقاولهم.

لم تكن الأيام الأخيرة، لخروجنا من روما، مقلقة كسابقتها (باريس).. بل بالعكس، أحسسنا - نحن الرفاق الأربعة - بحزن عميق لوداع الرفاق هنا والله..

في الموجة الوسطى لدخول الرفاق من شغلهم، عاد الرفيق الأبْهَم، لحظتها كنا نهمّ بجمع وترتيب أغراضنا بحقائبنا، بالمناسبة سيّدي.. ملاعقنا كانت على رأس هذه الأخيرة.. دون أن يشير أحد للأصَم، عرف هذا الأخير، أننا نستعدّ للرحيل، هَمْهَم، إيماءات كثيرة بيديه.. قال لنا رفيق آخر ملازم له، إنه يقول لنا (سنلتقي نهاية الشهر القادم هنالك..) تبسّمنا - نحن الثلاثة - الرفيق روكْسْ عامَ في قاموس دموع الضّحك.. قلتُ في صَممي (عندي هاتفان، لماذا لا أهدي الأشهب القديم منهما لهذا المُتَفكّه الأبْكم؟ أتركه تذكارا له.. ما يضيرني؟) هكذا فعلتُ والله.. شيخي في العطاء مونْ باطرونْ (جاكْ)..

ليلتنا الأخيرة بروما، كانت استثنائية بامتياز.. لقد كلّف (توري) الرفيق (كامارا)، أن يجهّز عشاء كاماراديا خالصا على شرفنا، وجبة (كورْبة كورْبة)، هي على أيّة حال عصيدة الدّخن، مُضيّفنا سيتعشّى معنا الليلة، ليسلّمنا جوازاتنا ونقيم الحساب معه.

تشنّجي من ساكو – لا ذكره الله بالخير – أثناء خروجي من مُقامنا بحي الشّاطو، غيّب عني فكرة تخليد ذكرى على حيطان الرحبة المعرّاة، استدركتُ هذا التذكار بحي (أبْني وَسْكتْ) لتأبيد اسمي مع تاريخ مغادرتي للمكان، كما يفعل الرفاق ليكامارادْ دائما.

الضوء مستنير عبر أرجاء ساحة البيت، انزويتُ نحو الزاوية الشرقية، حيث المَطهى، عثرتُ على حيّز بالحائط، بين تذكارات الرفاق، أغرزتُ مسماري في الحائط الطيني، نَقَشْتُ التالي:

(مامادو/ كوليبالي – أدْرارْ/ روما:**11/ 11/ 2012**).

بينما كانت الساحة تضجّ بالحركة قبل العشاء، دخل الباطرونْ (توري)، حيّانا، بادلناه التحيّة، أشار بيده، اقتفينا أثره، نحو زاوية من الساحة، جلسنا، أخرج كنّاشا، به عدد أيام إقامتنا مع حساب معيشتنا الليلية مع الطّاهي (كامارا)، سدّدنا مستحقاتنا كاملة، ناولنا جوازاتنا، خلال فترة تصفية الحساب مع هذا الأخير، كان الطبّاخ قد جهّز العشاء، التقمنا عصيدتنا بأيدينا هذه المرّة، كما تقتضي الطقوس الكامارادية، ليلة وداع الرفاق.. في باريس كنا عاقدين العزم على إقامة العصيدة ليلة مغادرتنا لهذه الأخيرة؛ لكن الخَرّاص ساكو، شوّش علينا التماس عوائدنا.

قبل النوم ودّعنا الرفاق، الكامارادي الأعجم بَكى لفراقنا والله.. دعانا نشيجه، لأن نعزف كَمنجة الانتحاب أيضا.. أخيرا افترشنا بطّانيّاتنا الجديدة على الكرتون، الجوّ لا يدعو للغطاء بعد.

صحونا متأخّرين من سُباتنا، صبيحة إدبارنا لمدينة روما، البيت شاغر، إلاّ من ذلك الكامارادي مَهيض الجناح.. نظراته لنا، تشي بعديد الاستفهامات، الحسرة بادية عليه بلا ريب.. يظهر لي أنه كان يتمنّى لو يرحل معنا.. قعوده الإجباري لوى حُلمه.. رثيتُ لحاله والله..

ترك لنا الرفاق إبريق شاي مع خبزة حافية، بعد غسل العادة، تناولنا فطورنا الصباحي الأخير بروما، الوقت حينها العاشرة صباحا، لا زال أمامنا

متسع كبير من الوقت، تقرّبنا من رفيقنا المَكسور، الفضول يدفعني لمعرفة أخباره، قال لنا (إنه من منطقة "موبْتي" الماليانية، حلم بالجنّة، فوجد نفسه أخيرا ضائعا على الفراش..).

سألته عن موقف المُقاول:

قطّب فيّ عينيه الذابلتين، طوى ساقه السليمة، أعادها لوضعها الأول، قال بعدها في اِلتِعاج:

(المُقاول – سامحه الله – لم يكفِني حتى شراء الدواء..).

تَحَنُّنا عليه، دعانا لأن نجلب له الغداء من الخارج.. هكذا فعلنا، قبل مغادرتنا للبيت في حدود الساعة الثالثة مساء، تخفّفنا من جالوناتنا، بحكم برد الحال، تركناها ذكرى.. أعطى كلّ واحد منا لهذا الأخير، مبلغ (**200** دج) ودّعناه بحزن عميق، أخرجتُ صليبي من مرقده، استعدادا للطريق المفحوص.

تكتّفنا وتأبّطنا متاعنا، خرجنا باتّجاه المحطّة المقصودة، أغراضنا ثقُلت بعض الشيء، عما اعتدناه في سفرياتنا الماضية، ألقينا تحيّة الوداع على حي (أبْني وسكتْ)، شققنا طريقنا نحو وسط المدينة، أثناء عبورنا لـ(سطوبْ أقاسم)، تذكّرنا صباحاتنا الخائبة به، الرفاق مبعثرين ضائعين على الأرصفة هناك.. توغّلنا شرقاً عبر شارع بودة، لنجتاز ذلك القوس – بوبَرنوسْ– العتيد، الذي دخلنا منه أول أيامنا، عادت نظرات المارّة، تتلقّف صليب رقبتي.. رفيقنا روكْسْ دائم الافترار، كان هذا الأخير، يسبّب لنا حساسيات مع المارّة. المهم قطعنا ساحة (ماسينا) عرضا، لنجد أنفسنا باتّجاه الشَّمال، سرنا راجلين نحو ربع الساعة، أخيرا وصلنا مقصدنا.

المحطّة غاصّة بالقادمين والراحلين، حركة عادية بمثل هذه الأمكنة العامة.. أهل التّل الجزائري، يشكّلون السواد الأعظم من الغادين والرائحين، الطوارق قلّة، ليكامارادْ لا أثر لهم هنا كذلك، أصحاب السّمرة المفتوحة، متواجدون؛ لكن بنسبة أقلّ. النساء التّليات الشقراوات يضفين

على الفضاء الداخلي للمحطّة زينة لا تُنكر والله.. (يبقى جمال الطارقية متميّزا، لا مكان فيه للمساحيق والدهون النسائية، كلّ شيء فيه طبيعي..) قلتُ مع ذاتي.

لا زالت أمامنا ساعة زمنية كاملة للانطلاق، انحرفنا جهة المقهى الداخلي، أوصينا رفيقنا روكْسْ، أن يحاول تقطير ضحكاته أو على الأقل يقسِّطها.. حتى نتجنّب بلبلة الجالسين..

جاءنا النادل الأشقر، يحمل صينية فارغة مع منديل، حيّانا بلسان فرنسي، كلامه مَلْكون.. نظّف الطاولة، وقف مستعدّا، كجنود الحرس الجمهوري، أمام بوابات إقامات الرئاسة بـ(نيامي)، كان ينتظر طلباتنا، عيناه قالتا لي ذلك والله.. طلب لنا الرفيق القائد (فيليبْ) عصائر، بعدما أعطانا النادل ظهره، قال لنا قائدنا (إن لكنة هذا الأخير، تشبه نطق نادل مارسيليا..).

لحظات وعاد النادل، يحمل الصينية برشاقة احترافية، زجاج قناني المشروب الأصفر يحدث صوتا سرسارا في تلامسها، كنتُ مُبَلبلا خلال هذه اللّحظات، خشية أن يرسل رفيقنا روكْسْ ضحكاته نحو النادل، فيفسّر هذا الأخير الأمر، على أنه مسخرة من الرفيق؛ لكن عناية الرّب شملتْ روكْسْ عن صنيعه.

قطع عليّ رفيق العُمر، ملاحظة وجوه الجالسين، بأن موعد إقلاع الحافلة قد قرُب. نظرت لساعة موبايلي، لحظتها تشير إلى الرابعة مساء، لم يبقَ لنا سوى ستين دقيقة، علينا أن نتقرّب من رصيف يافطة مدينة (**Tlemcen**) بساحة المحطّة. قال لنا رفيقنا المُجرِّب (إن السائقين هنا، لا يحدثون حركة للمحرّك وإعادة إسكاته، كإشعار للراكبين، كما العادة عندنا هنالك؛ بل عليكَ أن تحافظ على التوقيت وإلاّ فاتتكَ الرحلة..).

انتبهنا لجيوبنا، مكّنا النادل مستحقّات شرابنا، متاعنا أصبح ليس خفيفا كالعادة، ملابسنا الشتائية زادته انبعاجا، هرولنا نحو الرصيف المعني بالساحة، بشر غفير، حافلات كثيرة أيضا، عجزتُ عن حصر العدد الإجمالي

لمعتمري الساحة من المسافرين، المركبات التي تشبه قطار (الماG ـــــليــV).. تدخّلي غلب عددها، كانت تسع حافلات، التي تربض عند رصيفنا صفراء، كُتب على جانبيها بالبنط البُني (نقل المسافرين "المَنْزه").

تقدّمنا نحو الرّصيف المذكور، صحيح أن تجمهر الركاب حاصل عند باب حافلتنا؛ لكن ليس بذلك الضجيج، مع ما كان يتبعه من أنين وتوجّع هنالك.. في مثل هذه الحالات. أخيرا دون تشغيل المحرّك وإعادة إلجامه كعلامة.. فُتح باب الناقلة الطويلة، وقف مرافق السائق، يحمل في يده ورقة بها قائمة، يمسك قلما أزرق أيضا، نظرات الريبة من الواقفين حولنا، لا تفتأ تصوِّرُ رقبتي..

وصل دورنا، صعدنا للحافلة، المقاعد كانت بحسب أرقام التذاكر، مقاعدنا الأربعة في مقدّمة المركبة، لم نخشَ ذلك مطلقا، قلتُ في سريرتي (نحن ماليّون، دخولنا قانوني، مدّة إقامتنا سارية المفعول.. فَلِمَ الوَجَل؟). كاد رسول الافترار، أن يعبث برفيقنا الضّحاك.. نهره فيْليبْ بخَزْرة.. ثاب الرفيق المعتوه بعدها إلى رشده. لحسن السّعد، مقعدي سيف النافذة، قلتُ في كياني ثانية (أمر جيّد، سيتيح لي مشاهدة مناظر الطريق..) بذلنا جهدا في حشو أمتعتنا المنتفخة، بمراقدها العلوية من الحافلة، لم تكن هذه الأخيرة ثقيلة، حتى نودعها بوصل مسدّد، لدى مخازنها من جوف المركبة.

رهاب طقس الشمال

(1)

في حدود الساعة الخامسة مساء، من يوم الاثنين 12/ 11/ 2012، غادرنا مدينة روما ليكامارادْ، دون تمايل فاحش، كما المعتاد في حافلات طرق جنوبنا البائس.. لنجد أنفسنا، ندخل الطريق القُطري الجزائري رقم (06) الرابط بين مدينتي (روما) و(بَشّار)، سارتْ بنا الحاملة، حتى المَخرج الشَّمالي لمدينة (روما) تمهّلت هذه الأخيرة قليلا، قبل خلودها للوقوف التّام، أشار صاحب البذلة الزرقاء لسائقها، أن تُكمل طريقها.

تجاوزنا المنطقة الصناعية، الأرض جدباء، الجوّ معتدل، الهدوء يعمّ المَركب، بعد قطعنا لمسافة حوالي (10) كلم شَمال مدينة روما، مررنا على قصر به واحة نخيل جهة الغرب، الإشارة الطرقية، تقول إن اسمه (مراGـــنْ) بعدها صادفنا في طريقنا ناحية الشرق مصفاة بترولية، سمعنا أحد الجالسين قربنا، يشير لمرافقه، إنها مصفاة (سبَعْ) نكون قد قطعنا عند هذه الأخيرة، حوالي (40) كلم، بعد أقلّ من الساعة قليلا، تمهّلت بنا الحافلة ثانية، وجدنا أنفسنا أمام نقطة تفتيش للدرك الجزائري، المكان مفترق الطرق (أدرار- تيميمون - بشار)، صعد دركيان، الأول اتّجه مباشرة صوب نهاية الحافلة، رفيقه زرع فينا عينيه، هذا الأخير طويل، لكن ليس كطول الدركي، الذي فحصنا بالطريق القُطري رقم (52)، كنا كالشمس في رابعة النهار، طلب منا جوازاتنا، خلال فترة انتباهنا لوثائق هويتنا، استرق هذا الأخير، النظر لصليبي المعلّق، ناولناه وثائقنا، دقّق النظر فيها كثيرا، حركة كبيرة لتقليب أوراق الجواز، ينظر للصوَر، يقارب ملامحنا، تأشيرة الدخول للأراضي الجزائرية، تاريخ هذه الأخيرة، أخيرا (لا شُبهة)..

نزل الجنديان، أمر النازل الأخير منهما السائق بالانطلاق، سرنا حتى الغروب، التضاريس تكاد تكون نفسها، خلا زيادة طفيفة لبعض النباتات

الشوكية المتناثرة، مع دخول الليل، وصلنا مدينة (كَرْزازْ)، يُخيّل لكَ وكأن المدينة تسكن جرفًا، توقفنا بهذه الأخيرة، عند مطعم بسيط، الرفيق روكْسْ يبدو أنه قد ارتدع.. طلبنا وجبات سريعة كالعادة، انزوينا لمقهى مجاور، طلبنا مشروباً ساخناً، دخّنا سجائرنا. لم نهتم كثيرا بالركاب، همّنا أن نصل لفردوسنا.

الليل أسدل ستائره، لحظات وانطلقت بنا الحافلة، تراخت المركبة، عند المَخرج الشَّمالي للمدينة الكرزازية، صعد دركي أسود مثلنا، كنا - نحن الأربعة - وهذا الأخير من نلوّن الصالة الطويلة للمركبة بالأسود، تبسّم في خاطره، تقدّم نحونا هذا الأخير، قال لنا (كامارادْ) هززنا رؤوسنا، سألنا بعدها عن جنسيتنا، قلنا له (ماليين)، طلب جوازاتنا، فحصها كالعادة (لا كارثة).

الطقس بدأ يبرد بشكل لافت، كم نحبُّ الفصول المعتدلة؛ بل حتى الساخنة، توفّر علينا كثيرا من العناء، في الفراش، اللّباس، المأكل، المفيد من القول سيّدي.. في كلّ شيء.. الشتاء في عوالم ليكامارادْ، له حجم المرارة والله.. (لا أمر يقلقنا كبرد الشَّمال وأمطاره الغزيرة..) قال رفيقنا المُجرِّب.

سرنا ليلا مدّة طويلة، كنتُ نائما خلالها، استيقظتُ على حُنوّ الحافلة للتوقف، دعكتُ عينيّ، في اللّحظة التي أبصرتُ فيها العالم من حولي، كانت المصابيح العلوية لنقل (المَنْزه)، قد اشتعلت، نظرتُ لساعة نقّالي، هذه الأخيرة تشير إلى الثانية عشرة إلا ربع الساعة ليلا، صعد دركي عيناه ذابلتان من النوم، انقباض رموش عينيه فاضح، ألقى نظرة عامة على وجوه الركاب، تقدّم نحونا مباشرة، أشار هذا الأخير، بشرعة كفي يديه، كعلامة للجواز، ناولناه هوياتنا، مسحها كالعادة.. (لا منغّصة).

خلال إقلاع حاملتنا، رمقتُ العلامة الإخبارية على مفترق الطرق (تِنْدوفْ - بشّارْ - بَني عَبّاسْ) أكملنا رحلتنا شَمالا، الإشارة المرورية الأخرى، بيّنت لنا، أن المسافة المتبقية لوصول مدينة بَشّار (80) كم، لم نمضِ كثيرا، حتى

عبرنا مدينة (العَبادِلة) تجاوزنا هذه الأخيرة، أضواء المدينة توحي أنها كبيرة نوعا ما، سار الحال بنا ليلا، حتى أحسسنا بأثر دواسة الحافلة، كالعادة توقّفت هذه الأخيرة مع ما يصحب ذلك من توابع التفتيش، كنا حينها عند المَدخل الشَّمالي لمدينة بَشّار، بمفترق الطرق (عين الصّفراء - بشّار - أدْرارْ) نكون قد قطعنا مسافة (**580**) كم من مدينة (روما).

المهم تركنا مدينة بشّار عن شِمالنا، لننعطف شَمالا أكثر، الإماءة المرورية، تشير أننا باتّجاه مدينة (عين الصّفراء) الظلام لا زال يرخي ستائره على الأفق، رغم هذا؛ أوتاد الجبال، بدأت ترتسم ملامحها في تضاريس المكان. بعد مسيرة (**110**) كم من هذه الأخيرة، وصلنا مدينة (بَني ونّيفْ)، قال لنا رفيقنا الخبير (إن دولة المغرب، ليست بعيدة عن هذا المكان..) أشار هذا الأخير جهة الشِّمال في العتمة (هناك.. خلف هذه الجبال، ترقد مدينة **"فِـــGـــيـGـ"** المغربية).

مشى الحال بنا، حتى ألفينا أنفسنا مع الفجر، نعبر سهوب مدينة (عين الصّفراء) جبل (عَمّور) عن شِمالنا، هذا الأخير، يبسط هيبته على الفضاء العام للمنطقة، صرتُ أعرفُ أسماء المُدن والمعالم، من كثرة أسئلتي الفضولية على رفيقنا العارف. توقّفنا لتناول فطور الصباح، عند المَخرج الشَّمالي لهذه الأخيرة، الطريق الطويل أنهك كلّ الركاب، ربما أبناء هذه الجهات أكثر منا، هذا هو المُحقّق سيّدي..

عاودنا سيرنا، دون نزول أيّ مسافر عبر المسار لحدّ الآن، مع الصباح الباكر، بدأ الكساء الأخضر للبسيطة يربو بشكل ظاهر نسبيا، قبل وصولنا مدينة (المَشْرية) بقليل، وجدنا أنفسنا ننصرم عن الطريق القُطري رقم (**06**) لننحرف غربا صوب الطريق رقم (**22**)، هذا الأخير يحمل نفس مواصفات الطّرق القُطرية الجزائرية.

اجتزنا مُدنا كثيرة خلال الطريق؛ منها (مَكْمَن بَنْ عَمّارْ) (لَعْريْشة) (سَبْدو) لنصل أخيرا مدينة (تِلمْسان) العظيمة، في حدود التاسعة صباحا، من اليوم

الموالي، نكون قد قطعنا مسافة (**1250**) كلم من مدينة (روما) طبعا الذي يهمّني وأحسبه يهمّكَ أيضا سيّدي مُخرج فيلم كامارادْ.. أننا قطعنا من عاصمتنا (نيامي) إلى غاية هذه الديار حوالي (**4583**) كلم.

قد يخطر على بالكَ، حضرة عريس الكاميرا، (لماذا لم نُسمِّ تِلمْسان أو بعض المُدن الأخرى، ضمن مُدن أحلامنا؟) لكَ وافر الحق في ذلك والله.. بكلّ بساطة سيّدي.. لا ننعتُ المُدن التي مررنا بها بتلك الأوصاف، ما لم يقمْ بها الرفاق (ليكامارادْ) مدّة، تطول أو تقصر.. أجل.. طقوسنا الكامارادية هكذا.

المحطّة عامرة بالمسافرين في هذا الصباح التِلمساني، أصحاب الحافلات، ينادون أسماء مُدن بعينها.. (الرَّمْشي) (عين تموشَّنتْ) (أولادْ ميمونْ) (مَغْنيّة) سماع الاسم الأخير، أحدث فينا - نحن الرفاق الأربعة - ما يشبه الالتفات، طبعا سمعناه يتردّد كثيرا، في تلك الأخبار التي جمعناها بداية بـ(نيامي) وتكرّر عبر مُدن أحلامنا التي أقمنا بها، خلال هذه الرحلة الطويلة.

بينما كنا بأحد مقاهي المحطّة، نتناول فطور الصباح ونستريح قليلا، رنّ هاتف رفيقنا (دومبيلي)، نظر لشاشته، ارتسمت على محيّاه بهجة عارمة، نظر إلينا رفيقنا، نطق (إبْراهيما) أقولُ لكَ الصراحة سيّدي.. لم يخطر ببالي البتّة، أن المُهاتِف هو رفيقه السنِـGـالي (إبْراهيما) انقطعت أخباره عنا ونسينا أمره والله..

(ألو.. إبْراهيما..
كيف أحوالكَ رفيقي..
حاولنا كثيرا الاتصال بكَ قبل مغادرتنا "طاما"..
لكن هاتفكَ مغلق..).
(حقا.. رفيقي إدْريسو..
لقد تعرّضتُ لحادث عمل بورشة المقاول الشعانبي..
هاتفي هو الآخر سُرق للأسف..
أقمتُ بمستشفى مدينة "غَرْداية" مدّة..

أنا بخير حاليا.. بدأتُ أستعيد عافيتي..
مقاولي قام بالواجب..).
يضيف:
(أخبرني رفيقنا كايْطا، أنكما رحلتما عن طاما..
وبقيَ معه رفيقكما ساكو هههههه..
أنا لا أعرف هذا الأخير..
لكن من خلال تصرفاته..
يبدو إنسانا غريبا حقا..
المهم أنا بخير، أكملا مشواركما..
لن أستطيع الالتحاق بكما.. باي..).
عُدنا أدراجنا نعبر ساحة المحطّة الضّاجة، حيث ذلك المكان، الذي سمعنا فيه المُنادي، يستقطب المسافرين القاصدين، مدينة (مَغْنية) التي نصطلح عليها في قاموسنا الكامارادي، بـ(مالطا ليكامارادْ) بلغنا الحافلة المقصودة، حافلة صغيرة نوع (هيّاسْ تويوتا) زرقاء، تربض على الرصيف، الركاب كانوا قد صعدوا قبلنا، رمقنا بعض الرفاق ليكامارادْ في مؤخرة الحافلة، تبسّمنا لبعضنا بطبيعة الحال، انتظرنا حوالي ربع الساعة، حتى امتلأت الحافلة.
السماء غائمة، ربما بعض المسافرين، قد أخذ احتياطه بحمل المطرية، من نشرة الأحوال الجوية للأمس، هكذا بدا لي الأمر، لا تفسير آخر غير هذا سيّدي.. المهم أحسستُ بنوع من القلق اتّجاه إرهاصات المطر.
انطلقنا نحو مدينة (مالطا) حوالي العاشرة والنصف صباحا، بينما نحن نعبر شوارع المدينة، بدت لنا (تِلمسانْ) منطقة تاريخية وحداثية في آن.. الأسوار القديمة الحمراء، تضفي على هذه الأخيرة، بهاء لا نظير له والله..
توقّفنا عند المَخرج الغربي للمدينة، حيث نقطة تفتيش الدرك المشدّدة، طريق (مالطا) خطير مونْ باطرونْ.. معظم المخدرات التي تدخل الجزائر، مَصْرِفها هذا المسار، صعد للحافلة دركي به برص، حتى عاد أبيض

كـ(الألمانْ).. كان متذمّرا جدّا من حالته، هكذا فسّرتُ تكشيرته، توجّه مباشرة نحونا، لا همّ له سوانا.. تجّار المخدرات لا يعبرون بالحافلات، إنما بسياراتهم الخاصة، ألقى نظرة على رقبتي ومُعلّقها.. أشار بانفتاح كفيه كالكتاب، كما السابق وكأنهم توافقوا على هذه العلامة حتى صارت مفهومة عندنا.. أعطيناه أوراق هويّتنا، أنعمَ فيها النظر كثيرا، أخيرا (لا ضائقة..).

سارت بنا الحافلة حوالي (80) كلم، كنا كلما توّغلنا غربا باتّجاه مدينة مالطا، تجلّت لنا الخاصية الفلاحية للمنطقة، كنا خلال جلوسنا بمقهى المحطّة وقبل مُهاتفة إبْراهيما للرفيق فيْليبْ، كان هذا الأخير قد اتّصل برفيق له يُدعى (توري) بأحد المزارع المتاخمة لـ(وادْ جورجي) نواحي (أولادْ قدّورْ) من ضواحي مدينة (مالطا) بغرض انتظارنا بمحطّة هذه الأخيرة. كذا مرّة قلتُ في عقيرتي بما يشبه التغنّي بالأمر (لولا وجود فيْليبْ معنا في هذه الرحلة، كيف كانت ستصير الأمور بنا؟؟.. هو فعلاً كما قال رفيقنا دومبيلي "حقا.. هذا رجل من أهل السماء"..).

عبرنا (سدّ بوغرارة) على القنطرة، تكون قد بقيَ لوصولنا المدينة المقصودة، حوالي (7) كلم، بعدها بكيلومترات قليلة، ألفينا أنفسنا، عند المَدخل الشَّرقي لمدينة مالطا، توقّفت بنا الحافلة كالعادة، عند نقطة تفتيش مشدّدة كذلك، وقع لنا ما حدث بنا قبلها؛ بل أكثر والله.. في هذه المرّة، لم يتوقّف الأمر عند الفحص بصالة الحافلة؛ بل أنزلونا، فتّشوا أمتعتنا وتلافيفنا الخارجية، كادت أصابع المُفتّش تصل المنطقة المحرّمة.. فيعثر الدركي على جوازي الحقيقي وتكون الكارثة، حتى تميمة خلاصي لا أستطيع ساعتها الالتفات إليها وتلك هي مشكلتي، المهم أخيرا (لا لافتة..).

(2)

توغّلت بنا الحافلة، مع منتصف النهار، نحو وسط مدينة (مالطا)، بدت لنا هذه الأخيرة، منطقة معمورة نسبيا، حشود كبيرة من الرفاق ليكامارادْ هناك.. قد تقول لي سيّدي مُخرج فيلم مغارة الصّابوق.. (كثافتهم مثل طاما..) أجيبكَ على الفور (لا أبدا سيّدي..). المهم وصلنا المحطّة، هذه الأخيرة تشهد حركة مستفيضة للرفاق الأفارقة أيضا.. قال رفيقنا روكْسْ (أو.. لالالا!!) حقا كانت دهشتنا عظيمة، لتناسل الجنس الكامارادي بهذا المكان، لا أقولُ (قريب من طاما..) لا مجال للمقارنة سيّدي.. لكن أكثر من حي (أبْني وسْكتْ) بروما.

بعد استراحة خفيفة بأحد مقاهي المحطّة، زرعنا أنفسنا وسط المدينة، تزيّن سلسلة الصليب الصفراء، رقبتي وهيئتي السوداء، رفيقنا فيْليبْ، كان خلال استراحتنا بالمقهى، قد هاتف رفيقه الإيــVــــــواري (توري) الذي يقيم بأحد المخيمات الكمارادية بـ(وادي جورجي) أراكَ تشوّشتَ سيّدي.. تريد الاستفهام عن كلمة (جورجي) أعرفُ هذا..

حدّثنا رفيقنا العليم فيْليبْ ذات مرّة، أن الرّواة من طائفة ليكاماراد، يقولون (إن الوادي المذكور، سُميّ بـ"جورجي" نسبة للرفاق العابرين الأوائل منا، كانوا في أغلبهم من الكاميرون وليبيريا وكوت ديــVــــوار وغيرهم من اليسوعيين، يطلقون في أغلب أسمائهم هذا الاسم، منه شاع وأصبح وقفا على ذلك المكان، المعروف في خرائط حرGــــتنا، بـ(تجمع ليكاماراد) الواقع في الأحراش الغربية لمدينة مالطا المغناوية، سمعنا هذا المُسمّى يتردد كثيرا، في تلك الأخبار، التي جمعناها قبل رحلتنا وفي مدن الأحلام، التي أقمنا بها عبور استراحة، بالإضافة لواد آخر، محاذ له يُدعى "مخيّم وَرْدْفو").

لم يمضِ وقت طويل، حتى حضر الرفيق (توري) وجدَنا كما اتّفق مع فيْليبْ، عند سوق (الطْرابانْدو)، يذكر رفيقنا فيْليبْ، أن هذا السوق، شهد

حركة مزدهرة من النشاط التجاري، إبان الثمانينيات وبداية التسعينيات، بفعل سياسة السوق المغلقة، التي كانت تنتهجها الجزائر؛ لكن مع مجيء سياسة السوق المفتوحة بعد ذلك، تقزّم النشاط بهذه الأخيرة، حتى بهتَ بشكل يثير الدهشة والبكاء للعاملين به وارتزاقهم منه.. ما جعل معظم محترفيه، ينتقلون لتجارة المخدرات وتهريب البنزين عبر وديان الحدود.

تعانق الرفيقان فيْليبْ وتوري كثيرا، المعلومة التي أتت عرضاً في كلام عناقهما، من طرف الرفيق توري، قوله (ثلاث سنوات لم نرَكَ يا رفيقي أليْكسْ.. كأنها بالأمس..) هي أول مرّة نعرف فيها - أنا ودومبيلي- تاريخ رحلة فيْليبْ الأولى تدقيقا، صحيح أننا فقهنا، أنه قام بسفرية للفردوس قبل هذه.. ذلك أمر مفروغ منه؛ لكنه لم يذكر لنا ذلك تحديدا، سوى قوله دائما (**Les années précédentes**)[73].

خلال تعانق الرفيقين، انطلقت قهقهة مدوية من الرفيق روكْسْ، جعلتني أتشوّش صحبة رفيق العمر دومبيلي، نصحنا الضحّاك كثيرا قبل دخولنا مالطا، كنصح فيْليبْ له قبل ذلك ذات مرّة، إن كنتَ تذكر سيّدي المغري بالوعد المنتظر!! لكن هذا الأخير لا يرتدع..

بعد تحيتنا مع الرفيق توري، قام فيْليبْ بدور التعارف:

(هذا رفيقي القديم "توري" الذي حدّثتكم عنه، كنا قد ترافقنا في رحلتنا السابقة قبل ثلاثة أعوام، نحو سيَاج مليلة، فأخفقنا معا، نجا من قبضة الأمن، فاستقرّ بمالطا، لكونه بقيَ يتيما مثل رفيقنا جورجْ المغلول بالسجون الجزائرية، أما أنا فقد هجّروني قصرا مع بعض الرفاق نحو بلداننا..).

يلتفت فيْليبْ نحونا:

(الرفيقان الماليان كوليبالي، دومبيلي برGـــاتيا.. النيجيريان حقيقة، أما هذا القدوة في الضحك، مواطننا روكْسْ..).

73- السنوات الماضية.

الرفيق توري، تستطيع سيّدي.. أنْ تدعوه (جاكْ بلوزْ) القامة، ههههه مثلكَ في القدّ والله.. عرضه متناسق مع طوله، يضع قبعة سوداء على رأسه، يلبس جاكيتا جلديا باليا، به بعض الثقوب، سروال جينز قديم هو الآخر، حذاء رياضي انطمس لونه بالمرّة، بفعل الأوحال والطين، بدا هذا الأخير، متزناً في شخصيته، نادرا ما خذلني حدسي سيّدي..

سرنا راجلين غربا، حوالي (3) كلم، قاصدين (واد جورجي)، الوقت ساعتها بعد الزوال، التفاتي في هذه اللّحظات، لهويتي الكوليبالية، يمكن أن تطلق عليه مولايَ جاكْ.. (الخوف من فراق رفيق معنوي – الجواز والصليب- ظلّ وفيا لنجاتكَ، كما توسّمته..)؛ لكني عزّيتُ النفس أخيرا، ببقاء رفيقة أخرى معي؛ (إنها ملعقتي الفضية سيّدي.. آه دون أن أنسى تميمتي "G‍ـــونْكي"..).

من البعيد سيف غابة كثيفة من أشجار الصنوبر، يرقد وادي جورجي الأسطوري.. توغّلنا باتّجاه الناحية المقصودة، كانت هناك في الأطراف البعيدة نسبيا، مزارع وحقول للأهالي المغناويين، مع زلفنا لمعسكرنا المقصود، بدأ اللّون الكامارادي، يتبدّى علامة سيميائية على البشر، بالوادي المذكور، الرفاق منزرعين في فضاء الوادي، يتجمّعون في حلقات، ألقينا التحيّة باليد على الجميع، لا شكّ أنهم يقولون في أعماقهم (مرحبا بالرفاق "ليكامارادْ" الجدد..).

لا أثر للبناء هنا، المخيّم عبارة عن خيام تقليدية، صنعها الرفاق، من الزنك البالي وبلاستيك البيوت الاصطناعية، المستغنى عنه بالمزارع المجاورة للوادي المذكور.. أعداد هذه الأخيرة، متناسل بشكل كبير جدّا، تقولُ لي مرّة ثانية سيّدي.. كالقمامة في نيامي.. أقولُ لكَ (لا سيّدي..؛ لكن في تقريب الوصف، يمكنكَ اعتبار ذلك، بلا حرج..).

لن أكثر عليكَ وأكرّر لكَ سيّدي مُخرج فيلم مغارة الصّابوق.. يوميات الرفاق (ليكامارادْ) بهذه المخيمات المالطية، يمكنكَ تقريبها لمعسكراتنا بـ(طاما) لا (روما).. كما أني سوف أتجاوز هذه المشاهد اليومية المتكرّرة؛ لكونها تنطبق

على بعضها كثيرا، في كلّ الأشياء.. لنفرض جدلاً، أني رويتها لكَ مكرّرة في التشابه، سوف تدفعكَ احترافيتكَ في إخراج الفيلم المرجو.. أن تختزلها وتتجاوزها.. فلِمَ أتعبُ نفسي وأنتَ لا ترضى لي ذلك.. طبعا هناك مستجدات ومشاهد مخصوصة باللّحظة، لن أغمض عنها عيني أقسم لكَ.. أهم خصيصة مميّزة لهذه المرحلة - فترة مالطا وقبرص ولامبيدوزا- سأرويها لكَ وتضفي على فيلمكَ إيقاعا خاصا، هي تلك المشاهد الشتوية، الأليمة في إحساسها، العظيمة في مشهديتها..

الكائن البشري الكامارادي سيّدي.. للشتاء وقع خاص عليه!! الفصل هنالك، لا كما الحال عندنا وترى.. لا شيء يرعبنا في رحلة الفردوس، كموسم البرد والأمطار، هشاشة مخيّمنا وأفرشتنا وألبستنا.. هههههه أضف إليها قلّة الدسم بأكلنا، عوامل مقنطة حقا بالنسبة لنا.. أنتَ ترى الكائنات البشرية، تنكمش في مساكنها وألبستها الدافئة، فضلاً عن أكلها الدسم ومشروبها الأوام واحتمائها من البرد.. ناهيك عنا!!

ثمّة أمر آخر، يجب ذكره ويشذّ عن تلك الممارسات الروتينة المعروفة في الطقوس الكامارادية، حدث أثناء إقامتنا بـ(وادي جورجي) أن انتشرت بين الرفاق، عدوى مرض غريب، يصيب الجلد، حتى غدا معظم الرفاق، تكسوهم بثور مقيّحة، سبعة أشخاص، هلكوا من الرفاق والله.. من حسن حظنا - نحن الأربعة - لم يصبنا كثيرا، ما جعل تعافينا منه سريعا، قبل مغادراتنا باتّجاه مدينة (قبرص).

ما كان يقضّ مضجعي، خلال إقامتي بهذا المخيّم الأخير، أن يطالنا ذلك الوباء، فنبقى معدمين، بأجنحتنا المكسورة هنا وبالتالي البقاء وعدم إكمال رحلة الفردوس هذا العام.. هى أكثر المراحل، التى رددتُ فيها عبارتى المعروفة:

[[الرجوع ليس سهلا!! الوصول للفردوس ليس سهلا!! البقاء هنا ليس سهلا!!]].

ثِقْ تماما سيّدي مُخرج فيلم كامارادُ.. وأخالكَ قد آمنتَ لفرط الذكر آنفا وهو الغالب!!.. وما تبقّى إلاّ القليل، لإكمال مسار رحلتي لجزيرة "لامبيدوزا" حيث (الرّجة الكبرى والنهاية..).. الثقة المتبادلة بين السيناريست والمُخرج، مهمة جدّا سيّدي.. وأنا قاطع الشكّ باليقين أنكَ تساوقني الرأي والله..

المهم قضينا – نحن الرفاق الأربعة – في ضيافة رفيقنا (توري) مدّة أسبوعين وبضعة أيام قليلات، لم نشتغل فيها مطلقا، هاتفتُ فيها أمي وأختي مرّة واحدة، كما التفتُّ خلال هذه الفترة الأخيرة، لملعقتي الفضية كثيرا، في تناولي للطعام..

مع غروب شمس خميس الرحيل 29/ 11/ 2012، تحلّلتُ نهائيا عن هويتي الكوليبالية ويسوعيتي الظاهرة وكذا سلسلتي الذهبية وما تحمله.. قلتُ في نفسي يومها (أشكركَ عميقا كوليبالي.. ميغْسي مالي.. براVـــو صليبي..).. رقصتُ لهم في خاطري كالعادة:

(أي صابو.. أي صابو..).

هكذا كان حال الرفاق الثلاثة مع هوياتهم في التخلّي عنها؛ لكنني لا أعتقد أنهم قبروها وتلوا القدّاس عليها مثلي.. كلّ ما في الأمر وهذا هو الراجح، أنهم ثلبوها أو أحرقوها.. فغاب اسم (فيْليبْ) وآبَ محلّه (أليْكسْ) كما انطمس (دومبيلي) ليرتدّ (إدْريسو) وهكذا اسم الرفيق (روكْسْ) ليثوب (كادي). صرّف لنا الرفيق (توري) ما كان عندنا من العملة الجزائرية بما يقابلها من الدرهم المغربي.

خرجت قبل العشاء، أحمل أغراض نجاتي – الجواز والصليب – هناك في الطرف القصيّ من معسكر الوادي، حفرتُ عميقا وأقبرتهما، حيث لا تصل إليهما يد أحد، إيمانا مني بوفائي لهما، نظير جميلهما فيّ..

أثناء تناولنا لعشائِنا الأخير جماعيا، المتمثل في عصيدة (كورْبة كورْبة) كطقس كامارادي معتاد.. حذّر أليْكسْ رفيقه (كادي) من مغبة قهقهته خلال عبورنا لوديان الحدود؛ لأن الليل سمّاع.. رأيتُ أليْكسْ هذه المرّة حازما معه،

أكثر من ذي قبل.. بعدها ودّعنا الرفاق، سالت أنهار دموع الفراق من جميع ليكامارادْ.

الرفيق (توري) سيبقى؛ لكنه كلّف رسولا كامارادیا عارفا بالمسالك، ليوصلنا حتى مداشر (أولادْ قَدّورْ) ومنها سيسلّمنا هذا الأخير لدليل آخر، نقطع معه الطريق راجلين، مهتدين بالسكّة الحديدية، مدّة ساعة ونصف الساعة، حتى تعبنا وتسلّط علينا الجوع، فبلغنا مداشر (سيدي يحي) من التراب الإقليمي للمغرب، دفعنا للأخير أجرة قدرها (300 د م) للواحد، لم تكن عندي مشكلة مادية، لا زال معي باقٍ (2100 د م).

بينما نحن في سيرنا المتستر عن حرّاس الحدود، قال لي رفيقي إدريْسو في صوت خافت:

(يبدو أن ألْيكسْ، لم يرصد هذه المسالك ليلا، حتى يعبرها بنا..).

أجبته هامسا:

(طبعا يا رفيقي، حتى وإن قد سلكها، قبل ثلاث سنوات، فاجتيازه لها ليلاً، لا يجعله مدركاً لها، فضلاً على أنَّ خفر الحدود، يتنقّلون في مواقع رصدهم، الرسول الذي معنا، يعرف موطئ قدمه ليلا بها، كما تعرف ذلك في "G ـــــمْكلي" يا كامارادْ..).

أقول لكَ الصراحة سيّدي.. كنتُ مطمئنا بأننا سننجح في عبورنا للحدود، تسألني كيف ذلك يا مامادو؟

الأمر بسيط مُخرجي جاكْ (إنها ليلة يوم سعدي الجمعة..) ومعي أيضا، خلاصي (G ـــونْكي).

في عُرفنا – نحن المسلمين – وكما أخبرتنا به أمهاتنا أولاً وشيوخ الحيّ ثانياً (يوم الجمعة، يبدأ من عصر الخميس..).

ما تبقّى من حيف الطريق..

حتى سدرة المنتهى

(1)

وجدنا رفيق ألِيْكسْ (دوبالا) في استقبالنا عند أحراش غابة (سيدي معافة) المحاذية لفضاء جامعة (ماحامادو) الأول، بمدينة (قبرص)، مذ دخلنا المخيّم وشاهد (كادي) أحد الرفاق، تحت ضوء الشّموع، ظلّ هذا الأخير، يشهق بالضحك، لم ألمه في هذه الحالة والله سيّدي.. شكل ذلك الرفيق، فعلاً يثير الإهزاق، رأسه أجلح، خرب الفم، أنفه منتفخ كبطيخة، عينه اليمنى حولاء، كأن كلّ عيوب الخلق، التي يخلقها الله في البشر، تجمّعت فيه!!

الرواة من أهل التأريخ الكامارادي، يذكرون أن معسكري (مالطا) و(قبرص) قد بلغا خلال شتاء 2012، ما يربو عن (2500) شخص كامارادي، بين مقيم إقامة عبور أو شبه دائمة..

أقمنا – نحن الرفاق الأربعة– بمخيّم (قبرص) أسبوعا كاملا، هاتفتُ فيه أمي وأختي مرّة واحدة، الغريب في الأمر سيّدي.. أني تذكّرتُ بقرتنا (بَكتو)، منذ مدّة لم أتذكّرها، لستُ أدري كيف نسيتها كلّ هذه المدّة؟ ولا كيف جاء في خيالي حنينها؟!

في نفسي:

(آه يا خلاصي!!).

ههههه قد تقولُ لي "مون باطرونْ".. (لم تتذكّر عشيقتكَ مالِيْنا وحنان راحة جاكلينْ!!).

أقولُ لكَ سيّدي.. (إن لم يأتِ ذكرهما علنا في سردي؛ لكن تأكّد أنهما دائمتان في وجداني والله.. لا سيّما أمها العطوفة "جاكلينْ"، صحيح أن "مالِيْنا" كنتُ أحظى بقربها؛ لكنني اقتنعتُ ببرغماتيتها من أجل حلّ دالة

عددية أو متوالية هندسية فقط.. ورغم هذا كنتُ محسودا على هذه النعمة من طرف الرفاق التلاميذ.. كما ذكرتُ لكَ بداية، إن كنتَ تذكر مولاي..).

في ذلك الصباح البارد، من يوم الجمعة 06/ 12/ 2012، غادرنا المحطّة الطرقية لمدينة (قبرص) - أبقاها الله- قاصدين جزيرة (لامبيدوزا) المحروسة، عبر الطريق البرّي الساحلي رقم (N 16). من حسن بَختنا - خلال هذه الأيام- أن المنظّمات الإنسانية في الجزائر والمغرب، طالبت بتغليب الجانب الإنساني على قضيتنا.. ما جعل مرورنا سلساً بالمعابر الأمنية المغربية.. قناعتي ازدادت إيمانا، بيوم سعدي كذلك.. أنا متأكد أننا، لن نجد متاريس في طريقنا لسدرة منتهانا.. وكان الأمر كذلك والله.. عدا منغّصات وقلاقل جلبها لنا رفيقنا (روكْسْ) مع المسافرين معنا في الحافلة، لفرط افترا ره..

بعد مسيرتنا حوالي (150) كلم من محطّة (قبرص) اجتزنا مدينة ساحلية جميلة، قال لنا رفيقنا أَليْكسْ (إنها مدينة النّاظور..). صحيح.. هذا الاسم، يتردّد كثيرا في القاموس الكامارادي.. لرفيقنا الأخير، حكايات تطول بـ(غابة جبل سَلْوانْ..) تبعد هذه الأخيرة، عن مدينة النّاظور، حوالي (20) كلم، مما رواه أَليْكسْ لرفيقي الدائم إدريْسو (إنه في رحلته السابقة، قبل ثلاث سنوات، عَسْكَر بمخيّمات "جبل سلوان" و"جبل GـــوروGـــو" المطل على مدينة "مليلية"، فأخفق هذا الأخير، في عبور سيَاج المدينة المذكورة، لذلك أعتبره نحساً ومن ثمّة أراد تجريب سيَاج "سَبْتَة" هذه المرّة..).

كما حدّثني رفيقي إدريسو، بحسب ما أخبره رفيقنا أَليْكسْ دائما (إن يوميات ليكاماراذْ، بهذه المخيّمات، تماثل غيرها من المعسكرات الكامارادية..). لذلك حتى وإن أردتَ أن توجّه بطل فيلمكَ (كاماراذْ) نحو هذا المعبر الأخير (مليلية)، فلكَ أن تسقط إقامته بالغابات المجاورة لجبل (GـــوروGـــو) كما الحال في مخيماتنا بـ(طاما).. فقط عليكَ أن تستبدل

الأكواخ الطينية هنالك.. بالمخيمات البلاستيكية، بالإضافة إلى إحلال الشموع بدل المصابيح الكهربائية، غير هذا، أنتَ مطلق في التصوير والتخييل سيّدي (الجنتلمانْ)..

نكون قد قطعنا حوالي (527) كلم، بين (مالطا) وجزيرة (لامبيدوزا)، مروراً بمدن (النّاظور) كما قلنا و(الحُسيْمة) و(تيطْوانْ) وصولاً حتى نقطة النهاية، حيث مدينة (الفنيدق) – عمّرها الله– أو كما يطلق على هذه الأخيرة، بالإسبانية (كاسْتيِّخو)، أراكَ تشوّشتَ ثم ابتسمتَ سيّدي.. هههه كأني بكَ تقولُ (إنكَ فرنسيّ والكلمة إسبانية!!)، أجل.. لعلّكَ تعرف، إنها تعني (القصر الصغير أو القلعة البعيدة مع اضطراب في الروايات، بحسب ما ذكره لنا أحد مواطنيها).

مع عصر اليوم المذكور، وجدنا رفيق ألَيْكسْ ومواطنه (دومْبيا) في انتظارنا، بمدينة (لامبيدوزا) الساحلية الرائعة، الحياة شبه مشلولة.. نكون قد قطعنا بالمجمل وهذا الذي يهمّكَ أخيرا سيّدي.. من ديارنا (G ـــــمْكلي) حتى رؤية حلمنا ومسرح رجّتنا الكبرى.. حوالي (5212) كلم، مسافة طويلة جدّا يا مُلهمي.. قال لنا مُستقبِلنا (إنّ المدينة الأخيرة، تشهد حركة نشطة خلال موسم الاصطياف فقط..).

الجوّ بارد، الأمطار غزيرة، أعيدُ وأكرّر لكَ سيّدي.. (لا نطيق حيفَ هذا الفصل والله..).

سرنا راجلين على الطرف الأيمن للمدينة سيف البحر، أشار المُستقبِل بيده للأفق هناك.. نطق ألَيْكسْ وإدريْسو في آنٍ (هناك حلمنا..) بدتْ لنا مدينة (سَبْتة) كعاشقة ولهانة، تتسلّق المرتفع وتتشبّث بالمنحدر.. بيوت يغلب عليها اللّون الأصفر البرتقالي، أعاد رفيقي إدريْسو وهو يلتفتُ نحوي (إنه الأدورادو مونْ كامارادْ "دودو"..).

من الأمور التي لم أنسَها حين ذُكر اسم (دودو) من طرف رفيقي الوفي، إني تذكّرتُ (دو) وجرّني الحال - كما تعلم - لأمي وبالطبع أختي.. ومن ثمّة (Gـــمكلي)..

[[الحنين للديّار سيّدي.. إذا ما اختلط بحلم الفردوس في الغربة، له طعم لا يوصف والله..]]

المهم توجّه بنا مُرشدنا، نحو المَخرج الغربي لمدينة (لامبيدوزا)، سرنا راجلين كذلك، عبر طريق ملتوي، بين الجبال والغابات، كلما ازددنا توغّلا بهذا الأخير علا.. نكون قطعنا حوالي (6) كلم، عندما انعطف بنا رفيقنا (دومْبيا) يمينا، نزلنا منحدرا به أشجار كثيفة، أكثر ما أقدّر هذه المسافة الأخيرة، بـ(3) كلم، حتى بلغنا أحراشا مع الغروب، رُسمتْ في فضاءاتها، مخيّمات بلاستيكية متراصة، بعضها دُعّمتْ وخيطتْ بنتف بطانيات بالية لرفاق قد مرّوا يوما من هنا..

جغرافيا المكان، تنزرع فيه الكائنات البشرية الكامارادية، من كلّ الجنسيات والقبليات.. أذكر جيّدا، عندما اقتربنا من رفيق نيجيري، قام هذا الأخير ورقص، مردّدا المقولة المشهورة:

(Gـــاي شيكا.. Gـــاي شيكا..).

بعدها مباشرة، التقتْ عيني رفيقي إدريْسو بعينيّ، كأننا قلنا في نفسينا:

(هذا الكامارادي من قبيلة "الهوسا" النيجيرية..).

أقمنا بالمخيّم الأخير، مدّة (26) يوما، هاتفتُ أمي خلال منتصفها، أخبرتني بوفاة عمي (بامْبا)، حزنتُ كثيرا والله.. ضاعف من سقف حرقتي.. موت هذا الأخير - رحمه الله - طبعا، مع ما ارتبط به وجرّني إليه الحال.. من حكاية تذكّر المعينة على خلاصي، سيّدتي ومولاتي البقرة (بَكتو) - قدّس الله سرّها- والطرائف المصاحبة لمهرجان أيام نفخ صورها.. من حِجاجي لأمي وإقناعها في بيعها..

[[الحُزن إذا عُجن بالحنين في الغربة سيّدي.. له وقع خاص والله..]]

أوصتني أمي كثيرا، خلال هذه المكالمة الأخيرة، من عدم نسيان طقوس تميمتي؛ لكنه الإنسان يسهى وينسى والله.. أراكَ تعجّلتَ وأصابكَ ما تلبّسكَ بادئا، من حيضة الرجال.. لا تقلق (مونْ باطرونْ).. نحن على مرمى من ذلك.. يومياتنا في هذا المُعسكر الأخير، كالعادة (كامارادية) خالصة.. ما يصدق عليها في (مالطا) ينطبق على (لامبيدوزا) مع تقدّم الفصل طبعا وما يرافقه من برد وأمطار- لعنهما الله- الاستثناء الوحيد، هو ذلك التحضير البدني، الذي تعهّدنا به أنفسنا - نحن الرفاق قاطبة - قبل اليوم الأعظم بأسبوع أو كما أومأتُ لكَ هذا الأخير، بـ(الرّجة الكبرى..).

كان من بين الرّفاق الكاميرونيين والليبيريين، من تمهّرَ في تدريب القفز والوثب والجري، للمعوّلين على (الألدورادو..) بكيفيات وتقنيات مخصوصة، يأخذون عليها أجرة منا.. من طريف وغريب وصفات هؤلاء المدربين، أنهم ينصحوننا بعد حصص التدريب بأكل لحم القطط والقِردة والله.. مما قاله لنا رئيسهم ذات مرّة (إنه يقوّي شهوة التسلّق ساعة اجتياز الأسلاك..). حتى عرف عنّا بالمداشر المجاورة، كقريتي (بَلْيونَشْ) و(بيوتْ) بـ(القَطّاطين) و(المشّاشين) نسبة لمصطلحي (لَقْطِوَطْ) (أمْشوشْ) الذي يطلق كلّ منهما في لهجة أمازيغ شمال المغرب، على القطط.

أضحى لحم القطط في تلك المخيّمات كالتِّبر والله.. انقرضت سلالته في الغابات والقرى المجاورة، كما غلا سعره، بشكل لا يصدّق!! أما لحم القِردة، فكان ميؤوسا منه، ما دعا أهل تدريبنا، أن نستعيض بلحم القطط بدل الأخيرة، بحكم ندرتها وقلّتها.. حتى وصفه رفيقي إدريْسو (بالتعجيزي..). أنا متأكدٌ سيّدي.. لو حدث هذا الأمر عندكم، لنهضتْ الجمعيات المدافعة عن الحيوان وثارتْ والله..

أكذبُ عليكَ إن قلتُ لكَ سيّدي.. إنّي كنتُ قلقا جدّا جدّا.. كالرفاق، استعدادا لليلة (الرّجة الكبرى)، التوتّر يسكنني فعلاً؛ لكنه أقلّ مما يلبس الرفاق، ما دعا رفيقي إدريْسو، أن يستفهم مني ذلك، طبعا هو لا يدركُ أن

خلاصي في تميمتي (Gـــونْكي) - رحمها الله - بالفعل كنتُ معتدّا بها في عبوري القادم للسِّياج.. بالله عليكَ مُدَبلَج قصّة فردوسي.. كيف لا تثق بها؟ وقد رأيتَ معي سيّدي.. في مواقفي السابقة، حضورها وعدم خيبتها!! لا سيّما (على الصراط..) حيث شارفنا على الموت من انقطاع الماء في صحراء المهربين وبقدرة قادر، تذكّرتها ونجونا بفضلها.. قلِّبْ أوراق (مفكّرتكَ) أو استنطق (داكتيفونكَ)، ستجد ذلك، لا محالة..

اندماجي رفقة إدريْسو، في معسكر المجتمع الإيـVـــواري، بمعية أليْكسْ ومجنونه طبعا، أكسبنا - أنا وإدريْسو - قوّة زائدة، ما كان لنا، أن نتمتّع بها، لو حشرنا أنفسنا في مخيّمات النيجيريين من أمثالنا، مع قلّتها بهذا المكان طبعا.

العالمون بكواليس الهجرة، من أهل الأخبار والدراية.. يجمعون على أن ليلة الاثنين، الموافق لـ31/ 12/ 2012، الموالية لليوم الجديد بعده.. هي أفضل فرصة لاجتياز السِّياج، مما دلّلوا به وجاء في منطق عقلنا صحيحا، أن الحرّاس الإسبانيين، يكونون في هده الليلة سكرى.. ما يجعل اجتيازنا أحسن من فترات العام الأخرى.. صحيح أن أجهزة استشعار الحركة وكاميرات الدوائر التلفزيونية المغلقة للحرس الإسباني مزروعة في كلّ مكان من فضاء السِّياج، بل قد يتفطنون في آخر لحظة؛ لكن صوتنا المرعب أثناء موجة الرّجة الكبرى، يرعبهم كثيرا، بحسب قول مُدرّبنا الكاميروني..

(2)

مع آخر صباحاتنا الكامارادية المعطوبة بقسوة الشتاء والمتعبة بتيه الغربة وشوق الفردوس.. بغابة (بَلْيونَشْ) كان ذلك تدقيقا، قبل تسعة أيام من هذه اللّحظة التي تجمعني بكَ الآن سيّدي المُخرج.. تخفّفنا كثيرا من أمتعتنا، حقائبنا، جالوناتنا، بطانياتنا، ثيابنا مع احتفاظي بالملبوس منها فقط، لم يبقَ معي، غير ملعقتي التذكار هههههه وتميمتي الخلاص طبعا.. حتى تكون سريعا في تسلّقكَ للسِّياج وجريكَ بعده سيّدي.. عليكَ أن تكون قِطّا في التسلّق وقِردا في القفز.. كما يقول لنا مُدرّبنا الكامارادي الكاميروني دائما.

حركة غير عادية تعتمر الغابة، خلال نهارنا الأخير، استعدادات على كلّ الأصعدة، التوتّر هو الغالب على الكائن الكامارادي.. سؤال واحد كان يدور في سماء واقعي وخيالي، طيلة هذا اليوم (هل سأنجح في عبور السِّياج وأكون غدا في مثل هذا الوقت من الضّفة الأخرى؟؟) على أية حال، لا أبعدُ أن يكون هو حال كلّ الرفاق.. أكاد أجزم بذلك سيّدي.. الحالة الوحيدة، التي يختلط فيها عليّ الأمر وأقف حائرا..

[[الرجوع ليس سهلا!! الوصول للفردوس ليس سهلا!!]].

بيد أن الشطر الأخير، من عبارة حيرتي- البقاء هنا ليس سهلا- بدا غائبا في مرحلتي الأخيرة. ثمة أمر آخر، وجدته يشغلني، لا أكاد أرجّح الغلبة فيه لمن تكون؟ أهي لتميمتي الحاضرة؟ أم لعدم مصادفة يوم سعدي الجمعة؟

ساعات يعتورني التفاؤل، عندما أغلّب خلاص (**G**ـــونْكي) بالمقابل يخيّم عليّ التشاؤم، عندما تجدني، أتذكّر عدم مصادفة يوم الرّجة الكبرى لمتوالية سعدي (الجمعة)..

المهم تناولنا غداءنا الأخير بـ(لامبيدوزا) متأخرا، مع الزوال تقريبا، شيخنا الكاميروني في التسلّق، قال لنا (إنه ينفع أفضل من العشاء الخفيف المبكر قبل

الرّجة..) الغداء هو على أيّة حال وكما تقتضي الطقوس الكامارادية دائما، عصيدة (كورْبة كورْبة) مُلتقمة باللّحم الغنمي، لكامل المعسكرين بالمخيّم، سواء الحالمين بالفردوس أو الباقين المُقنَطين لأسباب..!! جمعنا مبلغ (400 د م) للفرد الكامارادي الواحد، إن لم تخب ذاكرتي سيّدي.. يكون قد تبقّى معي لغاية هذا اليوم المشهود، حوالي (800 د م) يدنو منه قليلا، زيادة أو نقصانا..

الجوّ بارد في تلك العشيّة المخيفة، الضباب كثيف، ينذر بيوم عاصف.. فضاءات المخيّمات بالغابة المذكورة، تنزرع فيها حلقات، تشكّل أنموذجا، للمجتمع الإفريقي الراقد خلف الصحراء الكبرى.. سواء في التبعية اللّغوية للمستوطن الغربي أو العِرق القبلي الزنجي.. استعدادات حثيثة، في تسلّق الأشجار أو الوثب.. مع حلول ما قبل المغرب، تجمّعنا كلّنا بساحة غابة (بلْيونشْ) التي يطلّ عليها (جبل موسى).. أكثر ما كنتُ حريصا عليه في هذه الأثناء الحرجة، تميمتي وملعقتي.. لا شيء آخر يعنيني والله..

أكثر ما أقرّب عدد الرفاق ليكاماراد الرّاغبين في عسل الفردوس.. أننا كنا حوالي (750) كامارادي، كان مُدربونا قد أخبرونا في وقت سابق، من توزّع الرفاق في تدفّق الموجة.. بحسب طول القامة، الفَرَعَة في المقدّمة، يليهم من هم أدنى منهم، ما جعل رفيقي إدريْسو، في الدفقة المتقدمة وأنا بالتي تليها.. غاظني ذلك التفريق بيننا والله.. أخيرا قلتُ في نفسي (حظّه المقدّمة وبَختي تميمتي.. وليكن ما يكون؟).

رفيق العمر إدريْسو، شرح لي ذلك، كون الطوال.. يساعدهم الحال في التسلّق، ما يجعل السِّياج الحديدي، ينثني بسرعة، للرفاق الذين خلفهم.. المهم تناولنا عشاء خفيفا غير ساخن زمن أذان عشاء قرية (بيوتْ).. هو على كلّ، لا يعدو خبزا بالجبن وكفّ زيتون أسود، مع ما يمكن أن يكون قد تبقّى أو ستره البعض قصدا لهذه المرحلة، من لحم القطط اليابس، ليكون آخر ما يمضغه المترشّح للسباق.. هكذا نصحنا علية القوم بإيعاز من المُدربين طبعا..

قبل أخذنا أمكنتنا من زمرتينا، أنا ورفيق العمر، ودّع كلّ منا الآخر، على أمل أن يبتسم لنا السّعد، فنلتقي بعد ساعات من الجهة الأخرى للعالم هناك.. أخيرا تركنا الأقدار والمصائر تفعل بنا ما تشاء..

مع اقتراب الحادية عشرة ليلا، اندمج كلّ واحد منا، في كوكبته، دارت محركات حناجرنا، مشكّلة صوتا مُخيفا والله.. اتّجهنا على شكل موجة بشرية، صوب الهدف المقصود، بعدوٍ يشبه ركض رياضة المارثون.. الظلام يعمّ الغابة، الأضواء وقرون الاستشعار وكاميرات الرؤية الليلية، لم نعر لها بالاً، الأكيد المؤكد أن الحرّاس من الضفّة الأخرى ثملى في هذه اللّحظات الفارقة.. كلّما ازددنا اقترابا من السِّياج، ضاعفنا زمجرتنا!! (هوووو.. هيييي..) إيقاع تلك الأصوات، يتماشى مع مدّ خطواتنا..

باقتراب عقارب الساعة، قفل الساعة الصفر.. تكون الدفقة الأولى من الموجة البشرية الكامارادية، التي يغلب على شكلها المورفولوجي الفارع، التقلّص المرعب للأكتاف والعضلات المنقبضة عموما.. قلتُ هذه الأخيرة، تكون قد بلغت منطقة المرمى المنشود.. مشهد الرفاق الطوال وهم يتسلّقون السِّياج، كتسلّق قاطفي ثمار (المونْـG) عندنا.. بدا منظرهم تحت معدّات الرؤية الليلية الكاشفة، كأنهم يزحفون والله.. خلال فترة وصول دفقة موجتنا الثانية، يكون الأمر بدأ يسهل قليلا، لتدلّي أجنحة الأسلاك، كلّ الحركات التي تدرّبنا عليها أثناء التدريب، تجدها مجسّدة وبشكل كبير جدّا.. منها ما يشبه تسلّق القطط في الحيطان، غالبا ما يكون هذا المظهر الأخير، في المرحلة الأولى لعبور السِّياج، تأتي بعدها مرحلة تالية، بين الحواجز الثلاثة المترادفة، ترى فيها حركة أخرى، تشاكل قفز القِردة بين الأشجار والله..

الأصوات العالية للحناجر الكامارادية المتعطّشة للفردوس، تختلط بصيحات الرفاق وأنينهم التوجّعي، أثناء سقوط أحدهم مكسورا، من العلوّ الشاهق لآخر الأسلاك الثلاثة، التي علمتُ فيما بعد، أن طولها حوالي (9) أمتار أو صوت إنسان يتوجّع لغرز سلك حديدي حاد في لحمه.. آه يا

سيّدي!! لن أنسى تلك اللّحظات والله.. وأنا أتسلّق السِّياج الأول في منتصفه، أكون قد تجاوزت الأربعة أمتار، خلال فترة التفاتي لتميميتي (Gـــونْكي) أحسستُ بانصرام خيط مفتول من رقبتي، جرّاء تدلّي هذا الأخير ومصادفته مع سلك ناتيء أمامه، اللّحظة ذاتها شعرتُ بقبضة يد تمسك جاكيتي البُني بقوة من الظهر، تاهت عيني في تلك الأضواء الكاشفة، بين تميمتي (Gـــونْكي) وهي تهوى أسفل السلك جهة الضفّة الأخرى ورؤيتي وجه الجندي المغربي القابض عليّ.. أكذب عليكَ لحظتها سيّدي.. أني لم أشعر بالمرارة والله..

ضاعتْ مُخلّصتي ووصفة أمي من تركة أبي وبذلك ضعتُ معها أيضاً!! فسقطتُ في يد الحرس المغربي!! خلق غفير من أصحاب الدفقة الأولى من الموجة، قد نجوا.. كنتُ أسمع صيحات الفرح وهم يطؤون أرض الفردوس ويقبّلون تربته الذكيّة.. ربما- لستُ جازما- قد تناهى إلى سمعي، رغم ذلك العدد الضخم من الأصوات المحظوظة بالنّجاة، صوت رفيقي إدريْسو وهو يصيح بالفوز المبين..

أجل.. تبيّن لي فيما بعد، عندما ساقونا ليلا، مكبّلين بقيود الخيبة.. نحو إحدى المفرزات الدركية بمدينة (الفنيدق)، أكثر ما قدّرتُ العدد الخائب من رفاقنا ليكامارادْ، حوالي (400) أو (500) كامارادي، فتّشتُ في كلّ الوجوه التائهة، لم أعثر على رفيق عمري.. قلتُ لنفسي (أن يفوز رفيقكِ الوفيّ بالفردوس، كأنكِ فزتِ به..) أخيرا عزّيتُها ثانية، ببقاء تذكار (ملعقتي الحبيبة..) والله..

في صباح اليوم الموالي، الموافق لـ**01/ 01/ 2013**، ههههه أي قبل ملاقاتنا الأولى على طاولة مقهى فندق (Gـــواي) بيوم واحد.. رحّلونا برّا حتى محطّة السكك الحديدية بـ(القصر الصغير) التي تصل مدينة (طنجة) بالميناء المتوسطي، بعدها هجّرونا بالقطار، نحو مدينة (الدار البيضاء) رفقة نفر كبير من الحرّاس، في مقصورات خاصة بنا، قضينا يوما كاملا بهذه الأخيرة،

في أحد المحتشدات، زارتنا خلاله جمعيات مغربية إنسانية، للاطمئنان على معاملتنا وأحوالنا الصحية والمعيشية..

بحسب الأخبار التي جمعناها في السابق، عن رحلات الرفاق للفردوس، أننا سنرحّل عبر مطار (ماحامادو) الخامس بـ(كازا بلانْكا) لا محالة، مع أول طائرة لبلداننا ولما كان الصباح من الغد، تكون الساعة حينها العاشرة صباحا، وجدتُ نفسي مع ثلاثة رفاق من النيجر، نركب سيّارة الأمن وندخل عبر الباب الخلفي للمطار، حيث كانت إجراءات ترحيلنا، قد رتّبتْ في وقت سابق.. وأنا أصعد سلّم الطائرة بملعقتي وفقط.. عائدا مكسورا.. تذكّرتُ سببا آخر، حال بيني وبين الوصول لجنّة النعيم والله.. ذلك المتمثل في عدم مصادفة يوم سعدي ليوم العبور!! هذه هي حكاية رحلة فردوسي (مونْ باطرونْ) والله.. دعني أختمها لكَ برقصة فرحي المعروفة:

(أيْ صابو.. أيْ صابو..).

أخيرا وليس آخرا، لكَ واسع النظر سيّدي..

فردوس الجنوب المنتظر..

(Je Vous Remercie Infiniment Pour Le Cervice Mon Camarade..)[74]

براVــــو "مامادو"..

(ميغْسي) "دودو"..

Super "دو"..

في هذه اللّحظات المسائية، يكون المُخرج السينمائي (جاكْ بلوزْ)، بعد نطقه للعبارات المذكورة، قد أوقف تشغيل داكتيفونه مع وضع قلمه الأزرق السماويّ، على طاولة حانة فندق (تيرمنيسْ) بنيامي، بعد سبعة أيام من اللّقاءات المتتالية، عبر مقاهي وحانات الفنادق المصنّفة بالعاصمة نيامي.

حُمرة كارولنجية باريسية سارّة- لا توصف- تعتمر وجه (الكاميرا مانْ) جاكْ.. إذا كانت فرحة هذا الأخير، يوم عثوره على راوٍ يسرد له حكاية هجرته، قد شبّهها الروّاة من أهل الأخبار والنوادر بحي (Gـــــمْكلي) بــــبهجة سلاماتو، غداة عودة ابنها (مامادو) [سالما] [حيّا] رغم خيبته؛ فإن الحُذّاق من جامعي الطرائف، القاطنين الحي البائس، أسفل أفخم فندق بالعاصمة نيامي، قد شبّهوا فرحة ذلك المُخرج، بعد نهاية مامادو سرد حكايته العجيبة، كبِشر غريق نهر النيجر بالنّجاة، ساعة تشبّثه بآخر لوحة من زورق صيده في يوم عاصف..

ما دمتَ تحكي بهذا الوصف مونْ كامارادْ مامادو وتسردُ بالتفات شديد، لكلّ صغيرة وكبيرة، أثناء مسار رحلتكَ.. أراكَ ماهرا حتى في السيناريستْ

74- أشكرك شكرا لا نهاية له!! على هذه الخدمة رفيقي.

كذلك، لعلّكَ قد أؤمأتَ فيما أخبرتَ من قصّتكَ، كونكَ كنتَ شغوفا بالكاميرا.. يوم ذهابكَ بصحبة رفيقيكَ الوفي إدْريْسو، الغائب الحاضر بقوّة.. لمحل التصوير بمدينة (باريسْ)، بغية استخراج صوَر لكما، للجواز المزوّر، المصنوع بمدينة (برج باجي المختار) الحدودية.. كوني مرافقا دائما للعدسة، فهمتُ من يومها، أنكَ مولع بصاحبتنا (الكاميرا).. حال بين عشقكما الأبديّ، ضيق ذات اليد فقط.. هكذا بدا لي الأمر..

خذْ كاميرتي (**NikonD810**)..

هاك داكتيفوني (**Sony**)..

بعد نسخي لذاكرة ما فيهما من حكايتكَ، بقرص قابل للإزالة..

اعطِ جهاز التسجيل الداكتيفوني، لرفيقيكَ عُسْمانو، المتخلّف عن الرحلة للقَسم الغليظ من أمه (حليْماتو).. كما كلّف رفيقكَ الآخر غاريْكو، الذي تخلّف هو الآخر، لسبب موت والده (صَمَادُو) بالإضاءة.. أما أنتَ فكن مُخرجا، سأسرُّ لكَ بكلّ صغيرة وكبيرة من كواليس الحرفة واحترافية الصنعة، لن أبْخل عليكَ رفيقي مامادو، كما لم تبخل عليّ في رواية حكايتكَ..

لكَ أن تنجز فيلما وثائقيا، عن يوميات الفقر والبؤس هنا بـ(نيامي) على أن أروّج لفيلمكَ التسجيلي بعد إتمامه، على صفحتي الفيسبوكية والتويترية..

بإمكاني أن أغدق عليكَ بالمال مونْ كامارادْ، كما قد توهّمتَ؛ لكنه سيزول مع مرور الأيام.. هناك مثل صيني شهير، يقول (لا تعطِني السمكة، إنما علّمني كيف أصطادها..) أجل.. سأعطيكَ نصيبا من المال، لستر أحوالكَ مع ما يمكن أن تحتاجه خلال التصوير والتنقل من المصاريف..

أضواء مصابيح أسنان دودو وعيونه، تحدثُ فرجة عارمة بوجه!! مما قاله هذا الأخير قُرب افتراقهما:

(لا أدري مونْ باطرونْ كيف أزجي آيات الشكر والامتنان لسيادتكَ المُبجّلة، على هذه الرعاية الكريمة، التي أحطتني بها..).

المُخرج يقول أخيرا:

(متى انهيتَ عملكَ من التصوير والتسجيل والمونتاج، الذي سوف أدرّبكَ عليه بعد قليل.. لا تتردّد لحظة، في الاستشارة عند كلّ عقبة قد تقف أمامكَ أثناء سير العمل.. هاتفي عندكَ مع بريدي الإلكتروني وحسابي الفيسبوكي.. بعدها سأنشر منشورا قصيرا على تويتر ومفصّلا على الفيسبوك، أروّج فيه لعملكَ رفيقي..).

بعد عام من عمل مامادو مع فرقته التقنية - عُسْمانو وغاريْكو- في إنجاز فيلم وثائقي حول الفقر بـ(نيامي) عاصمة النيجر، أطلق هذا الأخير على فيلمه، اسم (الوجه الآخر للحياة خلف الصحراء الكبرى..) كان ذلك تحديديا بتاريخ الأربعاء **09/ 01/ 2013**، تواصل مامادو وسائطيا بالميديا مع المُخرج السينمائي (جاكْ بلوزْ)، ليخبره باكتمال تصوير وإنتاج الفيلم المتّفق عليه.

فحص المُخرج المُحترف عمل المُخرج الهاوي.. تناقشا في التعديلات، التي يكون المُخرج النيجيري (مامادو) قد عدّلها طبقا لتوجيهات رفيقه المُحترف..

نهاية بعث المُخرج الجنوبي للمُخرج الشمالي، نسخة من فيلمه التسجيلي الإنساني.

بعد ثلاثة أيام من التشاور والتنقيح بينهما وسائطيا وبتاريخ الأحد **13/ 01/ 2013**، في تلك الليّلة الباريسية الباردة الماطرة، نشر المُخرج الفرنسي (جاكْ بلوزْ) على شبكة التواصل الاجتماعي، بصفحتيه الفيسبوكية والتوترية

منشورا، يشيد فيه بتجربة كامارادْ (مامادو) وفيلمه الوثائقي المذكور، هذا نصّ المنشور من صيحة الفيسبوك:

[[أيها الشمال القانط من الجنس الكامارادي الزاحف..

أيها الجنوب العربي، المتذمّر من عبور شعب ليكامارادْ..

لا حلّ لنا من أخطبوط الهجرة.. إلا بخلق فرص نشاط، تثبّت هؤلاء الأفارقة المتعبين بخيبات الحياة وانكساراتها ببلدانهم..

لن ولن نوقف هذا التدفّق المريب، إلاّ بفعل ذلك..

شاب نيجيري واعد.. لاقتني به الصدف، هو يحلم بالشمال حيث النعيم والخلاص وأنا أحلم بالجنوب حيث الحرمان والخلاص.. مفارقة غريبة جمعتني به!!

اسمه "مامادو"، كلّه حيوية ونشاط.. عنده حكيٌ عفوي عجيب ووصف رهيب.. له في درج حكيِه متوالية لطيفة، تتكرّر دائما، الغريب أن في معاودة إيقاعها رقّة وحلاوة؛ هي (والله..) مُذْ لقيته في اليوم الأول، بدتْ لي استعداداته الفطرية، أنه سيذهب بعيدا في أمر الإخراج السينمائي، لو وجدَ الرعاية والدعم اللّوجيستيكي..

أنتج هذا الأخير، فيلما وثائقيا عن مظاهر الحرمان لدى الشعوب البائسة، التي ترقد وراء الصحراء الكبرى.. أعطى لفيلمه التراجيدي، عنوانا (الوجه الآخر للحياة خلف الصحراء الكبرى)..]].

الصورة الملحقة مع المنشور الفيسبوكي:



الساعة 22:15

رقم قياسي من الإعجابات، حطّمته صيحة هذا المنشور الفيسبوكي، فضلا عن تغريدة تويتر، بصفحتي المُخرج الفرنسي (جاكْ بلوزْ)، كما بلغت التعليقات نسبة هائلة جدّا، ثمّنتْ وتفاعلت مع الفكرة.. ناهيك عن المشاركة الكثيفة للمنشور، من طرف الرفاق الفيسبوكين والتوترين للمُخرج المذكور.

S e d d i k   H a d j   A h m e d



الصدّيق حاج أحمد المعروف باسم (الزيواني)، روائي وأكاديمي جزائري أستاذ اللسانيات بجامعة أدرار - الجزائر من مؤلفاته:

- التاريخ الثقافي لإقليم توات- دار الحبر - الجزائر - ٢٠١١.
- الشيخ محمد بن بادي الكنتي - حياته و آثاره - دار الغرب - وهران الجزائر-٢٠١٢.
- رواية مملكة الزيوان - ط١ دار فيسيرا - الجزائر-٢٠١٣ // ط٢ دار فضاءات - عمّان - الأردن -٢٠١٥.

في رواية كاماراد - رفيق الحيف والضياع - ما يستحقّ القراءة المتأنية، بالنظر إلى الأجواء الجديدة، التي يأرّ عليها الروائي الصدّيق حاج أحمد. إننا أمام عوالم يتداخل فيها الواقعي بالسحري والخرافي والأسطوري، الملمح العام الذي يسم بعض البلدان الأفريقية التي تتمازج فيها الأشياء مكوّنة ما يشبه الحقيقة الوهمية.

لقد بذل الكاتب جهدا استثنائيا، في التنقيب عن العادات والحالات الثقافية والمعجم والمعتقدات المتواترة، ليقدّم صورة ذات أهمية متقدّمة، بالعودة إلى قلّة النصوص التي اهتمّت بالموضوع في قارة منهكة ومنسية في هامش الوقت. كما يكشف النص عن تفاصيل دقيقة في قوالب فنية راقية، وبطاقة سردية متميزة، لأنها تمثّلت الأجواء والشخصيات والكلمة والعبارة والحالة.

إنها رحلة البحث عن الذات هربا منها أو محاولة القبض على مستقبل كقوس قزح.. قريب ومستحيل.. هجرة من بلدان لا توفّر لأبنائها سوى الخراب والكذب والحطام والموت. رحلة إلى آفاق تصبح فيها الشخصية ضائعة كغيمة الصيف، لا هي إلى البرّ ولا هي إلى البحر، كحال من لا يملك موطنا يحمل مواصفات الأوطان. ذلك تماما ما ركّزت عليه الرواية في التعامل مع موضوع الهجرة غير الشرعية، بمعرفة كبيرة ووعي يستحقّ التثمين، من حيث إنها أحاطت بالعلّة والتفاصيل والمسارات والنتائج.

رواية (كاماراد) بحث مركّب وجهد يتوفّر على حكمة وعبقرية. قد تكون الطرائق السردية عاملا أساسيا من عوامل انتصاره. نحن في مواجهة عمل فنّي مهمّ، لأنه عدل عن المتواتر، من أجل تحقيق هويّة سردية لها سماتها الخاصة بها، كتجربة مستقلّة بذاتها.

نص جدير بالقراءة، لأنه يقدّم نفسه كعمل جادّ أسّس على جهد ومعرفة بالواقع والتاريخ والنواميس الأفريقية وبالشكل السردي المناسب لموضوع قليل الانتشار في المنجز الأدبي العربي الرّاهن.

السعيد بوطاجين

ناقد أكاديمي جزائري



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com



9 789957 308025